

The Islamic University–Gaza
Research and Postgraduate Affairs
Faculty of Arts
PhD of Arabic Language



الجامعة الإسلامية- غزة
شئون البحث العلمي والدراسات العليا
كلية الآداب
دكتوراة لغة عربية

اتجاهات المقالة عند محمد حسين هيكل
دراسة أدبية تحليلية نقدية

Trends of Mohamed HussienHycal'sArticles
A literary, Analytic &Critical Study

إعدادُ الباحثِ

أحمد موسى محمد زعرب

إشرافُ

الأستاذ الدكتور

يوسف شحدة الكحلوت

الأستاذ الدكتور

كمال أحمد غنيم

قُدِّمَ هَذَا البَحْثُ إِسْتِكْمَالًا لِمَتَطَلِبَاتِ الحُصُولِ عَلَى دَرَجَةِ الدُّكْتُورَاةِ
فِي بَرْنَامِجِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ بِكُلِّيَّةِ الآدَابِ فِي الجَامِعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ بِغَزَّةِ

أغسطس - 2017م / ذي القعدة - 1438هـ

إقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

اتجاهات المقالة عند محمد حسين هيكل

دراسة أدبية تحليلية نقدية

Trends of Mohamed Hussien Hycal's Articles A literary, Analytic & Critical Study

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأنّ هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين؛ لنيل درجة، أو لقب علمي، أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	أحمد موسى محمد زعرب	اسم الطالب:
Signature:		التوقيع:
:Date	2017/08/01	التاريخ:



هاتف داخلي 1150

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

الرقم: ج س غ /35/

التاريخ: 2017/9/26م

نتيجة الحكم على أطروحة دكتوراة

بناءً على موافقة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ احمد موسى محمد زعرب لنيل درجة الدكتوراة في كلية الآداب/ قسم اللغة العربية، وموضوعها:

اتجاهات المقالة عند محمد حسين هيكل - دراسة أدبية تحليلية نقدية

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الثلاثاء 06 محرم 1438هـ، الموافق 2017/9/26م الساعة العاشرة صباحاً في قاعة مؤتمرات مبنى طيبة، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

.....	مشرفاً و رئيساً	أ.د. كمال أحمد غنيم
.....	مشرفاً	أ.د. يوسف شحادة الكحلوت
.....	مناقشاً داخلياً	أ.د. نبيل خالد أبو علي
.....	مناقشاً داخلياً	أ.د. محمد رمضان البع
.....	مناقشاً خارجياً	أ.د. موسى ابراهيم أبو دقة
.....	مناقشاً خارجياً	د. علي يوسف اليعقوبي

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الدكتوراة في كلية الآداب/قسم اللغة العربية.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

عميد البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. مازن اسماعيل هنية



ملخص الرسالة

هدف الدراسة:

دراسة بُنية المقالة لدى هيكل، وبيان دوره في النهضة الأدبية، والفكرية، والصحفية في مصر، والتعرف على آثار نقده في تكوين الاتجاهات الأدبية وتطورها.

عينة الدراسة:

مقالات محمد حسين هيكل (ستة أجزاء).

منهج الدراسة:

اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي.

أهم نتائج الدراسة:

جمع هيكل بين الثقافة العربية والغربية، واستخدم المنهج المتكامل في مؤلفاته، وله دور في تطوير الصحافة المصرية، وكان يميل إلى النقد أكثر من ميله إلى الشعر، جمع آرائه النقدية في كتابين ألفهما: (في أوقات الفراغ، وثورة الأدب).

أهم توصيات الدراسة:

- 1- عقد موازنات نقدية بين هيكل وأقرانه من النقاد.
- 2- تناول فكر هيكل الإسلامي والسياسي بالدراسة.
- 3- دراسة الأخطاء اللغوية في مقالات محمد حسين هيكل.

Abstract

Study aim:

Studying the structure of the article in the works of Hycal, and highlighting his role in the literary, intellectual, and press development in Egypt. This is in addition to identifying the effects of his criticisms in the formation and evolution of the literary trends.

Study sample:

The articles of Mohammed Hussein Hycal (six parts).

Study approach:

The researcher adopted the descriptive analytical method.

Main results of the study:

Hycal possessed both the Arabic and Western cultures. He used the integrated approach in his works and played a significant role in the development of the Egyptian press. He tended to criticize more than writing poetry, and collected his critical views in two of his books: In Leisure Times, and Revolution of Literature.

Main recommendations of the study:

1. Holding critical balances between Haykal stuctures and others.
2. Adresing Islamic and political ideology in Haykals articles.
3. Studying linguistical errors in Haykal articles.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ

وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾

[النمل: 19]

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

الإهداء

- إلى أرواح: والدي، ووالدتي، وأخي رشيد الأحباب رحمهم الله، الذين تركوا هذه الدنيا منذ سنوات عديدة.
- إلى إخواني وأخواتي وزوجة أبي الأعتزاء حفظهم الله.
- إلى زوجتي وأبنائي وبناتي وفاءً ومحبة.
- إلى أساتذتي وكل من له فضل في مساعدتي لإنجاز هذا البحث.
- إلى أقاربي وأصدقائي وزملائي الكرام.
- إلى الشهداء الكرام والأسرى الأبطال والجرحى الأبرار.
- إلى كل فلسطيني مخلص، ومسلم موحد.

أهدي هذا البحث.

شكرٌ وتقديرٌ

يزجي الباحث إلى أساتذته الأفاضل: الأستاذ الدكتور/ كمال أحمد غنيم، والأستاذ الدكتور/ يوسف شحدة الكلوت أعطر التحيات، وأجزل الشكر، وأجل الثناء على ما أوليانيه به من كرم الإشراف على بحثه، وتذليل كل ما اعترضه من صعاب أثناء كتابة البحث، ويقر أنه أفاد كثيرًا من توجيهاتهما، فجازاهما الله عنه وعن طلبة العلم خير الجزاء، سائلًا الله- عز وجل- أن يحفظهما ذخراً للدراسات الأدبية.

كما يتوجه الباحث بخالص شكره، وعظيم تقديره للأستاذين الجليلين المناقشين الداخليين:

الأستاذ الدكتور/ نبيل خالد أبو علي ،،،،حفظه الله.
والأستاذ الدكتور/ محمد رمضان البع ،،،،حفظه الله.
وللأستاذين الكريمين المناقشين الخارجيين:
الأستاذ الدكتور/ موسى إبراهيم أبو دقة ،،،،حفظه الله.
والأستاذ الدكتور/ علي يوسف اليعقوبي ،،،،حفظه الله.

على ما تجشموا من عناء قراءة الرسالة ومناقشتهم، كما ويرجو الباحث أن يصل هذا البحث إلى أعلى درجة من الكمال بفضل توجيهاتهم وفيض علمهم.

كما يتقدم بالشكر الخالص لأخيه/ الأستاذ عفيفي محمد المنيراوي على ما بذله من جهد في طباعة هذا البحث وتنسيقه وإخراجه بهذا الشكل الفني.

الباحث

أحمد موسى محمد زعرب

فهرس المحتويات

إقرار	أ
نتيجة الحكم	ب
ملخص الرسالة	ت
Abstract	ث
اقتباس	ج
الإهداء	ح
شكرٌ وتقديرٌ	خ
فهرس المحتويات	د
مقدمة البحث	1
أهمية البحث وأسباب اختيار عنوانه:	1
أهداف البحث:	2
مادة الدراسة:	2
الصعوبات التي واجهها الباحث:	3
طبيعة موضوع البحث:	3
منهج البحث:	3
الدراسات السابقة:	3
حياة محمد حسين هيكل وأثاره	9
مولده ونشأته:	9
تعليمه:	10
ثقافته:	11
فكره:	13
منهج هيكل في كتابة السيرة والتاريخ الإسلامي: -	22

23	مؤلفات هيكل:
30	أهم المحطات في حياة هيكل:
31	هيكل والصحافة:
33	هيكل والوزارة:
34	هيكل والإصلاح الاجتماعي:
34	ملاح شخصية هيكل:
36	وفاة هيكل:
37	فن المقالة:
37	تعريف المقالة:
39	المقالة في الأدب العربي والأدب الغربي: النشأة والتطور
41	وظيفة فن المقالة:
43	أنواع المقالة:
45	خصائص أدب المقالة:
47	أدب المقالة بين الشكل والمضمون:
48	ثقافة كاتب المقالة:
49	شخصية كاتب المقالة:
50	المقالة في الأدب العربي الحديث:
52	الرؤية الفنية في المقالة العربية الحديثة:
54	تطور المقالة والصحافة:
55	أعلام فن المقالة في العصر الحديث:
57	المقالة العربية الحديثة والاتصال بالجمهور
57	تأثير المقالة في نفوس القراء:
58	علاقة المقالة بالمقامة:
59	علاقة المقالة بالخطبة والرسالة:

62	الفصل الأول: مقالات هيكل وموضوعاتها
62	أولاً- المقالات الفكرية:
85	ثانياً- المقالات السياسية:
95	ثالثاً- المقالات الاجتماعية:
108	رابعاً- المقالات الذاتية:
116	خامساً- المقالات الأدبية:
148	الفصل الثاني: دراسة بناء المقالة عند هيكل
149	البناء الذاتي:
149	أولاً- طبيعة المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل:
151	ثانياً- موضوعات المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل:
154	ثالثاً- عناصر المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل:
157	رابعاً- خصائص المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل:
162	خامساً- ملامح شخصية هيكل من خلال مقالاته ذات البناء الذاتي:
165	البناء الموضوعي:
165	أولاً- طبيعة البناء الموضوعي في مقالات هيكل:
171	ثانياً- موضوعات المقالة ذات البناء الموضوعي عند هيكل:
173	ثالثاً- عناصر المقالة ذات البناء الموضوعي عند هيكل:
183	رابعاً- خصائص المقالة ذات البناء الموضوعي عند هيكل:
186	خامساً- ملامح شخصية هيكل من خلال مقالاته ذات البناء الموضوعي:
188	البناء الموضوعي الذاتي:
189	أولاً- طبيعة المقالة ذات البناء الموضوعي الذاتي عند هيكل:
191	ثانياً- موضوعات المقالة ذات البناء الموضوعي الذاتي عند هيكل:
193	ثالثاً- عناصر المقالة ذات البناء الموضوعي الذاتي عند هيكل:
200	رابعاً- خصائص المقالة ذات البناء الموضوعي الذاتي عند هيكل:

205.....	خامساً- ملامح شخصية هيكل من خلال مقالاته ذات البناء الموضوعي الذاتي:
211	الفصل الثالث: جماليات المقالة عند هيكل
212.....	أولاً- اللغة:
218.....	ثانياً- الأسلوب:
227.....	ثالثاً- الخيال في مقالات هيكل:
235.....	رابعاً- البديع في مقالات هيكل:
242.....	خامساً- التناص:
251	الفصل الرابع: النقد عند هيكل
252.....	أولاً- طبيعة النقد ومهمته عند هيكل:
256.....	ثانياً- القضايا النقدية عند هيكل:
276.....	ثالثاً- مقاييس هيكل النقدية:
281.....	رابعاً- نقد التراث عند هيكل:
294.....	خامساً- هيكل بين النقد العربي والنقد الغربي:
307.....	سادساً- النقد النظري والنقد التطبيقي عند هيكل:
328	الفصل الخامس: مقالات هيكل في ميزان النقد
329.....	أولاً- فكر هيكل بين التطور والتغيير
332.....	ثانياً- مظاهر التجديد في مقالات هيكل:
337.....	ثالثاً- رأي النقاد في مقالات هيكل:
342.....	رابعاً- آراء هيكل النقدية بين القبول والرفض:
347.....	خامساً- مقالات هيكل في نظر هيكل:
353.....	سادساً- رأي الباحث في مقالات هيكل:
357	الخاتمة والنتائج
359.....	أهم توصيات الدراسة:
361	المصادر والمراجع

مقدمة البحث

الحمد لله أولاً وآخراً، والشكر له دائماً وأبداً على نعمه وآلائه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المعلم الأول، والرسول الأكرم، والقائد الأعظم.
أما بعد:

لما كانت المقالة الأدبية أوسع الفنون انتشاراً لمواكبتها عصر السرعة، والوصول إلى الهدف بأقصر الطرق، وأقل الأوقات، وعندما بحث الكتاب عن فن يدور معهم أينما داروا، ويرافقهم حيثما ساروا، ويشاركهم آمالهم وآلامهم، وجدّهم وهزلهم، ويعبّر عن نشاطهم العقلي، وعما يختلج في صدورهم، فكانت المقالة.

إن كتابة المقالة لا تقل أهمية عن نظم الشعر والفنون الأدبية الأخرى، فموضوعاتها تعالج جميع القضايا التي تهتم الأمم والشعوب والمجتمعات على مختلف أنواعها، وهي فن قريب من العقول والقلوب لأنها أقل الفنون تعقيداً، وأشدّها وضوحاً، وأكثرها استيعاباً لشتى الموضوعات، وأيسرها مرونة على الكاتب، وأسهلها فهماً على القارئ.

إنّ المقالة تحوي الأفكار والآراء، والحقائق والمعارف، والنظريات والتأملات، والتصورات والمشاهد، والتجارب والخبرات، والمشاعر والأحاسيس، فلا غرو أن نجد من سماتها صحة المعلومة، وعمق الفكرة ووضوح التعبير، ودقة التركيز وتعدد الأغراض، والجدة في الطرح والعرض، والإفهام، والإقناع، والإمتاع.

أهمية البحث وأسباب اختيار عنوانه:

تتجه معظم الدراسات الأدبية نحو الشعر بشكل أكبر، أما الفنون النثرية فإن درجة تناولها أقل، والإقبال على دراستها متفاوتة، ونخص بالذكر المقالة كجنس منها بحاجة إلى دراسات مستفيضة، حتى تستوفي حقها، وتلحق بما سبقها، ومن أسباب اختيار البحث:

1- أن محاور البحث تتناول مقالات محمد حسين هيكل بالدراسة، ذلك لأنه جمع فيها بين الأدب والنقد والمقالة الصحفية والفكر الإسلامي والعمل السياسي، علاوة على ثقافته الواسعة التي شملت الثقافة العربية والثقافة الغربية، فهيكلي موسوعي الثقافة، فهو مفكر، وأديب، وناقد، ودراسة مقالاته من خلال هذه الرؤية هي دراسة لتاريخ الفكر والأدب الحديث لفترة تقارب نصف قرن (1912-1956م).

- 2- من خلال مطالعة الباحث لمقالات محمد حسين هيكل ومؤلفاته، فقد وجد المقالة عنده غزيرة متنوعة المجالات، وهي مجموعة في ستة أجزاء، وإعجاب الباحث بهذه المقالات أثار في نفسه الرغبة في تناولها كدراسة مقترحة لاستكمال الحصول على درجة الدكتوراة.
- 3- اختار الباحث العصر الحديث منطاً لدراسته؛ لأن المقالة ازدهرت فيه أكثر ما يكون، تفاعلاً مع وجود المطابع، وانتشار الصحف والمجلات.

أهداف البحث:

ويهدف البحث إلى الآتي:

- 1- دراسة بنية المقالة واتجاهاتها لدى هيكل.
- 2- بيان دور هيكل من خلال مقالاته- في النهضة الأدبية والفكرية والصحفية التي مرت بها مصر في النصف الأول من القرن العشرين.
- 3- التعرف على آراء هيكل النقدية، وأثرها في تكوين الاتجاهات الأدبية وتطورها.

مادة الدراسة:

سيتناول الباحث بالدراسة (مقالات محمد حسين هيكل) التي قام بجمعها ابنه (أحمد) في ستة أجزاء، والتي طبعت تحت رعاية المجلس الأعلى للثقافة بمطبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، وأشرفت على طباعتها الهيئة المصرية العامة لدار الكتب، والوثائق القومية -إدارة الشؤون الفنية-، وكانت الطبعة الأولى في القاهرة عام 2006م، وجاءت على النحو التالي:

الجزء الأول: في الأدب العربي.

الجزء الثاني: في الأدب والفن.

الجزء الثالث: في السياسة والديمقراطية.

الجزء الرابع: في الإصلاح الاجتماعي والثقافي.

الجزء الخامس: مصر والحياة الدولية.

الجزء السادس: ذكريات وعبر.

وقد تناولت هذه المقالات الموضوعات التالية: الأدب والنقد واللغة، والفن والجمال، والسياسة الإقليمية والدولية، والإصلاح الاجتماعي، والثقافة، والدين، والقضية الفلسطينية، والقضايا الإنسانية، والتاريخ، والصحافة، والوطن، والحرية والديمقراطية، والعلم والإيمان، والعالم العربي والغربي، والحرب والسلام، والحياة والموت، والعادات، والحضارة والمدنية، والتعليم والتربية، والشخصيات، والشأن المصري، ونظام الحكم، والرأي العام، والمرأة، والأخلاق، والترجمة، والقانون، والفلسفة.

الصعوبات التي واجهها الباحث:

وجد الباحث صعوبة في توفير كثير من المراجع بسبب الحصار المفروض على غزة، إلا أنه ضاعف مجهوداته حتى تغلب على ذلك، وكذلك وجد صعوبة في الدراسة بسبب انقطاع التيار الكهربائي المستمر.

طبيعة موضوع البحث:

البحث دراسة أدبية نقدية لمقالات محمد حسين هيكل المتنوعة، مبنية على أسس علمية، حيث يركز البحث على المقالة كفن أدبي، ومن خلال هذه الدراسة يتطلع الباحث إلى الوصول إلى رسم صورة واضحة المعالم لشخصية هيكل من خلال فكره وثقافته وقيمه، والتعرف على الخصائص الفنية لمقالاته، وإبراز ما تميزت به في مجال الأدب والنقد.

منهج البحث:

اعتمد الباحث في دراسته على المنهج الوصفي التحليلي الذي قام على تناول مقالات هيكل كمادة علمية خضعت للدراسة الأدبية والنقدية.

الدراسات السابقة:

- اجتهد الباحث في البحث عن الدراسات السابقة، ولم يعثر إلا على:
 - دراسة لأحد كتب هيكل تحت عنوان: (الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل دراسة نصية)، وهي رسالة ماجستير للباحث: عبد الحميد حميد حسين أبو العلا، وقد تمت مناقشة هذه الرسالة بتاريخ 27-5-2012م في إحدى الجامعات اليمنية.
 - ودراسة أخرى بعنوان: (محمد حسين هيكل وشلبي النعماني وكتاباتهما حول السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، دراسة نقدية مقارنة)، وهي رسالة دكتوراة للباحث شاهد عزيز، ونوقشت بجامعة غلام شاه باد شاه راجوري، جامو وكشمير (الهند).

- ودراسة بعنوان: (هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث)، وهي رسالة ماجستير للباحث طه وادي، وقد تم مناقشة هذه الرسالة في يونيو 1965م في كلية الآداب بجامعة القاهرة.
 - ودراسة بعنوان: (الآراء التربوية في كتابات محمد حسين هيكل) دراسة تحليلية، وهي رسالة ماجستير للباحثة نجاح رحومة أحمد حسين 1997م (جامعة عين شمس، كلية البنات، أصول تربوية).
 - ودراسة بعنوان: (محمد حسين هيكل والدعوة إلى الأدب القومي المصري حتى عام 1932م)، وهي رسالة ماجستير للباحثة نجاح عطية (الجامعة الأمريكية، بيروت، 1993).
- ويتضح من خلال استعراض تلك الأبحاث أنها لم تتناول أعمال محمد حسين هيكل الكاملة في أدب المقالة؛ لذا يعتقد الباحث أن هذه الدراسة ستفرد بتقديم الجديد في هذا المجال.
- هذا وقد اختار الباحث عنواناً لهذا البحث: (اتجاهات المقالة عند محمد حسين هيكل دراسة أدبية تحليلية نقدية)، وقام بتقسيمه بعد التمهيد إلى خمسة فصول تبعثها خاتمة فالمصادر والمراجع.

وقد تناول الباحث في التمهيد موضوعين أساسيين هما:

- 1- حياة محمد حسين هيكل وآثاره: وقد ذكر فيه الباحث مولد هيكل، ونشأته، وتعليمه، وثقافته، وفكره، وتأثره بالثقافة العربية والإسلامية، والأدب العربي، والفكر الفرعوني والقومي، وبعض الشخصيات المصرية، ثم تحدث عن منهجه في كتابة السيرة والتاريخ الإسلامي، ثم ذكر مؤلفاته وأهم المحطات في حياته، وتطرق إلى عمله كصحفي ووزيراً للتعليم ودوره في الإصلاح الاجتماعي، ثم بين ملامح شخصيته، وأخيراً تحدث عن وفاته.
- 2- فن المقالة: وعرف فيها الباحث المقالة لغةً واصطلاحاً، ثم تحدث عنها في الأدب العربي والغربي، وبين وظيفتها وأنواعها، وتطرق إلى خصائصها، وفرق بينها وبين المقامة، ثم أفرد الحديث عن شكلها ومضمونها وثقافة كاتبها وشخصيته، ثم تحدث عنها في الأدب العربي الحديث، وعن الرؤية الفنية فيها والتطور المقالي والصحافة، وأعلام فن المقالة في العصر الحديث، واتصاله بالجمهور، ووضح علاقة المقالة بالخطبة والرسالة والمقامة.

ودار الجهد في الفصل الأول على مقالات هيكل وموضوعاتها:

- 1- المقالات الفكرية: وتحدث فيها الباحث عن موقف هيكل من الفكر الغربي، والفكر الفرعوني، والفكر القومي، والفكر الإسلامي، ثم نظرته إلى الديمقراطية، والحضارة، والحياة.

2- **المقالات السياسية:** وتحدث فيها عن الصراع العربي الإسرائيلي، وعن هيكل والسياسة العربية والدولية.

3- **المقالات الاجتماعية:** ودار الحديث فيها عن الإصلاح الاجتماعي، والاضطراب الاجتماعي، وعن التحديات التي تواجهها الحياة الاجتماعية في مصر وهي: هجرة الريف إلى المدينة، وزيادة عدد السكان، والفقر، وانحلال رابطة الأسرة، ومشاكل التعليم.

4- **المقالات الذاتية:** وتحدث فيها هيكل عن نفسه وذكرياته، وكشف فيها عن أمور مهمة في حياة المصريين، واحتوت على كثير من المعلومات والأحداث التي تُعد جزءًا من تاريخ مصر، كما تحدث فيها عن زيارته إلى كثير من البلاد، وتعرض فيها إلى كثير من تجاربه المتنوعة في الحياة، وذكر آراءه الخاصة في مسائل تتعلق بالدين والدنيا.

5- **المقالات الأدبية:** وتحدث فيها الباحث عن تناول هيكل للشعر في العصرين الجاهلي والإسلامي، وللشعراء المصريين: البهاء زهير، والبارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، كما تحدث عن النثر وفنونه، وطه حسين في كتابه (في الأدب الجاهلي)، وعن جورجي زيدان، وعن اللغة والأسلوب.

6- **المقالات الدينية:** وتناول فيها الحديث عن القيم والمناسبات الدينية، وعن رسالة الإسلام الخالدة، ومبادئه السامية، وعن العبادات، والزهد، والإسلام والحضارة، والسيرة النبوية.

وجاء الفصل الثاني ليتناول بنية المقالة عند هيكل:

1- **البناء الموضوعي:** بين الباحث طبيعة هذا البناء عند هيكل، فذكر أنه واضح ودقيق يخاطب العقل ويميل إلى الحيادية والموضوعية، ويعتمد على الملاحظة والتجربة والوصف الكمي، ثم تطرق إلى موضوعاته، وذكر خصائصه، وملامح شخصية هيكل من خلاله.

2- **البناء الذاتي:** وركز فيه الباحث على طبيعته، وموضوعاته التي كان فيها للأدب والفن الحظ الأكبر، كما ذكر خصائصه وملامح شخصية هيكل فيه.

3- **البناء الموضوعي الذاتي:** وقد تحدث الباحث فيه عن طبيعته؛ حيث كانت موضوعاته متنوعة، شملت قضايا علمية، وإنسانية، وسياسية، وتمنى خلالها لمصر الاستقلال والحرية وحياة مدنية حضارية، ثم دار الحديث حول خصائصه وملامح شخصية هيكل فيها.

أما الفصل الثالث فقد عالج جماليات المقالة عند هيكل:

1- **اللغة:** أدرك هيكل أهمية اللغة في الحياة وبناء الحضارة، فدعى إلى تطويرها، ورأى أن قوة التعبير تحتاج إلى ثروة لغوية، وأن اللغة العامية لا تصلح للكتابة، وقد بلغ مرحلة الإبداع اللغوي بعد دراسته للثقافة الإسلامية، حيث اتسمت لغته بالسهولة والسلامة والإيقان، والبعث عن الألفاظ الغريبة.

2- **الأسلوب:** تحققت في أسلوب هيكل عناصر البناء الفني، وقد حاول أن ينوع فيه حسب طبيعة الموضوع، وكان أسلوبه ينبض بالحس الإسلامي، ويتسم بقوة البيان، والتأثر بالأسلوب القرآني، والاستطراد أحياناً.

3- **الخيال في مقالات هيكل:** يرى هيكل أن التصوير الصادق هو الذي يعبر عن العواطف والآلام والآمال، والتصوير الجميل هو الذي يحبب الحياة إلى الناس، ويدعو إلى التمتع بجمالها، وقد ركز على التصوير الكلي أكثر من التصوير الجزئي، وكان رائعاً في التصوير، دقيقاً في الوصف.

4- **البديع في مقالات هيكل:** نجح هيكل في استخدام براعة الاستهلال إلى حد ما، ورأى أن حظ المحسنات اللفظية وقيمتها في الكتابة هو الأقل، وأن الحظ الأكبر يكون للأفكار والمعاني.

5- **التناص:** جاء التناص في مقالات هيكل متواضعاً ونادراً، لأنه كمفهوم ومصطلح عُرف بعد وفاته بعشر سنين، وتناول الباحث التناص في مقالات هيكل من أربعة زوايا: الدينية، والتاريخية، والأدبية، والأسطورية.

وفي الفصل الرابع تناول الباحث موضوع النقد عند هيكل:

1- **طبيعة النقد ومهمته عند هيكل:** بنى هيكل نقده الأدبي على أساس الموضوعية الكاملة، وفضل النقد الموضوعي على النقد الذاتي، ومارس النقد النظري والتطبيقي في الشعر والمسرح والقصة، ورأى أن من مهام النقد تكوين ثقافة قومية تجتمع عليها الأمة، والتربية العامة للجمهور، وتنمية ذوقه، والربط بين الشاعر وشعره، وقد جمع آراءه النقدية في كتابيه (في أوقات الفراغ) و(ثورة الأدب)، لكن صورة هيكل النقدية لم تكن واضحة بالقدر الكافي.

2- **القضايا النقدية عند هيكل:** من القضايا النقدية التي تناولها هيكل في مقالاته: اللفظ والمعنى، والقديم والحديث، والسرقات الشعرية، والفصحى والعامية، والمقارنة بين أدباء العرب وأدباء الغرب، والأدب الصغير والأدب الكبير.

3- **مقاييس هيكل النقدية:** ومن المقاييس التي تناولها هيكل: علاقة الشعر بحياة صاحبه بقصد معرفة الحالة النفسية له، والأسباب التي دفعته لنظم هذا الشعر، وعلاقة اللغة بالمضمون لمعرفة تاريخ تطور اللغة والأدب معاً، وقد ركز على الموضوع أكثر من تركيزه على اللغة، أما الأسلوب فقد قسمه إلى قسمين: سهل سيال الألفاظ، وآخر يتجه إلى غموض المعاني وعدم الدقة في انتقاء الألفاظ، وقد مال إلى الأسلوب الأول، ورأى أنه لا يوجد قاعدة محددة لقياس جمال الأسلوب، وتحدث عن الأفكار والصور والعاطفة، ورأى أنه لا بد أن يقوم الأدب بإبراز الفكرة والصورة والعاطفة في صورة متسقة تخاطب النفس وتصل إلى أعماقها.

4- **نقد التراث العربي عند هيكل:** رأى هيكل أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي، وأنه متشكك في بعضه، ومتحفظ على كثير منه، أما موقفه من الأدب الإسلامي فرأى أن الحياة الروحية الجديدة لم يكن لها أثر قوي وواضح في الشعر في العهد الأول، وقد ذكر الباحث موقفه من هذا الرأي، وتحدث هيكل عن الشاعر المتنبي وشعره، وعن ابن خلدون وعصره ومجتمعه.

5- **هيكل بين النقد العربي والنقد الغربي:** رأى هيكل أن الأدب العربي الحديث بدأ بتقليد الأدب العربي القديم، وأن تأثره بالنقد الغربي كان أكثر من تأثره بالنقد العربي القديم، وأن تأثره بالشعر العربي القديم أكثر من تأثره بالشعر الغربي القديم، وتحدث فيه الباحث عن نظرة هيكل النقدية إلى الأدب العربي الحديث، وإلى الأدب الغربي، ثم أتبع ذلك بالحديث عن العلاقة بين النقد العربي والنقد الغربي من وجهة نظر هيكل.

6- **النقد التطبيقي عند هيكل:** وتحدث فيه الباحث ممهداً للنقد النظري والنقد التطبيقي، ثم ذكر العلاقة التي تربط بينهما، ثم ساق بعض النماذج للنقد التطبيقي عند هيكل شملت: محمد فريد وجدي، وطه حسين، ومصطفى صادق الرافعي، وجورجي زيدان.

أما الفصل الخامس والأخير فقد أفرد فيه الباحث الحديث عن مقالات هيكل في ميزان النقد:

1- **فكر هيكل بين التطور والتغيير:** وتحدث فيه الباحث عن مراحل التغيير الفكري وبداية التحول الثقافي عند هيكل، كما تحدث عن عمله في مجال الصحافة وتطويره لنفسه في

كتابات ومقالاته، ثم تطرق إلى العمل السياسي، فالانتقال إلى الاتجاه الإسلامي، ثم تحدث عن دوره الفاعل في تطوير المقالة الصحفية، ودوره في الحياة السياسية.

2- **مظاهر التجديد في مقالات هيكل:** وتحدث فيها الباحث عن مفهوم التجديد وطبيعته وأهدافه ومجالاته ومنهجه وآلياته.

3- **رأي النقاد في مقالات هيكل:** تباينت آراء النقاد اتجاه مقالات هيكل، وكان من أبرز النقاد طه حسين، وطه وادي، وأحمد زلط، ولويس عوض.

4- **آراء هيكل النقدية بين القبول والرفض:** وقد تناول الباحث الموضوعات التالية: غاية الأدب، وثورة الأدب، وحاجة الأدب إلى الفلسفة والعلم، ومعركة القديم والحديث، والأدب الكبير والأدب الصغير.

5- **مقالات هيكل في نظر هيكل:** وجد هيكل تشجيعاً من كبار الكُتاب مما أثر إيجاباً في إقباله على الكتابة، وكان لطيفاً في أسلوبه، وموضوعياً في عرضه، غير متعصب لرأي بذاته، وكان راضياً عما يكتب، واتبع منهجية مميزة في الكتابة، وكان لا ينظر إلى مقالاته نظرة قدسية، أو أنها كاملة، وكانت نظريته صادقة، فيها تواضع وأمانة.

6- **رأي الباحث في مقالات هيكل:** رأى الباحث أن أسلوب هيكل كان سهلاً، وواضحاً، وشائفاً، وجذاباً، ومؤثراً، وأن عناوين مقالاته تميزت بالإيجاز، والجدية، والوضوح، وأنه وجد انسجاماً بين شكل مقالاته ومضمونها، وبرز حماسه الشديد للقضايا التي كان يتناولها، لكنه كان دائماً يميل إلى الموضوعية، وقد أظهرت مقالاته أنه جمع في شخصيته بين الانفتاح والالتزام، وأنه كان صاحب موقف ورأي ونزعة إنسانية.

وفي الخاتمة أجمل الباحث أهم النتائج التي توصل إليها، ثم أرففها بقائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في إنجاز بحثه.

وفي النهاية يسأل الباحث ربه العليم الحكيم أن يلهمه السداد والتوفيق ليكون هذا البحث في عداد البحوث الجادة التي تخدم المكتبة العربية، وتضيف إليها الجديد، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

الباحث

أحمد موسى محمد زعرب

حياة محمد حسين هيكل وآثاره

في مطلع القرن العشرين وفي خضمه، انطلقت في العالم العربي بشكل عام وفي مصر بشكل خاص نهضة حديثة في جميع مجالات الحياة ومناحيها: في العلم، والثقافة، والأدب، والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، والإعلام، فأثرت في الحياة العامة، فارتقى مستواها المعنوي والمادي.

حدثت هذه النهضة على أيدي ثلة من الرجال الأعلام، كان من بينهم محمد حسين هيكل، فقد ساهم مساهمة كبيرة في إقامة صرح الثقافة العربية والإسلامية، والأدبية، والصحية، والسياسية، وعلى امتداد رحلة عمره ما بين عام 1888م وعام 1956م، كانت حياته جادة وحافلة بأوجه الأنشطة المختلفة، حيث "كان يطالع القراء دائمًا بمقالاته ومؤلفاته، وكأنه سحاب لا ينقطع ماؤه، (وكان) من ناحية الإنتاج العلمي غزير المادة متنوع الاتجاهات فهو مؤرخ، وقصاص، وناقد، وكاتب سياسي كبير"⁽¹⁾.

مولده ونشأته:

اتفق الكتاب الذين ذكروا تاريخ مولد (محمد حسين عبد السلام هيكل) على أنه ولد في عام 1888م في العشرين من شهر أغسطس، في قرية مصرية ريفية هي " كفر غنام من أعمال مركز السنبلوين بمديرية الدقهلية... لأسرة ريفية مصرية صميمة، لها بعض الوجاهة والثراء"⁽²⁾.

ووجاهة أسرته جاءت من طرف أبيه حسين أفندي بصفته عمدة قريته، فقد كان أبوه "يمثل نشأة الطبقة الوسطى في مصر، التي أخذت تسود الريف المصري، وترث ما كان للطبقة التركية من ثراء ونفوذ... فكانت كل تطلعاته هي أن ينشئ أبناءه تنشئة علمية كريمة"⁽³⁾.

وكان لهذا التطلع العائلي أثره المباشر في نفس هيكل الصغير، الذي أقبل على التعليم مبكرًا، فقد عقد والده عليه الأمل لشدة ذكائه، فكان محل اهتمامه ورعايته.

(1) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص64).

(2) ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر (ص270).

(3) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص53).

تعليمه:

على عادة المصريين في الأرياف والقرى آنذاك، أنهم كانوا يلحقون أبناءهم بالكُتاب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وشيء من الحساب، فهيكّل الصغير عندما "بلغ الخامسة من عمره ألحقه أبوه بكتاب القرية، فتعلم القراءة والكتابة وحفظ نحو ثلث القرآن الكريم، وتحول من هذا الكتاب في السابعة من عمره إلى القاهرة"⁽¹⁾، وفي القاهرة بدأ هيكّل مسيرته التعليمية "فالتحق بمدرسة الجمالية الابتدائية، ثم مدرسة الخديوية الثانوية، ولما أتم هذه المرحلة انتظم في مدرسة الحقوق وتخرج فيها سنة 1909م... فلما تخرج في الحقوق رأى أن يتم تعليمه في فرنسا، فسافر إلى باريس والتحق بكلية الحقوق فيها، وحصل منها على الدكتوراة في الاقتصاد السياسي سنة 1912م"⁽²⁾.

حصل هيكّل على هذه الدرجة العلمية العالية من فرنسا عام 1912م، وقد حملت رسالته (الدكتوراة) عنوان: (دَيْن مصر العام) La Dette Publique Egyptien "وقد تناول فيها قضية الديون التي استدانتها مصر في أثناء حفر قناة السويس، والتي كانت سبباً مباشراً للتدخل الأوروبي في شئون مصر السياسية والاقتصادية"⁽³⁾.

المتأمل في رحلة هيكّل التعليمية عامة، والتعليم العالي خاصة، يستطيع الوقوف عند بعض الإحياءات، وهي:

- اختياره لتخصص الحقوق ساعده لأن يكون سياسياً في المستقبل، وهذا يدل على ميله إلى عالم السياسة.
- حصوله على الدكتوراة من جامعة السوربون بفرنسا (قلب أوروبا) جعله منفتحاً على العالم الخارجي، وهذا فتح عنده آفاقاً جديدة ووسع مداركه.
- إقدامه في رسالته الدكتوراة على عنوان كبير ومهم (دَيْن مصر العام) يدل على إخلاصه لوطنه مصر، فرغم غربته وبعده عنها إلا أنها ما زالت في قلبه يبحث في إزالة الهموم عنها.
- جميع الدلالات السابقة أهلتة للاستعداد لأن يتحمل دوره الوطني تجاه مصر.

(1) ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر (ص270).

(2) المرجع السابق، ص270.

(3) وادي، هيكّل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص68).

ثقافته:

كان هيكل ذا ثقافة متنوعة، حيث تعددت روافدها، فقد جمع بين الثقافة العربية والثقافة الغربية خاصة الفرنسية منها، وقد برز أثرهما بوضوح في أدبه وتراثه الفكري.

أولاً- ثقافته العربية:

نشأ هيكل وترعرع في مصر العربية، فكان ينبوع ثقافته الأولى القرآن الكريم، الذي حاول حفظه منذ نعومة أظافره من خلال الكُتَّاب، وفي مرحلة دخوله المدرسة اتجه إلى دراسة الأدب العربي، والاطلاع على قديمه وحديثه، يقول هيكل: "كنت منصرفاً إلى قراءة أمالي القالي، وأغاني الأصفهاني، وأمثال الميداني، والبيان والتبيين للجاحظ، وقراءة المؤلفات المصرية الحديثة جميعاً"⁽¹⁾.

وفي كتابه (ثورة الأدب) تحدث هيكل عن شغفه بالقراءة فظهر اطلاعه على قصة (حي بن يقظان)، وكتاب (ألف ليلة وليلة)، وقصص عنتره، والوزير سالم، وسيف بن ذي يزن، ورأس الغول، وما إليها⁽²⁾.

ويضيف هيكل أنّ من مصادر ثقافته العربية؛ تلك الندوات التي كان يعقدها أستاذه أحمد لطفي السيد في دار الجريدة، والتي كان يشارك فيها فحول من الشعراء وكبار الكتاب، وأساتذة من المشايخ الضليعين في اللغة وغيرهم⁽³⁾.

وتعدّ الصحف التي كان يقرأها هيكل بشكل يومي من مصادر ثقافته، فقد كان يديم الاطلاع والقراءة في جرائد المؤيد واللواء والجريدة والعروة الوثقى⁽⁴⁾.

ويرى الباحث أنّ إلمام هيكل بالثقافة العربية كان أصيلاً، حيث إنه استمدها من مصادر عربية أصيلة، وأنه كان حريصاً على تنوعها، فلم يعتمد في ثقافته على قراءة الكتب وحدها، بل كان له أساتذة من الكتاب والشعراء واللغويين، فكان يحضر ندواتهم ويشاركهم في أنشطتهم، لكن الأبرز في ثقافة هيكل ميله إلى الأدب العربي، خاصة النثر منه وبالأخص النثر القصصي، كذلك كان يديم الاطلاع على الصحف اليومية، وهذا دليل على ثقافته السياسية.

(1) ينظر: هيكل، مذكرات في السياسة المصرية (ج1/25-32).

(2) ينظر: هيكل، ثورة الأدب (ص74).

(3) ينظر: المصدر السابق، ص36.

(4) ينظر: حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص42).

ثانياً - ثقافته الغربية:

مكوث هيكل في بلاد الغرب سنوات عديدة خاصة في فرنسا، واطلاعه على ثقافة تلك البلاد، وانفتاحه على تراثها الفكري والأدبي، كل ذلك أثر فيه، بل وساهم في تكوين ثقافته بشكل ملحوظ، فقد "كان تكوينه الثقافي متصلًا أشد اتصال باتجاهات التجديد في باكورة شبابه، وبامتداد الموجة الغربية، حيث أذنت البيئة المصرية بتقبل آثار امتداده، ولم يعد أمام هيكل إلا أن يطبع تلك الموجة الغربية بطابع بيئته وجيله"⁽¹⁾.

لم يقف هيكل أمام الموجة الثقافية الغربية متفجعاً، بل أراد أن يستفيد منها ففتح لها عقله ليوسع مداركه، ولينطلق نحو أفق أرحب، فقد "قرأ هيكل أثناء دراسته بجامعة باريس أهم المؤلفات العصرية من كتب إنجليزية وفرنسية إلى قراءة أكثر وأشمل، فقرأ (الحرية) و(الحكومة النيابية) لجول ستيورات مل، و(العدل) لسبنسر، و(الأبطال) و(الثورة الفرنسية) لكارليل وغيرهم"⁽²⁾.

ويرى طه وادي: "أنّ تأثر هيكل بالثقافة الغربية فيه تباين، بمعنى أن هيكلًا رغم قراءته للفكر الإنجليزي والأدب الإنجليزي؛ إلا أنه لم يتأثر بهما بشكل واضح لافت للنظر، وهذا دليل على أن الثقافة الإنجليزية كانت جانبية، ولم تكن أصيلة في ثقافته الغربية، أما الثقافة الفرنسية فقد استوحى منها هيكل كثيرًا من اتجاهاته الفكرية "حتى نجده يدون في يومياته المخطوطة أسماء الكتب الفرنسية التي قرأها أو المنقولة إلى الفرنسية وتأثيرها في نفسه"⁽³⁾.

وفي محاولة لتقصي الحقائق حول إقبال هيكل على الثقافة الفرنسية وتأثره بها، وبالمقابل لم تأخذ الثقافة الإنجليزية حيزًا ملحوظًا في ثقافته، يمكن القول في هذه المسألة أن هيكلًا كان يفضل الثقافة الفرنسية على الثقافة الإنجليزية، وأن هذا الأمر قد يكون وراءه سببان: الأول: أن هيكلًا أقام في فرنسا مدة أطول، واختلط بالفرنسيين، وتعرف على الحياة الفرنسية عن قرب، هذا جعله يتقن اللغة الفرنسية؛ مما ساعده على الاطلاع على الثقافة الفرنسية وتأثره بها. الثاني: ربما يعود إلى عامل نفسي لأن بريطانيا لعبت في الوطن العربي دورًا سياسيًا سلبيًا، فشعر هيكل بالكراهية الشديدة اتجاهها، وهذا انعكس سلبيًا على الإقبال على الثقافة الإنجليزية والتأثر بها.

(1) شرف، محمد حسين هيكل في ذكره (ص56).

(2) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص78).

(3) وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص46).

مما سبق يتبين أن هيكلًا جمع بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، وقد كان تأثيره بكل منهما متفاوتًا، فتأثره بالثقافة العربية كان أكبر لأنها ثقافته الأصلية، وقد تجلى ذلك بوضوح في نتاجه الأدبي والفكري والنقدي من خلال مؤلفاته ومقالاته.

فكره:

الإنسان بطبعه وطبيعته يؤثر ويتأثر، وأول مؤثر في هذا الإنسان الفكر، هذا الفكر بعد الانتهاء من التأثر به واستقراره في الذهن يتحول إلى اعتقاد، ومن ثم يصبح بعد ذلك سلوكًا، وقبل التأمل في فكر هيكل يمكن النظر إلى المؤثرات التي أثرت فيه تأثيرًا مباشرًا، وبحسبان أن هيكل كان عربي القومية؛ فقد تأثر بشكل طبيعي بالفكر العربي، إلى جانب ذلك تأثر بالفكر الغربي، حيث أكد في غير موضع ضرورة تثقيف الأديب المصري الناشئ بالأدب الغربية⁽¹⁾، وبالثقافة الفرنسية خاصة حيث تأثر هيكل بمبادئ الثورة الفرنسية، ووصف الطبيعة، واستلهم التاريخ، وأساليب النقد السائدة، فقد أقر هيكل أن الأدب الفرنسي قد فتته، فقد وصفه بالوضوح والعمق "فهو كالماء الصافي تنظر فيه فإذا هو مبسوط أمامك فسيح الأرجاء في البحر الذي يحتويه، وهو مع ذلك عميق يذهب بك إلى أغوار الأشياء في تصويره، وفي تخيله، وفي قصصه، وفي حوارهِ، وفي كل ما يتناوله"⁽²⁾.

من المعلوم أن الأدب نتاج بيدعه الأديب من خلال تفاعله مع بيئته الاجتماعية والثقافية والسياسية، فقد تأثر هيكل "بطريقة الناقد الفرنسي هيبوليت تين الذي كان يعجب به هيكل أيما إعجاب، وطبق منهجه النقدي في بعض دراساته الأدبية وترجماته الشخصية"⁽³⁾.

كما تأثر هيكل بالمفكر الاجتماعي الفرنسي جان جاك روسو "من حيث الآراء والأفكار أو الأسلوب والموسيقى... والمرجح أن تأثر هيكل بروسو كشخصية متعددة المواهب والأفكار من ناحية، واقتداءً بأنموذج مفكر مجدد من مفكري الغرب من ناحية أخرى"⁽⁴⁾.

وكما تأثر هيكل بجان جاك روسو كمفكر وتأثر اجتماعي ضد الملكية في الغرب، فقد تأثر به -أيضًا- ككاتب ومبدع وصاحب مبادئ دعا إلى العدالة والحرية والمساواة وتقديس قيمة العمل.

(1) ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر (ص 237).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج 7/1).

(3) وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص 10).

(4) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص 79).

ولا يخفي هيكل تأثره بالأدب الفرنسي وإعجابه به، فيذكر أنه كتب قصيدة وهو يدرس القانون في باريس قال في مقدمتها إنها "ثمرة الحنين للوطن وما فيه، صورها قلم مقيم في باريس مملوء مع حنينه بمصر إعجابًا بباريس وبالأدب الفرنسي"⁽¹⁾.

وحول رأي هيكل الشخصي بالأدب الفرنسي للقرن التاسع عشر، أبدى هيكل تأثره بكثير من الأدباء والنقاد الفرنسيين، جاء ذلك على لسانه في محاضرة ألقاها في دار رابطة خريجي جامعات فرنسا، وقد نشر هذه المحاضرة في مقالة له في السياسة الأسبوعية⁽²⁾، ومما جاء في هذه المقالة أو هذه المحاضرة قوله: "وأنا لا أكتمكم أنني لم أتأثر بالشعر تأثري بالنقد والقصص، يرجع هذا إلى طبعي، فأنا أكثر ميلاً إلى التحليل والمقدمات تقوم عليها النتائج مني إلى الاندفاعات العاطفية والتأثرات الذاتية... وأول من تأثرت بهم من نقاد هذا القرن هو (تين)"⁽³⁾.

ويستطرد هيكل في كلامه ويصرح بوضوح حول هذا التأثير الفرنسي في نفسه فيقول: "على أن موباسان له ناحية أخرى كان لها أثر قوي في نفسي... ولعل من الكتاب الذين أثروا في نفسي -أيضاً- بول بورجيه... وسمحوا لي أن أختم حديثي بأحب كتاب فرنسا.. إلى نفسي ألا وهو أناتول فرانس... فكان له أثره القوي في نفسي"⁽⁴⁾.

من خلال ما سبق يبدو تأثر هيكل الواضح بالثقافة الفرنسية والأدب الفرنسي والحياة الفرنسية بطبيعتها وثورتها وقيمها، ويبدو -أيضاً- تأثره بالنقاد الفرنسي هيبوليت تين وبطريقته النقدية، حيث طبق هيكل منهجه النقدي في بعض دراساته الأدبية، كما يظهر تأثر هيكل بالمفكر الاجتماعي الفرنسي جان جاك روسو الذي أعجب بأرائه وأسلوبه وأفكاره، وكذلك صرح هيكل بأنه تأثر بكتاب الفرنسيين مثل: موباسان، وبول بورجيه، وأناتول فرانس.

ويرى الباحث أنه لا بد من الوقوف عند هذا التأثير وتسجيل بعض الملاحظات وهي:

- 1- تأثر هيكل بالثقافة الفرنسية والأدب الفرنسي -كما أقر هيكل- لم يكن مجرد تأثر عاطفي بل هو تأثر فكري حيث انعكس هذا بوضوح في كتابات هيكل المقالية.
- 2- درجة التأثير كانت شديدة أو عالية وصلت إلى التقليد والترجمة.

(1) ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر (ص274).

(2) السياسة الأسبوعية، العدد 461، بتاريخ 16 مارس 1946م.

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/314).

(4) المصدر السابق، ج2/316-317.

3- تأثر هيكل بالنقد والكتابة النثرية الفرنسية كان أكبر من تأثره بالشعر الفرنسي، ربما يعود ذلك إلى أمرين:

الأول: مقارنة الشعر الفرنسي بالشعر العربي، فالفارق بينهما حال دون تأثره بالشعر الفرنسي.

والثاني: طبيعة هيكل وميوله الشخصية، فهو يفضل التحليل والنقد والقص على نظم الشعر.

أما المؤثرات العربية فهي كثيرة بحكم أن هيكلًا عربي مسلم مصري، وإذا أردنا الحديث عن هذه المؤثرات فيمكننا تقسيمها إلى أربعة مستويات حسب أسبقيتها في التأثير:

1- تأثر هيكل بالثقافة العربية والأدب العربي:

نشأ هيكل في جمهورية مصر العربية، فاغترف من ثقافتها العربية بدءًا من القرآن الكريم ومرورًا بدراسة الأدب العربي، حيث اطلع على قديمه وحديثه، وكان "شديد الميل لدراسة الأدب العربي والاطلاع على قديمه وحديثه بقدر ما يسمح به إدراكه"⁽¹⁾.

كان هيكل شغوفًا بالقراءة منذ صغره، وتيسر له الاطلاع على كتب التراث العربي فقرأ للأصفهاني والميداني والجاحظ وغيرهم، ويرى طه وادي "أن الميل الأدبي قد ظهر عنده مبكرًا قبل الاتجاه السياسي... حتى لنجدته في المرحلة الثانوية شديد الميل للاطلاع على ما يلقاه من كتب الأدب العربي قديمه وحديثه"⁽²⁾.

أحدثت الأحزاب المصرية وصحافتها تطورًا كبيرًا في حياة المصريين السياسية والفكرية، فكان لكل حزب رؤيا سياسية يدافع عنها، ومدرسة فكرية يدعو إليها، وكان هدف هذه الأحزاب من ذلك "حرية مصر أو بعبارة أدق إبراز شخصية مصر السياسية... وإلى إظهار الشخصية المصرية في الفكر والأدب"⁽³⁾.

إلى جانب الأحزاب السياسية ظهرت في مصر صحوة أدبية وحركة شعرية كبيرة ساهمت في "تطور الشعر من ناحية الأغراض ومن ناحية المعاني والألفاظ"⁽⁴⁾.

هذه النهضة سواء السياسية أو الفكرية أو الأدبية وصلت إلى عقل هيكل المتفتح، فقدحت زناد فكره، وتلاقحت مع ثقافته فصقلتها وزادتها وعيًا وعمقًا.

(1) هيكل، مذكرات في السياسة المصرية (ج1/25).

(2) وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص39).

(3) المرجع السابق، ص20.

(4) المرجع نفسه، ص21.

هذا المؤثر في فكر هيكل كان له دوره في حياة هيكل ومستقبله، فحب هيكل للاطلاع وهو صغير، وميله إلى الأدب كان نزوعاً فطرياً لم يهمله هيكل بل طوره ووظفه فأصبح بعد ذلك كاتباً وناقداً، أما مشاركة هيكل في العمل الحزبي وفي الصحافة فقد كان لهما عظيم الأثر في تعميق رؤية هيكل الفكرية وهذا أهله لأن يكون سياسياً.

2- تأثر هيكل بالفكر الفرعوني والقومي:

عاش هيكل في باريس سنوات عديدة أثناء دراسته، وقد طاف بها وتعرف على معالمها وحضارتها وتراثها، وبلغ به الأمر أنه كان يعشق الإقامة فيها يقول: "ولا أنكر أنني أحب باريس كلها حباً جما... وأطير إليها... وكنت أجد في ذلك متعة أية متعة"⁽¹⁾.

لقد تولدت المتعة عند هيكل في باريس ولو بشكل جزئي من المشاهد التي رآها فيها خاصة المشاهد التي تدل على التاريخ؛ أي المشاهد الأثرية "إنني لأذكر دائماً هذه التماثيل التي كنا نمر بها ونحن نطلب العلم في باريس قائمة أمام السوربون، أو أمام الكوليج دفرانس، لرجال خدموا العلوم والفنون فخلدت فرنسا ذكرهم في تلك التماثيل"⁽²⁾، هذه المشاهد، وهذه التماثيل مثلت في نظره أساساً للحضارة الحديثة حيث "استمد البعث الأوروبي وجوده وحياته منذ القرن الخامس عشر من الأدب اليوناني والروماني، ومن التفكير اليوناني والروماني، والدول العربية والعالم الإسلامي كله على اختلاف لغاته يندفع اليوم إلى بعث متوثب الحيوية. فمن أي مصدر يستمد هذا البعث وجوده وحياته وحيويته؟"⁽³⁾.

ويبحث هيكل في بلاده مصر على نظير تلك المشاهد الأثرية التي تأثر بها فوجدها كما تركها صانعوها، وقد جلبت السياح من جميع أقطار العالم، وهنا أراد هيكل أن يربط بين هذه الآثار والبعث الجديد؛ لأنه كان يعتقد أن من لا يملك تاريخاً لا يملك حاضرًا ولا مستقبلًا، يصف هيكل هذه الآثار وأثرها فيقول: "فهذه الأهرام لا تزال تحتوي من الطلاسم ما يحار العقل في حله، وهذا أبو الهول في مجتمه بين رمال الصحراء أكثر ثباتاً من الليل والنهار، ومن الشمس والقمر... وهذا الملك الشاب توت عنخ أمون نبش قبره النابشون باسم العلم فإذا فيه من طرف الفن ما يزري بكل فن وعلم"⁽⁴⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/138).

(2) المصدر السابق، ج4/312.

(3) المصدر نفسه، ج6/45.

(4) المصدر نفسه، ج1/97-98.

ورأى هيكل أنّ مصر الحديثة أقرب إلى مصر الفرعونية، وعقد موازنات بين عادات المصريين والفرعنة، ودعا إلى اقتباس الأدب الحديث من تاريخ الفرعنة، وإلى استجداء عظمة الآثار الفرعونية، فأنشأ عدة قصص تدور حول الفرعنة مثل (إيزيس) و(راعية هاتور) و(أفروديت) وغيرها⁽¹⁾.

هذا الإعجاب بالآثار الفرعونية لم يأت من وجهة نظر فردية تبناها هيكل، وإنما جاءت ضمن دعوة عامة، واعتقاد لبعض الأشخاص الذين تأثروا بالحضارة الغربية القديمة أمثال هيكل، وقد تحدث أنور الجندي عن الفرعونية وأسباب الدعوة إليها فقال: "وقد حاولت أن تعتمد في كل فُطر على بعض ملامح تاريخه القديم، فاتخذت من اكتشاف توت عنخ أمون في مصر مثلاً منطلقاً للدعوة إلى الفرعونية، ومضت الكشوف الأثرية في كل بلد في محاولة لرده إلى ماضيه السابق للإسلام... وحمل لواء هذه الدعوة عدد من الباحثين وفي مقدمتهم محمد حسين هيكل... (وقد رجع هيكل في الآخر)"⁽²⁾.

ويرى الجندي أن هيكلًا تراجع عن تبني الفرعونية كحركة بعث ونهضة؛ لأنها قامت "على أساس الوثنية في العقيدة، والعبودية في العلاقات الاجتماعية... وهكذا كشفت الأبحاث التي تعرضت للدعوة الفرعونية عن فسادها وسقوطها"⁽³⁾.

ويضيف الجندي أن الدعوة إلى الفرعونية سقطت برمتها لأنها اكتشفت "عجزها عن العطاء لأنها لم تجد لها جذورًا باقية تبني عليها"⁽⁴⁾.

ساهم هيكل في سقوط الدعوة إلى الفرعونية عندما تراجع عنها، لكنه بحث عن بديل آخر، فقد تأثر بعد ذلك بفكرة القومية المصرية، التي كانت سائدة آنذاك، والذي دفع هيكل إلى التفكير في تبني فكرة القومية المصرية فناعته بضرورة توحيد منابع الثقافة للأمة كلها، وإيجاد أدب قومي جدير بحياة الأمة المصرية وحضارتها العريقة⁽⁵⁾.

(1) ينظر: الدسوقي، في الأدب الحديث (ص 247).

(2) الجندي، قضايا الأدب والثقافة والفن (ص 70).

(3) المرجع السابق، ص 72.

(4) المرجع نفسه، ص 71.

(5) ينظر: في أوقات الفراغ (ص 17-18).

ويرى هيكل أن التمسك بالأدب القومي هو السبيل لإزالة الخلاف بين أنصار القديم والحديث، وهو الكفيل لتجميع عناصر الأمة، كما نادى بأن تنصهر الحضارة المصرية بشتى أشكالها في بوتقة الأدب؛ لترتبط بالحضارة القديمة والتاريخ القديم، ويرى أن فهم الماضي على حقيقته والإيمان به هو الدافع إلى إيجاد مستقبل على غرار ما كان عليه المادى الحية للأدب القومي⁽¹⁾.

بعد هذا العرض لتأثير الفرعونية والقومية في فكر هيكل، يرى الباحث أن هذا التأثير كان متغيرًا ومتقلبًا في عقلية هيكل إلا أنه مر بهما - وإن كان تنبهما - على سبيل البحث عن الحقيقة، وأن السبب الرئيس في تبني هيكل لفكرة الفرعونية؛ هو تأثره بالحضارة الغربية القديمة، لكنه سرعان ما اكتشف زيغها وعدم صلاحيتها لعصره الذي يعيش فيه لأنها قامت على أساس الوثنية، وأنها سقطت بسبب فسادها وعجزها عن العطاء، أما القومية المصرية التي تأثر بها هيكل ودعا لها، فإنه كان يتطلع من خلالها إلى توحيد منابع الثقافة العربية، وإزالة الخلاف بين أنصار القديم والحديث.

ويقف الباحث عند موضوع القومية قليلاً حيث يرى أنها نزعة ظهرت في أوروبا ثم انتقلت وامتدت إلى البلاد العربية من خلال خريجي تلك البلاد، وأن ظهورها تزامن مع حل عقد الجامعة الإسلامية، وأنها هدفت إلى تعزيز الانتماء للوطن.

3- تأثر هيكل ببعض الشخصيات المصرية:

من الأساتذة الكبار الذين تتلمذ على أيديهم هيكل أحمد لطفي السيد "وهو يعد الأب الروحي للمدرسة الحديثة في الفكر بصفة عامة ولهيكل بصفة خاصة... ولعل أهم آثاره في تكوين هيكل... أن جعله يعدل عن قراءة الأدب العربي إلى كتب إنجليزية... سواء أكانت سياسية أم أدبية"⁽²⁾.

إن تركيز أحمد لطفي السيد على هيكل كان قوياً بحكم علاقة الصداقة التي كانت تربطه بوالده، هذه العلاقة الحميمة جعلته بمرتبة ولده، فكان يرسم له الطريق نحو المستقبل فيعمق عنده الفكر والثقافة، وكان يوجهه نحو الوعي السياسي ليكون فيما بعد رائداً من رواد النهضة

(1) ينظر: وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص80-81).

(2) المرجع السابق، ص40.

في مصر، فقد ترك له كتابة المقالات الافتتاحية في (الجريدة) سنة 1911م، ثم رشحه سنة 1922م لرئاسة تحرير صحيفة السياسة ليخط له مستقبلاً مرموقاً في الصحافة⁽¹⁾.

وقد تأثر هيكل بأسلوب الشيخ محمد عبده وبطريقته في الكتابة، رغم أنه لم يتلمذ على يديه، فعندما مات الشيخ محمد عبده عام 1905م كان عمر هيكل سبعة عشر عاماً، وقد دعا هذا الشيخ الإمام إلى الإصلاح الشامل والتطوير المستحدث لتحرير الفكر الإسلامي من قيد التقليد، يقول هيكل: "ولما كانت عصور الانحلال... قد نادت بإقفال باب الاجتهاد، فقد طعن الشيخ محمد عبده وأنصاره على هذا الرأي، وأعلنوا أن باب الاجتهاد مفتوح، ويجب أن يبقى مفتوحاً أبداً"⁽²⁾.

ويعترف هيكل في مذكراته أن لمقالات الشيخ محمد عبده ولأستاذه جمال الدين الأفغاني أثر في نفسه "وأذكر أنه كان لكثير من مقالات الشيخ في العروة الوثقى مع أستاذه أبلغ الأثر في نفسي"⁽³⁾.

ولأن هيكلًا كان ذا عقلية متفتحة واعية استوعب كثيرًا من آراء وأفكار الشيخ محمد عبده، وحيث إن الشيخ محمد عبده دعا إلى دراسة الحقائق الدينية على أسس عقلانية دون المساس بمبادئ العقيدة، وكان تركيزه على طريقة التفكير الديني، وإصلاح مؤسسات التعليم الدينية وعلى رأسها الأزهر، كل هذا دليل على أن هيكلًا كان لا يقبل الجمود في التفكير، وكان يميل إلى القضاء على الجهل والامية، وكان يريد لمصر أن تكون في طليعة البلاد المتحضرة المتعدنة.

وكان هيكل شديد الإعجاب بأفكار قاسم أمين الخاصة بتحرير المرأة، ففي أثناء دراسته للحقوق بفرنسا قرأ كتابه (تحرير المرأة)، كما قرأ كتابه (المرأة الجديدة)، هذا الإعجاب عبر عنه هيكل في مقالاته التي جاءت في كتابيه (في أوقات الفراغ) و(تراجم مصرية وغربية)، يقول هيكل: "منذ أربعين سنة خلت نشر المرحوم قاسم أمين كتابه (تحرير المرأة) يدعو فيه إلى تعليم المرأة وإلى إطلاقها من رق الجهل ورق الحجاب، وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو الإصلاح الاجتماعي في عهدنا الحديث"⁽⁴⁾.

(1) ينظر: وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص 40).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج 4/69).

(3) هيكل، مذكرات في السياسة المصرية (ج 1/29).

(4) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج 4/103).

ولشدة إعجاب هيكل بجهود قاسم أمين في مجال تحرير المرأة ولدوره في النهضة الاجتماعية دعا إلى إقامة تمثال لقاسم أمين أو مجموعة من التماثيل إكراماً له، واعتراضاً وتقديراً لجهوده في ذلك يقول هيكل: "ولو أن النساء والبنات المتعلقات في مصر ذكرن له هذا الجميل لأسرعن إلى جمع التبرعات لإقامة تماثيله لا في القاهرة وحدها، بل في العواصم المختلفة بمصر... ولا يزال الناس يصفونه حقاً بأنه الأب الروحي لنهضة مصر الاجتماعية الحاضرة"⁽¹⁾.

ويعبر هيكل عن منزلة قاسم أمين في قلبه، فرغم أنه لم يعرفه عن قرب إلا أنه احتل في نفسه "مكناً جمع بين الإجلال والمحبة، فلما وافته منيته سنة 1908م (الكلام لهيكل) شيعته إلى مقر وفاته وفي القلب لوعة حزن وأسى وحسرة"⁽²⁾.

يبدو أن تأثير فكر قاسم أمين في نفس هيكل كان قوياً وكبيراً، ولعل أفكار قاسم أمين تقاطعت مع تفكير هيكل الذي كان متأثراً بالثقافة الغربية والحياة الغربية، فلربما كان هيكل يعقد كثيراً من المقارنة بين المرأة الفرنسية والمرأة المصرية، فكان يتطلع إلى أن تصبح المرأة المصرية في مستوى المرأة الفرنسية من حيث التعليم والجمال والأناقة والتعامل، هذا التقاطع في الأفكار جعل هيكل معجباً بقاسم أمين.

هذه بعض النماذج للشخصيات التي تأثر بها هيكل، ولا يجزم الباحث أن هذه الشخصيات فقط هي التي أثرت في نفس هيكل، ولكن الباحث يرى أن أحمد لطفي السيد هو أكثر هذه الشخصيات تأثيراً ثم قاسم أمين ثم الشيخ محمد عبده.

4- تأثر هيكل بالثقافة الإسلامية:

أقلع هيكل عن الثقافة الغربية بعد أن اكتشف حقيقتها بعد الحرب العالمية الأولى، ثم تولى عن الدعوة إلى الحضارة الفرعونية، والفكر القومي لأنه لم يجد ضالته المنشودة فيهما، واتجه إلى الثقافة الإسلامية باحثاً عن الحقيقة، فارتوى من معينها الصافي، فقرأ كتاب الله بروية وتمعن، ودرس السيرة النبوية باستفاضة وبصيرة، "وطالع الآثار الصحاح من كتب السنة المطهرة، وقرأ كتب الأعلام من أئمة البيان الجزل، والتأليف المحكم، فجاء أسلوبه في كتبه

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/311-312).

(2) هيكل، في أوقات الفراغ (ص124).

(حياة محمد) و(الصديق أبو بكر) و(الفاروق عمر) و(عثمان) و(في منزل الوحي) مثلاً أعلى للبيان المشرق⁽¹⁾.

تأثر هيكل بأسلوب القرآن الكريم وبمعانيه، ويبدو ذلك واضحاً عندما وصف مشهد الحجاج وهم يحرمون في طريقهم إلى بيت الله، يقول هيكل في كتابه (في منزل الوحي): "يبتغون بها فيما آتاهم الله الدار الآخرة، ولا ينسون نصيبهم من الحياة الدنيا، ويحسنون كما أحسن الله إليهم، ولا يبتغون الفساد في الأرض، ولهذا جاؤوا من كل فج عميق"⁽²⁾.

أقبل هيكل على الفكر الإسلامي والتراث الإسلامي دراسة ليكشف عن خصائص الإسلام ومقاصده التي فيها سعادة الدارين "وعمق تجربته إلى الدراسات الإسلامية، مبتدئاً بسيرة رسول الله ﷺ، ومعقباً بسير الأعلام... ثم ببحوث تدور في فلك التاريخ الإسلامي، والفكر الديني القويم"⁽³⁾.

ويتحدث هيكل عن آثار ونتائج هذه الدراسة فيقول: "قرأت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس، وتجعلها تهتز وترنو، ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين"⁽⁴⁾.

هذه تجربة هيكل يعبر عنها بمشاعره الصادقة، ويتمنى للأجيال من بعده الاستفادة منها، ويعقب محمد رجب البيومي على هذه التجربة التي نقلت هيكل نقلة نوعية على صعيد الأسلوب والفكر فيقول: "قلما شرفه الله بالاتجاه الإسلامي المبين انتفض تعبيره الأدبي مورقاً زاهياً، وسما اتجاهه الفكري إلى ذروة كتبت لآثاره الخلود بخلود ما اتجه إليه من مبادئ سامية ذات إشراق وسطوع"⁽⁵⁾.

أراد هيكل بهذه التجربة أن يحصد فكره، وأن يوسع أفقه ليديرك الحقيقة عن قناعة وبصيرة، ففتح الله عليه، فوصل بهذه التجربة إلى دروس المجد والعزة والكرامة، وبرز ذلك واضحاً في مؤلفاته خدمة للأجيال التي ستخلفه، وكعمل صالح ينفعه بعد مماته من باب (علم يُنتفع به).

(1) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص 66-67).

(2) هيكل، في منزل الوحي (ص 60).

(3) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص 59).

(4) هيكل، في منزل الوحي (ص 24).

(5) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص 64-65).

إنّ الثقافة الإسلامية التي سعى هيكل لتحصيلها، وبذل جهدًا حثيثًا للإمام بها، كان هدفه من ذلك الوصول إلى الحقيقة، والسير إلى الأمام نحو الهداية والحق، وإنه عندما اتخذ قراره للاتجاه إليها كان جريئًا شجاعًا، لأن هذا القرار يمثل نقطة تحول في حياته، كما أنه يدل على المرونة الفكرية التي كان يتمتع بها، في الوقت نفسه لم يأت هذا القرار متسرعًا أو بتأثير عاطفة، وإنما جاء بعد دراسة متأنية للثقافة الإسلامية.

ويرى الباحث أنّ شخصية هيكل بحسبانه مفكرًا تتسم بسعة أبعادها، وتشعب جذورها، فهو لم يبدأ الكتابة ولم يقبل على التأليف إلا بعد أن بلغ مرحلة الاستيعاب الكامل للثقافة الإسلامية، فالتأليف جاء بعد الدراسة وليس قبلها، بمعنى أن مؤلفات هيكل بُنيت على أساس متين، ولشدة ثقته بها، كان حريصًا على توريثها للأجيال للإفادة منها.

منهج هيكل في كتابة السيرة والتاريخ الإسلامي:

أضفى هيكل في كتاباته الإسلامية (حياة محمد) أو (في منزل الوحي) وفي كتبه (الصديق أبو بكر) و(الفاروق عمر) و(عثمان) مسحة أدبية مزجها بالقيم الدينية والتاريخية، بمعنى أنه كتب السيرة ذات المضمون التاريخي بأسلوب أدبي، وكأنه أراد كتابة رواية تاريخية، ويُلاحظ في كتبه أنه ركز على بناء الشخصية وتصوير الحدث، وأبرز عنصري الزمان والمكان وعنصر السرد الروائي، ورغم وجود هذه المسحة الأدبية إلا أنه قدم هذا العمل التاريخي بموضوعية تامة لأنه "كان يعي بحق أنه إنما يريد التأريخ للإمبراطورية الإسلامية، وبحث هذا التاريخ على منهج علمي دقيق، ليقدم هذا التاريخ في ثوب موضوعي نقي، وبطريقة لا تقبل الخلاف ولا يرقى إليها الشك"⁽¹⁾.

استخدم هيكل مصطلح (الإمبراطورية الإسلامية) في أكثر من موضع في كتبه، وللباحث تحفظ على هذا الاستخدام وهذه التسمية لأنه يرى أنه ساوى في هذه التسمية بين الإسلام كدولة وخلافة وبين الإمبراطوريات الأخرى، وأيضًا هذه التسمية لم يعتمد عليها الكتاب المسلمون للتعبير عن الخلافة الإسلامية، ولهذه التسمية في النفوس إحياءات سلبية فهي رمز للقهر وفرض القوة، والاعتداد بالنفس وهذا كله يتنافى مع روح ومبادئ الإسلام.

(1) وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص136).

تحدث هيكل في كتابه (حياة محمد) عن منهجه في الكتابة فأوضح أنه يبدأ "بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية، وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر"⁽¹⁾.

لقد اعتمد هيكل في كتاباته الإسلامية على "منهج متكامل... على التحليل والتعليل والمناقشة والمقارنة والاستنباط، وقد لازمته هذه الطريقة في بقية دراساته الإسلامية"⁽²⁾.

كان منهج هيكل واضحًا عندما كتب السيرة والتاريخ الإسلامي، فلم يكتفِ بالوصف والسرد، وإنما أراد أن يقنع من يقرأ هذه الكتب من خلال مخاطبة عقله فاستخدم المنهج المتكامل، لجأ إلى التحليل والتعليل والمناقشة وكأنه لا يريد أن يقبل الأحداث على علاتها رغم قناعاته بها، فأراد أن يبرهن على صحتها، ثم نراه يعتمد المقارنة والاستنباط ليزيد من التأكيد عليها، هدفه في المحصلة إقناع القارئ وإمتاعه.

مؤلفات هيكل:

المتأمل في مؤلفات هيكل العديدة يجدها متنوعة فقد جمع في هذه المؤلفات بين السياسة والأدب والاجتماع والدين والفكر وبين الثقافة العربية والثقافة الغربية، ولو أردنا أن نرتب هذه المجالات حسب اهتمام هيكل بها وإصداره لها، لوجدنا أنه بدأها برواية (زينب)، ثم أتبعها بالكتابة عن الثقافة الغربية، ثم الثقافة العربية التي احتوت على الموضوعات السياسية والأدبية والفكرية والاجتماعية، ثم كان جل ما كتب في النهاية المؤلفات الإسلامية.

ويرى أحمد زلط أن هيكلًا استحق أن ينضم إلى الكتاب الموسوعيين لكثرة مؤلفاته ولتنوع موضوعاته فيها يقول: "وهيكل بشخصيته الموسوعية، وخبراته الطويلة، وأسفاره الكثيرة أراد أن يضيف إلى آثاره الفكرية مؤلفات عامة يبيت فيها انطباعاته أو مواقفه أو رؤيته لمنجزات الحضارة وتطور المجتمعات لذا تعد مؤلفات هذه المجموعة في غاية الأهمية"⁽³⁾.

(1) هيكل، حياة محمد (ص150).

(2) وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص135).

(3) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص130).

لقد ألف هيكل أكثر من عشرين كتابًا وهي:

- 1- يوميات باريس.
- 2- قصة زينب.
- 3- جان جاك روسو.
- 4- في أوقات الفراغ.
- 5- عشرة أيام في السودان.
- 6- تراجم مصرية وغربية.
- 7- ولدي.
- 8- السياسة المصرية والانقلاب الدستوري.
- 9- ثورة الأدب.
- 10- حياة محمد.
- 11- في منزل الوحي.
- 12- الصديق أبو بكر.
- 13- الفاروق عمر.
- 14- عثمان.
- 15- مذكرات في السياسة المصرية.
- 16- هكذا خلقت.
- 17- الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة.
- 18- الشرق الجديد.
- 19- قصص مصرية.
- 20- موجز أعمال الجمعية العمومية.
- 21- مؤتمر القاهرة البرلماني.
- 22- مصر في هيئة الأمم.

ولهيكل مقالات كثيرة نشرها في الصحف بلغت ثلاثمائة وتسعاً وخمسين مقالة، وقد قام بجمعها ابنه (أحمد) في ستة أجزاء، طُبعت تحت رعاية المجلس الأعلى للثقافة، وكانت الطبعة الأولى بالقاهرة عام 2006م، وجاءت على النحو التالي:

الجزء الأول: في الأدب العربي.

الجزء الثاني: في الأدب والفن.

الجزء الثالث: في السياسة والديمقراطية.

الجزء الرابع: في الإصلاح الاجتماعي والثقافي.

الجزء الخامس: مصر والحياة الدولية.

الجزء السادس: ذكريات وعبر.

والناظر في هذه المؤلفات وتلك المقالات يرى أنها شملت مجالات واسعة في علوم الحياة المختلفة، فقد سبح فيها هيكل في الآفاق الأدبية، والسياسية، والتاريخية، والدينية، والقصصية، والدولية، والفكرية.

ومن يقرأ هذه المؤلفات أو بعضاً منها يستطيع أن يكون رؤية حولها، أو بالأحرى يمكنه أن يقول رأيه فيها، فها هو أحمد زلط يقول: "أن هيكلًا بكل المقاييس يعد مفكرًا مصريًا صاحب رؤية لبرالية في شؤون الفكر والأدب والاجتماع والسياسة، وقد دعا إلى اللبرالية بقلمه وفكره طوال أربعين عامًا (1912 - 1952م)"⁽¹⁾.

ويرى شوقي ضيف أن هيكلًا عندما ألف كتب التاريخ كان واسع النظرة، دقيق البحث: "يعتمد إلى مصادر الإسلام الأولى فيلقي عليها أضواء جديدة بمباحث تاريخية في الرسول الكريم محمد ﷺ، وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما - ومن المحقق أنه يتفوق في الكتابة التاريخية لاتساع نظرته، ودقة بحثه"⁽²⁾.

(1) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص107).

(2) ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر (ص273).

وكان هيكل يقصد من كتابة هذه الكتب التاريخية إلهاب العزائم الخاملة، وإيقاظ العواطف الهامدة، وتربية الجيل المعاصر تربية تماثل تربية السلف الصالح، فكان يتخذ من الوقائع التاريخية ما يبعث هذا الحرص في النفوس، ضارباً الأمثلة الناصعة كالبرهان على صحة ما يريده، وكان انتصار المسلمين على الفرس أحد الأمثلة الواضحة التي شاء أن يقدمها دليلاً على ما يريد من إحياء المثل العليا في النفوس، ليقود المعاصرين إلى النصر⁽¹⁾.

نماذج من كتبه:

تحدث محمد رجب البيومي عن أهم كتب هيكل في نظره فقال: "وهيكل من كبار الأدباء في العالم العربي، وله نفوذه الأدبي الكبير بما أبدع من آثار خالدة، أهمها في رأبي كتاب (حياة محمد) ويليها كتاب (في منزل الوحي) وإجماع المستنيرين على عظمة هذين الكتابين الخالدين لم يمنع نفرًا من المعارضين أن يواجهوهما بالنقد"⁽²⁾.

هذه وجهة نظر البيومي في هذين الكتابين، وحتى نستبين الأمر بشكل أكثر وضوحًا لا بد من الوقوف عند هذين الكتابين:

1- حياة محمد:

أبرز هيكل في هذا الكتاب حياة النبي ﷺ في صورتها الإنسانية، فقد جمع محمد ﷺ في هذه الحياة بين طبائع البشر وخصائص النبوة، وقد ركز هيكل على تصوير هذه الحياة بكل ما فيها، فالرسول ﷺ بشر كأبي إنسان، لكنه كان متميزًا بالوحي والعصمة، وكان هيكل في هذا الكتاب "يسوق حقائقه التاريخية في نسج متين قوي الأسر، بالغ النفاذ، وإذا استطاعت عاطفته الدينية أن تتوهج في سطوع في كثير من مواقف البطولة الرائعة، أمام مناحي الإنسانية الناهضة بشتى الأعباء والآلام، فإن تفكيره الرصين قد ألزمه بإبداع الحجج الفاصلة، والبراهين النافذة، يسوقها هادئة دون صخب أو انفعال"⁽³⁾.

(1) ينظر: البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص124).

(2) البيومي، قراءة في كتاب: في منزل الوحي (1882).

(3) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص85-86).

لقد هدف هيكل من وراء تأليف هذا الكتاب أن يرشد الإنسانية إلى الحضارة الجديدة المبنية على القيم الروحية يقول هيكل: "فليست الغاية منه دينية محضة كما يظن بعضهم، بل الغاية الصحيحة أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذي دلها محمد ﷺ على طريقته"⁽¹⁾.

أوضح هيكل في كتابه (حياة محمد) الجانب الإنساني في سيرته ﷺ، وأراد بذلك أن يربط الماضي بالحاضر، وحتى يزيد من إقناع من يقرأ هذا الكتاب ساق البراهين والحجج ولم يكتفِ بذكر الحقائق التاريخية، جعل من هذا الكتاب رسالة مفادها أن الإنسانية إذا أرادت أن تصل إلى الكمال في حياتها فما عليها إلا أن تتنسم عبير إنسانية محمد ﷺ وأن تسير على خطاه التي رسمها لها.

2- في منزل الوحي:

هذا الكتاب كتبه هيكل بكل مشاعره وأحاسيسه، فقد وصف فيه رحلته إلى الديار المقدسة خاصة المدينة المنورة التي عاش فيها النبي ﷺ وبنى دولته فيها ثم مات ودفن فيها، لقد سيطرت تلك المشاهد على نفسه فعبر عنها بذاتيته، فكتاب (في منزل الوحي) "كتاب ذاتي أكثر منه موضوعياً، لأن فكرته الأولى هي وصف الرحلة الحبيبة إلى ديار رسول الله ﷺ، فخواطر الزائر المشوق ترفرف على قلمه، فتتيح له من الأشواق والمواجد ما لا تتيحه مصادر التاريخ، فإذا ألم بالحدث التاريخي حين يزور موقعه المكاني، فهو إمام تزدهم فيه المشاعر المؤمنة، وتنطلق الأشواق الحبيسة إلى أبعد مرمى تصل إليه"⁽²⁾.

ولمحمد رجب البيومي رأيه في كتاب (في منزل الوحي) حيث يقول: "أقرر في صدق أنني لم أجد كتاباً ملك عليّ مشاعري، واستحوذ على تفكيري أثناء مطالعته ككتاب (في منزل الوحي)... وقد مضى على تأليفه خمسة وستون عاماً ولا يزال بريقه الخالب يجلب إليه المتقنين من القراء في حب واندفاع، حتى أنهم يصحبونه معهم في رحلة الحج المباركة"⁽³⁾.

(1) هيكل، حياة محمد (ص59).

(2) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص96).

(3) البيومي، قراءة في كتاب: في منزل الوحي (ج11/1882).

ويؤكد هيكل على أن كتاب (في منزل الوحي) ليس مرجعاً تاريخياً، وإنما الهدف منه تلمس العبرة، فذكر أن كتابه هذا "ليس مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامي، ولا شيء فيه من تقويم العرب، إنما هي وقفات وقفها الكاتب في بلاد الوحي ومنزله، متلمساً العبرة والأسوة، وأملاً أن يشرك فيهما القراء من المؤمنين"⁽¹⁾.

عندما ألف هيكل هذا الكتاب خرج عن طريقته ومنهجه في التأليف، لأن هدف هذا الكتاب يختلف عن أهداف كتبه الأخرى، فلم نجد فيه تحليلاً أو تعليلاً أو مناقشة أو مقارنة أو استنباطاً، بل وجدنا فيه تعبيراً عن أحاسيسه وانفعالاته ومشاعره وخواطره وأشواقه، لذا يُعد هذا الكتاب كتاباً ذاتياً وليس موضوعياً، وقد اعترف هيكل بأنه لم يكتبه ليصبح مرجعاً تاريخياً، وإنما كان هدفه من كتابته أخذ العبر وتلمس الدروس والعظات.

3- الصديق أبو بكر ﷺ:

تحدث محمد فريد أبو حديد عن هذا الكتاب فقال: "جلى هيكل عصر الصديق، وصور من حوادثه صوراً لا نظن أن أحداً استطاع أن يصور مثلها من قبله، فهو قد تتبع العصر من أوله، ثم ما زال به حتى أتم له صورة بديعة ذات ألوان باهرة، أبرز كل ملامحها، وألقى النور على تفاصيلها، حتى لم يبقَ فيها موضع للغموض"⁽²⁾.

هذه شهادة أبي حديد على هذا الكتاب والتي رأى فيها الصورة الكاملة لعهد أبي بكر ﷺ بكل تفاصيلها وألوانها وملامحها، ويميل الباحث إلى رأي أبي حديد في هذا الكتاب؛ لأن هيكل كان حريصاً فيه على أن يكون موضوعياً، فلم يتسرع في وصف الأحداث ولا في تحليلها، ولعل تركيز هيكل على رسم الصورة متكاملة أن عهد أبي بكر ﷺ كان حافلاً بالأحداث الجسام التي أرادت أن تعصف بالإسلام، ولولا قوة أبي بكر ﷺ الإيمانية، وشدته في الحق لما استطاع أن يثبت أسس هذا الدين بالقضاء على الفتن، لقد رأى هيكل أن هذا العهد كان يمثل مفترق طرق ولولا رعاية الله لأبي بكر ﷺ لكان الإسلام في خطر أشد.

(1) هيكل، في منزل الوحي (ص20).

(2) مجلة الثقافة، العدد 214، 1943/2/2م.

4- الفاروق عمر:

يرى شوقي ضيف أن كتاب (الفاروق عمر) جاء كثرة جهد كبير بذله هيكل، فقد درس ويحث وجمع "كل ما يستطيعه من حقائق تاريخية، حتى ليهول لك الموقف فتظن أنه حشد لك كل الوثائق والمستندات، فليس هناك من سبب ممكن لتحطيم الدولة الفارسية في موطنها إلا سجله، وليس هناك من سبب في تحطيم الدولة الرومية في بعض جوانبها في مصر والشام إلا وقد صوره"⁽¹⁾.

وعطفًا على الكلام الذي ذهب إليه شوقي ضيف فإنه يمكن القول أن هيكلًا عندما كتب هذا الكتاب كان حريصًا على أن يدعم كل الأفكار التي ساقها بالبراهين والحقائق حتى يقطع الطريق على المشككين من أعداء الأمة الذين حاولوا التقليل من قيمة الأعمال الجهادية في عهد الفاروق خاصة أنها تمس فارس والروم.

كما يرى الباحث أن هيكلًا كان دقيقًا في بحثه، موضوعيًا في طرحه، فلم تجره العاطفة نحو العرب والمسلمين إلى الانحياز لهم دون دليل يقوده إلى الحقيقة.

كتابه ولدي:

هذا الكتاب عبارة عن رسائل دون فيها هيكل الانطباعات التي تركتها الأحران في نفسه، فقد قام برحلة إلى الغرب برفقة زوجته، بعد أن فقدوا ابنهما ممدوح، أراد فيه هيكل أن يعبر عن جو الحزن الذي عاشه، وعن الألم الذي اعتصر قلبه، "إنها تأملات حزينة بدت فيها خيوط فلسفته القائمة التي صور فيها دموع زوجته إلى وصف رائع لحضارة أوروبا ومغانيها وقصورها وطبيعتها وفنّها وموسيقاها"⁽²⁾.

عاش هيكل أجواء الحزن المملوءة بالحسرة وألم الفقد، والتي سكنت قلبه وامتزجت بفلسفته، فهو ينظر إلى الحياة نظرة توازن، فكما أن فيها الحزن فيها الجمال والمرح، وكما أن فيها الموت، فيها الحياة -أيضًا- وكأنه يستمد هذه الفلسفة الحياموتية من قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾⁽³⁾، وكأنه أيضًا يستمدّها من ابن خفاجة الأندلسي الذي طال عمره ، وقد عبر عن ذلك في قوله في بائيته حين استنتطق الجبل:

(1) مجلة الثقافة، العدد 36، 1945/5/5م.

(2) هيكل، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص 299).

(3) [الملك: 2].

فسلّى بما أبكى وسرّ بما شجى وكان على ليل السرى خيرَ صاحبٍ
وقلتُ وقد نكبت عنه مطيّي سلامٌ فإئنا مقيمٌ وذاهبٌ!⁽¹⁾

وكان هيكل بهذه المعادلة يريد أن يكشف للقارئ عن لغز الحياة التي تجمع بين الأضداد.

أهم المحطات في حياة هيكل⁽²⁾:

1909	سفره إلى باريس للدراسات العليا.
1912	حصوله على درجة الدكتوراة في القانون.
1914	نشر رواية زينب.
1922	صدر جريدة (السياسة اليومية) ورئاسته لتحريرها.
1922	صدر (السياسة الأسبوعية) العدد الأول 100/30
1936	تعيينه عضواً بمجلس الشيوخ.
1937	تعيينه وزير دولة للداخلية في وزارة محمد محمود باشا.
1938	تعيينه وزيراً للمعارف في وزارة محمد محمود باشا الثانية.
1940	تعيينه عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.
1941	تعيينه عضواً بمجلس الشيوخ، وزعيماً للمعارضة.
1943	رئاسته لحزب الأحرار الدستوريين.
1944	تعيينه وزيراً للمعارف والشئون الاجتماعية.
1945	تعيينه رئيساً لمجلس الشيوخ.
1949	نهاية السياسة الأسبوعية.
1950	نهاية رئاسته لمجلس الشيوخ.

(1) النوبري، نهاية الأرب في فنون الأدب (ج1/227).

(2) ينظر: هيكل، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص87-88).

من خلال المحطات السابقة في حياة هيكل يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

1- سفر هيكل إلى باريس وحصوله على درجة الدكتوراة في القانون كانت نقطة أو محطة انطلاق لهيكل فتحت أمامه آفاق نحو العمل الصحفي والسياسي.

2- من بداية الانطلاق وحتى عام 1950م جمع هيكل بين العمل الصحفي والسياسي والتشريعي والحكومي.

3- تقلبه في المناصب الحكومية وتكرار تعيينه في مجلس الشيوخ، ورياسته لحزب سياسي، وإسناد زعامة المعارضة له، كل ذلك يدل على قوة شخصيته وكفاءته وخبرته، وأنه كان محل أنظار المسؤولين آنذاك.

هيكل والصحافة:

إنّ المتتبع لتاريخ الصحافة المصرية يلاحظ أنها ولدت في أحضان الجهات الرسمية، وتم رعايتها بأموالها، وتغذت على أفكارها، فعبرت عن رأيها، وبعد فترة زمنية "ظهرت إلى جانبها صحافة أخرى هي الصحافة الشعبية... لم تكن في أول أمرها إلا صورة دقيقة من الصحافة الرسمية"⁽¹⁾.

وبعد مرور الأيام على الصحافة الشعبية بدأت تعمل كمدرسة صحفية، فكانت إصداراتها "مشحونة بالفصول العلمية والأدبية، مترجمة عن الكتب الأجنبية حيناً، ومأخوذة من الكتب العربية القديمة حيناً"⁽²⁾.

حاول رجال هذه المدرسة الصحفية أن ينشروا الثقافة، وأن ينشئوا الصحف، بطريقة عصرهم، واعتمدوا في ذلك الأسلوب الأدبي، ويمكن اعتبار هذه المدرسة أنها المدرسة الصحفية الأولى، تبعها ظهور المدرسة الصحفية الثانية كما يرى ذلك عبد اللطيف حمزة، الذي تحدث عن هذه المدرسة فقال: "فوجدنا المقالة الصحفية بالمعنى الصحيح تولد على أيدي رجالها، ويتمتع القراء في مصر والشرق بطائفة من المقالات السياسية حيناً، والاجتماعية حيناً آخر، وإذا بأعلام هذه المدرسة لهم قدرة على أداء هذه المعاني في أدق صورها، وأجمل مناظرها، وأيسر طرقها أو قربها إلى أذهان الخاصة والعامة على السواء"⁽³⁾.

(1) حمزة، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص 235).

(2) المرجع السابق، ص 236.

(3) المرجع نفسه، ص 238.

في ظل هذه المدرسة انطلقت حياة هيكل الصحفية، فقد استهوته الصحافة في وقت مبكر من حياته، فبدأ الكتابة في (الجريدة) وهو طالب في مدرسة الحقوق سنة (1907م)، ويتحدث هيكل عن المقالة الأولى التي نشرها وأثرها في نفسه قائلاً: "وما كان أعظم سروري يوم ظهر لي أول مقالة فيها، لم تكن مقالة سياسية، ولكنها كانت عن حرية المرأة، وقد أبدى لطفي السيد تقديره بأسلوب وطريقة تفكيري، فزاد ذلك في تشجيعي"⁽¹⁾، وكان هيكل أحد الطلائع الفاعلة الذين استوت على أيديهم معالم الصحافة الوطنية المصرية، "كان يعرف كيف يفتق ذهنه من أجل خلق أفكار جديدة تفيد الصحافة وتثريها، وتجعلها صحافة حية"⁽²⁾، فالمقالة الصحفية عند هيكل تدل على روحه الوثابة التي تتأثر بالواقع الاجتماعي والفكري والسياسي، ويلاحظ أن المقالة الاجتماعية ظهرت في كتاباته قبل المقالة السياسية⁽³⁾.

هذه الموهبة التي كان يمتلكها هيكل والتي نماها وصقلها، جعلته يدخل دائرة التميز في العمل الصحفي، وامتد طموحه الصحفي إلى خارج إطار السياسة ليدخل عالم الأدب، والفن والعلم، فقد "أصدر هيكل مجلة (السياسة الأسبوعية) لتكون نافذة للأدب والفن والعلم، وقد صدر العدد الأول منها في 13 مارس سنة 1926م"⁽⁴⁾.

ولهيكل فضل كبير في تطوير العمل الصحفي، فيحسب له أنه كان "أول من جعل المقالة الصحفية صغيرة مركزة دون تطويل ممل وإعادة وتكرار، وأول صحفي اقترح التخصص والتوسع في عملية التخصص... وأول من أوجد (الريبورتاج) التحقيق الصحفي في الصحافة المصرية"⁽⁵⁾.

ومن مآثر هيكل أنه كان يعمل كصحفي همه الأول قضايا الوطن، رغم أنه كان يرأس جريدة حزبية "فلم يكن يكتب من منظور حزبي ضيق الأفق، وإنما كان يصدر من وجهة نظر وطنية عامة... فهو إذاً نموذج مثالي للصحفي المثقف النزيه الذي يعمل لصالح الوطن قبل أن يعمل لصالح الحزب"⁽⁶⁾.

(1) هيكل، مذكرات في السياسة المصرية (ج1/31).

(2) عبد العزيز، إبداع الشباب وإبداع الشيوخ في دنيا الأدب (ص105).

(3) ينظر: الجريدة، 26 أبريل، 1911م.

(4) وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص36).

(5) عبد العزيز، إبداع الشباب وإبداع الشيوخ (ص105).

(6) وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص63).

يرى الباحث أنه كان لهيكل دور كبير في تطوير معالم الصحافة المصرية، فقد قدم صورة كاملة للفن الصحفي بعد تطوره في مطلع القرن الماضي، وبيّن خصائص المقالة الصحفية خلال تلك السنوات الطويلة، حيث يحسب له أنه جعل المقالة الصحفية صغيرة ومركزة، وأنه طالب بالتخصص في الكتابة الصحفية، وأنه أول من أوجد التحقيق الصحفي في الصحافة المصرية، كما يُحسب له نزاهته وشفافيته، فكان يكتب من منظور وطني وليس من منظور حزبي رغم انتمائه الحزبي الواضح، ويضاف إلى ذلك أن هيكلًا كان يؤمن إيمانًا عميقًا بحرية الصحافة، لما لها من أثر في بناء الأجيال وصون كرامة الإنسان.

وأخيرًا فإنه يمكن القول أن هيكلًا كان في مجال الصحافة موسوعيًا، فقد كتب في السياسة والأدب والفكر والفن والعلم والدين والتاريخ، وكان رائدًا من رواد الصحافة له مكانته في تاريخ الصحافة المصرية.

هيكل والوزارة:

كان هيكلٌ متعدد المواهب، ثري الخبرات، تظهر في شخصيته سمات القيادة، لذلك وقع عليه الاختيار ليتولى أمر الوزارة، ففي المرة الأولى تم تعيينه وزيرًا للدولة في وزارة الداخلية، وفي المرة الثانية تم إسناد وزارة المعارف له، ولقد سجل هيكل وهو على رأس وزارة المعارف إنجازات عظيمة أهمها:

- 1- قسم المحافظات إلى مناطق تعليمية، وجعل فيها قانونًا ونظامًا.
- 2- عمل على إنشاء جامعة الإسكندرية، حيث لم يكن في مصر سوى جامعة القاهرة وعين شمس.
- 3- نادى بأن يكون مدير (دار الكتب) ومدير (مصلحة الآثار) مصريين.
- 4- دعا بضرورة العناية بإعداد مدرس اللغة العربية.
- 5- نادى بفكرة إنشاء مجمع اللغة العربية.
- 6- أدخل مادة الرياضة البدنية في المراحل الدراسية المختلفة.
- 7- دعا إلى ضرورة استقلال الجامعات عن وزارة المعارف، وأن يكون للجامعة نظامها المستقل من حيث تعيين أعضاء هيئة التدريس، وترقياتهم ورواتبهم وسائر شؤونهم⁽¹⁾.

(1) ينظر: وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص64-65).

هذه الإنجازات سجلها التاريخ لهيكل في القطر المصري، وإنما إن دلت فإنما تدل على أفكار هيكل المبدعة النهضوية، وبذلك استحق هيكل أن يتبوأ هذا المنصب الذي كان له أثره في حياة المتعلمين من أبناء مصر.

هيكل والإصلاح الاجتماعي:

ثمة آثار للحملة الفرنسية على مصر (1798-1801م) منها أنها دقت الناقوس الذي أيقظ مصر لتساير التقدم، والتفاعل مع تطور الحياة، فقام محمد علي بإرسال البعثات إلى فرنسا، ونشأ عن ذلك تيارات فكرية وثقافية حاولت أن تؤسس في مصر لمفاهيم جديدة في الفكر والأدب والاجتماع والسياسة أبرزها محاربة الجمود في الفكر وتخليصه من قيد التقليد، والدعوة إلى تحرير المرأة.

وهيكل كجزء من هذه التيارات بعد سفره لباريس دخل مرحلة الشك والاضطراب لكثرة ما قرأ في كتب الاجتماع، وما رأى من مشاهد فرنسية "لكن نشأته الريفية الوداعة وإيمانه الديني جعله ينهي بسرعة مرحلة الشك الديني، ويقصر الشك على مسائل السياسة والحكم والحياة الاجتماعية والفكرية"⁽¹⁾.

ورغم أن هيكلًا ترك بيئته التي تربي في أحضانها وعاش حياة الغربية في بيئة مختلفة تمامًا عن بيئته؛ إلا أنه كان يفكر دائمًا في مشاكل الحياة العامة في مصر وفي سبل الإصلاح الاجتماعي، فسخر لذلك كل ما يملك من أدوات، فاستخدم قدرته على التعبير والنشر لإرساء بعض الأمور الإصلاحية، فقد ظهر ذلك جليًا في مقالاته ونتاجه الأدبي.

ملاح شخصية هيكل:

نشأ هيكل في الريف، وتربي في أحضانه، وكان لحياة الريف أثر في نفسه، فقد اكتسب كثيرًا من الصفات من والده ومن بيئته، علاوة على الصفات الفطرية التي رزقه الله إياها، لقد "حمل هيكل منذ ولادته أمارات النجابة والذكاء، فأحاطته العائلة جميعها بالرعاية الكريمة... حتى شب هيكل رجلًا مفكرًا، قوام شخصيته الأنفة والحياء"⁽²⁾.

(1) وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص19).

(2) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص58).

حافظ هيكل على أصول هذه التربية، فكان يتمتع بصفات حميدة وأخلاق كريمة، "كان رجلاً عف اللسان، متسامحاً كريماً في خصوماته، وكثيراً ما قال كلمة الحق في أخرج المواقف، ينصف به الخصوم والأنصار على السواء"⁽¹⁾.

وكان هيكلٌ عقلانيًا، مما جعله دائم البحث عن الحقيقة، فكان مجتهدًا جادًا من أجل الوصول إليها، فقد كان يسير خلف العقل والتفكير، وما خلفه هيكل من تراث، وما شارك فيه من أعمال يكشف عن شخصية راجحة العقل، منسقة التفكير⁽²⁾.

ورغم عقلانيته إلا أنه لم يهمل قلبه، فقد حملَ عقله وقلبه "الضمير الوطني، وكان إخلاصه لمصر الأرض والوطن والاعتزاز بالتراث المجيد، والحاضر المتجدد، واستشراف المستقبل المصري هو همه فيها، فقد أبدع وفكر، وكافح ببسالة ووعي من أجل تأصيل الذات المصرية في كل مجال"⁽³⁾.

تبوأ هيكل المناصب العالية، وكان ذا شهرة مرموقة، وتمتع بعلاقات واسعة، إلا أنه ظل إنسانًا متواضعًا لم يفتنه مال، ولم يغرّه جاه، وكان هيكل "إنسانًا وديعًا، وكان عفيفًا لا يطمع لجمع المال، وأبى الثراء عن طريق السياسة والزعامة... وآثر أن يعيش على قلمه، ومن صناعة الأدب والصحافة والفكر المصري الإسلامي"⁽⁴⁾.

وبجانب هذه الصفات النبيلة اتسم هيكل -كإنسان- ببعض صفات النقص، منها الاعتزاز بالذات، والتمسك بالرأي إلى حد العناد أحيانًا، فقد كان يعتقد أن الإصرار على الموقف يعبر عن كرامة صاحبه، ومثال على ذلك أنه تحدى سعد زغلول حين شكاه إلى النيابة بحجة إثارة الرأي العام⁽⁵⁾.

الإنسان مهما تمتع بالأخلاق الكريمة، والصفات الحميدة إلا أنه لن يستطيع الوصول إلى درجة الكمال، لأن الكمال لله وحده، ومن هذا المنطلق يرى الباحث أن هيكلًا كإنسان له ما له وعليه ما عليه، وأن ذلك لا يقلل من قيمة شخصيته شيئًا.

(1) عبد العزيز، إبداع الشباب وإبداع الشيوخ (ص 105).

(2) ينظر: وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص 50-55).

(3) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص 63).

(4) عبد العزيز، إبداع الشباب وإبداع الشيوخ... (ص 105).

(5) ينظر: وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص 50-55).

وفاة هيكل:

اقتضت سنة الله في خلقه أن يكون الميلاد بدايتهم والموت نهايتهم، وما بينهما قوة سطر فيها هيكل معظم إنجازاته، وفي وهن الشيخوخة وعندما شعر هيكل "بضعف بصره استعاض بأولاده عن قوة إبصاره فكانوا يقرأون له الكتب والصحف... بل ويقودونه في الشارع من يده، كان يضحك من الدنيا"⁽¹⁾، ولما قامت الثورة "أجبر هيكل على الانزواء السياسي حين حُلت الأحزاب...، واعتكف هيكل في منزله كاتبًا يسطر مذكراته، ويراجع ما تحتاج إليه كتبه من زيادات، حتى لقي ربه في صباح السبت.. من ديسمبر سنة 1956م، بعد ثمانية وستين عامًا قضاها كاتبًا وسياسيًا وزعيمًا، فاكتسب مكانته الخالدة بين المفكرين"⁽²⁾.

يقول عباس محمود العقاد بعد إعلان وفاة هيكل: "لقد كان رحمه الله من أصحاب الجوانب المتعددة في شتى الميادين... كان صحافيًا ومؤلفًا في التاريخ والسير، وكاتبًا قصصيًا، وناقداً أدبيًا، وعضوًا عاملاً في أسرة القانون، وأسرة المجالس النيابية... كان في طليعة الصفوف... وارتنقى إلى الذروة..."⁽³⁾.

وهكذا أُسِدِل الستار على حياة هيكل التي كانت حافلة بالنشاط والحيوية، لكن آثاره وتراثه ما زالوا يذكران الأجيال به.

(1) عبد العزيز، إبداع الشباب وإبداع الشيخوخة... (107).

(2) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص23).

(3) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ج57/9).

فن المقالة

يعد فن المقالة من أكثر الفنون انتشاراً، فميدانه واسع، ومجاله رحب، فهو يُكتب ويُنشر على صفحات الصحف والجرائد والمجلات، وفي عصر التطور التقني الحديث الذي نعيشه وصل هذا الفن إلى كل بيت عبر الانترنت بكل يسر وسهولة، ولأنه قصير قياساً بالفنون الأخرى، فهو السبيل أمام القراء المتعجلين، ويزداد الإقبال على قراءة المقالة وقت الأزمات والشدائد والأحداث.

والمقالة تبدأ بفكرة تجول بخاطر الكاتب فيتبناها، ويقلبها في ذهنه ليتعمق فيها، فإذا شعر أنها صالحة للنشر أخذ يسطرها في مذكرته ويرتبها ويجملها، هذه الفكرة مرتبطة بأحداث الحياة، يعرضها الكاتب ويشرحها، يؤيدها أو يعارضها بأسلوبه.

تعريف المقالة:

المقالة في اللغة:

جذر المقالة في المعجم العربي مادة (ق و ل).

ففي المعجم الوسيط: قال قولاً ومقالاً ومقالة: تكلم فهو قائل، والقول: الكلام، والمقالة هي القول⁽¹⁾.

قال كعب بن زهير:

أسرع من منحدر سائل

مقالة السوء إلى أهلها

نموه بالحق وبالباطل⁽²⁾

ومن دعا الناس إلى ذمه

وقال النابغة الذبياني:

وتلك التي تستك منها المسامع

وأخبرت خير الناس أنك لمتني

وذلك من تلقاء مثلك رائع⁽³⁾

مقالة أن قلت سوف أناله

(1) مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (ص 767).

(2) الهبيباوي، الطبع والصنعة في الشعر (ص 150).

(3) ديوان النابغة الذبياني (ص 47، 48).

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مسجد
وإن قال في يومٍ مقالة غائبٍ فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد⁽¹⁾

وورد عن ابن منظور تحت المادة السابقة: (القول الكلام على الترتيب وهو كل لفظ قال اللسان تاماً أو ناقصاً، قال يقول قولاً وقيلاً وقولة ومقالاً ومقالة⁽²⁾).

وقد جاء عن الفيروزآبادي تحت هذه المادة: (القول: الكلام أو كل لفظ مدل به اللسان، والجمع أقوال وجمع الجمع أقاويل، أو القول في الخير والقال والقيل في الشر، أو القول مصدر، والقول والمقال اسمان له، أو قال قولاً وقيلاً وقولةً ومقالةً ومقالاً⁽³⁾).

بعد استعراض ما سبق يستطيع الباحث القول:

1- المقال والمقالة مصدر ل(قال) وهما بمعنى واحد.

2- المقال أو المقالة لفظ فصيح له أصله في لغة العرب ومعناه (الشيء الذي قيل).

3- المقال أو المقالة "مصدر ميمي واسم زمان ومكان"⁽⁴⁾.

المقالة في الاصطلاح:

أورد محمد يوسف نجم في كتابه (فن المقالة) عدة تعريفات للمقالة⁽⁵⁾: منها تعريف جونسون بأنها (نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام، هي قطعة لا تجري على نسق معلوم، ولم يتم هضمها في نفس كاتبها) ويعلق نجم على هذا التعريف بأنه إن صدق على المقالة في طورها الأول، فهو لا يصدق عليها اليوم، وعرفها موري بأنها (قطعة إنشائية ذات طول معتدل تدور حول موضوع معين أو حول جزء منه).

(1) عرفات، ديوان حسان بن ثابت (ج1/464).

(2) ابن منظور، لسان العرب (ج11/573).

(3) الفيروزآبادي، القاموس المحيط (ج4/42).

(4) شلق، النثر العربي (ص317).

(5) ينظر: نجم، فن المقالة (ص93-95).

أما آدموند جوس فقد عرفها بقوله: (هي قطعة إنشائية ذات طول معتدل تكتب نثرًا، وتلم بالمظاهر الخارجية للموضوع بطريقة سهلة سريعة، ولا تُعني إلا بالناحية التي تمس الكاتب عن قرب).

ويخرج نجم من هذه التعريفات المختلفة بتعريف يشملها جميعًا وهو أن (المقالة الأدبية قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرهق، وشرطها الأول أن تكون تعبيرًا صادقًا عن شخصية الكاتب).

أما أحمد الشايب فالمقالة عنده "تطلق في العصر الحديث على الموضوع المكتوب الذي يوضح رأيًا خاصًا، وفكرة عامة أو مسألة علمية أو اقتصادية أو اجتماعية يشرحها الكاتب ويؤيدها بالبراهين"⁽¹⁾.

ويرى عبد العزيز عتيق أن المقالة "قطعة من النثر الفني يتحدث فيها الكاتب بنفسه ويحكي تجربة مارسها أو حادثًا وقع له أو خاطرًا خطر له في موضوع من الموضوعات"⁽²⁾.

ومن التعريفات الجامعة للمقالة أنها "تمط من التعبير الحر المصور لأحداث الحياة وصور المجتمع نتعرف به على ملامح كل جديد، وخصائص كل مبتكر، وسمات كل مستحدث من سياسة وأدب واجتماع ونقد وعلوم في أقرب وقت، وبأقل جهد..."⁽³⁾.

مما سبق يستطيع الباحث القول: إن المقالة حديث مباشر يخاطب العقل، ويناجي القلب، ويعبر عن الرأي، ويوضح الموقف، ويصور الإحساس، غايته الإرشاد والتوجيه، يدعو إلى المكارم، ويحث على الفضائل، ويربط بين الحاضر والماضي، ويحاول استشراف المستقبل.

المقالة في الأدب العربي والأدب الغربي: النشأة والتطور:

أولاً- المقالة العربية:

إن المقالة أصيلة في الأدب العربي القديم، ومتجذرة فيه، والذي يُنعم النظر في المقالة الصحفية، يجد أنها برزت في العديد من الآثار الأدبية، مثل: آثار عبد الحميد الكاتب في القرن الثاني الهجري قد أبدع فيها من خلال رسالته إلى ولي العهد⁽⁴⁾، وعند ابن المقفع تظهر في

(1) الشايب، الأسلوب (ص94).

(2) عتيق، في النقد الأدبي (ص229).

(3) أبو ذكري، المقال وتطوره في الأدب المعاصر (ص69).

(4) نجم، فن المقالة (ص19).

رسالته إلى الصحابة⁽¹⁾، وتميز الجاحظ في مقالاته النقدية والفكرية والاجتماعية في كتابه (البخلاء) ورسائله العديدة، وتجلت المقالة -أيضاً- عند أبي حيان التوحيدي في كتابيه (الإمتاع والمؤانسة) و(المقابسات)⁽²⁾، أما كتاب (صيد الخاطر) لابن الجوزي فتعدّ فصوله مقالات حيث عبر فيها عن خواطره وتجاريه.

أما عباس محمود العقاد فقد بيّن أن أصل المقالة الأول كان في الآداب العربية، لذلك فقد اعتبر المقالة العربية هي الرائد في هذا الفن على مستوى الآداب العالمية لأن ظهورها سبق ظهور مقالات (مونتاني)⁽³⁾.

في ضوء ما سبق يرى الباحث أن المقالة العربية نبعث من الفكر العربي القديم الأصيل، وأن ميلادها وبذور نشأتها فقد كانت عربية بامتياز، أما حديثاً فقد انتشرت المقالة في الأدب العربي منذ القرن التاسع عشر، حيث ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الصحافة في مصر بدءاً بتطور المدرسة الصحفية الأولى ومن مثلها من كتاب كرفاعة الطهطاوي وعبد الله أبو السعود وميخائيل عبد السيد، وفي طور آخر تطورت المقالة على يد أديب اسحق، وسليم النقاش، وسعيد البستاني، ومحمد رشيد رضا، وخليل مطران، ونجيب الحداد وغيرهم ثم لحق بهم من الكتاب عبد الرحمن شكري، وعبد العزيز البشري، وطه حسين، وإبراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد وغيرهم⁽⁴⁾.

ثانياً - المقالة الغربية:

مرت المقالة الغربية بمراحل في نشأتها وتطورها، وقد أصبغ كتاب كل مرحلة سمات كتاباتهم على مقالة عصرهم، وكان أول رائد في الأدب الفرنسي (مونتيني) حيث بدأ الكتابة نحو سنة 1571م، وتناول فيها الحديث عن مشكلات عصره الاجتماعية والفكرية التي كان مصدرها الأدب الكلاسيكي ونهضته والفلسفة القديمة، ويلاحظ في كتاباته الأولى خلوها من العنصر الذاتي، وبعد سنوات عديدة اتجه في مقالاته إلى إبراز العنصر الشخصي فأصبحت مقالاته

(1) جمعة، قراءة في المقالة العربية (ص8).

(2) المرجع السابق، ص8.

(3) العقاد، يسألونك (ص5).

(4) ينظر: نجم، فن المقالة (ص64-70).

"تمثل أوج ما بلغه من تطور وارتقاء في هذا الفن الجديد بعد أن أُتيح له في سنة 1588م إخراج طبعة جديدة نفع فيها مقالاته السابقة"⁽¹⁾.

أما في إنجلترا فقد برز (فرنسيس باكون) الذي يعتبر الرائد الثاني لفن المقالة في الغرب، فقد أصدر عام 1612م طبعة جديدة من مقالاته، وقد كان عددها ثمانية وثلاثين، ومن ثم تطور باكون في كتابة مقالاته، فعمد إلى كثير من التصميم والتنسيق، وإلى الحديث المرسل المستفيض الذي ينضح بالحيوية والألفة⁽²⁾.

وفي القرن السابع عشر تطورت المقالة فنيًا وموضوعيًا في أوروبا على أيدي ثلة من الكُتاب أمثال (إبراهام كاولي) و(ديدين)، وكذلك تطورت المقالة في القرن الثامن عشر على يد آخرين من الكُتاب أمثال: (ريتشارد سنيل) و(جوزيف أديسون)، وفي القرنين التاسع عشر والعشرين ظهرت مجموعة من الكُتاب مثل (روبرت ستيفنسون) و(ماكس بيربوم) و(إدوارد نوقاس)⁽³⁾.

بعد أن استعرض الباحث نشأة وتطور المقالة عند العرب والغرب يستطيع القول أن بداية نشأتها عند العرب كانت في القرن الثاني الهجري بينما نجد بدايتها عند الغرب في القرن السادس عشر الميلادي، وهذا دليل على سبق العرب للغرب في هذا الفن، أما عن التطور فقد كانت بدايته في القرن التاسع عشر عند العرب، وفي القرن السادس عشر عند الغرب، وهذا يدل على أن الغرب سبقوا العرب في تطور المقالة بثلاثة قرون.

وظيفة فن المقالة:

1- تحمل المقالة الثقافة وتوصلها إلى جميع الناس لتصويب أوضاعهم، وتغيير نمط حياتهم، هذه الثقافة تدعو إلى الخير، وترشد إلى الحق، وتحت على الهداية "والوظيفة الأساسية الأهم التي تستطيع المقالة أن تتجزها تتمثل في نشر التوعية والتثقيف والبناء الفكري"⁽⁴⁾، كما تقوم المقالة "بأداء وظائف الإعلام والتفسير، والشرح، والتوجيه، والإرشاد، والإمتاع، والتعليم، والتنشئة الاجتماعية"⁽⁵⁾.

(1) ينظر: نجم، فن المقالة (ص32).

(2) ينظر: المرجع السابق، ص36.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص44-64.

(4) المحمود، مقال فن المقالة (ص461).

(5) شرف، الأساليب الفنية في التحرير الصحفي (ص336).

2- للمقالة دور كبير في النهضات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، فهي تعنى بالتعليق على الخبر، وتبين مغزاه السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي، كما أن لها وظيفة تروية تساهم في التنشئة الاجتماعية والسياسية والعسكرية⁽¹⁾، وهي كنشاط إنساني يحرض الشعوب على التحرر لأنها أداة من أدوات الثورة والانتفاضة.

3- المقالة وسيلة من وسائل الاستمتاع بجمال الحياة، ففيها يجد المأزوم سلوى، والمحزون مسرة، والمهموم فرجاً، ويزداد الاستمتاع بجمال المقالة عند من كان يرغب في قراءتها للاستفادة والمعرفة وذلك من خلال "المعلومات والبيانات، فضلاً عن الأفكار الجديدة حول قضايا ومشاكل معاصرة أو قديمة تشغل اهتمامات الرأي العام، وتفسير هذه الموضوعات، وتنقيف القارئ عن طريق إمداده بالمعلومات والأخذ بهدف التسلية والإمتاع"⁽²⁾.

4- متابعة الأحداث المحلية والدولية، والاهتمام بالقضايا التي تهم الرأي العام، والتنقيف عن طريق نشر المعلومات والمعارف الإنسانية، ونشر الدعاية السياسية، وبث الدعاية الأيديولوجية، وتعبئة الجماهير بقصد التنمية الاقتصادية والاجتماعية⁽³⁾.

5- تصوير الأفكار، والتعبير عما في النفس الإنسانية من عواطف وأحاسيس، تنتقل إلى القراء كتجارب حياة لتعينهم على الفهم، وتوجههم إلى الغايات النبيلة، فالمقالة تقدم "فهماً معمقاً لقضية ما، ويسعى لخلق قناعة جديدة لدى القارئ إزاء هذه القضية، أو لتعديل قناعة قديمة موجودة في ذهنه، ويجهد لتوسيع إدراك القارئ وتنمية وعيه وتعميق فهمه للحوادث والظواهر والتطورات بقصد المساهمة في تنشئة المواطن وفق رؤية الكاتب"⁽⁴⁾.

مما سبق يتبين أن المقالة تلعب دوراً مهماً وخطيراً في حياة الناس، لأنها تدور في فلك السياسة، والاجتماع، وعلم النفس، والاقتصاد، والأدب، والدين، والفكر، والفن، والثقافة، والتاريخ، والحاضر، والمستقبل، وهي التي تقوم بالتوجيه والتعبئة، تزرع الفكر، وتنتشر الثقافة، وتنمي الوعي، مهمتها الإفهام والإقناع والإمتاع والهداية والنهضة والتربية والتنمية والتوعية.

(1) ينظر: شرف، فن المقال الصحفي... (ص 29-30-33-49-55).

(2) شيخاني، أثر تكنولوجيا الاتصال والمعلومات... (ص 571-572).

(3) ينظر: أبو زيد، فن الكتابة (ص 180).

(4) خضور، مدخل إلى الصحافة نظرية وممارسة (ص 149).

أنواع المقالة:

للمقالة أنواع عديدة، وتقسيمها مرتبط بطبيعة المقالة ومضمونها، ويمكن التمييز بين نوع وآخر من خلال وظيفة المقالة وموضوعها ولغتها وأسلوبها كالتالي:

1- المقالة الذاتية:

وفيها يعبر الكاتب عن أفكاره وعواطفه وميوله، "فحين يصف الكاتب رحلة، أو يصور مشهداً من مشاهد الطبيعة، أو يكشف عاطفة صادقة مارت في صدره، وأراد أن ينقش بعض ما يجد منها بما يريق على السطور من إبداع"⁽¹⁾. فمحور الحديث فيها يدور حول ذات الكاتب وتجربته ورؤيته، وبذلك تظهر شخصيته "جلية جذابة تستهوي القارئ، وتستأثر بلبه، وعدته في ذلك الأسلوب الأدبي الذي يشع بالعاطفة ويثير الانفعال، ويستند إلى ركائز قوية من الصور الخيالية، والصنعة البيانية، والعبارات الموسيقية والألفاظ القوية الجزلة"⁽²⁾، ويتطلب إعداد المقالة الذاتية المزاج الملائم حتى لا تخرج فاترة باردة، وهذا يستدعي عند كتابتها أن تخرج من عاطفة جياشة صادقة، وشعور حماسي قوي⁽³⁾.

2- المقالة الموضوعية:

في هذا النوع من المقالة لا مجال لأن يبث الكاتب ميوله، ولا أن يعبر عن عواطفه، ففيها يطرح الكاتب الموضوع أو القضية للدراسة والتوضيح والبيان بأسلوب علمي، ويدعم أفكاره بالأدلة والبراهين، وفي النهاية لا بد أن يخرج بنتائج. ويرى عبد الكريم الأشر أن المقالة الموضوعية "يحكمها منطق البحث ومنهجه الذي يقوم على بناء الحقائق على مقدماتها، ويخلص إلى نتائجها"⁽⁴⁾. وتدور المقالة الموضوعية "حول موضوع معين، يتعهد الكاتب بتجليته مستعيناً بالأسلوب العلمي الذي يبسر له ذلك، ومن خصائص هذا الأسلوب الوضوح والدقة والقصد وتسمية الأشياء بأسمائها"⁽⁵⁾. ويؤكد محمد نجم على عرض الموضوع بصورة منطقية

(1) ينظر: البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص45-46).

(2) نجم، فن المقالة (ص96).

(3) ينظر: أمين، فيض خاطر (ص178)، بتصرف.

(4) الأشر، تعريف بالنثر العربي الحديث (ص175).

(5) نجم، فن المقالة (ص96).

متسلسلة، ولا يلتفت الكاتب إلى الصور الخيالية أو الإيقاع الموسيقي للعبارات والألفاظ، وأهم أمر في هذه العرض بسط حقائق الموضوع⁽¹⁾.

ويرى محمد رجب البيومي أن هيكلًا اقتحم موضوعه في المقالة الموضوعية "وقد تسلح له بذخيرة الفوز، فعناصره واضحة في ذهنه، وصوره تواكب المعاني من غير تصنع ولا افتعال، وألفاظه تتدفق كالسيل وراء معانيه لا يعوقها عائق، ودراسته القانونية قد مهدت له سبيل المنطق في ترتيب المعاني"⁽²⁾.

3- المقالة النقدية الأدبية:

ومجال هذا النوع من المقالة عالم الأدب والفن، ويعتمد فيه الكاتب على التذوق للعمل الأدبي من خلال دراسته وفهمه وتحليله، وتطبيق المعايير النقدية عليه، ومن ثمَّ يقوم باستخراج النتائج وعرضها بأسلوب نقدي واضح، وهذه المقالة تعتمد على قدرة الكاتب على تذوق الأثر الأدبي أو مناقشة القضية التي يعرض لها ثمَّ تعليل الأحكام وتفسيرها وتقويم الأثر بوجه عام⁽³⁾.

4- مقالة النقد الاجتماعي:

لكل مجتمع عاداته وتقاليده وأعرافه، ومن باب التطور في الحياة يحدث تغيير في هذه الأمور إما إيجابًا أو سلبيًا، فالتغيير هنا هو محور النقد، فالكاتب لا يريد من نقده إلا الإصلاح، وهذا يتطلب الصدق والإخلاص والوعي، ومقالة النقد الاجتماعي "انطلقت وراء مغزى اجتماعي تنتشذ غاية نفعية... فقد تصدرت... في إيجابية للعيوب الاجتماعية وقضايا الحياة ومشكلاتها في مواجهة نشطة فعالة تنتشذ التقويم والإصلاح، حيث انغمس الكاتب في قومهم معبرين عن منطق معاناتهم الفعلية وتضامنهم الواقعي وانتمائهم الاجتماعي عن الآلام والآمال، يحددون بلسان صدق الأدواء، ويصفون في تعاطف وإشفاق الدواء، حرصًا على إصلاح ما فسد، وتصحيح سيرة من انحرف"⁽⁴⁾.

(1) ينظر: نجم، فن المقالة (ص103).

(2) ينظر: البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص45).

(3) محمد، التحرير الأدبي (ص185).

(4) عبد الخالق، ربيعي، فن المقالة الذاتية (ص128-129).

5- مقالة الوصف:

ويمكن أن يطلق عليها المقالة الوصفية حيث يصف فيها الكاتب البيئة أو الأحداث أو الصور بمهارة واحتراف وهذا يتطلب الدقة والبراعة لأن ما يوصف ينتقل إلى عقل وذهن القارئ، وغاية هذه المقالة " تصوير البيئة المكانية التي يعيش فيها الكاتب كما تتراءى لإنسان عميق الإحساس، حاد البصر، نافذ البصيرة، وهذا الامتزاج مع الطبيعة، والتعبير الإنساني عنه هو ما يميز مثل هذه المقالة"⁽¹⁾.

6- مقالة السيرة:

ويختص هذا النوع من المقالة بالحديث عن العظماء تقديراً لهم على ما بذلوه من تضحيات، وما ساهموا فيه خدمة للبشرية، كما تهدف هذه المقالة إلى معرفة الخفايا والأسرار التي أحاطت بهم، وتكتب كذلك لحث الناس على الاقتداء بهم، ومقالة السيرة لا تتعدى شخصية وموقفًا إنسانيًا معينًا، وإبداء الرأي فيه من خلال التأثير به "وتختلف عن الترجمة في النوع والدرجة الفنية... وتتراءى لنا الشخصية الموصوفة، وكأنها حية متحركة تحدثنا ونصغي إليها، وتروقنا بعض صفاتها فنعجب بها أو تسوؤنا فننفر منها"⁽²⁾.

7- المقالة التاريخية:

وتعتمد على الأحداث التاريخية، حيث يجمع الكاتب الروايات والأخبار من التاريخ ويرتبها وينسقها بطريقته، لكن يشترط عليه من باب الأمانة عدم إدخال ميوله واتجاهه في هذا النوع من المقالة.

8- المقالة العلمية:

ويطرح فيها الكاتب آخر المستجدات على الساحة العلمية من خلال مطالعته ومتابعته للأبحاث والدراسات العلمية ويستخدم المصطلحات العلمية.

خصائص أدب المقالة:

ليست الغاية من المقالة إثارة الوجدان، أو دغدغة العواطف، بل الإقناع الفكري بطريقة مشوقة ممتعة.

(1) نجم، فن المقالة (ص114).

(2) المرجع السابق، ص117.

هناك أسئلة كثيرة قد ترد في ذهن من يقرأ المقالة منها: هل العنوان يعبر عن مضمون المقالة؟ وهل الموضوع كامل واضح مباشر؟ هل الفكرة جديدة وجيدة؟ هل طريقة العرض مشوقة؟ هل لغة الكاتب فصيحة؟ هل ظهرت شخصية الكاتب في المقالة؟ هذه الأسئلة وغيرها تدعو إلى معرفة خصائص أدب المقالة.

1- تمتاز لغة أدب المقالة بالسلاسة والجاذبية والواقعية والتبسيط والوضوح حيث تحقق التقارب بين مستويات اللغة: العلمي والأدبي والعملي، فالكاتب يعبر عن الحياة بكل مكوناتها بطريقة تختلف عن طريقة الفيلسوف أو الشاعر أو المؤرخ أو القصاص، لذا "ينبغي أن يكتب المقالة باللغة التي يفهمها أكبر عدد ممكن من الشعب على اختلاف أذواقهم، وثقافتهم، وهذه اللغة يجب أن تتميز بالبساطة والوضوح والرشاقة، وتتأى ما أمكن عن صفات التعالي على القراء أو الغرابة في الأسلوب، أو المبالغة في التعمق"⁽¹⁾.

2- المقالة نثر فصيح مستقيم اللفظ يبتعد عن الألفاظ الغريبة والعامية، ويعالج ضعف العبارة، وتنافر الحروف، والحشو والتطويل في الجمل، وهذا يتطلب "مراعاة التخلص من الكلمات غير الضرورية وعدم تكرار الأسماء، وعدم استخدام صيغة المبني للمجهول، مع تجنب استخدام المفردات والمصطلحات والتعبيرات التي تتبدل مع كثرة الاستعمال فتصبح تعبيرات جاهزة حاضرة لا معنى لها"⁽²⁾، وهو بريء من الابتذال، وذلك باستخدام الصور الخيالية المناسبة.

3- يلائم ذوق الجمهور لأنه قيم في معناه وفي لفظه، ويؤكد فاروق أبو زيد بأن "لغة المقالة الصحفية هي لغة الحياة العامة أي لغة المواطن العادي، فهي لغة يفهمها جميع القراء مهما اختلفت مستوياتهم التعليمية أو الثقافية أو الاجتماعية، وهي لغة تقوم على السهولة والبساطة والوضوح، وتستفيد كثيرًا من دقة الأسلوب العلمي، ويجب ألا تكون هذه اللغة بلهجة عامية، وإنما بلغة عربية فصحي"⁽³⁾.

4- امتاز فن المقالة "بالتركيز والدقة العلمية، والميل إلى بث الثقافة العامة لتربية أذواق الناس وعقولهم"⁽⁴⁾.

(1) حمزة، المدخل في فن التحرير الصحفي (ص319).

(2) أبو إصبع، فن المقالة... (ص23-24).

(3) أبو زيد، فن الكتابة الصحفية (ص180-181).

(4) شرف، أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة (ص156).

5- يتميز أدب المقالة "بحجمه القصير أو متوسط الطول"⁽¹⁾، بمعنى أنها تكون "محدودة في الطول والموضوع، تكتب بطريقة عفوية خالية من الكلفة والرهق..⁽²⁾ كما ويتميز بـ"الاتزان والنضج والهدوء... وعلى الكاتب ألا يسرف في عرض عواطفه عرضاً مثيراً"⁽³⁾.

6- صحة اللغة وسلامة التعبير، والترابط والتجانس بين أجزاء المقالة، والجمع بين المتعة والفائدة، حسن التنظيم والتقسيم، مراعاة الترتيب، الإقناع والتأثير، والتجربة الإنسانية⁽⁴⁾.

هذه هي خصائص أدب المقالة التي من المفترض أن تتوفر في كل مقالة حتى تكون جيدة أو على درجة عالية من الجودة، وعليه فإن الباحث يؤكد على ضرورة وجود نظام داخل المقالة، هذا النظام هو الذي يجعل العقل يقبله، والمنطق يستسيغه لأنه يؤدي إلى فائدة، ويثير المتعة، ويحدث جمالاً، فصيغته محكمة، وسبكه قوي، وأسلوبه شائق وجذاب، علاوة على أنه ينبغي لكاتب المقالة أن يحيط بموضوعه إحاطة تامة، ثم الإيجاز الشديد عند الكتابة، وهذا يتطلب المزيد من التكتيف والتركيز.

أدب المقالة بين الشكل والمضمون:

يرى علي أدهم أن المقالة... قد تكون طويلة فضفاضة، وقد تكون قصيرة موجزة، وقد تكون فكهة مرحة، وقد تكون جادة وقورة، وقد تتناول موضوعاً مهماً، وقد تدور حول موضوع من الموضوعات العادية المألوفة، وقد يتأنق الكاتب في كتابتها ويتخير لها أبلغ العبارات، وقد يتحرى في كتابتها اليسر والسهولة ويرسل نفسه على سجيبتها⁽⁵⁾.

يمكن تقسيم أدب المقالة من حيث الشكل إلى أنواع فنية منها⁽⁶⁾:

المقالة العرضية: وفيها يقوم الكاتب بعرض فكرة من الأفكار في مقالته.

المقالة النقدية: حيث يعمد الكاتب إلى نقد موضوع أو فكرة أو كتاب أو نص أدبي أو اتجاه من الاتجاهات في السياسة والاجتماع أو غيرهما.

(1) أبو إصبع، فن المقالة... (ص 49).

(2) ينظر: نجم، فن المقالة (ص 95-96).

(3) إمام، دراسات في الفن الصحفي (ص 186).

(4) أبو إصبع، فن المقالة... (ص 26-63).

(5) علي أدهم، على هامش الأدب والنقد (ص 101).

(6) ينظر: شرف، أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة (ص 157-158).

المقالة النزالية: وفيها ينازل الكاتب خصمه في الرأي بمعنى يناقشه ويحاوره ويحاول أن يقنعه، وهذا يتطلب من الكاتب أن يملك الأدلة والبراهين، والقدرة على توصيل الفكرة، والإلمام بالمعلومات ذات الصلة بالموضوع مدار النقاش والمحاورة.

هذا النوع من المقالة له حسناته وسيئاته، فمن حسناته أنه يثير انتباه الجمهور ويربطه بقضاياها واهتماماته، ويحفز كتاب المقالة على الإجابة في الصياغة والقوة في التعبير، ومن سيئاته أنه يُفسد العلاقة الإنسانية، وربما تزداد الخصومة فتتحول إلى حقد وكراهية، ويترسخ الاختلاف.

أما اتجاهات المقالة من حيث المضمون فيمكن تقسيمها إلى: الاتجاه الأدبي، والاتجاه السياسي، والاتجاه الاجتماعي، والاتجاه النقدي، وهذا ما سيتناوله الباحث بالتفصيل لاحقاً.

ثقافة كاتب المقالة:

المقالة ثمرة من ثمار التقدم الحضاري، وهي اتجاه مرتبط بروح العصر، تصف الواقع وتتقدمه، والذي يلعب الدور في هذه الأمور كلها كاتب المقالة الذي يحتاج إلى الثقافة إلى جانب المهارات الأخرى.

يرى هيكل أن من وسائل ثقافة كاتب المقالة العلم والفلسفة، وهي النظرة الخاصة والثاقبة للحياة والكون والوجود، وتفسير حركة الكون تفسيراً غير مباشر، يتوافق مع البيئة والفكر والثقافة، يقول هيكل: "العلم هو الوسيلة الأولى والأساسية والمستغنية بذاتها عن غيرها. والفلسفة هي الوسيلة الثانية المعتمدة على العلم لبناء مذاهب إدراك الحياة والوجود وما فيها من حق وجمال، وكذلك كانت الفلسفة وكان العلم في كل العصور، وكذلك كان العلم وكانت الفلسفة عند العرب كما هي عند سائر الأمم"⁽¹⁾.

أما عبد الحميد الكاتب فكان أكثر تشدداً وحرصاً في مسألة ثقافة الكاتب ويعود ذلك إلى أن منصب الكاتب في زمانه منصب رفيع لا يصل إليه إلا من كان مؤهلاً تأهيلاً كاملاً وفقاً لمفهوم الثقافة التي أشار إليها عبد الحميد كاملة؛ لأن هذا العصر فيه من التعقيدات والمستجدات والمشاكل المختلفة التي لم تكن موجودة في عصر عبد الحميد، لكن هذا الأمر ليس على إطلاقه فالثقافة مطلوبة في كل عصر، وهنا نرجع إلى عبد الحميد ليحدثنا عن مناهج ثقافة الكاتب في عصره والتي ذكرها عبد العزيز شرف في كتابه أدب المقالة وهي "معرفة

(1) هيكل، ثورة الأدب (ص24).

صنوف العلم والأدب، التفقه في الدين، حفظ القرآن الكريم، معرفة الفرائض، إجادة اللغة وحسن نطقها، العناية بالخط، رواية الأشعار، معرفة أيام العرب والعجم وأحاديثهم وسيرهم، ومعرفة الأسباب⁽¹⁾.

أما ابن المقفع فقد تحدث عنه وعن ثقافة شرف -أيضاً- يقول عنه بصفته كاتب له حضوره: أنه تميز بطابع الحكمة التي تدل على عقل كبير، وفهم لأسرار المعاني والقيم، وقدرة على فهم معارف الحكم والسياسة، وكان يحيط بعلوم اليونان وأدب الفرس، وكان أمة في البلاغة⁽²⁾.

أما العملاقة من الكُتاب الموسوعيين الذين خَلَّفوا لنا تراثاً أدبياً وعلمياً فهم كُثر لا نستطيع في هذا المقام أن نحصرهم، لكن من الواجب علينا أن نذكر بعضهم وفاءً لهم أمثال: الجاحظ وابن العميد وبيدع الزمان الهمذاني والقاضي الفاضل وغيرهم...

وخلاصة القول: إن ما يلزم كاتب المقالة الاطلاع الدائم، والقراءة المستمرة، والمتابعة اليومية للأحداث، والانفتاح على الثقافات الأخرى، فكلما كان الكاتب على درجة عالية من الوعي، وعلى قدر كبير من الثقافة، ويمتلك أدوات التعبير ارتفعت أسهمه بين الكُتاب، واكتسب قاعدة عريضة من جمهور القراء.

الكاتب المثقف هو من يعرض الحقائق بشمولية وأمانة وإخلاص ليخرج بنتائج موضوعية مقبولة تجد الاحترام عند المثقفين أمثاله، وهو عندما يكتب يتجرد من المصالح الذاتية، ولا يكتب شيئاً يخالف ضميره.

شخصية كاتب المقالة:

كثير من الناس يحاولون كتابة المقالة ربما يدفعهم لذلك التعبير عن النفس أو التنفيس عنها، والكتابة متفاوتة من حيث الجودة والإتقان لذا ليس كل من كتب أصبح كاتباً، ولا من خط قلمه أصبح مؤلفاً، فالأمر له ضوابطه ومقاييسه، فالمقالة قبل أن تُكتب تحتاج إلى تفكير واسع بالموضوع للإحاطة به من جميع جوانبه، وتحتاج إلى لغة رصينة، ودقة في الصياغة، وتنويع في الأساليب، والتركيز في جوهر الموضوع وعدم الخروج عنه، وتظهر شخصية الكاتب في

(1) حمزة وشرف، أدب المقالة (ص44).

(2) المرجع السابق، ص47-48.

مقالته "بمقدار ما يعطي من الموضوع من حيث طريقتة في تناول الفكرة وعرضها، وما يضيفه عليها من خبرة، وممارسته لشؤون الحياة، وتحليل دقيق، وبساطة في التعبير"⁽¹⁾.

إن مهمة الكاتب إثارة النفوس، وتحريك المشاعر، وشد الانتباه، وعرض الأفكار والآراء التي تهم الناس وتخدم مصالحهم، مهمته دفعهم إلى التطور والسمو والنهوض والوعي وبث روح الطمأنينة والثقة والثبات والأمل، ويشترط محمد نجم في المقالة الأدبية أن تبدو "شخصية الكاتب جليلة جذابة تستهوي القارئ وتستأسر به، وعدته في ذلك الأسلوب الأدبي"⁽²⁾. على أن يتميز أسلوبه بالوضوح لقصد الإفهام، وبالقوة بهدف التأثير، وبالجمال لغاية الإمتاع، ووضوح الفكرة معناه وضوح في التعبير ووضوح في التأثير والإقناع.

وقد رسم محمد يوسف نجم صورة لشخصية كاتب المقالة وحدد ملامحها فرأى أنه ينبغي لهذه الشخصية أن تتصف بتوقد الذكاء وتألق الفكاهة لا تخلو من السخرية الناعمة أو الحادة، فالكاتب محدث لا معلم ولا واعظ، زميل مخلص للقارئ، مؤدب وقور ورع⁽³⁾.

ينبغي على الكاتب أن يمتلك مجموعة من الحواس: حاسة سطحية دقيقة، وحاسة تاريخية تربط بين الماضي والحاضر، وحاسة ثقافية واسعة، وحاسة موفقة تمكنه من الانغماس في المجتمع.

وتجدر الإشارة إلى أن الفارق الأساس الذي تتسم به المقالة الأدبية عن غيرها، هو إبراز شخصية الكاتب لذلك أطلقوا على المقالة الأدبية اسم المقالة الذاتية⁽⁴⁾.

المقالة في الأدب العربي الحديث:

المقالة بطبيعتها تقتضي بيئة ملائمة فيها الحرية في الفكر والانطلاق في التعبير، والجرأة في القول حتى تزدهر وتنمو، وعملية النمو لا تأتي بمحض الصدفة، ولا تجيء بغتة وإنما تمر بمراحل، وأول هذه المراحل مرحلة النشأة أو الميلاد، حيث كانت الصحافة المصرية تعنى بداية "بالأغراض الثقافية، كنشر الآداب العربية القديمة من جانب، ونقل الأدب والعلوم

(1) شرف، أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة (ص158).

(2) ينظر: نجم، فن المقالة (ص95-96).

(3) ينظر: المرجع السابق، ص102-103.

(4) ينظر: عبد الخالق، ربيعي، فن المقالة الذاتية (72).

الأوربية إلى اللغة العربية من جانب آخر... إلا أنها اصطبغت بصبغة علمية أدبية أكثر منها سياسية واجتماعية من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب"⁽¹⁾.

ويرى محمد نجم أن المدرسة الصحفية الأولى أصدرتها الدولة أو أعانت على إصدارها، ويمتد هذا الطور حتى الثورة العرابية، ومن أشهر الكُتَّاب الذين شاركوا في تحرير هذه الفترة: رفاعة الطهطاوي، وعبد الله أبو السعود، وميخائيل عبد السيد، ومحمد أنسي، وسليم عنجوري، هذه المقالة "ظهرت على أيديهم بصورة بدائية فجة، وكان أسلوبهم أقرب إلى أساليب عصر الانحطاط، فهو يزهو بالسجع الغث، وبالمحسنات البديعية المتكلفة المموجة، وقد كانت الشؤون السياسية هي الموضوع الأول لهذه المقالات، ولكن الكُتاب كانوا يتعرضون أحياناً لبعض الشؤون الاجتماعية والتعليمية"⁽²⁾.

وفي المرحلة الثانية ظهرت مدرسة صحفية أخرى "تأثرت بدعوة جمال الدين الأفغاني وبنشأة الحزب الوطني الأول، وبروح الثورة والاندفاع... برز في هذه المدرسة عدد من الشخصيات التي ارتبط تاريخها بتاريخ الكفاح الوطني في مصر، ومنهم أديب اسحق، وسليم النقاش، وسعيد البستاني، وعبد الله نديم، ومحمد عبده، وإبراهيم المويلحي، ومحمد عثمان جلال، وعبد الرحمن الكواكبي، وبشارة تقلا، وقد تحللت هذه المدرسة من قيود السجع إلى حد بعيد، وأخذت تقترب من الشعب..."⁽³⁾.

وانتجت هذه المدرسة لوئاً آخر "من ألوان الجهاد القومي، واتجهت إلى الإصلاح الاجتماعي والسياسي واللغوي، على أن المقالة الصحفية في هذه البيئة لم تيراً من عيوب المقالة في البيئة الأولى، حيث لم يستطع كُتَّابها أن يرسموا في ذهنهم صورة صحيحة للمقالة الصحفية كما يفهم من هذه الكلمة في إطلاقها اليوم"⁽⁴⁾.

أما المرحلة الثالثة ففيها "ظهرت طلائع المدرسة الصحفية الحديثة، ومنهم علي يوسف، ومصطفى كامل، وعبد العزيز جاويش، وولي الدين يكن، وسليم سركيس، ومحمد رشيد رضا، وخليل مطران، ونجيب الحداد، وأمين الحداد، ولطفي السيد، ومحمد مسعود"⁽⁵⁾.

(1) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص12).

(2) نجم، فن المقالة (ص54).

(3) المرجع السابق، ص66.

(4) شرف، أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة (ص136).

(5) نجم، فن المقالة (ص66-67).

هذه المدرسة تقدمت بالمقالة الصحفية خطوة إلى الأمام "لما اتصفت به من مقاومة للاحتلال، ونشاط العقول والأفلام في هذه المقاومة، فامتازت المقالة بجدة في الأسلوب السياسي كما امتازت بالجدة في التفكير السياسي"⁽¹⁾.

أما المرحلة الرابعة فقد بدأت مع الحرب العالمية الأولى والثورة المصرية الأولى 1919م "وقد ظهرت في هذه الفترة من الصحف التي تركت أثرها في الحياة الأدبية عامة، وفي المقالة خاصة: جريدة السفور لعبد الحميد حمدي (1915)،.. والوجديات لمحمد فريد وجدي (1921).. الاستقلال لمحمود عزمي (1921).. والسياسة (1922) لمحمد حسين هيكل.. والبلاغ (1923) لعبد القادر حمزة.. وكوكب الشرق (1924) لأحمد حافظ عوض.. والأخبار (1925) لأمين الرافعي.. والأسبوع (1926) لإبراهيم عبد القادر المازني"⁽²⁾.

ويرى محمد يوسف نجم أنّ الأثر الأدبي لهذه الصحف كان ضعيفاً، وأن المقالة في هذه المرحلة امتازت بالتركيز والدقة العلمية، ونشر الثقافة العامة، والعناية بشؤون السياسة، أما لبنان فقد كانت سباقاً إلى التجديد في المقالة الصحفية في مختلف فنون الأدب بحكم الظروف الاجتماعية والصلة الثقافية مع الغرب"⁽³⁾.

هذه المراحل الأربعة ساهمت بشكل مباشر في النهضة الفكرية، وفي عملية التنوير، وفي تفجير الطاقات المبدعة، وتكوين الرأي العام، وفي التغيير السياسي والاجتماعي.

ونخلص إلى أن المقالة لم تكن فناً جاهزاً منذ نشأتها البكر، وإنما تبلورت ونضجت في عصر النهضة على شكلها الحالي، فتناولت قضايا شتى كثيرة ومتنوعة: سياسية وأدبية واجتماعية وفكرية وثقافية ودينية.

الرؤية الفنية في المقالة العربية الحديثة:

ازدهرت المقالة بمفهومها الفني في العصر الحديث، وأشرقت شمسها على يد كُتاب وأدباء خاضوا غمارها، وسلكوا سبلها، وفهموا أنواعها، وأدركوا أنماطها، فأجادوا أسلوبها، وتألقوا في نتائجها.

(1) شرف، أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة (ص 137).

(2) نجم، فن المقالة (ص 69).

(3) ينظر: المرجع السابق، ص 70.

وإذا كان الأدب قد اتسع ميدانه، وتنوعت مستويات الإبداع فيه، فإن للمقالة -كجنس أدبي- نصيب من ذلك، خاصة المقالة العربية الحديثة فإن الرؤية الفنية لها ترتبط بنوع الوسيلة التي تحمل المقالة إلى الجمهور، ثم بطبيعة مادتها وصياغتها، بحيث يمكن القول: إن هذه الرؤية الفنية قد أحدثت تقاربًا فعليًا بين الأجناس المقالة، وكادت تجعل منها جنسًا واحدًا تنتوع فنونه"⁽¹⁾.

هذه الرؤية الفنية مبنية على التجديد في الأفكار والمعاني، والإبداع في عرضها، وقد حاول شكري فيصل أن يضع مقياسًا لأصالة المقالة بشيء من التوضيح، فرأى "أن الفكرة والأداء هما العنصران المهمان في المقالة، واتخذتهما مقياسًا للأصالة في هذا الفن، وهو يشترط في الفكرة أن تكون واضحة في ذهن الكاتب، وأن يكون مؤمنًا بها، ويتطلب في الأداء أن يكون صحيحًا وجميلاً، وركز في الأداء على الإيجاز لأنه ذو مكانة أصيلة في تقاليدنا الأدبية"⁽²⁾. ولا يكون العرض مبدعًا إلا من خلال المشاعر العميقة، والخواطر البديعة، وروعة الأسلوب، وجمال الصياغة، وصفاء العبارة، وصدق العاطفة، وتتكون المقالة الفنية من عناصر تقوم عليها وتكون إطارها العام وهي: المادة المتمثلة في المعارف والآراء والأفكار والخواطر والمشاعر والتجارب والمعلومات... والموضوع المتمثل في جملة الحقائق والخواطر التي تبنى عليها المقالة... والأسلوب ونعني به النهج الذي يلتزم به الكاتب، ويأخذ نفسه به، ويحققه في صنعته وإبداعه"⁽³⁾.

هذه العناصر الفنية التي تتكون منها المقالة الفنية لها دورها: فالأفكار تثير العقل، والخواطر تحرك الأحاسيس، والموضوع بحقائقه وخواطره يتلاحم فيه العقل والوجدان، وتتلاقى فيه الأفكار والمشاعر، أما الأسلوب فبجماله يكون حسن الأداء، وبراعة العرض، وروعة الختام. وتتكون المقالة من ثلاثة أجزاء: "المقدمة، و متن المقالة، والنتيجة التي خلصت إليها المقالة، فالمقدمة هدفها تعريف القارئ بالقضية المثارة، وجذبه للاهتمام بها، ومن ثم متابعة قراءة الأفكار، أما متن المقالة أو جسمها فهي تتضمن الوقائع التي يقوم الكاتب بتحليلها

(1) شرف، أدب المقالة (ص11).

(2) ينظر: فيصل، الأصالة والتجديد في المقال الأدبي (ص743-771).

(3) ينظر: سليمان، المقامة بين القصة والمقالة (ص232-233).

وتفسيرها من خلال الأدلة والبراهين ومن ثم يعرض النتيجة النهائية التي توصل إليها في نهاية التحليل⁽¹⁾.

تشمل المقدمة الفكرة الأساسية للموضوع أو هي التي تمهد للموضوع، وتكتب هذه الفكرة بإيجاز في نهاية المقدمة، أما متن المقالة أو جسمها فهو يشكل الجزء الأساس والأكبر من المقالة حيث تُعرض فيه المعلومات والحقائق والبيانات والأدلة، ويتكون من فقرة أو أكثر، وتتسم كل فقرة بالوحدة والتماسك والترتيب المنطقي، أما الخاتمة فهي خلاصة ما يريده الكاتب لذا يجب أن تتسم بالتركيز والإيجاز والوضوح والشمولية.

ومن الأمور الفنية التي يجب مراعاتها عند كتابة المقالة عدم تكرار الألفاظ أو الأفكار، وتجنب العناوين التي تسبب الاضطراب، واستخدام الفعل المبني للمعلوم، والابتعاد عن استخدام اللهجة العامية، كما ينبغي تجنب الحشو الذي لا يفيد.

تطور المقالة والصحافة:

يرى شوقي ضيف أن المقالة مرت بأطوار مختلفة، وقد اختلف كل طور عن الآخر، بحيث نرى تدريجياً عملية التطور الذي طرأ على المقالة، وقد قسم شوقي هذه الأطوار إلى ثلاثة أقسام، يقول: "كانت المقالة في الدور الأول تعنى أشد العناية بالإنشاء... ثم حل دور جديد كان الكتاب فيه متقفين ثقافة عميقة بالآداب الغربية، فخرجت المقالة من طور العناية بالإنشاء إلى طور العناية بالمعاني والموضوعات... في نمطين: نمط تصويري يصدر فيه الكاتب موقف المعلم، وكأنه يلقي درساً من الدروس... ودخلت صحافتنا في دورها الثالث، فعنيت بالطرفين: التثقيفية والتصويرية... وقد نهضت المقالة التصويرية في هذا الدور الثالث في صحافتنا نهضة واسعة..."⁽²⁾.

لقد أثر انتشار الصحف في الوطن العربي تأثيراً إيجابياً برز ذلك في رقي النثر عامة، وفي ازدهار أدب المقالة خاصة، ويرجع سبب ذلك إلى أن هذه الصحف تولى تحريرها جماعات من الأدباء الذين حصلوا صدراً من اللغة، واطلعوا على آدابها، وقلبوا الذهن في بلاغات البلغاء من المتقدمين والمتأخرين ومرنوا على الكتابة دهرًا في ألوان الموضوعات التي تتصل بالحياة، حتى أصبح لهم حظ من البيان غير يسير"⁽³⁾.

(1) خضور، مدخل إلى الصحافة نظرية وممارسة (ص150).

(2) ضيف، في النقد الأدبي (ص203-205).

(3) شرف، أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة (ص158-159).

ولأن هذه الصحف ومعها المجالات الأدبية ترغب في الانتشار بشكل أوسع وربما حدث بينهما نوع من التنافس فإن الكتابة فيهما كثيرًا ما كانت "تدعو أعلام البلاغة وأئمة البيان إلى الكتابة فيها، وكثيرًا ما يتقدمون هم لذلك، فيرسلون كل رائع بديع من عالي المقالة"⁽¹⁾.

إن ما يُكتب من مقالات في هذه الصحف وتلك المجالات له من يقرؤه من "جماهير الناس، وأنه بذلك متعرض لحكمهم عليه، ووزن حظه من العلم والأدب، ومن صناعة القلم، هو ولا شك باذل قصارى جهده في إصابة أحسن المعاني، وإفراغها في أشرف الألفاظ، ونسجها في أحكم نظام"⁽²⁾.

لجماهير الناس أذواق فما يعجبهم من هذه المقالات يقبلون عليها ويشغفون بها، ولمن كتبها محل في قلوبهم، ولا يتأتى هذا الإعجاب وذلك الحب بلا شك إلا من خلال الأساليب البليغة والتعبيرات الطريفة، والأفكار النيرة.

اكتسب فن المقالة أهمية ووزنًا في الصحافة لأنه يمثل العمود الفقري لها، وهو محور أساس في عملها ونشاطها، ولأنها قريبة من حياة وهموم المواطن، تقدم له المعلومة، وتوضح له الرأي بشكل مبسط يستطيع فهمه واستيعابه.

يرى الباحث أن الطريق إلى الوصول إلى مقالة نوعية يتطلب تنمية المهارات المهنية والفكرية، والاهتمام بالثقافة العامة، والارتباط بالواقع المعاش، والدخول في المنافسة في مجال الفكر والإعلام في هذا العالم المتقدم والمتطور.

أعلام فن المقالة في العصر الحديث:

تؤدي المقالة دورها في كل مجالات الحياة مجارة للتطور العلمي والأدبي، فقد قام بهذا الدور أعلام نحسبهم أبدعوا وأجادوا، فقد تميزوا بأسلوبهم العذب المؤثر، وبأفكارهم الخلاقة التي سطروها على صفحات الصحف والمجلات "ومن أشهر كُتاب المقالة من الرجال: محمد حسين هيكل ومحمد عوض محمد وإبراهيم المازني وسلامة موسى وتوفيق دياب وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران وعبد العزيز البشري والعقاد وطه حسين وأحمد حافظ عوض، ومن السيدات: ملك حفني ناصف ومي زيادة ونبوية موسى"⁽³⁾.

(1) شرف، أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة (ص159).

(2) المرجع السابق، ص159.

(3) علي، دار الكتاب الحديث (ص37).

ويرى شوقي ضيف أن المقالة في عهد محمد حسين هيكل بلغت درجة عالية من النضوج الفني حيث وصلت إلى غاياتها، وحققت أهدافها، حيث يقول: "ولا نتقدم إلى جيل هيكل والعقاد وطه حسين والمازني حتى تصبح المقالة الأدبية أثرًا فنيًا قيمًا حقًا، فهي تمس القلوب، وتثير العواطف، وقد اتسعوها بها إلى مباحث عميقة في الأدب والنقد والفنون الجميلة والنظريات الفلسفية والاجتماعية"⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن لكل من هؤلاء الأعلام "طريقته الخاصة في كتابته، والتي كانت تدل عليه وتوضح منهجه وطريقته، وبعضهم جمع بين كتابة المقالة الصحفية والمقالة الأدبية، بما كان عندهم من خبرة ودراية"⁽²⁾.

أما أساليب هؤلاء الأعلام فكان "لكل منهم أسلوب معين يمتاز به عن سواه من كُتاب المدرسة التي ينتمي إليها: فعلي يوسف عُرف بالأسلوب السياسي، ومصطفى كامل عُرف بالأسلوب الحماسي، وأحمد لطفي السيد عُرف بالأسلوب الثقافي، وأمين الراجحي عُرف بالأسلوب الدفاعي، وعباس محمود العقاد عُرف بالأسلوب النزالي والجدلي، وطه حسين عرف بالأسلوب الاستقرائي، ومحمد حسين هيكل عُرف بالأسلوب القانوني، وعبد العزيز البشري عُرف بالأسلوب الكاريكاتيري، وإبراهيم عبد القادر المازني عُرف بالأسلوب التصويري، وأحمد حسن الزيات عُرف بالأسلوب الأدبي، وتوفيق الحكيم عُرف بالأسلوب الحواري، وعبد القادر حمزة عُرف بالأسلوب الصحفي"⁽³⁾.

من ينظر إلى أساليب هؤلاء الأعلام يجدها مختلفة ومتنوعة، لكن هذا الاختلاف لا يعني التناقض، وإنما يعني التكامل، فكان كل واحد منهم متخصص في جانب معين، وبالمُحصلة فإن كل هذه الأساليب مطلوبة، وينبغي أن تكون قوية حتى تُحدث التأثير ومن ثم الإقناع بعد الإفهام.

ويعزو الباحث الاختلاف في أساليب هؤلاء الأعلام إلى تنوع ثقافتهم، وتباين أمزجتهم، وتعدد طرائق تفكيرهم، وتفاوتهم في قدراتهم التعبيرية، وأساليبهم التصويرية.

(1) ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر (ص 207).

(2) علي، دار الكتاب الحديث (ص 37).

(3) شرف، أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة (ص 168-169).

المقالة العربية الحديثة والاتصال بالجمهور:

المتأمل في لغة المقالة العربية الحديثة يجدها لغة طبيعية سهلة الفهم، سلسلة الاستيعاب، لغة اجتماعية تخاطب طبقات المجتمع كله، ولغة عملية يسهل التعامل معها، ويفهم المراد منها، فلا تحتاج إلى تحليل أو شرح أو تفسير أو تأويل، هي كما هي يقدمها الكاتب إلى الجمهور من القلب إلى القلب، فليس هناك وسيط بينه وبين جمهوره.

إن مما يقرب كاتب المقالة إلى الجمهور انخراطه في الحياة الشعبية، واقتزابه من آلام الناس وآمالهم، يعيش مع الشعب وبالشعب وللشعب "فهم الذين صوروا له الاستقلال وزينوه في قلبه، وهم الذين كرهوا إليه الاستبداد وأطمعوه في الحرية وأغروه بالإلحاح في طلبها، وهم الذين أعدوه للثورة وأسخطوه على حياة سيئة كان يحياها .. . وهم قاوموا الاستبداد ولقوا في مقاومته ضروباً من الأذى وفنوناً من النكر، وهم قوموا المعوجين من الحكام⁽¹⁾.

تأثير المقالة في نفوس القراء:

بعد أن ينتهي الكاتب من كتابة مقالته ينقحها ثم ينشرها، وثمة عاملان رئيسان يساعدان في عملية نشر المقالة وهما: الليونة أو البساطة في جوهر المقالة، والسهولة في التعبير، "هذه الليونة في كفة المقالة وجوهرها، وهذه السهولة في تعبيرها كانتا إحدى عوامل انتشار فن المقالة، وسبباً رئيساً في لجوء الأدباء إليها كلما دارت في رؤوسهم خاطرة، أو ألمت بخيالهم فكرة"⁽²⁾. فتصبح بين يدي القراء يتداولونها ويحكمون عليها بالجودة أو الرداءة وفقاً لمعايير محددة متعارف عليها، لذا ينبغي للكاتب أن يحرص على أن تخرج مقالته في صورة مكتملة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

إن كثيراً من القراء يبدون سخطهم على كثير من الكتاب بل يتهمونهم بالفشل لأنهم لم يحترموا عقولهم، ولم يراعوا مشاعرهم وأحاسيسهم، وذلك لأنهم تجاوزوا الخطوط الحمراء عندما استخفوا بدينهم وتجرؤوا على تعاليمه وقيمه، أو لأنهم تطاولوا على الأسلاف الأشراف، أو لأنهم حاولوا تزوير الحقائق التاريخية أو الجغرافية أو العلمية، والمقالة تشبع "حاجة القارئ إلى الفهم العميق للأحداث وإلى التقييم العميق للظواهر، وذلك ضمن رؤية شاملة بعيدة عن النظرة

(1) ينظر: شرف، أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة (ص162).

(2) شيخ أمين، الحركة الأدبية في المملكة السعودية (ص526).

المنعزلة أو الضيقة لحدث معين أو لقضية محددة، فهو أكثر جدية واحترامًا وفعالية ومقدرة على التأثير⁽¹⁾.

الكاتب الحاذق هو من يتدرج في سلم النجاح والتفوق دون استعجال، يضع الأمور في نصابها، ويعطي الأشياء حقها، فيجمع بين شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والشرف والصحة والجزالة والاستقامة لا تتحقق إلا من خلال الابتكار، والسبك الجيد، والفكر الواعي، ودقة المعلومة، والحجج الواضحة، ووضع المعنى في المكان المناسب وتجنب التشويش والإبهام على القارئ حتى لا يقع في ضبابية الفهم، وملل القراءة.

وللأفكار القيمة والمعاني العميقة تأثيرها في النفوس ذلك عندما تلتزم بالحقيقة، لأن عدم الالتزام بها معناه الفساد وعدم القبول، ومن ثم سقوط الكاتب من عيون القراء.

ويحتاج العمق في المعاني إلى موهبة متميزة، وقدرة عقلية، وملكة ذهنية، وثقافة عالية، هذا كله لا بد أن يمتزج بالتجربة الإنسانية التي تفيض بالحكمة والإثارة والطرافة، ومرد ذلك أن هذا الامتزاج أعطى هذه المعاني حياة وحركة وذوقًا.

علاقة المقالة بالمقامة:

تناول الأدب العربي قديمًا وحديثًا أحوال المجتمع وأمور السياسة، وشئون البلاد والعباد وقضايا الدين والفكر، هذه الموضوعات نجدها بوضوح في فن المقالة وفن المقامة، والسؤال إذا كان هذان الفنّان قد اشتركا في هذه الموضوعات فما هي الجوانب التي اختلفا فيها؟ وهل يمكن اعتبار المقالة مقامة أم المقامة مقالة أم أن مساحة الاختلاف بينهما لا تسمح بهذا الاعتبار؟

لا شك أن لكل من المقامة والمقالة خصائص وسمات ومن خلالهما نستطيع تكوين إجابة عن هذه التساؤلات، فقد رأى عبد الله حسين علي سليمان أن "فن المقامة يختلف عن المقالة في خصائصها وسماتها، ومنهجها وأسلوبها، وطريقتها وصياغتها"⁽²⁾.

هذا بالنسبة للاختلاف أما بالنسبة للاتفاق فيرى أن "هناك بعض الملامح المشتركة، وبعض المعالم المتشابهة قد تدنيهما وتقرب بينهما وتجمعهما على طرف اتصال ونقطة التقاء، كأن يتلاشى من المقامة عنصرها القصصي ويمتد الكلام على لسان الراوية أو البطل في موضوع ما بغير انقطاع، وكأن تعمد المقالة على الوصف التصويري المثير والأسلوب البديعي

(1) خضور، مدخل إلى الصحافة نظرية وممارسة (ص148).

(2) سليمان، المقامة بين القصة والمقالة (ص228).

المسجوع، وحينئذ يمكن اعتبار هذا الجزء من المقامة نوعاً من أنواع المقالة... واعتبار هذا المقالة الوصفية التصويرية المسجوعة جزءاً من المقامة يلتقي معها في إطار...⁽¹⁾.

ربما تتفق المقامة مع المقالة في الأسلوب المسجع، وفي جمال الوصف، وبراعة التصوير، وروعة التعبير، وربما يجمع بينهما الجمل الحكيمة التي تهدف إلى العظة والعبرة، هل هذا يكفي لأن تبلغ المقالة قدر المقامة؟ يجيب سليمان "إن ذلك لا يجعل من المقالة الأدبية مقامة بحال من الأحوال"⁽²⁾ ويبرر لهذا الحكم فيقول: "ولعل ذلك يتضح أشد وضوح في (أسواق الذهب) لأحمد شوقي الذي تأثر فيه ب(أطواق الذهب) للزمخشري و(أطباق الذهب) لعبد المؤمن الأصفهاني... هذا النمط من المؤلفات إنما هو في جوهره ضرب من المقالات القصار"⁽³⁾ كما يرى أن هذه المقالات القصار تخالف المقامة "فما لها راوية ولا بطل وليس بها وقائع أو أحداث ولا تعتمد على حوار ولا تصور مظاهر الكدية والاحتيال"⁽⁴⁾.

علاقة المقالة بالخطبة والرسالة:

قديمًا عرف تراثنا العربي فنونًا نثرية أبرزها الخطبة والرسالة والمقامة، أما فن المقالة بمفهومه الحديث المعروف بين أهل الأدب اليوم، فلم يكن واضحًا كَفَنٍ ينافس الخطبة والرسالة "وإنما يمكن أن نلتمس جذورًا للمقالة في أدبنا القديم، تصح أن تكون بذورًا صالحة لتطور الفن المقال، إذ إن العرب في العصر الجاهلي والعصور الإسلامية ألقوا قطعًا أدبية، يمكن أن تعد خطوات في مجال كتابة المقالة الفنية"⁽⁵⁾.

ويرى بعض الأدباء أن هذه القطع الأدبية التي تعد أصلًا للمقالة الحديثة "ترجع إلى ما أنشأه العرب من خطب ومقامات وفصول ورسائل"⁽⁶⁾.

ويرى محمد عوض محمد أن الخطبة التي عُرفت في العصر الجاهلي والعصور الإسلامية تعد خطوة من خطوات المقالة الأدبية، ويبرر لذلك بأنها احتوت على إتقان في اللفظ وحسن تصميم واستعانة بالحكاية والمحاورة والمثل⁽⁷⁾.

(1) سليمان، المقامة بين القصة والمقالة (ص 229).

(2) المرجع السابق، ص 230.

(3) المرجع نفسه، ص 230.

(4) المرجع نفسه، ص 230.

(5) أبو ندى، فن المقالة عند ميخائيل نعيمة (ص 52).

(6) المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها (ص 266).

(7) ينظر: محمد، محاضرات عن فن المقالة (ص 10).

أما الرسائل، فإن الإخوانية منها أقرب إلى الفن المقال، فعلى سبيل المثال رسالة عبد الحميد الكاتب إلى أقرانه الكُتاب⁽¹⁾ تشبه إلى حد كبير المقالة النقدية الحديثة من حيث الموضوع والأسلوب، أما رسائل الجاحظ فيرى محمد نجم أنها "كادت تلم بكل موضوع، وما فيها من فكاهاة عذبة، وانطلاق في التعبير وتحرر من القيود، وتدفق في الأفكار، وتلويح في الصور، وتنوع في موسيقى العبارات - ثم يقرر - أنه خير مثل على النموذج المقال في الأدب القديم⁽²⁾."

ويرى العقاد أن الفصول التي تختلف في موضوعاتها وتأتي في كتاب واحد هي أصل المقالة الأساس حيث يقول: "الفصل في الحقيقة هو أصل المقالة الأول في الآداب العربية... فإذا فتحت الكثير منها قرأت فصلاً في الأخلاق إلى جانب فصل في أخبار الشجعان والبلغاء، إلى جانب فصل في الدهاء والدهاء إلى أشباه ذلك من الموضوعات التي هي أقرب الموضوعات إلى المقالة بوضعها الحديث"⁽³⁾.

ويلاحظ علاقة الخطبة والرسالة بفن المقالة أنها جميعاً فنون نثرية قريبة من بعضها البعض، لكن مسافة هذا القرب تختلف بين فن وآخر، وهذه الفنون مجتمعة تشهد على أن العرب كانت شهرتهم ضاربة في البيان والبلاغة وفنون القول، وهذا يتناسب مع صفاء أذهانهم، وعمق تفكيرهم، وسلامة فطرتهم، وفيض فصاحتهم، وأصالة موهبتهم.

وربما يجد المتأمل في هذين النوعين من المقالة صعوبة في التفريق بينهما لأنهما نتاج عقلي ووجداني متداخل، لكن يمكن التمييز بينهما "فالمقالة الأدبية تمثل تجربة مر بها الأديب وانفعل بها وقتاً قد يكون طويلاً وهو في تعبيره عنها يؤثر التراكم العاطفية المؤثرة لنقل هذه التجربة إلى الآخرين، والتأثير فيهم... أما المقالة الصحافية فابن يومه، تولد من حدث وقع، فعبر عنه الكاتب الصحافي تعبير البعيد عنه... فهو يعبر عن آراء الآخرين أكثر مما يعبر عن رأيه، وهو يؤثر في القراء في حينه، إلا أنه يفقد تأثيره بعد مدة"⁽⁴⁾.

مما لا شك فيه أن هذه الفنون النثرية خرجت من مشكاة واحدة اتسمت بالإنشاء الفطري العفوي غير المتكلف الذي تميز بسهولة التعبير وجزالته وقربه من نفوس الناس، وقد جاءت خصبة لأنها غطت مظاهر الحياة، كما أن هذه الفنون كانت قريبة إلى حد كبير من المقالة بمفهومها الفني الحديث، بحيث نلمح فيها بدايات وأسس المقالة الحديثة.

(1) ينظر: عباس، عبد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله (ص284).

(2) نجم، فن المقالة (ص20).

(3) العقاد، يسألونك (ص1).

(4) حولية الجامعة الإسلامية العالمية الباكستان، فن المقال (ص221).

الفصل الأول

مقالات هيكل وموضوعاتها

الفصل الأول

مقالات هيكل وموضوعاتها

لكل مقالة غاية تسعى لتحقيقها، كما أن لها أسلوبًا يسلكه كاتبها في معالجة موضوعه، وتختلف كل مقالة عن الأخرى بحسب موضوعها، فإذا كان الموضوع اجتماعيًا كانت المقالة اجتماعية، وإذا كان الموضوع سياسيًا كانت سياسية، وهكذا، وتشارك جميع أنواع المقالة في التزام منهج محدد في عرض مادتها، هذا المنهج يشمل: المقدمة والعرض والخاتمة.

في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كان لرواد المقالة الدور الأكبر في حركة التنوير في شتى مجالات الحياة المصرية، فقد استوعبوا "مبادئ ومقومات إصلاحية في الفكر الديني والاجتماعي والسياسي، فتخرج منهم: محمد رشيد رضا، وأحمد لطفى السيد، وسعد زغلول، ود. محمد حسين هيكل، ومصطفى عبد الرازق، وعباس العقاد، وغيرهم..."⁽¹⁾.

ظهر محمد حسين هيكل كأحد هؤلاء الرواد وكان يتميز بالوسطية، فكان مشعلًا متوهجًا على امتداد حياته، وقد شق الصخر ليفتح الطريق أمام السالكين نحو الآفاق البعيدة، فجاءت مقالاته متألفة بأضواء الفجر الجديد، والمجد التليد.

لقد كان لهيكل عظيم الأثر في صياغة الحياة المصرية صياغة حضارية شاملة في مجال الأدب والفن والسياسة والدين والاجتماع والفكر والصحافة، ومن هنا فلا غرو أن نجد له مقالات في كل هذه المجالات.

أولاً- المقالات الفكرية:

في المقالات الفكرية يعمل الكاتب عقله ويجتهد في أن يتناول موضوعه من جميع جوانبه ما أمكن، ونلمس في مقاله المسحة الذاتية من خلال أسلوبه، والكاتب النابه هو الذي يفهم طبيعة من يقرؤون له وماذا يريدون، لذا فذاتيته هي التي تخفف من جفاف الموضوع، وتستبدل هذا الجفاف بجاذبية خاصة، بل إنه كلما كان يملك مهارات الجذب زاد استقطابه، واتسعت قاعدة قرائه.

والمقالة الفكرية هي التي تتناول قضايا خاصة بالعقل مثل: الحياة والموت وشئون الكون والنفس والمجتمع والسياسة.

(1) أحمد، الفكر السياسي للإمام محمد عبده (ص46).

وهذا يعني أن المقالة الفكرية مفتوحة على قضايا الحياة، والكاتب ينظر إلى هذه القضايا ويعالجها بعقله لا بعاطفته، فكلما سبر الكاتب الأغوار، وحاول الوصول إلى الأعماق كان لمقاله القيمة والقدر، أما التناول السطحي للموضوع فإنه لا يسمن ولا يغني من جوع، بمعنى أنه يجب احترام عقول القراء، فالقارئ مثله كمثل الذي صام ليفطر على طعام شهّي لذيذ.

هذا ما كان يعلمه هيكل ونرى آثاره في مقالاته فكان يؤمن بالعلم، ويعلي من شأن العقل، ومن ثم اتسمت أعماله الفكرية بتحريك الذهن، وكان هيكل يتبنى الوسطية في فكره فيجمع بين الروح والمادة، وبذلك كان يناقض الفكر الغربي الذي يقوم على أساس من الفكر الفلسفي المادي⁽¹⁾.

أدرك هيكل أن هناك فجوة فكرية أو حضارية بين الأمم والسبب المباشر لهذه الفجوة طغيان المادة على الروح، يقول هيكل: "وكان من أثر ذلك أن عاد الناس شيئاً فشيئاً إلى تغليب المادة على الروح، والحيوانية على الإنسانية"⁽²⁾.

وكان لهيكل رؤية تعادلية توازن بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد، فكان يرى أن لكل منها حاجاته، وقد وجد هذه الرؤية في الحضارة الإسلامية أو حضارة الشرق كما يسميها فيقول: "وفي الشرق أساس حضارة جديدة يتزواج فيها العلم والإيمان، فيرتوي منها العقل والنفس جميعاً"⁽³⁾.

وقبل تناول مقالات هيكل الفكرية بالدراسة ارتأى الباحث أن يضع هذه المقالات على حسب موضوعاتها تحت محاور خاصة بها، لتكون الأفكار مترابطة، والعلاقة بينها واضحة، وقد شملت هذه الدراسة المحاور التالية: هيكل والفكر الغربي، هيكل والفكر الفرعوني، هيكل والفكر القومي، هيكل والفكر الإسلامي، ثم نظرة هيكل إلى الحضارة والديمقراطية والحياة والإنسانية.

1- هيكل والفكر الغربي:

ذهب هيكل إلى "باريس لأول مرة طالب علم في النصف الأول من شهر يوليو سنة 1909م"⁽⁴⁾ وكان لزاماً عليه أن يدرس اللغة الفرنسية ويتقنها، هذه بداية الانطلاق عند هيكل

(1) ينظر: زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص183).

(2) هيكل، حياة محمد (ص544).

(3) هيكل، الإيمان والمعرفة والفلسفة (ص102).

(4) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/157).

نحو الفكر الغربي، وقد تحدث عن الظروف التي مرت بها فرنسا فقال: "فما لبثت فرنسا أن أفاقت من كابوس الحروب النابليونية حتى عاودتها النزعة الثورية الأولى... فقام الناس جميعاً في سنة 1848م يطالبون بالحرية المغصوبة... ثم جاءت ظروف جديدة استعادت الملكية فيها سلطانها، وبقيت متزبعة في سدته حتى أنزلتها الجمهورية الثالثة عن عرشها، وحطمتها، ووضعت الناس مكانه كل ما أملتة الثورة من حقوق الحرية، والإخاء، والمساواة، وكذلك حكمت الديمقراطية فرنسا، وبقيت تحكمها إلى يومنا هذا"⁽¹⁾.

هذه هي فرنسا في نظر هيكل عاشت الثورة فنالت الحرية، ثم طبقت الديمقراطية كنظام سياسي، أما ألمانيا فرأى أنها "استطاعت أن تسترد قوتها وكرامتها ومكانتها الدولية خلال خمس عشرة سنة منذ انتهاء الحرب"⁽²⁾. أما إنجلترا فقد "نهضت نهضة جديدة قوية تدل على أن حيويتها ما تزال قوية متوثبة"⁽³⁾.

هذه صورة إيجابية رسمها هيكل لكل من فرنسا الثورة والحرية والديمقراطية، وألمانيا القوة والكرامة، وإنجلترا النهضة والحيوية والصبر.

أما عن أثر فرنسا في نفسه فيقرر هيكل أن الأدب الفرنسي الذي طالعه قبل ثلاثين سنة ما زالت آثاره في نفسه، ويعبر عن ذلك فيقول: "أشعر بأن هذه الآثار ما تزال حية تامة الحياة في نفسي، وما يزال لها أثرها في توجيه آرائي وأفكاري"⁽⁴⁾.

وقد كان للأديب الفرنسي (أناتول فرانس) الأثر الأعظم في نفس هيكل، حيث أوصل أدبه إلى درجة العالمية والخلود وفي ذلك يقول هيكل: "أناتول فرانس ترك وراءه ميراثاً أدبياً خالداً يحتاج العالم في أجياله المختلفة إلى الوقوف على ما يريده منه، ليعرف روح عصر فرانس، وما حدث فيه من تطور سريع لم يؤت لعصر غيره أن يحدث فيه مثله"⁽⁵⁾.

وعن الأثر الذي تركه هذا الأديب في نفس هيكل يقول هيكل: "واسمحوا أن أختتم حديثي بأحب كُتاب فرنسا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى نفسي، ألا وهو أناتول فرانس... وحين بلغ الثمانين كرمه العالم كله، فكان له أثره القوي في نفسي، قرأت كتبه كلها...

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/24).

(2) المصدر السابق، ج2/172.

(3) المصدر نفسه، ج2/172.

(4) المصدر نفسه، ج2/313.

(5) المصدر نفسه، ج2/311.

فلقد وجدت في أناطول فرانس حديقة الحرية التي ينشدها التائه في صحراء الاستعباد، وهذا جعلني أهيم به حباً⁽¹⁾.

لم يكن أناطول فرانس الوحيد الذي أثر في نفس هيكل، بل كان هناك آخرون، يقول هيكل عن أحدهم: "ولعل من الكُتاب الذين أثروا في نفسي (بول بورجيه)، وكانت له قصص وروايات كثيرة... كانت وجهته تقرير أن الأمة لا تستطيع العيش إلا إذا ارتبطت حاضرها بماضيها، واستلهمت في الحاضر خير الماضي، فأما إذا تركت تراثها فقد حق عليها البوار والاضمحلال"⁽²⁾.

ومن أجل التطور والتغيير فلهيكل رؤية يعبر عنها فيقول: "العالم يتطور ويتغير، وأنا في حاجة إلى تبادل ثمرات العقول مع غيرنا كحاجتنا إلى السلع والمنافع المادية مع هذا الغير"⁽³⁾ ويقصد العالم الغربي، ويرى هيكل أن من الخطوات الضرورية لعملية التطوير والتغيير ترجمة أمهات الأدب العالمي ونقلها إلى بلاده حيث إنها "ضرورة لا غنى عنها، تزيد الحياة القومية تمكيناً، وتسمو بالمجتمع... الغذاء العقلي والروحي من ضرورات الحياة القومية كالغذاء المادي سواء، وما يتغذى به العقل والروح في شعب من الشعوب هو المقياس لدرجة الرقي التي بلغها هذا الشعب"⁽⁴⁾.

وبعد هذا التأثير بالفكر الغربي، واعتراف هيكل بإعجابه به، كان هناك تحولاً جذرياً، فلقد قام هيكل بنفسه ببيان موقفه من الفكر الغربي، معلناً ذلك بوضوح، فيقول: "إنني أفكر اليوم في هذا وأشعر حقاً بأننا قد ملنا عن الطريق، وضللنا الحجة، وأننا أصبحنا نتخذ المثل الأعلى في الحياة من حثالة أبناء الغرب الذين يفدون إلى شرقنا مزودين بظاهر زائف من علم، وفضل، وباطن حالك اللون من شراهة واقتراس"⁽⁵⁾.

وخلاصة القول أن النظرة العجلى لمقالات هيكل تحكم عليه بعدم الاتزان في أفكاره وآرائه، فتارة يبدو غربي الفكر مؤيداً ومشجعاً له، وتارة مخالفاً له ومقدماً الفكر الإسلامي عليه.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/317-318).

(2) المصدر السابق، ج2/317.

(3) المصدر نفسه، ج2/335.

(4) المصدر نفسه، ج2/336.

(5) المصدر نفسه، ج2/158.

ولكن النظرة المتأملة ترى أن هيكلًا هاجم الفكر الاستشراقي الذي حاول النيل من الإسلام والعروبة واصفًا أصحابه بالحثالة، ولم يقصد في هجوم السابقين من الغربيين أمثال أناتول فرانس أو بول بورجيه أو جاك روسو.

2- هيكل والفكر الفرعوني:

وردت قصة فرعون مع سيدنا موسى عليه السلام في القرآن الكريم، كما أن التاريخ قد تحدث عن حقبة الفراعنة الذين شيّدوا حضارتهم التي ما زالت آثارها واضحة إلى يومنا هذا والتي من أبرزها الأهرامات (خوفو وخفرع ومنقرع).

وهيكل بصفته مصريًا درس الحضارة الفرعونية وأعجب بها أشد العجب، وتعلق بها إلى درجة العشق لها، فقد دعا إلى إحيائها والسير على منوالها، أو على الأقل جعل منها نبراسًا لأناس الزمن الحاضر، "هذا الذي قصصناه عليك... يدل على مبلغ الصلة بين مصر الحاضرة ومصر الفراعنة، وعلى أن الروح ما يزال محتفظًا بوحدة قومية قوية برغم ألوف السنين، وإنك لو وجد في أساطير الشعب ومعتقداته وطقوسه وعاداته... ما يزيدك إيمانًا بهذه الصلة ومكانتها وقوتها"⁽¹⁾.

لم يكتفِ هيكل بالربط بين الحضارة الفرعونية القديمة ومصر الآن، بل دعا إلى البحث في أساطير الفراعنة وعاداتهم، وكأنه يريد أن يزيل الفارق الزمني بين التاريخ الفرعوني القديم وتاريخ مصر الحديث حيث يقول: "وأنت إذا جعلت أساطير الشعب وعاداته بعض مواضع بحثك الاجتماعية إذاً لازدبت بهذه الصلة بين الحاضر والماضي إيمانًا ولخيل إليك أن الزمن وهم لا حقيقة له"⁽²⁾.

ويدلل هيكل على أن عادات الفراعنة ما زالت حية في نفوس المصريين فيقول: "فطقوسنا الجنائزية في مصر ما تزال متأثرة إلى حد كبير بالطقوس الفرعونية... والرحمة التي يذهب بها أهل الميت إلى المقابر بقية من عادات فرعونية قديمة... والختان هو الآخر ميراث عن مصر القدماء"⁽³⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/431).

(2) المرجع السابق، ج1/432.

(3) المرجع نفسه، ج1/432.

وينتقل هيكل من العادات إلى الاعتقاد يقول: "أما الاعتقاد في آلهة الخير وآلهة الشر فكل ما طرأ عليه من تغيير لم يتجاوز التسمية، فعندنا الأولياء ذوي الكرامات، وعندنا الشياطين والعمارة، وكثير من الكرامات التي تُنسب لبعض الأولياء كان يُنسب مثلها تمامًا لبعض آلهة مصر الفرعونية"⁽¹⁾.

وتبلغ الفرعونية مبلغها عند هيكل عندما أكد عليها ودعا إلى التمسك بها، وكأنها المنقذ للمصريين أو هي سر نهضتهم وتقدمهم، فيقول بكل صراحة ووضوح: "قأبناء الفرعونية فرعونية، أو يجب أن يكونوا، لأن روح فرعون هي روح هذا الوادي المقدس بكل ما فيه من حياة ومن غايات الحياة... فما أجدنا أن ما تزال فينا روح رمسيس وروح محب والفرعونية جميعًا، روح الأيد والحضارة والعلم والسلام"⁽²⁾.

لقد شكك أنور الجندي في نوايا من كانوا ينادون بإحياء فكرة الفرعونية القديمة، وبين أن من أهدافهم "إدخال مفاهيم الوثنية الفرعونية المرتبطة بالوثنية اليونانية وغيرها، وتجديد عبادة البشر والأبطال"⁽³⁾.

ثم أعلن الجندي فشل هذه الدعوة رغم أنها قطعت شوطًا طويلًا والسبب أنها "فشلت في أن تجد أرضية لها، كما أنها لم تجد تراثًا أو قيمًا دينية أو أخلاقية أو اجتماعية، أو عملاً أدبيًا مكتوبًا"⁽⁴⁾.

ويزيد الجندي هذا الأمر تفصيلًا مبيّنًا أسبابًا أخرى أكثر وضوحًا لهذا الفشل فيقول: "إن لغتنا الآن ليست لغة الفرعونية... وديننا ليس دينهم، وعاداتنا وتقاليدنا إسلامية عربية، وأدبنا أدب عربي أصيل، أما أدب قدماء المصريين وكل تراثهم وقيمهم وتقاليدهم فقد اندثرت مع حضاراتهم"⁽⁵⁾.

ويؤيد الباحث هذا الرأي لأن هناك فترة زمنية طويلة تطورت خلالها الحياة، وتغيرت فيها المفاهيم والقيم، والسؤال: كيف يمكن الرجوع إلى الزمن الغابر خطوات إلى الوراء، أليس هذا ضرباً من المستحيل؟!

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/432-433).

(2) المصدر السابق، ج1/434.

(3) الجندي، قضايا الأدب والثقافة والفن (ص71).

(4) المرجع السابق، ص71.

(5) الجندي، الصحافة والأفلام المسمومة (ص154).

ويرى أحمد زلط أن دعوة هيكل للفرعونية "لم تعش طويلاً، وكانت من أخطاء هيكل أن يروج لها في وسط تطورت فيه نظم الحياة والحكم واللغة والعقائد... فكيف وقف هيكل عند الدعوة إلى الفرعونية هذا الموقف الذي عدَّ أحد أغلظه"⁽¹⁾.

ولعل هيكل أراد أن يربط بين الفرعونية القديمة وتراثها ومعتقداتها وعاداتها وتقاليدها وبين مصر الحديثة اعتقاداً منه أن التمسك بالفرعونية سيحيي مصر مرة أخرى، وسيني لها حضارة على منوال الحضارة الفرعونية.

هذه الدعوة لم تجد قبولاً عند الكثير من المفكرين لأن الزمن اختلف اختلافاً كبيراً، كما أن أدوات الحياة التي كانت مستخدمة في عهد الفراعنة لم تعد تصلح أن تستخدم في هذا العصر، علاوة على أن هذه الدعوة مخالفة تماماً لمبادئ شريعتنا الغراء، وديننا الحنيف.

ويميل الباحث إلى رأي أنور الجندي ورأي أحمد زلط، فالأول عارض هذه الدعوة من حيث إنها مخالفة للدين، والثاني عدها غلطاً وقع فيه هيكل، ويرى الباحث أن إحياء الفرعونية مستحيل لأن الزمن لا يعود إلى الخلف، فالحياة دائماً في تقدم وتطور، ثم يتعجب الباحث من جرأة هيكل بدعوته إلى الفرعونية المستعبدة للإنسان، وهو الذي عاش في الغرب سنوات فرأى فيه الحرية والديمقراطية والتقدم والحداثة.

3- هيكل والفكر القومي:

بدأت دعوة هيكل إلى القومية العربية في الانتشار عبر كتاباته في بداية القرن العشرين، والذي ساعده على ذلك مشاركته في تحرير جريدة (الجريدة) من (1908-1915م)، ورئاسته لتحرير صحيفة (السياسة والسياسة الأسبوعية) من (1922-1936م)، هذه الدعوة كانت جزءاً أصيلاً من النزعة القومية المصرية التي كانت سائدة وقتئذ، هذه النزعة شملت أمرين: الأول سياسي، وقد ظهر واضحاً في زمن العرابيين والثورة العرابية، والأمر الثاني: فكري، وقد انتشر زمن محمد عبده وتلاميذه، ويرى هيكل أن "ثورة الفكر توازي الثورة السياسية المتصلة في مسيرها، وتعاني من صور الركود واليقظة والتقدم والتراجع ما تعاني زميلتها"⁽²⁾.

فهل كانت النزعة القومية عند هيكل أقرب إلى السياسة أم إلى الفكر؟ المتأمل في جريدة (الجريدة) والأعداد التي صدرت آنذاك يجد أن هيكلًا عندما كتب فيها حول موضوع القومية كان يميل إلى الجانب الفكري أكثر من ميله إلى الجانب السياسي، ذلك لأن تركيزه في تلك

(1) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص112).

(2) هيكل، ثورة الأدب (ص13).

المقالات كان مُنصبًا على إصلاح الواقع التربوي والاجتماعي والاقتصادي، وكان ما يميز هذه المقالات أنه كتبها كداعٍ إلى الإصلاح بشكل هادئ ومتوازن.

هناك العديد من القضايا تناولها هيكل في برنامجه الإصلاحي، نختار منها ثلاث قضايا لأنها من الأهمية بمكان، هذه القضايا تمثل نماذج فقط وهي: التربية والتعليم، والحريات، والمرأة.

ونبدأ بالتربية والتعليم، فقد ركز في موضوع التربية والتعليم على ثلاثة أمور: أولها طرق أو أساليب التربية والتعليم السائدة سواءً كانت في المدرسة أو المنزل، وقد دعا هيكل إلى إصلاحها⁽¹⁾. والأمر الثاني: اعتماد مبدأ الحرية المطلقة في التربية، ورأى أن الغرائز الموجودة في النفس البشرية لا يمكن قهرها بقوى خارجية، وأن هذه الغرائز فيها الخير الكثير وهي تتأثر بمحيط البيئة، وأن فيها المنفعة للمجتمع⁽²⁾. والأمر الثالث: ضرورة الاهتمام بالتعليم العالي ونشره، لأن التعليم العالي هو الذي يُخرج قيادة النخبة المثقفة للمجتمع، من علماء ومفكرين، وهم الأقدر على إمساك أمور الحياة وقيادة الأمة وتوجيهها، فقد ذكر أن "كثيرًا من المصائب التي حلت بالأمم كانت مبنية على جهل قادتها لعدم وجود العلماء فيها"⁽³⁾.

يبدو تأثير هيكل الواضح في موضوع إصلاح التربية والتعليم بمن سبقه أمثال محمد عبده ولطفي السيد وقاسم أمين. لقد انتقد هيكل الأساليب التقليدية في عملية التربية والتعليم، ووضع البديل وهو الحرية المطلقة في التربية، ولكن يؤخذ عليه إغفال دور التربية الدينية وتأثيرها، كما ويؤخذ عليه أنه جعل التعليم العالي لطبقة من الناس من أجل إمساك زمام أمور الحياة وقيادة الأمة، وإن كان هذا مطلوبًا، فليس شرطًا أن يقتصر الأمر على ذلك، فإن للتعليم دور آخر وهو نشر الوعي وبناء الشخصية والارتقاء بالمجتمع وتطويره.

أما القضية الثانية التي تناولها هيكل في برنامجه الإصلاحي أو دعوته الإصلاحية مسألة الحريات، وقد تحدث عنها كثيرًا في مقالاته في (الجريدة)، فطرق باب الحرية السياسية، ورأى أن الأمم تسير نحو الحرية والاستقلال في القرن العشرين والدليل على ذلك كثرة الثورات، وفي مقاله له في (الجريدة) بعنوان (أكبر الذنوب) يدعو إلى الحرية المطلقة في التفكير فيقول: "لا تضعوا أمام حريتك الفكرية عقبات تصدها، بل ذروها تختار من المسارح ما يوافقها... فإذا

(1) ينظر: الجريدة، العددان 1692-1693 بتاريخ 2-5 أكتوبر 1912م.

(2) ينظر: المرجع السابق، العدد 1657 بتاريخ 21 أغسطس 1912م.

(3) المرجع نفسه، العدد 1652، بتاريخ 25 يوليو 1912م.

استقرت على نتيجة فأخرجوا هذه النتيجة للناس، وضعوها موضع المناقشة، وجاهدوا لإدخالها في سبر الأفكار العامة تكونوا بذلك قدمتم خدمة للإنسانية، وزدتم في الثروة العلمية والفكرية⁽¹⁾.

هذا رأي هيكل في الحرية الفكرية، أما رأيه في الحرية الفردية فيقرر "أن الفرد حر بالسليقة ويجب أن يبقى حرًا منفردًا ومجتمعًا وأنه أعرف بمصلحة نفسه من سواه، يعرف موضع النقص فيسده، ومقدار الكمال فيجاهد للوصول إليه"⁽²⁾.

يبدو أن هيكلًا كان متأثرًا بالمدرسة الليبرالية أو المذهب الليبرالي، فإيمانه بالحرية الفردية ربما نبع من النظرية الغربية، لكنه طوعها وهذبها، فوضع هذه الحرية في إطار مصري أو في أجواء ديمقراطية تناسب طبيعة المجتمع المصري ولا تتعارض مع عاداته وتقاليد ومبادئه⁽³⁾.

عندما تناول هيكل مسألة الحريات لم يحدد للحرية الفكرية حدودًا يضبطها فيها في إطار الشرع الحكيم أو المبادئ الإنسانية، فأطلق العنان للعقل أن يفكر ولو خرج عن المألوف وتجاوز الخطوط الحمراء، ربما أراد هيكل بذلك أن يصل العقل إلى أبعد مدى، أو أن يسبح في الآفاق ليلبغ القمة في الإبداع والتفكير، لكن هيكل لم يحدّر في الوقت نفسه من الزيغ والانحراف الذي قد تكون نتيجته زهاب العقل أو الجنون أو الدخول في دائرة الكفر.

أما الحرية الفردية فقد وضع لها بعض الضوابط، وحكمها بالمصرية، فرأى أنه لا يجوز الخروج عن النظرية المصرية أو الرؤية المصرية للحياة.

يبدو أن هيكلًا وقع في تناقض في أفكاره، لأن الحرية الفردية جزء من الحرية العامة سواء الفكرية أو السياسية أو غيرها، فالحرية الفردية عنده مقيدة، والحرية الفكرية مطلقة، أضف إلى ذلك أن إطلاق الحرية الفكرية بشكل كامل ربما يؤدي إلى الضلال والكفر والإلحاد.

والقضية الثالثة هي قضية المرأة وقد تناولها من ثلاثة جوانب: الحرية والتعليم والحجاب، وقد ربط هذه الجوانب بعضها ببعض، ويرى هيكل أن المرأة في مصر (متخلفة) نتيجة للاستبداد الذي وقع عليها من الرجل يقول هيكل: "ولإزالة هذا التخلف، على المرأة أن تتعلم وتجنّب من فنون الأدب ما يرفع تفكيرها ويتقفها"⁽⁴⁾.

(1) الجريدة: العدد 1158، يناير 1911م.

(2) المرجع السابق، العدد 426، أغسطس 1908م.

(3) ينظر: شرف، محمد حسين هيكل في ذكره (ص34).

(4) الجريدة: العدد 349 مايو 1908م، والعدد 387 يونيو 1908م.

ويشن هيكل على الحجاب حملة شعواء فيصفه تارة بالسجن، وتارة بالعادة التي تقيد البنات، ويوجه السؤال للمرأة منتقداً "كيف ترضي بالسجن والتحجب من كل جمال أبدعه الله ليمنع به الخليفة"⁽¹⁾.

ويستطرد هيكل في تهجمه على الحجاب وعلى الذين يدافعون عنه فيقول: "إذا خاف الرجل من فساد من المرأة لضعف عقلها... فلم لا يسعى إلى تكميله بالتربية والتعليم... يداوي نقص التربية بالحجاب، يداوي شرًا بشر"⁽²⁾.

وتزداد جرأة هيكل على الحجاب بأن جعل له مساوئ ذكر منها: "فصله بين الرجل والمرأة بشكل يجعل اختيار الزوجة في غاية الصعوبة"⁽³⁾.

وأن الحجاب يحول دون الحب الشريف الذي يربط بين الجنسين على أساس من الثقة فيرى أنه "يجب هدم عادة الحجاب الذي يقف في وجه هذه العلة"⁽⁴⁾.

ومع مرور الزمن ومتغيرات الحياة، تولدت عند هيكل قناعات جديدة دفعته إلى التراجع أو إعادة النظر في هذه الأفكار التحررية، ربما يعود ذلك إلى أن هيكلًا وجد نفسه في صراع داخلي بين اتباع الحضارة الغربية وأساليبها الحياتية، وبين جذب الواقع المصري له بعاداته وتقاليده ومبادئه السائدة، لذلك خلص إلى القول: "إنني ناصح كل آتٍ إلى أوروبا أن يبتعد عن حياتها قدر المستطاع، وأن يحفظ مصريته رغمًا عن كل ما يحيط به"⁽⁵⁾، وفي الوقت نفسه دعا هيكل إلى اقتباس المفاهيم الغربية التي تؤدي إلى التطور حسب رأيه.

من خلال ما سبق يبدو أن هيكلًا كان متأثرًا بشكل كبير بأفكار قاسم أمين التحررية التي تبناها بحذافيرها، وما لبث بعد ذلك أن تراجع عنها خفية لتناقضها مع الواقع المصري المعاش.

ويبقى التساؤل: كيف لمفكر كبير مثل هيكل تتقاطع في ذهنه الأفكار القومية والغربية ويستطيع المزج بينها مع ما فيها من تناقض في الفكر والعادات والتقاليد والبيئة والجنس، ثم كيف يمتلك هيكل الجرأة على الحجاب الشرعي، وهو يعلم أنه فريضة من الله ويجعله رمزًا للانحطاط والتخلف، وحاجبًا بين الرجل والمرأة، وسجنًا يظلم جمالها، ومانعًا للثقة فيها،

(1) الجريدة، من مقالة (المرأة والحجاب)، العدد 498 بتاريخ 24 أكتوبر 1908م.

(2) المرجع السابق.

(3) المرجع نفسه، قضية المرأة (الحجاب 5)، العدد 1050 بتاريخ 21 أغسطس 1910م.

(4) المرجع نفسه، من مقالة بعنوان (نتيجة الحب)، العدد 617 بتاريخ 22 مارس 1909م.

(5) المرجع نفسه، من مقالة قضية المرأة (الحجاب 10)، العدد 1060 بتاريخ 2 سبتمبر 1910م.

مع أن الحرام هو السفور والتبرج، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (1).

وعودة إلى الفكر القومي الذي انتشر في مصر وفي بعض البلاد العربية نسأل: هل حققت القومية أهدافها؟ وكيف يمكن تقييمها كتجربة إنسانية؟، وهنا ندع الإجابة لأنور الجندي حيث يقول: "لقد كانت التجربة القومية بالغة الخطر والأهمية، وقد حشدت لها قوى كثيرة في أقطارها... ولكنها مع ذلك لم تحقق أهدافها، لأنها كانت متعارضة مع طبيعة الأمة الإسلامية التي شكلها الإسلام منذ خمسة عشر قرناً بعيداً عن مفهوم الدم والعرق والعنصر، إلى جامعة تقوم على التوحيد الخالص" (2).

لم تحقق القومية أهدافها، وواقع الأمة العربية اليوم يثبت ذلك، فقد قدم الفكر القومي بديلاً عن الفكر الإسلامي، ومُفرقاً بين العروبة والإسلام، حيث فاحت منه رائحة العنصرية والتعصب للجنس العربي؛ مما شكل خطورة على وحدة الأمة الإسلامية.

لقد مزج هيكل فكره القومي بالفكر الغربي محدثاً تناقضاً في المفاهيم، وتبعية في الانتماء، وتقلباً في أطوار الفكر الفرعوني ثم القومي اللذين أخذهما بقوة، ثم الفكر الإسلامي الذي أخذه على استحياء دون أن يُظهر قوة مماثلة في طور فكره القومي.

4- هيكل والفكر الإسلامي:

في مطلع القرن العشرين، كان للغزو الثقافي الغربي أثره الكبير في حياة المجتمعات الإسلامية، وقد برز ذلك بوضوح في المظاهر الاجتماعية والسياسية، وقد أحدث هذا التأثير اضطراباً وانقساماً داخل العالم الإسلامي، وفي خضم هذه الحالة استيقظ الوعي الإسلامي عند بعض أبناء الأمة الإسلامية، فظهر تيار من المتعلمين تعليماً عربياً إسلامياً، وإلى جانبه ظهر تيار آخر تعلم تعليماً مدنياً علمانياً، هذان التياران كانا في صراع فكري مع الاستعمار، وإلى جانب صراعهما معه، ظهرت بينهما ملامح الانقسام، وعلى أثره برز تيار ثالث من المفكرين "تعلموا على الطريقة الأوروبية... تصدوا للتيار العلماني من خلال تقديمهم لرؤية إسلامية جديدة... يمكن تسميته بالتيار التحرري الإسلامي" (3) وقد مثل هذا التيار ملامح اليقظة

(1) [الأحزاب: 59].

(2) الجندي، قضايا الأدب والثقافة والفن (ص 93).

(3) عبد المجيد، التغيير الاجتماعي في الفكر الإسلامي الحديث (ص 290).

الإسلامية، فعبّر عن اتجاه فكري طبيعي سعى من خلاله إلى الاستقلال بروح وطنية، وكان هم هذا التيار "التوفيق بين النظريات الغربية وقضايا الفكر الإسلامي، ومن أبرزهم: محمد حسين هيكل، وإسماعيل مظهر، ومنصور فهمي"⁽¹⁾.

ويرى رفعت سيد أحمد أن مفكري هذا التيار بما قدموه من أفكار توفيقية، عكسوا طبيعة المرحلة التي عاشوا فيها، مرحلة الصراع بين النموذجين العربي الإسلامي، والغربي⁽²⁾.

هذا التيار الذي تزعمه هيكل تميز بالمحافظة على التراث الإسلامي، وفي الوقت نفسه الانفتاح العقلي على الثقافات الأخرى، فالرسالة الإسلامية تطلق العقل من قيوده إلى حد لم يتصوره العلم في عصرنا الحاضر، ولا في غيره من العصور إطلاقاً مثله⁽³⁾. ويمكن القول أن تيار التوفيقية الجديدة نقل الأفكار والنظريات الغربية إلى جمهور القراء العرب برؤية عقلية نقدية موضوعية إلى حد ما، ويسجل لهذا التيار أنه "تصدى للتيار التخريبي الذي نادى بتقليد الغرب، وتبنى أفكاراً وافدة تتعارض مع قيم الثقافة الإسلامية، فكانت أهم إسهاماتهم تتمثل في تصحيح كثير من التصورات والمفاهيم المشوهة التي قدمها مفكرو التيار التخريبي حول الإسلام"⁽⁴⁾.

ومن المفاهيم التي حاول هيكل التأسيس لها بعض المصطلحات الغربية التي استخدمها بعد أن أعاد تفسيرها وفق التصور الإسلامي مثل مصطلح الاشتراكية الإسلامية تمييزاً له عن المذاهب الاشتراكية الأخرى⁽⁵⁾.

هذه التوفيقية من وجهة نظر هيكل وسيلة من الوسائل التي تمكن الشرق من إحياء التراث الإسلامي فيها، يقول في ذلك: "الشرق اليوم في حاجة أشد الحاجة إلى النهل من ورد الغرب في التفكير وفي الأدب والفن... فلا مفر لمن يريد أن يصهر هذه الطبقة من الاستعانة بأحدث صور التفكير في العالم ليستطيع من هذه السبيل أن يصل لهم بين الحاضر وثروة الماضي وتراثه العظيم"⁽⁶⁾.

(1) عبد المجيد، التغيير الاجتماعي في الفكر الإسلامي الحديث (ص 291).

(2) ينظر: أحمد، الدين والدولة والثورة (ص 27-39).

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج 6/13).

(4) عبد المجيد، التغيير الاجتماعي في الفكر الإسلامي (ص 292).

(5) ينظر: هيكل، الحكومة الإسلامية (ص 59).

(6) هيكل، حياة محمد (ص 36).

أراد هيكل أن يؤكد على ضرورة التواصل الثقافي مع الفكر الغربي الحديث، مع الحرص الشديد على استقلالية الفكر الإسلامي، وعلى ضرورة الربط بين التراث الفكري الإسلامي وعناصر الثقافة الحديثة، مع التأكيد على التحرر من نفوذها من خلال إخضاعها للمراجعة والتقويم، والمقابل ضرورة التعمق في دراسة التراث الفكري الإسلامي والتمسك بالأصول الإسلامية. هذه الرؤية التوفيقية الجديدة التي سعى إليها هيكل وزملاؤه كانت تهدف إلى تحديد دور الإسلام في تحرير المجتمعات الإسلامية من رق الاستعمار والتخلف الحضاري⁽¹⁾.

ويرى هيكل في كتابه (حياة محمد) ﷺ أن الغرب فشل في تحقيق زعمه القائل بأن العلم سيحل من الحياة الإنسانية محل الإيمان من الحياة الروحية⁽²⁾، وأنه أصبح يخالف الغرب في أمر الحياة الروحية، وأن ما في الغرب منها غير صالح لأن ينقله، وأن تاريخ المسلمين الروحي غير تاريخ الغرب، وثقافتهم الروحية غير ثقافته⁽³⁾.

تبدو قناعة هيكل بفشل الحياة الروحية عند الغرب، وأنه لا مجال للاستفادة منها في الشرق، وهذا مثل حافزاً له ولتجاره للتأمل في رسالة الإسلام بعمق، والبحث عن دور المسلم في القرن العشرين، وعن أسباب تخلف العالم الإسلامي يرى أنه يتمثل في إقفال باب الاجتهاد عصوراً طويلة، أصابت الأمة الإسلامية بالجمود، مما أدى إلى تأخرها وانحطاطها.

ولللخروج من حالة الجمود التي جلبت للأمة التأخر والانحطاط قام رجال أحرار في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ببذل الجهد لتفنيد أقوال الذين اتهموا الإسلام بأنه سبب تأخر الأمم في مضمار الحضارة، وانطلقت الشعوب الإسلامية تُلقي عن نفسها أغلال الجمود وقيوده، وتتهل من ورد الحرية التي أباحها لها الإسلام⁽⁴⁾.

هذا البحث والاجتهاد وُلدَ عند هذا التيار فكرة تأسيس مشروع حضاري يهدف إلى "صياغة الذات الإسلامية من خلال رؤية تعتمد على الربط بين الحرية والعقل، وبذلك بدت فكرة التغيير الاجتماعي في تصورهم، لا تمثل اللحاق بالمدنية الغربية، بل تتجاوزها إلى الاستقلال الحضاري"⁽⁵⁾.

(1) عبد المجيد، التغيير الاجتماعي في الفكر الإسلامي (ص300).

(2) ينظر: هيكل، حياة محمد (ص33).

(3) ينظر: جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العصر الحديث (ص237).

(4) ينظر: هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج50/6).

(5) عبد المجيد، التغيير الاجتماعي في الفكر الإسلامي (ص308).

هذا التصور حدد عند هيكل العلاقة بين الدين والدولة، فالدولة في نظره لا بد أن تقوم على النظام التشريعي والقانوني، وأن الإسلام أثبت للأمة حقها كمصدر للسلطة، إذ جعل ولاية الأمر يستمدونها من الشعب والأمة عن طريق البيعة للخليفة، وأن الخليفة وكيل عن الأمة، وأن للأمة أن تراقب الخليفة وتقومه، وأن تطيعه في حدود توكيله⁽¹⁾، وأن أساس قواعد الحكم المساواة والإخاء والحرية⁽²⁾، وأنه يحق للأمة مواجهة الاستبداد السياسي⁽³⁾، وأن الحرية حافز إلى التقدم خطوات فسيحة نحو الحضارة المثلى⁽⁴⁾.

عاش هيكل في فترات حياته تقلبات فكرية، وصراعات سياسية، وأحداثاً عالمية معقدة جعلته يقلب فكره، وينعم النظر في الواقع بشكل أعمق، فكل مرحلة من مراحل حياته تعد حياة جديدة بالنسبة له، متأثراً بالبيئة والأوضاع التي يعيشها، وهذا ينفي عنه جمود التفكير، فالفترة التي عاشها في بلاد الغرب تبني فكر الغرب، وعندما عاد إلى مصر أراد أن يطور فكره فأخضع الثقافة الغربية إلى المراجعة والتقييم، ربما أدخله ذلك في صراع فكري ترتب عليه صراع نفسي.

وجد هيكل في مصر تيارين متضاربين، الأول متشدد مغلق والثاني تخريبي منفتح، وبعد النظر في فكر هذين التيارين، أراد هيكل أن يجمع بين إيجابيات كل منهما، ويتخلى عن سلبياتهما، فتبنى التيار التوفيقي.

وبحسب أن هيكلًا رائدًا من رواد التيار التوفيقي أو التيار التحرري الإسلامي، يرى الباحث أن لهذا التيار له ما له، وأن عليه ما عليه، فمن الملاحظات التي تسجل لصالحه:

1- أنه ركز على القيم الروحية الإسلامية، والمحافظة على التراث الإسلامي، والاستفادة من الثقافة الغربية بعد تقييمها دون الخضوع لها.

2- أسس هذا التيار لمشروع حضاري يهدف إلى صياغة الذات الإسلامية، ويسعى إلى تحرير المجتمعات الإسلامية من رق الاستعمار والتخلف الحضاري.

(1) ينظر: هيكل، الحكومة الإسلامية (ص36).

(2) ينظر: المصدر السابق، ص32-33.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص36-37.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص134-135.

أما المثالب التي يرى الباحث أن هذا التيار قد وقع فيها، فهي:

1- أنه لم يتخلص تمامًا من تبعية الفكر الغربي، فقد خلط الأمور في بعض المفاهيم والمصطلحات، وأنه لم يضع البديل الإسلامي الخالص؛ لأنه لم يكن متعمقًا في دراسته للنظريات الإسلامية.

2- وقع هيكل في بعض المخالفات الشرعية عندما أرجع التشريع إلى الأمة وليس إلى الكتاب والسنة كأساس لدستور الدولة، وهذا دليل على موافقة هيكل للديمقراطية الغربية ومخالفته للمبادئ الإسلامية، وكذلك موقفه من قضية حجاب المرأة.

ومع ذلك يُحسب لهيكل محاولته التغيير وقطع شوطٍ في الفكر الإسلامي وإن لم يصل إلى درجة النضوج الكامل فيه، وواجه المخالفين لفكره الإسلامي، وظل ثابتًا عليه حتى نهاية حياته.

5- نظرة هيكل إلى الديمقراطية:

الديمقراطية بمفهومها اليوم تجعل الأمة أساس الحكم ومصدر جميع السلطات، وأي خلاف بين هذه السلطات يجب الرجوع فيه إلى الأمة، فالأمة هي أصل السلطات، وهي من ينوب عن الأمة، ويرى هيكل أن "الديمقراطية مذهب، بل مذاهب لها فلسفتها في النظام وفي الخلق وفي تصوير الحياة"⁽¹⁾ وأن الأساس الصحيح للديمقراطية "العمل وقسمته بين الأفراد والطوائف قسمة تعاون وتضامن لا قسمة نضال وتنافس"⁽²⁾ وطالب هيكل بأن تكون الديمقراطية فكرة للإصلاح، أساسًا للثقافة "وخير فكرة مألوفة عندنا في مصر يمكن أن يقوم الإصلاح في المستقبل عليها هي الفكرة الديمقراطية... فلنجعلها إذا أساس ثقافتنا في معاهد العلم، وفي كتب الأدب، وفي أخيلة الشعر، وفي ألوان الفن، ولتقم فلسفتنا الرسمية على موجبها"⁽³⁾. ويرى هيكل أن الديمقراطية هي "وحدها الأساس الصالح للحياة المصرية، وهي وحدها الفكرة التي تلائم المزاج المصري، وتحن إليها الطبيعة المصرية حنينًا صادقًا"⁽⁴⁾.

إن تباين نظرة هيكل للديمقراطية بين المدح والذم، والنجاح والفشل، نابع من تباين نظرة مؤسسيها وفي ذلك يقول: "وكان الأدب قائمًا في إيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا على تمجيد

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج3/32).

(2) المصدر السابق، ج3/13.

(3) المصدر نفسه، ج3/32.

(4) المصدر نفسه، ج3/32.

الديمقراطية، والإشادة بذكرها، والتمدح بفضائلها... فأنت إذا قرأت ما ينشر من الكتب اليوم في إيطاليا رأيتها جميعاً تعد الديمقراطية أكذوبة آمن الناس بها زمنًا ثم تبين رجال الفاشيست زيفها، وهذا الكلام هو ما تقرأه كذلك في ألمانيا، فأما إنجلترا فما تزال كتبها تشيد بالديمقراطية⁽¹⁾.

النظرة إلى الديمقراطية كأساس للحكم في أوروبا مختلفة تتراوح بين اتهامها بالكذب والزيف والفشل والإفلاس، وبين التمجيد والإشادة، ويبدو أن السبب في الاختلاف حول الديمقراطية يكمن في آلية تطبيقها، فربما تكون في بعض الدول مجرد شعارات جوفاء، لكنها في الحقيقة مبنية على المصالح الشخصية وعلى التزوير والخداع، وفي المقابل نراها في بعض البلاد الأخرى كإنجلترا مثلاً بعيدة عن هذه الأجواء لأن المجتمع الانجليزي يحترم النظام ويؤمن بالحرية.

هذه الديمقراطية التي طغت على أوروبا لم تكن بعيدة عن مصر فقد انتقلت "إلى ضفاف النيل مع جيوش بونابرت أثناء حملته على مصر"⁽²⁾.

وقد رفعت مبادئ الحرية والإخاء والمساواة، لكن أمر انتشار هذه المبادئ في المجتمع المصري وامتزاجه بطبائع المصريين لم يكن سهلاً ولا ميسراً، لأن المصريين يملكون ميراثاً حضارياً له أثره في نفوسهم، وأن هذه المبادئ تتعارض مع مبادئ دينهم، علاوة على أنها خرجت من بلاد غير إسلامية، وفي المحصلة وقف معظم المصريين موقف عدا من هذه المبادئ⁽³⁾.

ولعب الانجليز دوراً آخر في نشر فكرة الديمقراطية في مصر فحاولوا "أن يقنعوا الفلاحين... بأنهم أصدقاؤهم وأعوانهم كي يكسبوا السواد ضد الملاك والطبقات العليا... ازدادت الفكرة الديمقراطية انتشاراً بين الطبقات التي كانت إلى ذلك الحين تؤمن بنظام الطوائف..."⁽⁴⁾.

ويرى هيكل أن فكرة الديمقراطية الصحيحة لا تقوم بهذا الشكل أي من خلال تقسيم الشعب المصري إلى طبقات ثم زرع التنافس باسمها بين هذه الطبقات من أجل الوصول إلى

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج3/29-30).

(2) المصدر السابق، ج3/10.

(3) المصدر نفسه، ج3/11.

(4) المصدر نفسه، ج3/12.

الحكم، يقول هيكل: "والحق عندنا أن نضال الطوائف، والثورات الاجتماعية والاقتصادية، والتنافس بين الطبقات ابتغاء الحكم، كل ذلك يتنافى مع الفكرة الديمقراطية الصحيحة"⁽¹⁾.

ويمضي هيكل في حديثه عن الديمقراطية من خلال مقالاته، فتراه مرة يتكلم عنها بكل موضوعية فيقول: "وانبث في غير ناحية من أنحاء العالم، وفي غير دولة من دوله دعاة يبشرون بانتهاء الديمقراطية، ويعددون ما جنت على العالم من مساوئ... وما خلفته الديمقراطية باسم الحرية من فساد في الأخلاق، وتزعزع في العقائد، وإذاعة للشرور في العالم"⁽²⁾.

وتحدث هيكل عن الديمقراطية ويدافع عنها ويبرر لإخفاها فيقول: "والحقيقة أن ما يبدو للنظر السطحي اليوم كأنه فشل للديمقراطية ليس إلا اضطراباً أصابها بعد الحرب وبسبب الحرب، وهو اضطراب مؤقت لا بد سيزول سريعاً. أما الديمقراطية كنظام فما تزال قوية قادرة، وما يزال إيمان الناس بها ثابتاً متأصلاً في غور نفوسهم"⁽³⁾.

وفي بعض المواطن أشاد هيكل بالديمقراطية، حيث يقول: "إنها وحدها الكفيلة للكرامة الإنسانية، وللحرية الإنسانية، وأنها تخلق التوازن الذي يحفظ على الأمة سلطانها"⁽⁴⁾.

أما الديمقراطية في مصر فيقول عنها هيكل في مقاله له بعنوان (الحياة النيابية وطبيعة الحكم): "إن النظام النيابي كما هو قائم في مصر اليوم لا يحقق معنى الديمقراطية على الوجه الصحيح... صارت الحياة النيابية بصورتها الحاضرة في مصر أداة تركيز للحكم، مع أن الفكرة الديمقراطية غرضها توزيع السلطة لا تركيزها"⁽⁵⁾. وتحدث عن الديمقراطية الإسلامية وبين المقصود منها فقال: "التي تجعل الرأي لأهل الرأي لا لكل فرد من أفراد الأمة"⁽⁶⁾، ويقول: "وأنا من جانبي لا أتردد في القول بأن الإسلام يعرف المبادئ التي دعت الديمقراطية إليها، مبادئ الحرية والأخوة والمساواة"⁽⁷⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج3/13).

(2) المصدر السابق، ج3/17.

(3) المصدر نفسه، ج3/49.

(4) المصدر نفسه، ج3/55.

(5) المصدر نفسه، ج3/49.

(6) المصدر نفسه، ج3/58.

(7) المصدر نفسه، ج3/59.

يبدو أن إيمان هيكل بالديمقراطية كنظام للحكم والحياة كان قويًا، فهو يرى أنها أساس للثقافة والإصلاح، وللعمل المشترك المبني على التعاون والتضامن، وأنها تحفظ الكرامة الإنسانية، وقد انبرى هيكل يدافع عنها حيث رأى أن فشلها أو إفلاسها أو اضطرابها مؤقت بسبب الحروب، وأنه سرعان ما سيزول، كما رأى أن قوة الديمقراطية يكمن في نظامها.

وتحدث -أيضًا- عن الديمقراطية كنظام حكم في بلاد الغرب بصراحة، فبين أنها تختلف من دولة إلى أخرى، وقد تراوح هذا الاختلاف بين النجاح والفشل، ثم ذكر بموضوعية أن استغلال الديمقراطية يسيء إليها، وينتج عنه الفساد في الأخلاق والزعزعة في العقيدة.

وفي حديث هيكل عن كيفية انتقال الديمقراطية من الغرب إلى مصر، أفاد أن المصريين في البداية لم يقبلوها ولم يقتنعوا بها، بل عارضوها، لكنهم بعد فترة من الزمن استوعبوها وقبلوها، فهي عنده تلائم المزاج المصري والطبيعة المصرية.

وفي نهاية المطاف أطلق هيكل مصطلحًا جديدًا للتوفيق بين الإسلام والديمقراطية فقال: "الديمقراطية الإسلامية"، ورأى أنه لا تعارض بين مبادئ الإسلام ومبادئ الديمقراطية.

من خلال نظرة هيكل للديمقراطية، يرى الباحث أنه كان يميل إلى علمانية الدولة المصرية أكثر من ميله إلى إسلاميتها، ويبدو واضحًا أنه ما يزال متأثرًا بالثقافة الغربية والفكر القومي، وأن تبنيه للفكر الإسلامي كان على استحياء، ولم يكن على درجة عالية من القوة والوضوح.

6- نظرة هيكل إلى الحضارة:

الحضارة هي مجموعة من المفاهيم والأفكار التي تترجم إلى سلوك، وهذا السلوك قد يكون معنويًا كالعقائد والأخلاق، وقد يكون تطبيقيًا كالصلاة والجهاد وبناء المساجد والبيوت، أما التراث فهو كل ما تركه السلف للخلف من نتاج فكري، أو ما ورثه السابقون لمن جاء بعدهم من حضارة وثقافة وعلوم وصناعات، والتراث نوعان: نوع ناتج عن وجهة النظر في الحياة، وهذا يشمل الحضارة والثقافة، ونوع ناتج عن نشاط عقلي محض بطريقة التجربة والملاحظة والاستنتاج مثل: علوم الفلك والرياضيات والفيزياء وغيرها، وكالصناعات والمصانع الناتجة عن هذه العلوم⁽¹⁾.

(1) ينظر: عبد الله، دراسات في الفكر الإسلامي (ص103-104).

يرى هيكل أن الحضارة التي بناها الإسلام لها أساس جدير بأن تقوم عليه الحضارة الإنسانية، هذا الأساس نتبينه من خلال: "ما يدعو إليه الإسلام من البر والتقوى، وما يفرضه على الناس من الزكاة والصدقة، وما يوصي باليتيم والبائس والمحروم"⁽¹⁾.

ويؤكد مالك بن نبي علي أن الإسلام هو المنقذ للحضارة الإنسانية⁽²⁾، ولقد أثرت الحضارة الإسلامية في الحضارة الإنسانية فأثرتها وأغنيتها من خلال "الإضافة عليها، وارتداد الآفاق المجهولة، واكتشاف القيم المعرفية والتجريبية الجديدة"⁽³⁾.

وإن الحضارة الإسلامية لتمتلك من الخصائص والمميزات ما لا تمتلكه حضارة أخرى، فهي حضارة إيمانية عقائدية ملتزمة وأصلية ومنفتحة ومتوازنة وشاملة تلبي كافة مناحي الحياة، وهي كذلك إنسانية تلبي طموح الإنسان، وتستجيب لأشواقه، وتتفاعل مع فطرته.

أما الحضارة الغربية فهي مادية مبنية على المصالح، وإذا وجد فيها أعمال بر أو إحسان فإن ذلك لا يعتبر في عرف الحضارة الأوروبية واجباً إنسانياً يتحتم القيام به، بل هو في نظر كثيرين من كبار كتّاب أوروبا بقية من بقايا الضعف المتخلف عند الإنسان"⁽⁴⁾.

وعلى عكس هؤلاء المتعلمين والساسة نجد "فلاسفة الغرب وكتّابه وأدباؤه يلتمسون الغذاء النفسي في أديان الشرق، وصور الإيمان فيه، والأدب بوصفه مظهرًا للحضارة... وقد كان الإسلام وما يزال دين أهل الشرق العربي"⁽⁵⁾.

وإذا كانت الحضارة الغربية قد لعبت دورًا مهمًا في كسر الجمود الذي أصاب الحضارة الإسلامية، فإنها بالمقابل "خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً ومنها من فاحش التعقيد ما يصعب على كل الناس تمثيلها"⁽⁶⁾.

والاختلاف بين الحضارات والتمايز بينها أمر طبيعي في "اللغة والتاريخ والثقافة والعادات، وأهم من ذلك الدين"⁽⁷⁾، هذا الاختلاف لا يعني الصراع أو اللجوء إلى العنف.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/169).

(2) ينظر: ابن نبي، دور المسلم ورسالته... (ص29).

(3) خليل، تحليل التاريخ الإسلامي إطار عام (ص237).

(4) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/169).

(5) هيكل، ثورة الأدب (ص12).

(6) علي، الإسلام والحضارة الغربية (ص342-360).

(7) حلمي، الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي... (ص149).

ويرى هيكل "أن الإسلام وفلسفته أكثر قدرة من كل عقيدة وفلسفة أخرى على تيسير ما نسميه اليوم (التعايش السلمي) بين الشعوب والدول، وأنه كان قديراً على ذلك فيما مضى لولا أن وقفت السياسة الغربية من الإسلام موقف خصومة"⁽¹⁾.

هذه الخصومة لا مبرر لها، فالتنافس الحضاري الصحيح يقوم على العدل والرحمة والإخاء لا على الظلم لأنه "ما حل الظلم بأرض إلا اضمحلت أمامه الحضارة، وتضاءلت الحياة"⁽²⁾.

إن الحضارات الإنسانية التي قامت، ويشهد لها التاريخ- لم تقم على التقدم العلمي وحده، ولا على التفوق العسكري وحده، ولا الازدهار الاقتصادي وحده، بل لا بد أن "يصحب ذلك كله عقائد متميزة، وقيم إنسانية راقية، ومبادئ أخلاقية ثابتة، وهي بحمد الله وفضله متوفرة في شريعتنا"⁽³⁾.

هذه مبادئ لا بد للحضارة الإنسانية أن تتحلى بها أو تتمسك بها، لكن واقع بعض الحضارات اليوم اتجهت اتجاهاً آخر لأن أهدافها انحرفت، يقول هيكل في ذلك: "هذه الحضارة التي تجعل المال غرضها الأول، وتستخدم كل شيء في سبيله، فهي تستخدم العلم وتستخدم التشريع، وتستخدم الفن، وتستخدم العواطف لتحويله من طائفة إلى أخرى، في سبيله يهون كل شيء، وتهون الحرب ذاتها، يُقتل فيها ملايين الناس باسم الحرية تارة، وباسم القضاء على الروح العسكرية تارةً أخرى، وباسم الإنسانية نفسها طوراً ثالثاً"⁽⁴⁾.

ويرى الباحث أنه لا بد من الحذر الشديد عند التعامل مع الحضارة الغربية لأنها انحرفت عن أهدافها، وزاغت عن غاياتها، فهي تسخر كل الطاقات والإمكانات تحت شعارات زائفة للقضاء على الروح الإنسانية واستعمار البلاد النامية، لاستغلال ثرواتها، ويؤكد على أن تكون خطوات التعامل مدروسة جيداً، وأنه يتوجب على الشرق الانتباه ليخرج من الحالة التي هو فيها والتي لا يحسد عليها.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/66).

(2) المصدر السابق، ج22/2.

(3) حلمي، الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي... (ص217-218).

(4) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/167).

رأى هيكل أن في الحضارة الإسلامية من المقومات ما يؤهلها لأن تكون أساسًا تقوم عليه الحضارة الإنسانية، فقد أثرت الحضارة الإسلامية في الحضارة الإنسانية حينما فتحت أمامها الآفاق، وكشفت القيم المعرفية والتجريبية فأثرت وأغنتها، ولأنه يتوفر في الحضارة الإسلامية من المميزات والخصائص ما لا يتوفر في الحضارات الأخرى.

ونظر هيكل إلى الحضارة الغربية فرآها حضارة مادية مبنية على المصالح وجمع الأموال، وأنه لا مجال فيها للمشاعر الإنسانية، فأصحابها ينظرون للمسات الإنسانية وأعمال الخير والبر نظرة سلبية، ويدعون أن ذلك ناتج عن الضعف والتخلف، ويأسف هيكل على أن بعض الساسة والمتعلمين العرب افتتنوا بالحضارة الغربية، وبالمقابل وجد الكثير من فلاسفة الغرب وكُتابه وأدبائه يتلمسون الغذاء الروحي والنفسي في الحضارة الإسلامية.

فموقف هيكل السابق من الحضارتين الإسلامية والغربية كان موقفًا متوازنًا ودقيقًا، وحكمه الذي أصدره عليهما كان موضوعيًا، كما ويرى أنه من الضروري أن تستفيد كل حضارة منهما من الأخرى، لأن العلاقة بينهما علاقة تكاملية وليست تخاصمية، هذه العلاقة مبنية على قاعدة الأخوة في الإنسانية، وأما إذا بقيت تتناصب حضارتنا الإسلامية العداء؛ فإن الغلبة لحضارتنا؛ لأن فيها مقومات الصمود والثبات والقدرة على التحدي، وأن بها قيم ومبادئ تحفظها من الانهيار، وهذا ما تفتقر إليه الحضارة الغربية، ويذهب الباحث إلى ضرورة التعامل مع الحضارة الغربية بحذر شديد لأن فيها النافع والضار، والتفريق بينهما يحتاج إلى وعي وإدراك لطبيعة الحضارة الغربية.

7- نظرة هيكل إلى الحياة:

عاش هيكل حياته بكل ألوانها، فقد ذاق الحلو والمر فيها، وأدرك الجميل والقيبح، وعرف الغث والسمين، فكانت تجربته في الحياة غنية ثرية، فرأى أن "الحياة الإنسانية جمال يدركه من يعرف ذوق الحياة، وإدراك هذا الجمال هو الذي يجعل للعيش معنى ولذة، ولا يكون جمال الحياة، إلا لمن شارك العالم وكان فيه قوة عاملة مخلدة الأثر، ولا تكون هذه القوة إلا لمن كان له أمل سام، وغاية عليا"⁽¹⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/65).

يقر هيكل بجمال الحياة الإنسانية، وإدراك هذا الجمال موقوف على العاملين الذين لهم أثر فيها، ولهم أمل وغاية، أما الكسالى والخامدون فلا يدركون هذا الجمال لأنهم لا يشاركون فيها، وكذلك اليائسون والصغار الذين يعيشون بلا هدف، وكان هيكل بذلك يدعو الجميع إلى التفاؤل والأمل والعمل لإدراك جمال الحياة الإنسانية.

كذلك دعا إلى "إنتاج الجميل المحبوب، وموافقة العقل والذوق أرقى ما يطمع فيه الإنسان، فمن وصل بمنوجاته إلى ذلك كان الشخص الحقيقي بالاحترام والإجلال والحب"⁽¹⁾، لذا يرى وجوبية إنتاج الإنسان، وليس أي إنتاج، إنما الإنتاج الجميل المحبوب الذي يوافق العقل والذوق، فالإنسان المنتج هو الذي يحظى بالاحترام والتقدير، أما الإنسان الخامل يُنظر إليه نظرة سلبية لا احترام فيها، وهو بذلك يربط بين الإنتاج والاحترام، يحوزه من يُنتج، ويفقده من لا إنتاج له.

وينظر هيكل إلى الحياة بمحبة شاملة لبني البشر، ثم يصف هذه المحبة قائلاً "محبة لا بغض منها التنافس، ولا يعدو عليها بقاء الأصلاح، ولا تعرف استغلال القوي للضعيف، محبة صادقة تعطر جو الحياة كله"⁽²⁾.

يُعرف هيكل في هذه السطور المحبة بأنها علاقة إنسانية بعيدة عن التنافس والصراع والاستغلال تتصف بالصدق والصلاح والعدل، ليس لها حدود، فرائحتها الزكية تملأ الحياة كلها. وينتقل هيكل من الحديث عن المحبة كعلاقة إنسانية إلى علاقة الفن بالحياة فيرى أن "الفن في الحقيقة غذاء الحياة الاجتماعية، ولو أننا حاولنا أن نتصور هذه الحياة خالية من الشعر ومن الموسيقى ومن التصوير والنحت ومن الغناء ومن المسرح لرأيناها قد فقدت قيمتها، وقد أصبحت لا لون لها ولا طعم لها"⁽³⁾.

كما أن الطعام غذاء للجسم، فإن هيكلًا يرى أن غذاء الحياة الفن بكل ألوانه، لأنه يوّد الارتياح والغبطة والطمأنينة عند من يستمتعون به؛ بل إن هذا الفن يُزيل المشقة والتعب عن النفوس، ويحبب الناس بالحياة، فالحياة بدونها لا قيمة لها، ومن هذا المنطلق فأن هيكلًا يدرك ضرورة ربط الفن بالحياة لأنه يحمل رسالة السعادة والخير.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/39).

(2) المصدر السابق، ج2/156.

(3) المصدر نفسه، ج2/486-487.

أما حقيقة الحياة فإن لهيكل فيها نظرة أخرى تبدأ من التفريق بين الحياة الجماعية والحياة الاجتماعية، "فالحياة الجماعية... حياة كل جماعة من الحيوان أو الناس تعيش أسراباً أو قطعاناً... أما الحياة الاجتماعية فهي الحياة الإنسانية بمعناها الإنساني وفي صورتها المدنية، ومن ثم كانت الحياة الجماعية مرتبة واحدة، وكانت الحياة الاجتماعية مراتب شتى بعضها أدنى إلى الحضارة من بعض"⁽¹⁾.

إذاً الحياة الجماعية على مستوى واحد وتشمل الإنسان والحيوان، أما الحياة الاجتماعية فهي مستويات وتختص بالإنسان فقط، وتختلف هذه الحياة من مجتمع إلى آخر وفق ما يتمتع به هذا المجتمع من رقي ومدنية.

يرى هيكل أنه لا يوجد سعادة مطلقة في الحياة تصيب جميع الناس، فالسعادة نسبية قد تصيب البعض، ويُحرم منها البعض، كل حسب قدره في الحياة، ويتساءل هيكل: "هل استطاعت الإنسانية خلال ألوف السنين... أن تصل إلى ما تجري وراءه خلال هذا الزمن كله من سعادة؟ أم أن كل جيل لا يلبث أن يرى السعادة حلمًا عزيز المنال مستحيل التحقيق، فيكتفي من الحياة بنصيب الحياة تاركًا للأجيال التي تخلفه أن يصيبها من استحالة إدراك هذا الحلم ما أصابه؟"⁽²⁾.

يعد هيكل السعادة هنا حلمًا يستحيل تحقيقه كاملاً للأجيال، فكل جيل يجري وراء السعادة لكنه لا يستطيع أن يدركها بالكلية، إن هذه النظرة ليست تشاؤمية، وإنما تكشف عن حقيقة الحياة فهي مغالبة ومكابدة، فالإنسان فيها يحاول جاهدًا أن يصل إلى قمة السعادة، ويبذل من أجل ذلك ما يستطيع، لكنه في الحقيقة لن يستطيع أن يبلغ مراده إلا بشكل نسبي.

وتحدث هيكل عن مرحلة الشباب وما فيها من نشاط وحيوية فقال: "عند الشاب وفرة من الحياة يحسب أن لا نفاذ لها، فهو لا يخشى الحياة، ولا مفاجأتها، ويتصور دائماً أنه الرابح فيها، وأن شبح الموت المزعج لا سبيل له إليه"⁽³⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/484).

(2) المصدر السابق، ج2/117.

(3) المصدر نفسه، ج2/119.

لأن الشاب يتمتع بصحة جيدة، ولأنه منخرط في أعماله، فإنه يستبعد الموت من ذاكرته، لذلك فهو لا يخشى الحياة ولا يعبأ بالأحداث المفاجئة؛ لأن عنده القدرة والقوة على أن يواجه ما يعتريه من مشكلات وتحديات، هذا بعكس مرحلة الشيخوخة، فإن إقبال الموت وإدبار الحياة فيها يجعل المرء في حالة ترقب وقلق.

هذه رسالة أراد هيكل أن يبعثها إلى الشباب كي يستثمروا أوقاتهم، وينجزوا ما يمكن إنجازه في هذه المرحلة، لأنهم بعد ذلك إن دخلوا في مرحلة الشيخوخة سوف لا يستطيعون تحقيق ما كانوا يصبون إليه في شبابهم.

والفقر لا يعيق أداء الواجب، حول هذا المفهوم تحدث هيكل فقال: "عاش كثير من النوابغ فقراء، وماتوا بؤساء، ولم يمنع الفقر أحدهم من أن يقوم للإنسانية بالواجب الذي يفرضه عليه ما حباه القدر به من نبوغ"⁽¹⁾.

ويختم هيكل حديثه عن الحياة بذكر الموت، فيقول: "الحياة سواء أطالت، أم قصرت منتهية حتماً إلى الموت، وفي الحياة وفي الناس من أسباب السامة وموجبات الضجر ما يدعو الحكيم ليستعجل الخاتمة، فيضع بالموت حداً لآلامه، وموضع ضجره بالحياة، وشكواه منها"⁽²⁾.

عمر الإنسان محدود، والموت مآله، فلا الضجر ولا الشكوى تفيد، لذا يحرص الإنسان على حسن الختام.

من خلال عرض مفهوم الحياة وطبيعتها عند هيكل، وتحليله لهذا المفهوم، يتبين أن هيكلاً تحدث عن الحياة بواقعية ناتجة عن تجربة وخبرة، وأن هذه التجربة كانت عميقة، فقد أدرك ما في النفوس من طباع وتطلعات وطموح، وأمل ويأس وخوف، وقوة وضعف، وميل وزيف، فجاءت صورة الحياة عنده كاملة من جميع جوانبها، هدفه من تجلية هذه الصورة إبراز الحقيقة التي تعطي الإنسان المزيد من العبر والعظات.

ثانياً - المقالات السياسية:

تعد السياسة من العلوم الاجتماعية، حيث برزت علماً قائماً بذاته في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لكن هذا العلم لم يتوسع في مفهومه ومنهجيته إلا بعد عام 1945م، ويختص هذا العلم بفن الحكم والقدرة على صنع القرارات وتنفيذها، وجوهر السياسة في الإسلام

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/67).

(2) المصدر السابق، ج2/116.

الإصلاح، وتحقيق مصالح الناس، أو جلب المصلحة لهم، ودرء المفسدة عنهم بهدف تحقيق الهدوء والاستقرار والأمن والسعادة والرخاء لهم.

ويمكن القول أن مجال العمل السياسي واسع، فهو يشمل إصلاح شئون الدنيا بأسرها، أو إدارة أمور الدين والدولة معاً، وجدير بالذكر أن الظاهرة السياسية دخلت في إطار البحث العلمي بعد أن أسهمت الحريات العامة في ظهور هذا العلم.

وتعد المقالة السياسية جزءاً لا يتجزأ من مقالات هيكل المتنوعة، "وقد تبين من إحصاء مقالات هيكل في السياسة الأسبوعية أنها تبلغ مائتين وخمسة وثمانين، منها مائة وثمانٍ في الاتجاه السياسي"⁽¹⁾.

وقد تناول فيها موضوعات مختلفة في مجال السياسة أبرزها الصراع العربي الإسرائيلي، وإسرائيل ككيان غير شرعي زرع وسط الوطن العربي، ودور الدول الغربية الكبرى في دعم الكيان الصهيوني، ومقالات أخرى تحدث فيها هيكل عن جامعة الدول العربية والأمم المتحدة، ومقالات تناول فيها السياسة الدولية والسلام وهكذا.

الصراع العربي الإسرائيلي:

أوضح هيكل في مقالاته السياسية مدى التوتر الذي حدث بين الدول العربية وإسرائيل، حيث إنه أخذ في الاشتعال مما قد ينذر بحرب عالمية يقول هيكل: "بدأ التوتر بين الدول العربية وإسرائيل يشغل حيزاً بارزاً في السياسة الدولية فشغل به كبار الساسة... وطبيعي... أن يبعث بعض الساسة على التخوف من أن يصبح الشرق الأوسط مثار الشرارة التي تندلع منها نيران حرب عالمية"⁽²⁾.

لقد كان هيكل محقاً فيما ذهب إليه لأن معطيات الصراع العربي الإسرائيلي كانت تشير إلى أنه كان شاملاً في مختلف الجوانب: الاستراتيجية، والسياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والدينية، والثقافية، وأن إسرائيل كانت تنفرد في هذا الصراع بتبني مفاهيم معقدة وشاذة حيث كانت تتذرع دائماً بمتطلبات أمنها القومي في حين أنها كانت حريصة كل الحرص على الحفاظ على يهودية الكيان لتغذية هذا الصراع بالعقيدة الصهيونية.

(1) علي، معالم المقال الأدبي والصحفي (ص195).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/159).

كان هذا الصراع يعطي الكيان مؤشرات باحتمال اندلاع حرب واسعة النطاق في أية لحظة، لذلك كان تركيزه على التسلح المكثف، وزيادة الإنفاق العسكري، وكانت عملية التحديث العسكري عنده لا تتوقف، كل ذلك يندرج تحت إطار السياسة الدفاعية الإسرائيلية.

ويتحدث هيكل عن تطور هذا الصراع حيث زادت وتيرته بعد قيام دولة إسرائيل يقول هيكل: "وقد تطور النزاع بين الدول العربية ودولة إسرائيل منذ إنشائها في 15 مايو 1948م أطوارًا شتى، وكانت الدول الغربية تؤيد إسرائيل في كل هذه الأطوار، ولم تكن إسرائيل تستحي من أن تعلن أن سياسة القوة هي السياسة الوحيدة التي تصلح مع العرب وتحملهم على تعديل موقفهم في مقاطعتها، وعدم التسليم بوجودها القانوني"⁽¹⁾.

لقد وفرت بريطانيا للصهاينة الأسباب والوسائل للسيطرة على فلسطين، وتهجير سكانها، وإقامة دولة إسرائيل، كانت بريطانيا توهم العرب بأن سياستها مزدوجة ومتوازنة تجاه الصراع العربي الإسرائيلي، لكنها في الحقيقة كانت تعارض المطالب الفلسطينية، وتتأهض المصالح العربية مع إنكارها لذلك، وكانت تُبدي للعرب صداقتها ومودتها المزيفة الخادعة، وعلى عكسها من حيث الوضوح نجد الدور الأمريكي سافرًا في دعمه لإسرائيل والدفاع عنها.

كان الحلم الصهيوني كبيرًا بعد هذا الدعم المتواصل من هذه الدول الكبرى، وكان تفكير الصهاينة واسعًا ممتدًا فلم يقتصر على قيام دولة لهم في فلسطين فقط بل إن مطامعهم قد وصلت من الفرات إلى النيل، تحدث هيكل عن هذه المطامع فقال: "الساسة العرب يعلمون أن مطامع السياسة الصهيونية ليست محصورة في نطاق إسرائيل بحدودها الحالية، بل تتحدث المؤتمرات الصهيونية عن دولة يهودية تمتد من الفرات إلى النيل"⁽²⁾.

عقد الصهاينة مؤتمراتهم السرية أظهروا فيها حقدهم الدفين، ورغبتهم في الانتقام من الإنسانية، كل ذلك من باب الاستعلاء والتكبر الذي ينم عن طبيعتهم الفاسدة، يقول هيكل: "وصلت إلى أيدي العرب تقارير عن مؤتمرات سرية كان اليهود يعقدونها ويقررون فيها قرارات يراد بها القضاء على الإنسانية كلها انتقامًا منها... وهم كانوا في شأن فلسطين يطمعون في الاستعلاء على كل العناصر الأخرى فيها، لأنهم يعتبرونها ملكًا خالصًا لهم"⁽³⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/258).

(2) المصدر السابق، ج5/162-163.

(3) المصدر نفسه، ج3/119.

أما سياسة الغرب، فلم يعطوا لهذا الأمر أي اهتمام، بل على العكس، فقد أعلنوا "حرصهم على بقاء إسرائيل... فهم ينظرون إلى كل حادث يقع في منطقة الشرق الأوسط من حيث مساسه بسلامة إسرائيل، وهم لا يرون بأسًا بأن يفهم العرب أن قوى دولهم المسلحة تؤازر إسرائيل، ولا بأس عندهم بتسليح إسرائيل... وأعجب الأمر أن دول الكتلتين الغربية والشرقية لم تتفقا على أمر اتفقاها على هذا الأمر، كأن إسرائيل ربيبة الشيوعية والديمقراطية جميعًا"⁽¹⁾.

هذه هي حقيقة معادلة الصراع العربي الإسرائيلي، العرب ليسوا ضعاف وإسرائيل ليست قوية، ولكن من هم وراء إسرائيل يتحكمون في هذه المعادلة، معادلة الظلم التي تعطي ما لا تملك لمن لا يستحق، ويقترح هيكل على الدول الكبرى (شرقية أو غربية) التي تتحكم في رقاب العباد أن يكون لها موقف واضح وعادل هدفه "أن تجنب العالم الكارثة المحتملة إذا هي امتنعت عن مد إسرائيل بالمعونة الحربية والمعونة الاقتصادية... إسرائيل هي التي تخرق هذه الاتفاقيات عن عمد منها في كثير من الأحيان، ولن يكون حرمان إسرائيل من معونة الدول الغربية ظلمًا لها، فالدول العربية لا تتلقى معونة من أحد ولا تطلبها"⁽²⁾.

ويعقب هيكل على هذا الاقتراح في المقالة نفسها فيقول: "لست واثقًا أن تسمع الدول الغربية لما أقول فتمتنع عن معاونة إسرائيل، أو تعاون الدول العربية، وليس من الحكمة أن تنتظر الدول العربية حتى تقرر الدول الكبرى سياستها في هذا الموضوع، بل إن عليها أن تعير الأمر منذ اليوم عنايتها الكبرى"⁽³⁾.

يرى هيكل أنه لا بد للدول العربية أن تكون صاحبة قرار وموقف، لا تنتظر من أحد شيئًا، وأن عليها أن ترفض الإملاءات الغربية، ويذكر هيكل بالماضي "حين كانت هذه الدول العربية كلها تعتبر وجود إسرائيل بينها سرطانيًا لا سبيل إلى التغلب عليه إلا باستئصاله"⁽⁴⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/219-220).

(2) المصدر السابق، ج5/161.

(3) المصدر نفسه، ج5/162.

(4) المصدر نفسه، ج5/258.

هذا هو منطق القوة الظالمة الذي ليس فيه عدل ولا سلام، ربما يذعن الناس للقوة، ويطأطئون لها الرؤوس لكن هذا السلطان يثير من حفاظ النفوس ما لا تمحوه الأيام، ويجعل المغلوب ينتظر الفرصة ليحطم الظلم الذي نزل به... وأن القوة الغاشمة سلاح ذو حدين ينفعك اليوم وينقلب عليك غداً⁽¹⁾.

ولهيكل رؤية سياسية مبنية على التفاؤل دائماً حيث يقول: "لست من المولعين بالتنبؤ في الحياة السياسية، ولا شيء أبغض إلى نفسي من الفوضى، وليس التشاؤم من طبعي... ولهذا أرى واجباً عليّ أن أبحث مع الباحثين عن طريقة لتجنب كارثة تحل بالعالم فتمحقه إذا وقعت حرب جديدة"⁽²⁾.

ويمضي هيكل في تفاؤله، وكراهيته للفوضى حيث يرى "أن العالم يزرع اليوم تحت بركان من فوضى الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأن هذه الفوضى جرّت على ملايين وعشرات الملايين من إخواننا بني الإنسان في أرجاء مختلفة من أرضنا ألواناً قاتمة من البؤس والشقاء... وأن القيم الخلقية... قد ضيعها الفقر والحرمان والجوع بعد أن هدت من ركنها الآلام والأحزان، لكن هذا كله لن يؤدي بالعالم إلى التسليم بضياح أعز شيء على الإنسان... الحرية الكريمة الغالية"⁽³⁾.

وصف هيكل حال الإنسانية وصفاً دقيقاً، فقد أرجع سبب المعاناة التي يعيشها ملايين البشر إلى ضياح الحرية، كما رأى أنه لا قيمة للحياة ولا للوجود من دونها.

هذا هو حال الإنسانية عامة، أما حال الأمة العربية والدول العربية على وجه الخصوص فإن هيكلًا يصور لنا هذه الحال قائلاً: "أما الدول العربية فليس بينها خلاف في نظمها السياسية والاقتصادية، والتوتر الذي بينها لم تمض عليه غير أشهر قليلة، وقد يكون السبب الحقيقي في الخلاف... راجعاً إلى مخاوف قديمة متعلقة بالأسر المالكة في هذه الدول، أو إلى ما قد يجول ببعض الأذهان من ضم بعض الدول العربية إلى غيرها رغم إرادة أهلها"⁽⁴⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/220).

(2) المصدر السابق، ج3/200.

(3) المصدر نفسه، ج3/223-224.

(4) المصدر نفسه، ج5/228.

هذه المخاوف الافتراضية التي تحدث عنها هيكل هي التي عكرت صفو العلاقة بين الدول العربية، وطالب هيكل أن تراجع هذه الدول سياستها تجاه أخواتها من الدول العربية الأخرى للتغلب على هذا الخلاف وتجاوز هذه المخاوف "وأكبر رجائنا... أن يفعل الزمن فعله، فيعيد بين الدول العربية الصفاء والمودة لتمكن من إعادة النظر في سياستها، والتماس الوسائل لتقريب ما بينها، فهذه الدول أحوج ما تكون اليوم إلى صدق التعاون بينها إذا أرادت المحافظة على كيانها"⁽¹⁾.

والتماس الوسائل للتقريب بين الدول العربية كما يراها هيكل "الإخلاص والصراحة التامة هما اللذان ينجيان الدول العربية من التعرض للخطر، وهما فضلاً عن ذلك عظيم الجوى جليلاً الفائدة"⁽²⁾.

وللجامعة العربية دور كبير في تقريب وجهات النظر بين الدول العربية، لكن الكثير من هذه الدول "يضيقون ذرعاً بتصرفات الجامعة، حتى ليذهب بعضهم إلى أنها أصبحت عبئاً ثقيلاً على بعض الدول المشتركة فيها، وسبب ذلك أن الدول العربية لا تواجه بعضها بعضاً مواجهة صريحة في اجتماعات مجلس الجامعة، ولا في اجتماعات اللجنة السياسية"⁽³⁾.

وينتقل بنا هيكل من خلال مقالاته بالحديث من السياسة العربية إلى السياسة الدولية فيرى أن "المغامرة في السياسة الدولية ليست مأمونة العاقبة كذلك، والأطوار الدولية التي تعاقبت سراعاً في السنوات الأخيرة تقتضي الدقة في تصوير المستقبل والتقدير له، كما تقتضي اليقظة الدائمة، والاحتياط الشديد"⁽⁴⁾.

يتحدث هيكل عن السياسة الدولية، فيرى أنها تحتاج إلى دقة في تقدير الموقف وفي التخطيط للمستقبل، كما يلزم هذه السياسة الوعي واليقظة، وإلا فإن أي خطأ في السياسة الدولية يعد مغامرة خاسرة قد يكون لها تبعاتها التي لا تحمد عقباه، ويؤكد على ذلك هيكل بقوله: "الحياة الدولية والحياة السياسية تقتضيان دائماً أن يكون أولئك الذين يتولون تصريفها على بصيرة تامة بما يجري في العالم كله... لهذا أرجو أن يكون ساستنا الرسميون وغير الرسميين...

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/202-203).

(2) المصدر السابق، ج5/175.

(3) المصدر نفسه، ج5/173-174.

(4) المصدر نفسه، ج5/185.

على اتصال دائم بما يقع في أجزاء العالم... إلى أن يعرف الإنسان موقفه منه بدقة، ليستطيع أن يحقق لوطنه، لا لنفسه كل مغنم⁽¹⁾.

تُعد متابعة ما يجري في العالم، وتحديد الموقف من الأحداث حريًا أو سلامًا ضرورة من ضرورات الحياة السياسية، وتحديد الموقف في أي قضية من القضايا يتطلب بصيرة ثابتة يُحسب فيها الربح والخسارة، لأن السياسة تقوم على المصالح.

لا بد أن تقوم العلاقة السياسية بين الأمم على مبادئ المساواة والشراكة والتعاون، هذه المبادئ تبدأ بالفرد وتنتهي بالمجتمع الإنساني كافة، فتضمن للفرد "حرية القول والرأي، وحرية العبادة، وحرية التحرر من الفقر والخوف، وحرية التحرر من الظلم والاستعباد، وكفالة المستوى الإنساني لحياة كل فرد من الناس أيًا كان، وأينما كان، وحق كل شعب في اختيار الحكومة التي تدير شؤونه، وزوال الاستعمار ومشتقاته، وإقامة التعاون العالمي في ظل هذه المبادئ"⁽²⁾.

هذه المبادئ إذا تحققت على أرض الواقع تحققت العدالة القومية والعدالة الدولية، وللمضي في تحقيق هذه العدالة يقول هيكل: "لا يجوز لنا بوصفنا خدام العدالة الدولية في برلمان البرلمانات هذا أن نسمح بأن يظل في أي بقعة من العالم تنفيذ معاهدة جائرة فرضتها دولة قوية على دولة ضعيفة"⁽³⁾.

من العدالة -أيضًا- إلغاء المعاهدات الجائرة بين الدول التي فرضتها الدول القوية على الدول الضعيفة لأن هذه المعاهدات لا تقوم على التكافؤ، حيث يترتب على هذه المعاهدة انتقاص "من سيادة هذه الدولة الأخيرة سواء في داخل أراضيها، أو في غير ذلك من الميادين"⁽⁴⁾ وكذلك "تولد لدى الشعوب التي تكون ضحيتها شعورٌ بالهياج والكرهية يضر بصيانة السلام... إن إبقاءها أبعد ما يكون عن خدمة الاستقرار الدولي، بل إنه كان سببًا في ما حدث من انفجارات"⁽⁵⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج3/80).

(2) المصدر السابق، ج3/203.

(3) المصدر نفسه، ج5/133.

(4) المصدر نفسه، ج5/143.

(5) المصدر نفسه، ج5/126.

إن من الدور المنوط بالأمم المتحدة النظر في هذه المعاهدات، فإذا كانت جائرة أو غير متكافئة فإن الأمر يتوجب عليها إلغاؤها أو تعديلها أو على الأقل تخفيف هذا الجور ووضع نهاية له، لأنه في حالة استمرار هذه المعاهدة ربما تحدث المفاجآت غير المحسوبة التي تهدد الاستقرار الدولي، ويُعرض السلم العالمي إلى الخطر.

إن الحروب المنتشرة في العالم تهز كيان الإنسانية بما تخلفه من "أهوال موت وخراب ورزء وثكل ويتم... أن للسلم أن يكون روحًا وإيمانًا تتمثله الإنسانية جمعاء، وترى فيه كمالها الأعلى، والوسيلة إلى بلوغ ما ينطوي عليه الكمال من فضل وعدل وجمال وحق"⁽¹⁾.

والسلم في نظر هيكل نوعان: سلام حقيقي له روح تؤمن به البشرية، وهو يحقق العدل والجمال والحق، وسلام بارد ناتج عن عدم الثقة بين الأطراف المتنازعة وهو لا يحقق أي شيء وليس له أي ثمار، يقول هيكل عن هذا النوع من السلام: "عبارة السلام البارد هذه تصور حقيقة الحال التي يتخطاها العالم اليوم، وأبرز مظاهرها عدم الثقة بين الأمم، بل بين الأفراد كذلك"⁽²⁾.

كذلك فإن للسلم البارد نتائج سلبية تؤثر على الحياة بشكل عام، وعلى الاقتصاد والمعاملات المالية بشكل خاص "ولا تفق جناية السلام البارد على ما بين الدول من علاقات سياسية، فلها من الأثر على الاقتصاد العالمي ما يكاد يخلق فيه أزمة اقتصادية... إن المعاملات المالية وكل ما يتصل بها مما له أثر مباشر في الحياة الاقتصادية لا استقرار له إلا في جو من الثقة، فإذا انعدمت الثقة اضطرب الاستقرار، فترددت البنوك في معاملاتها، وتأثرت الصناعة بهذا التردد، وتأثر العمل والعمال بتأثر الصناعة، وتأثرت الحالة الاجتماعية بتأثر العمال"⁽³⁾.

إن السلم ضرورة من ضرورات الحياة، فالحياة بدونها لا تعرف الاستقرار، فكيف تستقيم حياة العامل الاجتماعية وهو لا يشعر بالأمان؟ وكيف تتقدم الصناعات في ظل عدم الاستقرار؟ وكيف تتجزأ البنوك معاملاتها في جو التردد؟ وكيف تُبنى الحضارة في ظل سلام بارد؟ وأخيرًا كيف السبيل إلى السلم؟.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج3/156-157).

(2) المصدر السابق، ج5/191.

(3) المصدر نفسه، ج5/191-192.

إن "سبيل السلام التفاهم، فما لم يصل الناس إلى اتفاق على الأمور الجوهرية في الحياة، سواء منها المعنوي والمادي، فهم لا ريب مختلفون فمقتلون"⁽¹⁾.

إذا التفاهم والاتفاق هما السبيل إلى السلام، فإذا لم يتحققا كان الاختلاف ومن ثم الاقتتال ولربما الوصول إلى الحرب.

ويتمنى هيكل على الذين يجنحون إلى السلام، ويسعون إلى تحقيقه، أن يكون هذا السعي ناتجاً عن قناعة بالسلام وإيمان بعقيدة السلام، وليس نتيجة للخوف من الحرب ونتائجها، يقول هيكل في ذلك: "تفكير الساسة في إزالة أو في إقرار السلام لا يصدر منهم عن عقيدة تملّي عليهم نظرية سامية لخير الإنسانية، بل يصدر عن خوفهم من النتائج التي تترتب على حرب ثالثة تكون القنبلة الذرية، والقنبلة الهيدروجينية وما إلى ذلك من آلات الدمار بعض أدواتها، فالخوف لا العقيدة هو إذاً مصدر هذا التفكير"⁽²⁾.

ويعتقد هيكل أن العالم بأسره يريد السلام، ويتمنى أن يأتي اليوم الذي فيه تنتهي الحرب الباردة حتى ينعم المجتمع الدولي بالأمان والاستقرار والطمأنينة على المستقبل، يقول هيكل: "أتمنى أن تسفر هذه الأحداث عن إزالة التوتر الذي يخيم الآن على الجو الدولي، وأن تؤدي أكثر من ذلك إلى إقرار السلام العالمي إقراراً يمحو الحرب الباردة، وقد ملها الناس وسئموا تطاولها على السنين، وما أدت إليه من اضطراب في اقتصاديات العالم"⁽³⁾.

إن من ذاق ويلات الحرب وجراحاتها ودمارها وخرابها ليؤمن إيماناً جازماً بالسلام العادل الذي يحفظ للإنسان كرامته، ويعطيه حقوقه كاملة غير منقوصة، فالحرب ليست هدفاً لذاتها، ومن يقوم بها أو كان سبباً في إشعالها واحد من اثنين: إما أن يكون ظالماً مفترياً، وإما أن يكون مظلوماً مقهوراً يدافع عن نفسه وعرضه وما يملك، فإذا زالت أسباب الظلم فالإيمان بالسلام واجب، والعمل على تحقيقه -أيضاً- واجب، والوجوب هنا عام يشمل البشرية كلها.

بعد الحديث عن مقالات هيكل السياسية وما حملته من وجهات نظره، فإن الباحث يرى أنه لا بد من وقفات عند بعض ما جاء في هذه المقالات ليتسنى التعرف على قراءته لها:

1- احتل الصراع العربي الإسرائيلي مساحة واسعة في مقالات هيكل، حيث نظر إلى هذا الصراع من منظور قومي.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج3/166).

(2) المصدر السابق، ج5/240.

(3) المصدر نفسه، ج5/241.

- 2- أوضح هيكل طبيعة الصراع العربي الإسرائيلي حيث رآه شاملاً في مختلف الجوانب الاستراتيجية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والدينية والثقافية.
- 3- بين هيكل أن هذا الصراع شغل حيزاً لا بأس به في السياسة الدولية، وأنه أحدث توتراً في العالم العربي، وكان ينذر بقيام حرب عالمية.
- 4- كشف هيكل القناع عن دور الدول الغربية والشرقية في دعم الكيان الصهيوني سياسياً وعسكرياً لتثبيت أركانها في قلب الشرق الأوسط حفاظاً على مصالحها فيه.
- 5- كشف هيكل عن طبيعة إسرائيل الفاسدة النابعة من الاستعلاء والعنصرية وحب السيطرة والانتقام، والحقد على العرب والإنسانية، والتطلع إلى تحقيق حلم إسرائيل الكبرى التي تمتد من النيل إلى الفرات.
- 6- أظهر هيكل أن إسرائيل لم تتوان في تغذية هذا الصراع من خلال تذرعها بالمحافظة على أمنها القومي، وتكثيف التسليح، وزيادة ميزانية الإنفاق العسكري، وإبراز قوتها العسكرية لإرهاب العرب.

دلالة المقالات السياسية على شخصية هيكل:

- 1- هيكل شخصية سياسية ذات تجربة وخبرة ودراية في مجال السياسة.
- 2- ربط هيكل مقالاته السياسية برؤيته الخاصة كرجل سياسي مارس السياسة حكومة ومعارضة.
- 3- نظرة هيكل السياسية كانت شاملة وعميقة، محلية ودولية، تفاؤلية ومتوازنة.
- 4- كان هيكل يمتلك فلسفة سياسية كان لها أسسها، فالحريات العامة ضرورة في نظره من ضروريات العمل السياسي.
- 5- كان هيكل يميل إلى السلام العادل، وعدم إشعال الحروب، ويكره الفوضى السياسية.

هيكل والسياسة العربية:

- 1- طالب هيكل الدول العربية أن تكون صاحبة قرار وموقف، وأن عليها أن ترفض الإملاءات الغربية.
- 2- الخلاف بين الدول العربية أضعفها، وهو خلاف غير جوهري ناتج عن مخاوف افتراضية.

3- طلب هيكّل من الدول العربية التماس الوسائل التي تقرب بينها مثل: الإخلاص والصرّاحة التامة، وأن تُعطى الجامعة العربية دورًا أكبر في عملية تقريب وجهات النظر بين الدول العربية.

هيكّل والسياسة الدولية:

- 1- يرى هيكّل أن السياسة الدولية تتطلب الدقة في تقدير المواقف، وفي تصور المستقبل من خلال اليقظة والوعي السياسي، والتصرف على بصيرة، ومتابعة ما يجري في العالم.
- 2- تقوم العلاقة السياسية بين الأمم على مبادئ المساواة والشراكة والتعاون.
- 3- تقوم العدالة الدولية على إلغاء المعاهدات الدولية الجائرة، لأنها تمس السيادة، وتولد الكراهية، وربما يؤدي ذلك إلى انفجارات تهدد الاستقرار الدولي.
- 4- قسم هيكّل السلام إلى نوعين: الأول سلام حقيقي وهو الذي يحقق العدل والجمال والحق، والثاني السلام البارد الناتج عن عدم الثقة بين الأطراف المتنازعة، ومن نتائجه تدهور العلاقة السياسية والإنسانية بين الدول، وإحداث أزمات اقتصادية ومالية وصناعية واجتماعية.
- 5- يرى هيكّل أن تحقيق السلام العالمي ينبغي أن يكون مبنياً على التفاهم والاتفاق على الأمور الجوهرية مادية كانت أم معنوية، وقبل ذلك لا بد من الإيمان بعقيدة السلام.
- 6- يرى هيكّل أن العالم كله يريد السلام العادل لأنه سئم الحروب، ويتمنى انتهاء الحرب الباردة.

ثالثاً - المقالات الاجتماعية:

إذا كانت المقالة بشكل عام تسهم في نشر التوعية، والبناء الفكري، والتثقيف الاجتماعي، فإن المقالة الاجتماعية بشكل خاص تُعد من أكثر أنواع المقالات أهمية لأنها ترتبط ارتباطاً مباشراً بالمجتمع وب حياة الناس الاجتماعية، تحمل همومهم، وتتناول مشاكلهم، وتبحث في "الظواهر الاجتماعية، وتنتقد العادات السيئة، والتقاليد الضارة، وتنفر منها، وترغب في النافع المفيد"⁽¹⁾.

(1) أبو ذكري، المقال وتطوره في الأدب المعاصر (ص74).

كتب هيكل المقالة الاجتماعية مبكرًا، ففي عام 1907م كتب في الجريدة عن حرية المرأة، وكانت بداية الانطلاق عنده في عالم الصحافة "وقد ظل هذا الاتجاه ينمو ويشغل حيزًا كبيرًا من حيث الكم في مقالات هيكل خاصة فيما كتبه في السياسة الأسبوعية، وفي هذه المقالات يعبر عما كان يعانيه المجتمع من مشاكل وقضايا مختلفة"⁽¹⁾.

كان هيكلٌ يشعر بالأمانة والمسؤولية تجاه مجتمعه المصري، ينظر فيه فيجد القضايا المعقدة، والمشاكل الكبيرة، لذا كان التفكير في الحلول والإصلاح وتخفيف المعاناة، فكتب واقترح واجتهد، كان يفكر في أي قضية يتناولها بعمق، يحاول الإحاطة بها من جميع جوانبها، لم يكتفِ بعرضها، بل دائمًا كان له رأي وموقف، لذلك أخذت المقالات الاجتماعية التي كتبها مساحة واسعة في تراثه، كان يرجو منها الخير لمصر ولشعب مصر، وكان له "في النواحي الاجتماعية آراء صائبة تبين رغبته في تطوير المجتمع ورقبه، وكانت الوسيلة لذلك هي التربية والتعليم، فقد رأى أن تربية العواطف تربية صحيحة هي السبيل لحسن الاستمتاع بالحياة في أجمل صورها، وأكثرها سموًا وسناء"⁽²⁾.

لقد دعا هيكل في مقالاته الاجتماعية إلى الإصلاح الشامل في التربية والتعليم، كما وجه نقدًا إلى الأساليب التربوية المستخدمة في البيوت، ورأى أن مبدأ الحرية المطلقة في التربية هو الأفضل، وبرر لذلك بأن النفس البشرية مليئة بالغرائز، وأن هذه الغرائز لا يمكن قهرها أو السيطرة عليها بمؤثرات خارجية، لكن الذي يؤثر فيها بشكل فعال ومُجدٍ المحيط والبيئة التي تعيش فيها هذه النفس⁽³⁾.

موضوعات المقالة الاجتماعية عند هيكل:

1- الإصلاح الاجتماعي:

حياة الإنسان دائمة التطور في شتى الاتجاهات العلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، وقد كان للتواصل مع العالم في إطار اليقظة والكرامة أثره في فتح آفاق أرحب لهذه الاتجاهات، وفي ذلك يقول هيكل: إن "تطور حياتنا الاقتصادية، وإطراد تقدمنا العلمي، ويقظة شعورنا بقوميتنا وبمشخصاتنا وازدياد اتصالنا بالعالم، وتقديرنا لمركزنا فيه وإحساسنا بتبعاتنا وبكرامتنا، إزاء كل ذلك جعل التفكير في الإصلاح ضرورة أولية، وبخاصة

(1) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص160).

(2) المرجع السابق، ص161.

(3) يُنظر: الجريدة، من مقالة بعنوان قواعد الخلق، ع1657 (ص162).

بعد الذي أصاب حياتنا الاجتماعية من اضطراب أزهف شعورنا بالحاجة إلى هذا الإصلاح، وضاعف من حرصنا عليه⁽¹⁾ لذا اقترح هيكل أمرين لذلك: الأول "تقوية مناعة هذا الجيل ليعود إلى الإيمان بمبادئ التضامن الاجتماعي ومحبة الغير، والإيثار على النفس... الأمر الثاني تربية الجيل الجديد تربية تجنبه ما نشكو اليوم منه من اضطراب، وننشئه بحيث يُقدّر الواجب تمام التقدير ويعمل للخير العام، ويرفع لواء الإيثار على كل لواء"⁽²⁾.

وضع هيكل بذرة الإصلاح في موضعها المناسب وهو الجيل الذي يحمل الأمانة الوطنية نحو المستقبل، أراد لهذا الجيل أن يتحلى بكل الصفات النبيلة من إيمان وتضامن اجتماعي ومحبة وإيثار، وأداء الواجب، وعمل الخير للوصول إلى الإصلاح الذي غرضه في النهاية "تحسين أحوال الشعب أو بعض طبقاته"⁽³⁾.

ويرى هيكل أن تحسين أحوال الشعب لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الإصلاح الحق حيث يقول: "فإذا أردنا الإصلاح الحق وجب أن نؤمن به، وأن نخلص إليه مخلصين طائعين، لا ننتظر عصا القانون ولا قوة الجندي... هذا الإصلاح لا سبيل له إلا بالتضامن الاجتماعي"⁽⁴⁾.

والإصلاح الاجتماعي وحده لا يكفي في نظر هيكل لإتمام عملية إصلاح شاملة، لذلك "يجب أن يساير الإصلاح الاقتصادي، والإصلاح التعليمي، وسائر وجوه الإصلاح في مختلف المرافق العامة"⁽⁵⁾.

2- الاضطراب الاجتماعي:

عندما أراد هيكل أن يشخص الحياة الاجتماعية المصرية وجد فيها الاضطراب الاجتماعي وعندما بحث في مسبباته لاحظ أن العاطفة تجاه الآخر ضعيفة، وأن العلاقات الاجتماعية مبنية على المصالح والمنافع، وقد وصف هيكل هذه الحالة بالأناثية فقال: "هذه الأناثية جعلتنا ننسى كل معنى للتضامن الاجتماعي، وكل معنى للمثل العليا، ولا نرى في الحياة خيراً إلا بمقدار ما يرضي أترتنا وحبنا لأنفسنا"⁽⁶⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/104).

(2) المصدر السابق، ج4/106.

(3) المصدر نفسه، ج4/110.

(4) المصدر نفسه، ج4/120.

(5) المصدر نفسه، ج4/122.

(6) المصدر نفسه، ج4/104.

وبعد هيكل الأناثية مرضًا لخطورتها، فهي تفتك بالمجتمع وبالعلاقات الإنسانية فيه، لذلك فقد حذر من النتائج المترتبة على الأناثية فقال: "ولا شيء أفتك بحياة الجماعات من هذه العلة، فهي تضعف في النفوس أقدس المعاني وأسامها، تضعف عواطف الأمومة والأبوة والبنوة والزوجية... فتقتل فيهم معاني الكرامة والنخوة والنجدة والوفاء... تفسد الإيمان المستنير بالله"⁽¹⁾. هذه هي آثار الاضطراب الاجتماعي ونتائجه، تقتل في الإنسان الروح الإيجابية، تجعله لا يفكر إلا في نفسه، ولا يتحمل أي مسؤولية اجتماعية.

التحديات التي تواجهها الحياة الاجتماعية:

حدد هيكل في مقالاته الاجتماعية الصعوبات والتحديات التي تواجهها الحياة المصرية، فرأى أنها متعددة، وأنها بحاجة إلى بذل المزيد من الجهد على جميع الأصعدة، حتى يمكن تجاوزها بسلام، لأن حجمها ضخم، وتأثيرها السلبي على مستقبل البلاد كبير، ومن هذه التحديات:

1- هجرة الريف إلى المدينة:

دعت رابطة الإصلاح الاجتماعي التي كان هيكل أحد أقطابها إلى مؤتمر الإصلاح الاجتماعي، فقد شارك هيكل في افتتاح هذا المؤتمر، وجاء في كلمته: "وقد رأينا أن نبدأ هذا اليوم بكلمة عن هجرة هذا الريف الجميل إلى المدن، وعن أسبابها وعلاجها، فكلنا متفقون على أن هذه الهجرة قد أضرت بلادنا... فلنتوجه بمجهودنا إلى منع هذا الضرر، ولنعمل لعودة أهل الريف إلى الريف"⁽²⁾.

بحث هيكل هذه المشكلة، وحاول أن يقف على أسبابها، فرأى أن من أهم أسبابها قسوة الحياة في الريف، واعتقاد كثيرين أن سبل العيش في المدن أكثر يسرًا ورخاءً، وذكر أن الإنسان بفطرته يتلمس أحسن أنواع الحياة بأقل مجهود ممكن، أما ملاك الأراضي في الريف فقد وجدوا في زخرف المدن وامتعة العيش فيها ما أغراهم بالانتقال إليها⁽³⁾.

حاول هيكل أن يحدد مقتضيات للحد من هذه الهجرة فرأى أن "السير في الإصلاح يقتضي ملايين كثيرة جدًا... هذا الإصلاح يتناول إنشاء الطرق التي تُقرب البلاد بعضها من

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/105).

(2) المصدر السابق، ج4/126.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ج4/129-130.

بعض، وتقربها من المدن، وأنه يقتضي إصلاحًا صحيًا واسع النطاق، وإصلاحًا تعليميًا... وتنظيم القرى تنظيمًا جديدًا يتفق وهذه النهضة العمرانية... وزيادة الإنتاج الزراعي... ووجب أن يؤمن الناس بأن الإنتاج الزراعي يوازي غيره من صور الإنتاج... ويصبح التفوق في الزراعة كالتفوق في الصناعة⁽¹⁾.

للحد من هذه الهجرة لا بد من نهضة شاملة في الريف تفي بحاجة أهله، فعندما يجد الريفي ما يطلبه في المدينة متوفرًا عنده في الريف، فإنه يقتنع حينئذ أنه لا داعي للهجرة من الريف إلى المدينة، وهنا يقرر الاستقرار في الريف.

وفي مقالة له بعنوان (الأعداء الثلاثة التي تفتك بالريف) يقول في مقدمتها: "من عشر سنوات أو نحوها أعلنت الحكومة المصرية أن للشعب المصري أعداء ثلاثة هي المرض والفقر والجهل، وأن محاربة هذه الأعداء فرض واجب عليها... فالمرض يورث الفقر... والجهل يورث المرض... لكن هذه الجهود لم تنظم في برنامج يكفل اتصالها حتى تعم فائدتها الشعب كله في أقصر زمن ممكن"⁽²⁾. لذا وضع لها هيكل سبل المقاومة، فالمرض يُقاوم بإنشاء المجموعات الصحية، والجهل يُقاوم بإصدار قانون ينظم التعليم الإلزامي، والفقر يُقاوم بزيادة الدخل القومي، مع الاستعانة بالدعم الفني ورأس المال الأجنبيين⁽³⁾.

2- زيادة عدد السكان:

رأى هيكل أن زيادة عدد السكان في مصر زادت خلال عشرين سنة بنسبة 25%، وقد كانت الزيادة مُطَّردة في المدن وفي الأرياف جميعًا، لكن نسبتها في المدن أعلى من نسبتها في الأرياف بصورة محسوسة، فقد زادت في المدن بنسبة 56%، أما في الأرياف فزادت بنسبة 19%⁽⁴⁾.

وقد اقترح هيكل مجموعة من الحلول لعلاجها، منها: زيادة الإنتاج، وتحديد النسل، والتصنيع، وزيادة قدرة الأفراد على العمل⁽⁵⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/131).

(2) المصدر السابق، ج4/157.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ج4/158-160.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ج4/126.

(5) ينظر: المصدر نفسه، ج4/171.

إن هذه المشكلة من أعقد المشاكل التي تواجهها مصر، لأنه كلما زاد عدد السكان زادت المسؤوليات على الحكومة بوجه عام، وعلى رب الأسرة بوجه خاص، وهذا يتطلب المزيد من النفقات، والمزيد من المشاريع، والمزيد من التخطيط والتطوير لاستيعاب وتوفير الخدمات لهذه النسبة الزائدة في عدد السكان.

3- الفقر:

ترتب على زيادة عدد السكان؛ ثبات دخل الفرد، وانتشار الفقر وازدياد عدد الفقراء، ويصف هيكل هذه الحالة قائلاً: "متوسط دخل الفرد لا يزال الآن كما كان عليه من أربعين سنة، رغم ما أنشأنا من الصناعات، وما بذلنا من جهد لتحسين الإنتاج الزراعي، وما كان من تقدم في كثير من النواحي الاقتصادية والمالية في الدولة"⁽¹⁾.

واجتهاداً من هيكل، وللسعي الحثيث نحو إيجاد حلول عملية لعلاج الفقر المستشري في بلاده، اقترح الاستفادة من تجربة الإنجليز بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث استمرت "سياسة التقشف التي جرت عليها أثناء الحرب... هذا التقشف وهذه القيود وقبول الشعب إياها في غير تدمر ولا مرارة، نوع من الشجاعة لا يقاس مع ذلك بشجاعة الجندي الذاهب إلى ميدان القتال دفاعاً عن وطنه"⁽²⁾.

وعلى طريق حل مشكلة الفقر يرى هيكل أن التقشف خطوة لازمة تسهم في علاجها، لكن على الشعب أن يكون شجاعاً في قبولها، وكخطوة ثانية اتجهت أنظار هيكل نحو "الطبقات التي أنعم الله عليها بسعة في الرزق... فهذه الطبقة هي المسئولة عن رخاء المجتمع كله... وهذه الطبقة التي أوجه إليها القول أقدر من غيرها، بحكم ثقافتها وتعليمها، على أن تدرك معاني التضامن الاجتماعي، وما يقتضيه من تربية وطنية سليمة، فالتضامن الاجتماعي هو الذي يفرض على الناس أن يفتسموا أنعم الحياة ومتاعبها بالعدل والقسط"⁽³⁾.

نلاحظ هنا أن هيكلًا اقترح علاجاً لمشكلة الفقر تتمثل في أمرين: الأول اعتماد سياسة التقشف كتجربة سابقة عند الإنجليز، والأمر الثاني التضامن الاجتماعي الذي تعطي فيه الطبقة الغنية للطبقة الفقيرة من أموالها ما طابت به نفسها، في المقابل لم يلجأ هيكل إلى الدين الإسلامي كنظام اقتصادي عالج أمر الفقر باستفاضة سواء في القرآن الكريم أو في السنة

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/145-146).

(2) المصدر السابق، ج4/148.

(3) المصدر نفسه، ج4/149.

الشريفة، ولم يذكر هيكل الزكاة في الإسلام كأحد أركان الإسلام الخمسة، ولم يتطرق إلى الصدقة، ولم يتحدث عن أي نموذج إسلامي في البذل والعطاء، علاوة على أن بذل المال نوع من أنواع الجهاد، ثم لم يصل بحديثه إلى درجة الإيثار التي حث الإسلام عليها.

يبدو أن هيكلًا عندما تحدث عن هذا الموضوع كان بعيدًا عن الثقافة الإسلامية، قريبًا من الثقافة الغربية، أو كأنه يظن أن الحلول الإسلامية حلولٌ نظرية تحتاج إلى زمن طويل لاستيعابها والتفاعل معها، والأمر من وجهة نظره يحتاج إلى علاج عملي سريع.

4- انحلال رابطة الأسرة:

ذكر هيكل أن انحلال رابطة الأسرة في مجتمعه أمرٌ يلفت النظر، فقد انتشرت حوادث الطلاق في مصر بشكل واسع، ورأى أنه لا بد من العناية به على أنه مرض من أمراض المجتمع، حيث ينقض عراه، ويدمر بنيانه، ويشتت أبنائه، ويرى هيكل أن ظاهرة الطلاق تنتشر بشكل أكبر في أوساط المتقنين، وهذا يتطلب من المسؤولين الرسميين وغير الرسميين أخذ دورهم، وتحمل مسؤولياتهم للحد من هذه الظاهرة، وأن عليهم تشكيل لجنة من علماء النفس والاجتماع والمعنيين بشؤون التشريع لدراستها وتحليلها، والتماس أمثل الطرق لعلاجها⁽¹⁾.

لقد رأى هيكل أن هذه الظاهرة من الخطورة بمكان، لأن "هذا الانحلال يستفحل يومًا بعد يوم، وآثاره تمتد إلى حياة البلاد، وإلى تفكير شبابها في مستقبلهم، وإلى إقبالهم على إنشاء الأسرة التي تكفل للوطن طمأنينته وعزته وقوته"⁽²⁾.

وينطلق هيكل لعلاج ظاهرة تغيير النفس فيقول: "ولا يتغير ما بالنفس إلا بتسليط العلاج على النفس، وعلى الحالة الذهنية التي تتأثر النفس بها، وقد يكون لعلاج الحياة الاقتصادية على نحو يرفع من مستوى العيش المادي أثره في كيان الأسرة، وقد يكون للبيئة الاجتماعية أثر كذلك إذا توفرت في هذه البيئة دواعي السكون إليها بوجود أسباب الصحة ودوافع السأم والملل... وفي حياة الريف ما يحبب الناس فيها، ويدفع عنهم ما يثير أعصابهم ويقلق نفوسهم ويجعلهم سريعين إلى الغضب"⁽³⁾.

فطن هيكل إلى خطورة الطلاق وأثره في الفرد والأسرة والمجتمع والوطن، فهو ليس مجرد ظاهرة عابرة يمكن السيطرة عليها بسهولة، وإنما يحتاج علاج هذه الظاهرة إلى مختصين وخبراء

(1) ينظر: هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/152-153).

(2) المصدر السابق، ج4/154.

(3) المصدر نفسه، ج4/154.

من علماء النفس والاجتماع وقادة المجتمع المحلي، إنها مسئولية جماعية لأن أسبابها تمتد وتتفرع، ولها علاقة بالحياة العامة، فالعلاج يكون في كل جوانب الحياة الاقتصادية والصحية والتعليمية والنفسية والبيئية والمدنية والحضارية.

5-مشاكل التعليم:

يتفرع عن التحديات التي تواجهها الحياة الاجتماعية في مصر مشاكل لها أثرها في حياة الناس، من هذه المشاكل ما يختص بالتعليم، ولأن عدد السكان في زيادة مُطَّردة، فإن مشاكل التعليم -أيضاً- تزداد عاماً بعد عام، من هذه المشاكل ضيق المدارس، وعدم قدرتها على استيعاب الطلبة بشكل طبيعي ليأخذوا حظهم من العلم، وتظهر هذه المشكلة جلية مع بداية العام الدراسي كل عام "فتكثر الاقتراحات بضرورة زيادة عدد المدارس أو عدد فصولها حتى لا يُحرم هؤلاء الراغبون في العلم من ورد مناهله، وتجاهد وزارة المعارف بقدر طاقتها لإجابة هذه المقترحات، وإن كانت تجد أمامها... صعوبة وجود المدرسين الذين يمكنهم القيام بأعباء التعليم"⁽¹⁾.

وزيادة عدد الطلبة المقبلين على التعليم يحتاج إلى المزيد من المدارس والفصول الدراسية وما يلزم ذلك من أثاث، كما تحتاج المدارس الجديدة إلى مدرسين جدد، ويتفرع عن وجود مدرسين جدد مشكلتان: الأولى توفير مدرسين من ذوي الكفاءة والخبرة حتى يقوموا بمهامهم على خير وجه، والمشكلة الثانية توظيف هؤلاء المدرسين يحتاج إلى ميزانية عالية، والبلاد تشكو من ضعف اقتصادها، فإن حل مشكلة المدارس وتوظيف المدرسين فيها تبقى مرتبطة باقتصاد الدولة.

ومن مشاكل التعليم التي تواجهها البلاد المصرية كما يراها هيكل وجود المدارس الأجنبية مثل: مدارس إنجليزية أو فرنسية أو أمريكية وغيرها، ووجودها له إيجابياته وسلبياته، فهذه المدارس تعمل على "تكوين شخصية الطفل ليصبح وحدة في الحياة قائمة بذاتها، قديرة على أن تعتمد على نفسها، لكن ما يلقي في هذه المدارس لا يتفق في شيء مع روح مصر وحياتها، فالمتعلمون لا يعرفون لغة البلاد وبضطرون في أحيان كثيرة إلى تلقي دين غير دين آبائهم... لا يدرسون تاريخ مصر ولا تخطيط المدن فيها، ولا تطور ثقافتها ولا آدابها"⁽²⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/177).

(2) المصدر السابق، ج4/178.

تمثل المدارس الأجنبية سلاحًا ذا حدين: الأول مطلوب وهو بناء شخصية الطالب بحيث يُمكنه في المستقبل أن يكون قائمًا بذاته، معتمدًا على نفسه، له شخصيته، وله كيانه وله قراره، أما السلاح الثاني فهو خطير جدًا، وتتمثل خطورته بأنه يهدم شخصية الطالب الدينية والقومية والوطنية، حيث لا يعرف شيئًا عن دينه ولا عن تاريخه ولا عن وطنه ولا عن قوميته ولا عن ثقافته العربية الأصيلة، لأنه تلقى البديل الفرنسي أو الإنجليزي أو غيرهما عن هذه الأمور، وباختصار شديد يمكن القول أن التعليم الأجنبي مهمته الأساسية استبدال شخصية الطالب المسلم العربي المصري بشخصية فرنسية أو إنجليزية أو أمريكية أو أي شخصية أجنبية حسب نوع المدرسة التي يدرس فيها الطالب.

هذه هي بداية التغيير في مصر، أضف إلى ذلك أن "زيادة عدد الأجانب الذين قدموا إلى مصر كان لهم أثر على تغيير قيم ومظاهر السلوك الاجتماعي في المجتمع المصري، إذ بدأت عملية تغير اجتماعي وتعبئة اجتماعية... اتسمت أساسًا بكونها مصرية وحضارية بانفتاحها على الحياة الغربية والتعليم الحديث"⁽¹⁾.

لهذه المدارس الأجنبية ولغيرها من المؤسسات الأجنبية إلى جانب التعليم أهداف أخرى منها التغيير الاجتماعي والتعبئة الاجتماعية على مقياس أجنبي، يقول عبد العاطي محمد أحمد حول مهمة هذا التغيير وهذه التعبئة "... تتفكك العزلة الفكرية التي عاش فيها أبناء المجتمع لقرون طويلة، وذلك بالإضافة إلى أن (الصدمة) التي تلقاها المجتمع المصري مع ازدياد التأثير الأوروبي جعلته يعيد النظر في الأفكار القديمة، ومن ثم برزت استجابات مختلفة لهذا التأثير الأوروبي"⁽²⁾.

بحث هيكل في السلبات الناتجة عن التعليم في المدارس المصرية سواء حكومية أو أهلية، وعن السلبات الناتجة عن التعليم في المدارس الأجنبية فخرج بنتيجة وهي أن التعليم في المدارس المصرية "لا يفكر القائمون بأمره في أن تكون الفكرة منه تقوية شخصية المتعلم بحيث يستطيع متى أتم دراسته أن يكون في الحياة رجلًا قديرًا على الاعتماد على نفسه والثقة بها"⁽³⁾.

(1) هلال، التجديد في الفكر السياسي العربي الحديث (ص37).

(2) أحمد، الفكر السياسي للإمام محمد عبده (ص36).

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/178-179).

أما سلبية المدارس الأجنبية فإن "خريجي هذه المدارس يظلون غرباء في بلادهم شاعرين دائماً بأنهم لا يستطيعون الاتصال الروحي الخالص بأهله ولا بحياته ولا بماهيته"⁽¹⁾.

وأمام هذه السلبيات يبقى اختيار أولياء الأمور صعباً، "فإن كل واحد منهم ينتهي بالاختيار كارهاً، ويذهب بابنه إلى المدارس المصرية أو المدارس الأجنبية وهو يحس بالنقص الفاحش في الناحيتين جميعاً"⁽²⁾.

ينظر هيكل إلى هذه المشكلة، وإلى خيار أولياء الأمور الصعب، فيكون له في ذلك موقف، يقول فيه: "نتوجه لمدارسنا المصرية... بأشد اللوم لعدم عنايتها بإقامة التعليم والتربية فيها على قواعد سليمة... ففي مقدورها (وزارة المعارف) أن تنشئ للأطفال مدرسة أو مدارس تجعل أجورها عالية بمقدار ما تشاء على شريطة أن تضع لها من النظم الجديدة ما يتفق مع القاعدة الأساسية... قاعدة تنشئة شخصية الطفل والصبي بما يمكنه في المستقبل من أن ينظر إلى الحياة بعين السيد المتحكم فيها لا بعين الفزع منها"⁽³⁾.

ويرى الباحث أن في ذلك انتقاصاً لحقوق الآخرين، لأن الأجدر وضع سياسة تعليمية شاملة، وخطط استراتيجية مستقبلية لنظام التعليم بكل مراحلها وكافة مؤسساته ومدارسه.

وينتقل هيكل إلى الحديث عن مشاكل التعليم الجامعي، فيقول: "فالجامعة ترفع صوتها بالشكوى من ضعف الطلاب الذين ينتقلون من هذه المرحلة إليها"⁽⁴⁾، فشكواها منصبة على ضعف المستوى التحصيلي للطلبة بسبب الضعف التراكمي في مرحلة التعليم العام، ويذكر من أسباب ذلك أن: "التعليم العام يطالب التلميذ بأن يحفظ عن ظهر قلب ما يُلقى عليه، وأن يتق بصحته دون تفكير في نقده، وفي التعليم الجامعي تُدرّس العلوم للطالب على أن يفكر فيها وأن ينقد ما يراه جديراً بالنقد فيها، وهاتان الطريقتان المتعارضتان هما في نظر أصحاب هذا الرأي سبب الضعف الذي تشكو الجامعة منه"⁽⁵⁾.

إذاً طريقة التلقي والحفظ وطريقة النقد هما السبب كما يرى هيكل في ضعف الطلبة التحصيلي، وكعلاج لهذا الضعف يقترح هيكل أن تزيد "مدة التعليم الثانوي والتوجيه، فنجعلها

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/178).

(2) المصدر السابق، ج1/179.

(3) المصدر نفسه، ج1/180.

(4) المصدر نفسه، ج1/222.

(5) المصدر نفسه، ج1/222.

ست سنوات أو سبعاً⁽¹⁾، ولم يتطرق إلى طريقة العلاج، وكان السبب في هذا الضعف قصر المدة وليست طريقة التدريس، لذا يرى الباحث أنه لو اقترح برنامجاً كاملاً لعلاج هذا الضعف، مع الأخذ بالاعتبار مسألة الزمن، لكان أجدى وأنفع.

ومن الأمور التي وقف عندها هيكل في الدراسة الجامعية، الاعتقاد الخاطئ أن الغرض من هذه الدراسة "تحضير موظفين لإدارة الحكومة... إنما أنشئت (أي الجامعة) لتؤلف بيئة مستقلة فيها يبحث كل عضو من أعضائها عن الوسائل المؤدية لكمال وجوده الخاص، على أساس من حرية التفكير والنقد"⁽²⁾.

يرى -أيضاً- أنه ليس من أهداف التعليم الجامعي تخريج موظفين للعمل في الحكومة، وإنما الهدف أكبر من ذلك بكثير وهو القيام "بالأبحاث العلمية في العلوم والآداب التي تنتج عندها كما أنتجت عند غيرنا الزيادة في النظريات العلمية فتؤدي بذلك عن مصر واجبها من المشاركة في رقي العلوم والمعارف، كما أن من رسالتها تربية شبيبة الأجيال المتعاقبة... ومن رسالتها كذلك نشر الثقافة العلمية والأدبية في جميع طبقات الأمة ومساعدة التطور الاجتماعي"⁽³⁾.

ثم يتحدث عن أمانيه وغاياته من التعليم الجامعي فيقول: "نعيد إلى الشبان المصريين استقلالهم العقلي، ونمهد لهم الوسائل المعنوية لرقى مواهبهم... يجب أن نغرس في نفوس طلابنا هذه المبادئ، وأن نبرهن على ثبات عزيمتنا وإخلاصنا في تربية أبنائنا وأمتنا، ونعلمهم كيف يؤدون الواجب، وكيف يتخلقون بالأخلاق"⁽⁴⁾.

المرحلة الجامعية أهم مرحلة في حياة الإنسان، لأن فيها تتضح شخصيته، وتظهر فيها اتجاهاته وميوله، كما أنها تحدد مصيره نحو المستقبل، وأنها تكمل بناءه الثقافي والمعرفي والتربوي.

وموضوعات المقالة الاجتماعية مهمة جداً؛ لأنها تمس حياة الناس وتتبنى قضاياهم، وتتعرض لمشاكلهم، وهي عندما تطرح لا بد أن تكون فكرتها واضحة، وأن يكون تحليلها موضوعياً، والمناقشة في تفاصيلها هادئة، ولا بد من اقتراح الحلول لهذه المشاكل وعدم الاكتفاء

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/222).

(2) المصدر السابق، ج1/241-242.

(3) المصدر نفسه، ج1/242.

(4) المصدر نفسه، ج1/248.

بعرضها، ثم من الضروري سوق الأدلة المنطقية والشواهد الواقعية لتعزيز الأفكار والتأكيد على صحتها، لا بد -أيضاً- من التركيز على الأسلوب وجماله، والبعد عن الأسلوب الخطابي، وتجنب الخيال الذي لا يفيد الفكرة والبديع المتكلف، ولا بد من سهولة الألفاظ وقربها من الحياة الواقعية، وترايط المعاني ووضوحها.

ولتطبيق ما سبق على مقالات هيكل الاجتماعية نجد أنه تحقق في معظمه، فجاءت مقالاته الاجتماعية تطرح قضايا اجتماعية، وتقترح لها الحلول المناسبة، كما أن أسلوبه كان واضحاً سلساً، ولغته قريبة من لغة الحياة يفهمها من يقرأها ببساطة ودون عناء.

حلول عامة لتحديات الحياة الاجتماعية:

اقترح هيكل مجموعة من الحلول العامة لمواجهة الظروف الاجتماعية الصعبة، وأول هذه الحلول التربوية الصالحة، التي تقوم "على أساس من الإيمان المستتير، والعلم الصحيح، والعواطف السامية، والعقيدة الثابتة"⁽¹⁾.

وبجانب التربية الصالحة للجيل يرى هيكل أنه لا بد من النظر إلى الحياة الاجتماعية كلها "إلى حسن توجيهها لتتفق مع آمالنا الإنسانية العليا، ولتندمج في قوميتنا الذاهبة مع التاريخ إلى أبعد عصور الماضي"⁽²⁾.

رأى هيكل أنه لا بد من التوجيه الحسن لشئون الحياة الاجتماعية حتى تتسجم وتتفق مع آمال المصريين الإنسانية ومع قوميتهم العربية، أراد بذلك إعادة صياغة نظام الحياة، والخروج من الروتين الذي يخلو من الأهداف، وكأنه أراد أن يربط الحياة بالأمل، كما أراد أن يربطها بالمعاني الإنسانية والروح القومية.

ومن الحلول التي طرحها هيكل لمواجهة تحديات الحياة الاجتماعية، التوازن بين الحياة المادية والحياة المعنوية بحيث لا تطغى إحداها على الأخرى، ولأن كل واحدة منهما تؤثر في الأخرى؛ فإنه لا يمكن الفصل بينهما فصلاً تاماً، هذا وقد اختلف الناس حول هاتين الحياتين "يقول بعضهم إن الرخاء المادي مفسدة للحياة المعنوية، ويقول آخرون إن الرخاء المادي هو أساس الطمأنينة المعنوية"⁽³⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/106).

(2) المصدر السابق، ج4/125.

(3) المصدر نفسه، ج4/163.

أيًا كان الأمر، فإن الحياة تتأثر بالرخاء سواء بالإيجاب أو بالسلب، كما تتأثر بالفقر والفاقة "والحياة المعنوية تتأثر بهذا كله تأثرًا ظاهرًا محسوسًا، ومظاهر الحضارة تخضع لهذا الأثر" (1).

إذا مسألة الفقر والغنى، والرشاء والفاقة مهمة في الحياة المعنوية وفي بناء الحضارة، فالغنى والفقر يؤثران، لذا لا بد من التعامل معهما بحكمة، وكل مسئول عليه "أن يبذل غاية الجهد ليعم الرشاء الشعوب كلها، وفي إمكانات الأرض التي نعيش عليها ما يكفل للجميع هذا الرشاء، وما يكفل للحضارة الرقي تبعًا لذلك" (2).

للوصول إلى حياة الرشاء والنعيم لا بد من بذل أقصى الجهد، واستغلال إمكانات الأرض واستثمارها، ولو حصل هذا الأمر بشكل كامل؛ لوجدت الرشاء يعم الأرض، ولرأيت الحضارة في أبهى صورها.

رابعًا - المقالات الذاتية:

تعد المقالة الذاتية لونها من ألوان النثر الفني التي يعبر فيها كاتبها عن أحاسيسه بالحياة، وتجاربه فيها، وتكتب دون الحاجة إلى تنسيق أو ترتيب، تأتي بعفوية دون تكلف أو افتعال، وهي بعيدة عن الوعظ والإرشاد، ومتنوعة لتنوع التجارب الإنسانية، ومتباينة لتباين شخصيات كاتبها وتعمد قيمة المقالة الذاتية إلى حد ما على قيمة الأفكار التي يبثها الكاتب فيها، فإذا لم يكن لديه شيء قيم يقوله... فإن مقالته سرعان ما تطوى في ثياب النسيان" (3).

إذا تستمد المقالة الذاتية قيمتها وقدرها من الأفكار التي يعرضها الكاتب، فإذا كانت جذابة تستهوي القارئ وتمتعه، وتجعله يتفاعل مع الكاتب فيما يعرضه، نالت هذه الأفكار هذه المنزلة، واستحققت أن توصف بأنها قيمة، وكذلك مما يزيد المقالة الذاتية وزنًا حقيقيًا، وأفضلية عظيمة "مدى تجليتها للشخصية الإنسانية التي تتوارى خلفها... شخصية الكاتب الأليفة العذبة... بما فيها من خفة وسحر وجاذبية وتألق، وذوق مصقول" (4).

إن هذه الأمور مجتمعة تكشف لنا عن تجربة الكاتب وكيف يفكر بعقله، كما تُظهر لنا تأملاته في الحياة كأديب، وتبرز تصوره لحركة الحياة وانعكاساتها في نفسه ووجدانه.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/166).

(2) المصدر السابق، ج4/167.

(3) نجم، فن المقالة (ص102).

(4) المرجع السابق، ص102-103.

إنه التصميم الفني للعمل الأدبي من خلال المضمون والأسلوب، والذي يمثل الروح التي تغرد في النفوس، هذه الروح تدل على الإبداع، وتكشف عن العلاقات، وتجلي الآراء، وتقدم التجارب بأبهى صورة.

أما القارئ فمهمته أن يُنعم نظره، ويوقد بصيرته، ويسبر الأعماق، ليتعرف على كنه هذه الشخصية، ويحلل أسرارها، ويفصل معالمها، ومن ثم يستطيع أن يرسم الصورة الحقيقية لهذه الشخصية.

عند كتابة المقالة الذاتية ينطلق الكاتب في مقدمته لها من فكرة عامة، أو خاطرة جالت في نفسه، أو مناسبة أو ذكرى أو لقاء أو اجتماع أو ومضة عاطفية، أو موقف إنساني هزه، أو حدث سياسي، فالمجال مفتوح أمام الكاتب، هذه هي البداية ثم يشرع في الشرح والتفسير والتعليق والتحليل، وهو خلال ذلك "يقدم بعض الأمثلة الواقعية المحسوسة التي يستمدّها من تجاربه في الحياة وتمرسه بها"⁽¹⁾.

هذه الأمثلة حقيقية لها علاقة ببيئة الكاتب ومجتمعه المحلي وثقافته العامة، وهي سلاح ذو حدين، فهي تكشف عن قوة شخصية الكاتب أو ضعفها، وتجسد طبعه وطبيعته، وربما تسجل عليه عيوبه من حيث لا يدري، هذه التجارب لو عُرضت على عالم نفس لاستطاع من خلالها أن يشخص الحالة النفسية للكاتب.

وفي المقالة الذاتية يتحدث الكاتب عن نفسه فيقول مثلاً: زرت كذا، واستمعت إلى كذا، وأعجبت بكذا، هذه الأفعال كلها تدل على الذاتية، وفي مقالات هيكل الذاتية كثير من هذه الأفعال، يقول في مقالة له بعنوان (جاذبية الأرض للإنسان): "قضيت في باريس عامين... ذهبت في رحلات قصيرة إلى سويسرا وإنجلترا وإيطاليا... جئت إلى مصر أقضي بها إجازة قصيرة، ونزلت من الباخرة... وأقمني القطار إلى الزقازيق... نزلت المحطة وامتطيت الجواد... وحين لقيت أهلي فتلقوني بين أحضانهم وأخذوا يقبلونني"⁽²⁾.

كان هيكل يعتمد عند كتابته المقالة الذاتية على ذاكرته فيقول مثلاً: "وعدت هذه القصة إلى ذاكرتي في الأيام الأخيرة وأنا أجوب أنحاء سويسرا"⁽³⁾.

ويقول: "أقول هذا فتعود بي الذاكرة إلى خمسين سنة مضت أو إلى أكثر من ذلك"⁽¹⁾.

(1) نجم، فن المقالة (ص100).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/182).

(3) المصدر السابق، ج6/183.

ويتذكر هيكل أيامه الأولى وهو صغير، لكن هذا التذكر ليس مجرد تعبير عن أيام الطفولة وإنما يكشف عن واقع كان آنذاك، وربما أن هذا الواقع كان مرتبطاً بشيء يثير الدهشة والعجب، وهو ما ثبته في ذاكرة هيكل يقول: "لما دخلت المدرسة الابتدائية بالقاهرة، لم يكن عدد تلامذتها يبلغ المائة، وكان من المناظر التي لا يمكن أن تدور اليوم بخاطر أحد أن ترى في السنة الأولى الابتدائية شاباً يبلغ العشرين أو نحوها، وأن تعلم أنه متزوج وله أولاد"⁽²⁾.

ذاكرة هيكل أرجعته إلى الوراء عدة سنين ليعقد مقارنة بين الزمن الغابر والحاضر، وكيف تغيرت الأمور. كان تعلم الكبار في الصف الأول الابتدائي أمراً طبيعياً، لكنه أصبح بعد خمسين سنة أمراً يثير الدهشة وربما السخرية، أراد هيكل بنقل هذا الخبر القديم الذي كان محتفظاً به في ذاكرته سنوات عديدة أن يوصل للقارئ أن مصر خطت خطوات واسعة في سبيل تقدم التربية والتعليم، وأن الشعب المصري يتمتع بحيوية قوية مكنته من عملية التغيير والتطور، وجعلته ينتصر على الظروف القاسية التي عاشتها خلال تلك السنوات.

لقد كشفت مقالات هيكل الذاتية عن أمور مهمة في حياة المصريين خاصة في مجال التربية والتعليم حيث إنه عمل مرتين وزيراً للمعارف، وفي ذلك يقول مؤرخاً للجامعات المصرية: "أنشأت الحكومة أول جامعة بالقاهرة سنة 1925م، أما قبل ذلك إلى سنة 1908م، فكانت الجامعة المصرية أهلية، ولم يكن بها أول افتتاحها غير كلية الآداب، ثم أنشئ بها قسم العلوم الجنائية يُدرس فيه تحقيق الجنايات العملي، ثم أنشئت بعد ذلك كلية الحقوق"⁽³⁾.

إن تحددت هيكل عن نشأة الجامعات المصرية والكليات فيها، يُعدُّ تاريخاً للتعليم العالي في مصر، فقد كان في بداية النشأة متواضعاً ومحدوداً، ثم بدأ ينمو ويتطور بجهود المخلصين من أبناء مصر حتى وصل إلى ما وصل إليه، ومن المعلومات التي ذكرها هيكل أن أول جامعة مصرية كانت أهلية أنشئت عام 1908م، وأول جامعة حكومية أنشئت عام 1925م، وأن أول كلية تم افتتاحها في هذه الجامعات هي كلية الآداب، ثم لحقها بعد ذلك كلية الحقوق وغيرها، الشاهد في ذلك أن التعليم العالي في مصر بدأ يرى النور مع مطلع القرن العشرين، وأن النهضة العلمية الحقيقية لمصر بدأت منذ ذلك التاريخ.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/189).

(2) المصدر السابق، ج6/189.

(3) المصدر نفسه، ج6/231.

ويتحدث هيكل في إحدى مقالاته التي عنونت بـ(بين الاختيار والاضطرار) عن كيفية دخوله كلية الحقوق للدراسة فيها، فيقول: "وشاءت الأقدار أن يتوفى جدي لأبي بعد أسابيع من ظهور نتيجة الامتحان، وجاء أصدقاء والدي يعزونه، فأخذ يستشيرهم في أمري، فأشاروا جميعاً بأن من الخير أن أدرس الحقوق، واطمأن والدي إلى مشورتهم رغم معارضتي الشديدة لها... فنزلت كارهاً على ما أشاروا به"⁽¹⁾.

لقد بين هيكل أنه كان مكرهاً عندما دخل كلية الحقوق، لأنه لم يكن يملك حرية الاختيار، فكانت الكلمة الأولى والأخيرة لوالده، وهذا من باب الاحترام والتقدير له لا يمكن أن يرفض ما اختاره له، كما وضح أن والده لم يختار هذا التخصص إلا بعد مشاورة أصدقائه، هذا يكشف عن نظام الأسرة الريفية آنذاك، أو عن العادات والتقاليد التي كانت سائدة حيث إن الرأي النافذ هو للأب فقط، أما الأبناء فعليهم السمع والطاعة وإن كان الأمر يخصهم ويتعلق بمستقبلهم، فالأب هو الأمر والنهي ولا يجوز لأحد أن يبدي اعتراضاً، وإلا يُعَدُّ خروجاً على قاعدة الاحترام، ويُقص من هيبة الوالد، وفي مقالة أخرى له بعنوان (إن كبر ابنك) وهو مستمد من المثل المصري العامي (إن كبر ابنك خاويه) يؤكد هيكل على علاقة الأب والابن، يقول عن هذا المثل: "وهو مثل صادق عميق الأثر في تربية الأبناء، وقد رأيت أمثلة توافقه، وأخرى تخالفه، ورأيت ما لموافقته وما لمخالفته من أثر في مستقبل الشاب، ومن الخير أن يتدبر الآباء والأهل هذه الأمثلة لمصلحتهم ومصلحة أبنائهم"⁽²⁾.

ويفتح هيكل صندوق ذاكرته ذات مرة، فيذكر أنه عندما كان في السنة الثالثة الابتدائية سمع الشيخ سلامة حجازي لأول مرة وهو يغني، وقد وصف صوته بالملائكي، ونغماته تصل إلى أعماق النفوس وتهز المشاعر، يقول هيكل: "ولما تخطيت الدراسة الابتدائية إلى ما بعدها، كنت شديد الحرص على أن أسمع الشيخ سلامة كلما أتحت لي فرصة سماعه، فلما عرف الناس الفوتوغراف في أوائل هذا القرن العشرين كانت اسطوانات الشيخ سلامة خير رفيق لي ولإخوتي وأهلي في الريف أثناء إجازتنا الدراسية"⁽³⁾.

أراد هيكل من وراء هذا التذکر أن يبين فضل الشيخ في إسعاد الناس، وأن الناس مدينون له بهذه السعادة، وفي الوقت نفسه كشف هيكل عن وسائل الترفيه التي كانت في ذلك الوقت، وفي سياق الأغاني التي كان يعشقها ويعدها من المواهب يعلق هيكل فيقول: "قالمواهب التي لا

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/217).

(2) المصدر السابق، ج6/225.

(3) المصدر نفسه، ج6/195.

يديم صاحبها تهذيبها وصقلها وتعدّها معرضة لأن تصدأ وتتعلّط، وليست هذه المواهب قاصرة على ما يتصل بالفنون الجميلة كالغناء والموسيقى والشعر، ولكنها تتناول شؤونًا كثيرة أخرى⁽¹⁾.

إن مقالات هيكل الذاتية احتوت على كثير من المعلومات والأحداث التي تعد جزءًا لا يتجزأ من حركة تاريخ مصر، فمثلًا يذكر هيكل: أنه "في سنة 1946م حدث في شركة الطرق الجوية العالمية إضراب لا أعرف إضرابًا غيره حدث فيها قبل ذلك التاريخ ولا بعده"⁽²⁾.

ويرى هيكل أن ذكر مثل هذه المعلومات له أهمية خاصة "فالمصحف تنشر مذكرات وذكريات للذين شاركوا في حوادث السنين الأخيرة، بعد الثورة وقبلها، كما تنشر ذكريات لمن وقفوا على أنباء هذه الحوادث... ومن الخير أن تكثر هذه المذكرات والذكريات حتى يكمل بعضها بعضًا، ويصحح بعضها بعضًا، ويستطيع قارئ اليوم ومؤلف الغد أن يهتدي إلى الحقيقة كاملة من خلال ما يقرأ"⁽³⁾.

ومن الأشياء الجميلة التي ذكرها هيكل في مقالاته الذاتية ما سجله عن زيارته لبعض الدول والمدن، وقد وصفها بأجمل الأوصاف حتى أن من يقرأ هذه الأوصاف يتأثر بها تأثرًا كبيرًا فتنهفو نفسه إلى زيارتها، يقول عن زيارته لدمشق: "نزلت دمشق فإذا هي بلد شرقي... بمبانيه وأسواقه ومساجده وكل مظاهر عمرانته... دُعيت لقضاء سهرة في غوطة دمشق... لن أنسى مياهها الجارية، وأشجارها الباسقة، وهواءها المعطر، ونسيمها الرقيق، ولطف الصحبة التي كانت معنا من أهل دمشق"⁽⁴⁾.

زار هيكل فلسطين وكتب في مقالاته عن هذه الزيارة يقول: "وفلسطين من أغنى بلاد الله بالآثار... ومقامات الأنبياء في فلسطين لا يكاد يحصى عددها... تزور المسجد الأقصى وقبة الصخرة ومسجد عمر ومسجد الخليل... تزور كنيسة القيامة بالقدس، أو كنيسة المهد ببيت لحم"⁽⁵⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/213).

(2) المصدر السابق، ج6/91.

(3) المصدر نفسه، ج6/163.

(4) المصدر نفسه، ج6/122.

(5) المصدر نفسه، ج5/17-18-20.

بعد أن طاف هيكل على مدن فلسطين، وقام بجولات في القدس والخليل وبيت لحم تأثر بما شاهده فيها من آثار إسلامية ومسيحية، لقد رأى في هذه الآثار تاريخ القدماء، ومقامات الأنبياء، رأى المساجد والكنائس التاريخية فأقر بأن فلسطين أغنى بلاد الله في الآثار.

كما أن هيكلًا زار الهند وتحدث عن الآثار فيها حيث يقول: "حرصت إذ كنت بالهند شتاء سنة 1953م على أن أزور الآثار الإسلامية فيها، وأن أزور مساجدها... وبعض المقابر الهندية، ومعبد بوذا... وللمسلمين في الهند آثار كثيرة بعضها بالغ غاية الروعة"⁽¹⁾.

ويعقد هيكل مقارنة بين عمارة المساجد في مصر والعراق والهند وتركيا، فيذكر أن المساجد في مصر تشبه المساجد في تركيا، لكنها تختلف في شكلها عن المساجد في الهند والعراق، ويحاول أن يبرر لهذا التشابه وذلك الاختلاف فيقول: "وعمارة المساجد في مصر تختلف عن عمارة المساجد في العراق وفي الهند، وبينها وبين عمارة المساجد في استانبول شبه، لعل مجاورة تركيا ومصر للبحر الأبيض المتوسط لها أثر فيها، ولعل للعقائد المتوارثة هنا وهناك، وللعقائد المتوارثة في الهند والعراق أثر كذلك في عمارة مساجدهم"⁽²⁾.

عزا هيكل التشابه بين المساجد في مصر والهند وتركيا إلى سببين: الأول أن مصر وتركيا تجاوران البحر المتوسط، والثاني أن عقيدة أهل مصر وتركيا واحدة وهي عقيدة أهل السنة والجماعة، ثم بين أن العقائد المتوارثة في الهند والعراق تختلف عن العقائد في مصر وتركيا لأن معظم العقائد عندهم شيعية، حيث إن هناك فرقًا كبيرًا في العقيدة بين أهل السنة والشيعية، وهذا الاختلاف في العقيدة قابله اختلاف في عمارة المساجد، فالمساجد عند الشيعة تميل إلى الزينة والزخرفة، بينما أهل السنة يرون أن هذه الزخرفة بدعة ولا يجوز أن تتوفر في المساجد لأنها تلفت الانتباه، وتذهب بالخشوع في الصلاة.

ومن الأمور المثيرة للجدل في مقالات هيكل الذاتية أنه تعرض لمسائل فقهية فيها خلاف، لكنه أفتى في هذه المسائل فتوى حاسمة جازمة، وكأنه مرجع أو عالم من علماء الفقه، يقول هيكل في مسائل الموسيقى والغناء والتصوير والنحت: "الإسلام لا يحرم الموسيقى ولا الغناء... وقد كان تحريم التصوير والنحت في رأي من حرموها مستندًا إلى خوف الفتنة، وأن يعود الناس

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/177).

(2) المصدر السابق، ج6/178.

إلى عبادة الأصنام... أما وقد زالت شبهة الفتنة بالأصنام في عالمنا الحاضر، فلم تبقَ للتحريم حكمته، وأصبح تصوير اللوحات ونحت التماثيل لا جناح على من يقوم به⁽¹⁾.

من الملاحظ أن هيكلًا خاض في هذه المسائل الفقهية، وأصدر فتواه فيها عن طريق تحليله الشخصي ولم يستند إلى دليل شرعي، فالفتوى في الإسلام لها أصولها وضوابطها، وكان الأجدر بهيكل ألا يتعرض لمثل هذه المسائل الفقهية دون دليل شرعي واضح.

وتبلغ الجرأة عند هيكل مداها في طرح مسائل أخرى قد تمس بقدسية القرآن الكريم، حيث يقول: "كتب الأستاذ توفيق الحكيم قصة أهل الكهف فنالت الإعجاب، ألا يفكر رجال الفن في أن يستلهموا هذه القصة في التصوير أو في النحت، ولن يؤاخذهم أحد إذا فعلوا ما دام الكتاب قد سبقوهم إليه، والأمر كذلك في غير أهل الكهف من القصص التي وردت في القرآن واستلهمها الأدباء في العصور المختلفة"⁽²⁾.

كما يقترح هيكل على رجال الفن أن يستفيدوا في فهم من قصص القرآن الكريم خاصة في مجال التصوير أو النحت، والعجيب أنه سيضمن لهم أنه لن يؤاخذهم أحد لو فعلوا ذلك.

يبدو أن الأمور قد اختلطت عنده، حتى ليخيل لبعض من يقرأ هذا الكلام أن هيكلًا مستخف بالقرآن الذي هو كلام الله المتعبد بتلاوته، كيف يتحول هذا الكلام الرباني إلى صور ونحت من صنع البشر؟ كان حقيق بهيكل ألا يتعرض لمثل هذه الأمور الحساسة التي تمس العقيدة؛ لأن القرآن الكريم كتاب مقدس منزه تكفل الله بحفظه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ويرى الباحث أن هيكلًا قد اجتهد في هذه المسائل الدينية، وهو ليس من علماء الأمة المتخصصين في الشريعة، كان الأولى به ألا يخوض فيه وأن يتركه لأهل العلم الشرعي.

ويتعرض هيكل لمسألة الإجهاض فيقول: "وأغلب ظني أن التفكير في إباحة الإجهاض نتيجة من نتائج التفكير في تحديد النسل، هذا وقد كان تحديد النسل معتبرًا فيما مضى معارضة لمشية الله، ثم أصبحوا يقولون اليوم أنه ضرورة من ضرورات الحياة الاقتصادية لرفع مستوى

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/192).

(2) المصدر السابق، ج6/193.

المعيشة، ألا يدل هذا كله على أننا نعيش في عالم مضطرب التفكير، مضطرب الأعصاب، مزروع العقيدة⁽¹⁾.

لم يكن هيكل واضحًا عندما تعرض لمسألة الإجهاض، فتارة يبرر لها بمنطق من ينادون بتحديد النسل، وتارة يرى أنها تتعارض مع مشيئة الله، وتارة تالفة يراجع إلى الرأي الأول الذي يرى أنها ضرورة من ضرورات الحياة الاقتصادية لرفع مستوى المعيشة، وفي النهاية لم يحسم هيكل أمره في هذه المسألة، ثم رأى أن هذه المسألة تثير الاضطراب في التفكير والأعصاب لأنها قضية تمس العقيدة.

كان هيكل في مسألة الإجهاض حائرًا بين أمرين: الأمر الأول يتعلق بالدنيا فقد ربط الإجهاض بتحديد النسل الذي رآه ضرورة من ضرورات رفع مستوى المعيشة، والأمر الثاني يتعلق بالدين، فالإجهاض يتنافى مع رأي الشرع الحكيم، ومن الملاحظ أن هيكلًا لم يستطع أن يوفق بين هذين الأمرين، فلو أنه أقر بحرمة الإجهاض لوافق الشرع، وحتى لا يتعارض مع الأمر الأول من المفترض أنه تحدث عن تنظيم النسل بدل تحديده، وبذلك يكون قد وافق الأمرين وخرج من حيرته.

وطرق هيكل بابًا آخر في مقالاته الذاتية، حيث عقد مقارنة بين زمن الشباب والمشيب، وبين مزايا كل مرحلة من هاتين المرحلتين في عمر الإنسان، فيقول: "طالما وقفت أمام الأشجار في بدء نموها وإزهارها، ووقفت أمام مثيلاتها، وقد بلغت تمام النمو وكمال الإثمار، أيهما أمتع للعين وأشهى للحواس؟ إن الورق الأخضر على الشجرة الشابة لأبهى صورة وأروع منظرًا، لكنه لا غناء فيه أكثر من إمتاع النظر، أما هذا الثمر الذي يتوج رؤوس الأشجار الكبيرة، وقد سقط معظم الورق الأخضر من حوله، فهو للشجرة التي تحمله، وللعين التي تنظر إليه، وللريق الذي يتحلب لتذکر ذوقه الشهوي... وما بقيت هذه الشجرة التي علاها المشيب تثمر، فمن حقها أن تتباهى بثمرها، وأن ترى فيه جمالًا لا يعدله جمال الورق الأخضر"⁽²⁾.

مقارنة جميلة تبدو من وحي تشبيه هيكل بين حياة الشباب وحياة الشيوخ، الشاب جل تركيزه على الشكل، المهم عنده أن يظهر أمام الناس بأبهى صورة، فتراه يجمل نفسه ويزين رأسه ووجهه، ويختار الألوان الجميلة في ملبسه، ويحاول أن يساير التطور ليعيش يومه بسعادة وهناء، أما الشيخ الذي امتدت به السنون، فتغير شكله، وضعفت صحته، وقلت حيلته، لكنه

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/204).

(2) المصدر السابق، ج6/146.

رغم ذلك كالريحانة التي ما زالت تحتفظ بشذاها وعطرها، ما زال يعطي ويقدم، هذا العطاء ناضج كالثمرة لأنه ناتج عن تجارب عديدة.

وفي السياق نفسه يذكر هيكل في مقالة له بعنوان (نجوى القمر) أن: "لكل سن من العمر متاعه، وليس متاعنا كهولاً بأقل من متاعنا شباباً، وإن يكن من نوع آخر، والعاقل من استمتع بما عنده، ولم يلتمس ما ليس إليه سبيل... لقد كنا في الشباب نجد لذة أكبر اللذة في أن نقضي شطراً من الليل سهارى، على حين ترانا اليوم نؤثر النوم المبكر محافظة على صحتنا وعلى راحتنا"⁽¹⁾.

وخلاصة الأمر فإن هيكل يرى أن على الإنسان أن يراعي أحكام سنه، فما يصلح للشباب لا يصلح للشيخوخة، وأن من أدبرت عنه الدنيا واقترب أجله لا بد أن تختلف آماله وتطلعاته عن الذين أقبلت عليهم الدنيا بمباهجها وملذاتها.

لقد نقل هيكل في مقالاته الذاتية تجاربه المتنوعة في الحياة، فهو رجل أتاحت أمامه الفرص للسفر فطاف بالبلاد العربية والغربية، وشاهد ما لم يشاهده أكثر الناس، فوصف هذه المشاهدات وصفاً جميلاً جذاباً، وتقلد هيكل مناصب عديدة أكسبته خبرات واسعة، وخاض مجالات عديدة في الصحافة والسياسة والتعليم، وتقلب فكره بين الفكر الغربي والقومي والإسلامي، كل هذا دليل على أنه عندما كتب مقالاته الذاتية كتبها عن دراية وخبرة.

إن مما يميز هذه المقالات أنها كانت شاملة، حيث تناول فيها موضوعات متنوعة، فقد تحدث فيها عن أيام طفولته وصباه وشبابه وكهولته، كما تحدث فيها عن زيارته للبلاد الغربية والعربية، وعقد هيكل مقارنات بين الماضي والحاضر، وبيّن كيف تطورت الحياة وتغيرت معالمها، تحدث عن العادات والتقاليد المصرية التي كانت سائدة آنذاك، كما ذكر الأحداث التي عاصرها في مصر.

لقد أظهرت هذه المقالات آراء هيكل في كثير من المسائل الخاصة بالدين والدنيا، وكشفت عن طبيعة هيكل وميوله وأسلوب تفكيره وفلسفته في الحياة، وقد ساق في هذه المقالات الكثير من الحكم البليغة، والأمثلة الواقعية، والقصص التاريخية، منها ما كان يدعو إلى أخذ العبرة والعظة، ومنها ما لم يخل من الطرافة واللطافة والدهشة.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/262).

خامساً - المقالات الأدبية:

نشأت المقالة الأدبية في مصر في أحضان الصحف والمجلات، وأخذت تغزو العقول والقلوب بغزارتها وتنوعها وشدة تأثيرها، فقد اهتمت بقضايا الأدب والنقد، وتطورت من ناحية الشكل والمضمون، وباعتبارها عملاً فنياً، جاءت متكاملة الخيوط والأطراف.

المقالة الأدبية دليل على براعة كاتبها، وعلى نضاعة ثقافته وفكره، فكما كان كاتب المقالة متمسماً بالذكاء، متسلحاً بالموضوعية عند فهم الأشياء وتناولها، مستخدماً لخبراته ومهاراته، كان تأثيره في القراء أقوى وأعمق، بالمقابل يجب على كاتب المقالة الأدبية أن يبتعد عن الأساليب البراقة، وعليه أن يستخدم الألفاظ والأساليب المتناسقة التي تؤدي إلى ظهور الفكرة بوضوح، وأن يسكب من خياله وفكره ما يجعل مقالته جديرة بالتأثير في القلوب والعقول.

ويعد هيكل من فرسان المقالة الأدبية في عصره، حيث كان يملك القدرة على التعبير الجيد، والنقد الصحيح، وقوة الأسلوب وبراعته، وقد ظهرت ثقافته الغربية واضحة في مقالاته الأدبية بجانب ثقافته العربية، لقد "وجدنا هيكل ينتقل من طور التقليد إلى طور التجديد في المقالات الأدبية كنتيجة لمطالعته الحديثة في تلك الآونة، والتي كانت تستوعب أدب المقالة أو تكاد... وجدنا مقاله النقدي يُظهر قدرة على تذوق الأثر الأدبي... إن المقالة النقدية أخذت طريقاً واضحاً على يد هيكل"⁽¹⁾.

كان هيكل على علاقة قوية بالأدب، وكان عاشقاً لكل ألوانه، وكان موسوعياً في اطلاعه الأدبي، ظهر ذلك بوضوح في مقالاته وفي أسلوبه "ذلك لأن هيكلًا كان له أكثر من مجال ثقافي، باعتباره من الرواد الموسوعيين في الأدب والفكر والصحافة والاجتماع والسياسة، ودوره الريادي فرض عليه... أن يناضل في أكثر من ميدان، وينتج في أكثر من حقل معرفي، من أجل ذلك تنوع إنتاجه وكثر"⁽²⁾.

وللحديث عن مقالات هيكل الأدبية نبدأ بمقالة له بعنوان: (الاتجاه في الأدب العربي الحديث) حيث بدأ مقدمتها بسؤال: إلى أين يتجه أدبنا الحديث في مصر وغير مصر من البلاد العربية؟⁽³⁾، ويمكن تلخيص ما ذهب إليه هيكل حول إجابته عن هذا السؤال بالتالي:

(1) علي، معالم المقال الأدبي والصحفي (ص197).

(2) وادي، هيكل رائد الرواية والسيرة والتراث (ص8).

(3) ينظر: هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/345).

- 1- كاد الأدب العربي أن يندثر حتى نهاية النصف الأخير من القرن التاسع عشر، ثم بدأت نهضته في مصر ولبنان، ثم أخذت هذه النهضة تتطور بقوة وبسرعة.
 - 2- تغير اتجاه التطور خلال نصف القرن الأخير غير مرة، وظهرت نزعات مختلفة، وبدأ هذا التطور يبعث الأدب العربي القديم، ويدعو إلى تقليده، كما اتجه إلى ناحية أخرى متأثراً بالأدب الغربي، مما جعل الأدب يميل إلى السهولة والبساطة.
 - 3- تأثر الأدب العربي من ناحية القصة والأقصوصة بالأدب الغربي أكثر من تأثيره بالمقامة والترسل الذي كان ذائعاً في الأدب العربي القديم، وفي الوقت نفسه ما زال تقليد الشعر العربي القديم مستمراً، ولم يُسجل أن تأثر الأدب العربي الحديث بالأدب الغربي القديم.
 - 4- مع نهضة الأدب العربي بدأ هذا الأدب يتحلل تدريجياً من تقليد الأدب العربي القديم، والأدب الغربي الحديث، وحاول أن تكون له صفة الاستقلالية، وأن يستمد حياته ومادته من الحياة المحيطة به ومن الفلسفة والعلم والتاريخ العربي.
 - 5- يعتقد هيكل أن الأدب العربي الحديث يتجه في مصر وغير مصر من البلاد العربية بعد تطوره نحو الأدب الإنساني، حيث برزت فيه ملامح التضامن العالمي، ويؤكد هيكل على أن الأدب العربي لن يتخلف عن غيره من آداب العالم في مسابقة هذا الاتجاه.
- اختار الباحث هذا المقالة بالذات كمقدمة لحديثه عن مقالات هيكل الأدبية، إضافة إلى التعرف على تطور الأدب العربي الحديث وما وصل إليه، وعن مدى تأثيره بالأدب العربي القديم والأدب الغربي الحديث، ولقد بين هيكل أن الأدب الآن يتجه نحو الإنسانية أو ما يسمى بالأدب الكبير، يقول هيكل: "فأما اليوم فالكتاب والأدباء يشعرون كما يشعر الجمهور بشيء من الحيرة والقلق في الطريق الذي يسلكون، ليصلوا إلى الأدب الكبير الذي يمثل النفس الإنسانية الحاضرة، ويفيض عليها بما تحتاج إليه من غذاء معنوي"⁽¹⁾.
- ويحدثنا هيكل عن الأدب الإنساني أو الأدب الكبير فيرى أنه "ميراث الإنسانية الخالد وأثر العقول الباقي على الدهر... وأنفذ حكماً وأبعد سلطاناً من سائر مظاهر الحكم والتسلط... أما دولة الأدب فإنها تقوم على العقائد وتنمو في كنف المبدأ والشعور... تلك هي مرتبة التأثير

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/221).

بما في الكون من جمال وتجلية هذا الجمال على الناس من غير نظر إلى قيد أو شرط، ومن غير تقيد بزمان ومكان⁽¹⁾.

وكما أن الأدب الإنساني حكم وسلطان بما يحمل من عقائد ومبادئ وجمال؛ فإنه عنصر أساس من عناصر الحضارة الإنسانية "فيقدر ما يبلغه الأدب من السمو تكون حضارة الأمة التي يظهر فيها... وهو غذاء الأمة الروحي، ومعيار سموها في الحضارة"⁽²⁾.

يُلاحظ أن هيكلًا ربط بين الأدب الإنساني والحضارة الإنسانية، فرأى الأدب غذاءً روحيًا للأمة، وأنه كلما كان ساميًا بلغ مقامًا محمودًا في الحضارة، لذلك فلا نعجب عندما نقرأ خواطر هيكل حول الأدب حيث يقول: "الأدب رحيق الجمال بين صفحتي الأزل والأبد... والأدب تصميم المدينة الفاضلة، والتعني بذكرها تمهيدًا لإقامتها وتشبيدها... والأدب تأمل وإمعان لاستجلاء الحق والخير والكمال لمجد الإنسان وسعادته"⁽³⁾.

تقديرًا للأدب، رفعةً لمنزلته في نفس هيكل جاشت خواطره فرأى فيه الحق والخير والكمال والمجد والسعادة، هذا كله لا يأتي إلا بعد ثورة سماها (هيكل ثورة الأدب)، هذه الثورة تمتد إلى السياسة والاجتماع والفن والحضارة، يقول أحمد زلط عن هذه الثورة التي آمن بها هيكل: "وكان هيكل قد آمن بحتمية موازنة ثورة الأدب لثورة الاجتماع والسياسة، وتحديث الأدب والفن مظهر للرفقي والحضارة"⁽⁴⁾.

إذا كان لثورة الأدب علاقة بثورة الاجتماع والسياسة، فإن لها علاقة كذلك بالقانون "فكانت دراسته القانونية التي نال بها درجة الدكتوراة ذات أثر في تكوينه الأدبي، فقد استمر محافظاً على رصانة الحجة في كل ما كتب، حتى في القصص الفنية التي تجيز للفنان أن ينطلق فيها إلى أبعد مطارح"⁽⁵⁾.

أثرت دراسته القانونية في تكوينه الأدبي، حيث إنها منحت قوة الحجة في كتاباته النظرية، وفي مؤلفاته القصصية، وفتحت أمامه آفاقًا جديدة نحو رصانة الفكرة، وأسلوب الإقناع، فجاء نتاجه الأدبي متينًا متماسكًا، كذلك فإن الأدب أثر في عمله كرجل قانون أو محامٍ حينما يعرض الوقائع عرضاً شائقاً، وحين يكتب المذكرات التي تقدم للمحكمة، وفي خطابه في المرافعات،

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/223-227).

(2) المصدر السابق، ج2/370.

(3) المصدر نفسه، ج2/137.

(4) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص138).

(5) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص36).

"فكلما ازداد المحامي حسن أداء في الكتابة وفي الكلام كان أقدر على أداء مهمته، ولن يتسنى ذلك له إلا إذا كان ملماً إماماً حسناً بأمور كثيرة تتصل بالأدب، وفي مقدمتها قوة الحجة وسلاسة العبارة، وحسن الأسلوب، واتساق المنطق"⁽¹⁾.

يرى هيكل أن حسن أداء الكتابة ودقتها واجب؛ لأن ذلك أساس في جمال الأسلوب يقول: "على الذين يكتبون في العلم، أو في الفلسفة، أو في التاريخ، أو في الفقه، أو في أي ما شئت من نواحي العلم الإنساني أن يبلغوا منها غاية ما تمكنهم مواهبهم، لكنها لا تجعل كتاباً من كتب العلم أدباً، ولا كتاباً من كتب الفلسفة أدباً، لأن الأدب فن وحده له حدوده وله مراميه"⁽²⁾.

عند كتابة العلوم الإنسانية يحتاج الكاتب إلى الأدب في كتابته، ليحرر مادته العلمية بأسلوب جميل، فالأسلوب الجميل المطلوب للكتابة هو من صناعة الأدب، لكن هذا العلم المكتوب لا يتحول إلى أدب بأي شكل من الأشكال، فعلاقة الأدب بهذا العلم تتصل بالأسلوب والجمال فقط.

في المقالات الأدبية التي كتبها هيكل كثير من موضوعات الأدب شعراً ونثراً، حيث تحدث فيها عن الشعر والشعراء، كما تناول النثر وقضاياها والمساجلات الأدبية بينه وبين بعض الأدباء، وللحديث عن موضوعات الأدب في مقالات هيكل الأدبية نبدأ بـ:

الشعر والشعراء:

ألف هيكل كتابه (ثورة الأدب) حيث خصصه للحديث عن الأدب، وفيه رأى أن فن الشعر "ظاهرة نفسية لقاتله، يشدو به حيث تفيض نفسه بإحساس من الإحساسات، أو بمعنى من المعاني لا تستطيع أن تكتمه"⁽³⁾.

حاول هيكل أن يحدد مفهوم الشعر من وجهة نظره، فرأى أنه ظاهرة نفسية، هذه الظاهرة يعبر فيها الشاعر عما يدور في نفسه من معانٍ، وهنا يجتهد الشاعر في هذا التعبير بحيث يمزج هذه المعاني بأحاسيسه، بمعنى أن الشعر هو معانٍ ممزوجة بعاطفة الشاعر، يُخرجها الشاعر من نفسه من خلال التعبير عنها بأسلوبه.

في مقالة لهيكل بعنوان (في الشعر) يوضح هيكل فيها علاقته بالشعر أو تجربته الخاصة بالشعر حيث يقول: "لم أعن يوماً بالقريض، ولا حاولت يوماً أن أكون شاعراً، وإذا كنت قد

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/267-268).

(2) المصدر السابق، ج2/281.

(3) هيكل، ثورة الأدب (ص57).

حاولت في صدر شبابي أن أقول شيئاً يشبه الشعر... كان قليلاً وكان تافهاً... لم أحاول قط أن أكون شاعراً... إن شيطان الشعر لم يلفتني إليه في يوم من الأيام⁽¹⁾.

يقر هيكل بأنه لم يكن في يومٍ من الأيام شاعراً، ولم يقرض الشعر، لكنه حاول في صباه محاولات لا يؤخذ بها، فما حاول كتابته ليس بشعر، ويبرر هيكل عدم إقباله على الشعر رغم أنه قد تحدث عنه، وأنه يمتلك الذوق الأدبي له، بأنه يميل إلى النثر، فقد وجد فيه مبتغاه، وحقق من خلاله رغبته في التعبير والكتابة، يقول هيكل: "لعلي إن أردت أن أجد لي عزاء عن هذا، وأجد كفايتي في أن النثر كان دائماً مجيباً كل مطالب النفس في الكتابة معبراً عما يجيش فيها من تفكير وتخيل وتصور ونغم، على أن عدم محاولتي قول الشعر لم يمنعي... من أن أقرأ في الشعر القديم والشعر الحديث كثيراً"⁽²⁾.

عدم محاولة هيكل قول الشعر لم يمنعه من قراءة الشعر القديم والحديث، وأن يبدي رأيه في كل منهما، فقد تحدث عن الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي والشعر المصري والشعر الحديث، كما تناول كثيراً من قضايا الشعر في مقالاته، ومن جهة أخرى تحدث عن الشعر الغربي وأشهر شعرائه.

وبحث هيكل عن الابتكار والإبداع في الشعر الجاهلي فلم يجد له مكاناً، لأن البيئة الجاهلية واحدة في معالمها، ثابتة في ألوانها، يقول هيكل: "والبيئة العربية في الجاهلية لم تكن مختلفة الألوان اختلافاً يثير من المشاعر والأحاسيس ما يدفع إلى الابتكار المتصل تقيض به نفس الشاعر، فلا تتكرر المعاني بعينها في قصائده، ولا تتكرر هذه المعاني في شعر الشعراء على تعاقب الأجيال... لهذا كان امرؤ القيس، وكان عنتره، وكان طرفة... يرددون المعاني المتشابهة من بكاء الأطلال وصفة الخيل، والحديث عن المحبوب الذي ارتحل"⁽³⁾.

يعلل هيكل لعدم الابتكار في الشعر الجاهلي، وأنه شعر تقليدي، لأن أعلام الشعر الجاهلي كلهم ساروا في نظمهم لقصائدهم على منهج واحد وهو الوقوف على الأطلال وبكاء الديار والتغزل بالمحبوبة ثم تناول الغرض الشعري الذي أرادوه، فبناء القصيدة واحد، وكذلك المعاني التي استقوها من بيئتهم واحدة، لكن الذي اختلفوا فيه ومايز بينهم هو القدرة على النظم وحسن التعبير عن المعاني.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/177).

(2) المصدر السابق، ج1/177.

(3) المصدر نفسه، ج1/172.

هذا هو رأي هيكل في الشعر الجاهلي من زاوية الإبداع والابتكار، أما رأيه في الشعر الإسلامي أو الشعر العربي في ظل الإسلام من حيث تناوله الطبيعة والتغني بها، ومدى تأثيرها في نفس الشاعر، يقول هيكل في ذلك: "جاء الإسلام بحياة روحية جديدة كان لها في النفس العربية أعماق الأثر، مع هذا لم تلهم الحياة الجديدة الشعر العربي، ولم يظهر لها فيه أثر قوي واضح، أنت تلمس هذا الأمر في العهد الأول، وتلمسه إلى أن بدأت النزعات الصوفية تتقل بعض الشعراء من جو البيئة الطبيعية إلى جو وجداني يكاد الاتصال بينه وبين الطبيعة ينقطع"⁽¹⁾.

يرى هيكل أن الحياة الروحية الجديدة في العهد الأول للإسلام أثرت في النفس العربية تأثيراً عميقاً، لكنها لم تؤثر في الشعر العربي، فالرسالة التي حملتها هذه الحياة الجديدة رسالة تزيوية وليست فنيّة، كانت مهمة هذه الرسالة أو هذه الحياة الروحية تغيير النفس، وتعديل السلوك، والتحول من حياة الجاهلية إلى حياة الإسلام المبنية على المبادئ والأخلاق.

ربما كان في بداية العهد الإسلامي تحسس وحذر في مسألة الشعر، فتوجه المجتمع الإسلامي بأسره إلى تعلم القرآن الكريم الذي وجدوا فيه من البلاغة والفصاحة والبيان والمعاني ما أغناهم عن الشعر، إضافة إلى أنهم كانوا حريصين على عدم خلط الشعر وهو من صنع البشر بالقرآن الكريم، الذي هو كلام الله الذي له قدسية خاصة في نفوسهم ووجدانهم.

وربما -أيضاً- أن نظرة الناس إلى الشعر في ذلك العهد نظرة فيها نوع من الريبة والشك، حيث إن بعض الشعر الجاهلي حمل معاني فيها مخالفة للشريعة الإسلامية كالغزل الصريح، والفخر والمديح، هذا الأمر قد يكون السبب في إرجاع نظرهم إلى الشعر الجاهلي خطوة إلى الخلف، فلم يعد له من التقدير والإجلال كما كان في العصر الجاهلي، لذلك فموضوع الإبداع فيه لم تكن له أولوية أو تقدمية من حيث الاهتمام.

أما تناول الطبيعة في الشعر الإسلامي في العهد الأول لم يأخذ نصيبه الأوفى كما أخذه في الشعر الجاهلي لأن التغني بالطبيعة يعد من زينة الحياة الدنيا التي حذر منها الإسلام، وكانت النزعات الصوفية عند بعض الشعراء هي البديل عنها.

وبالانتقال مع هيكل من الحديث عن الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي إلى الشعر المصري، حيث إن الروح المصرية كانت تسكن وجدانه، فكان تأثيرها في كتاباته واضحاً، فهي هو يحدثنا عن العصر الأيوبي فيقول: "يمتاز على غيره من عصور التاريخ بأنه كان عصر قوة

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/173).

وجدة، كما يمتاز كذلك بأنه كان من أشد العصور في الحروب الصليبية ازدهارًا ومجدًا وإكبارًا للمسلمين⁽¹⁾.

في هذا العصر الذي تميز بالقوة والجدة والازدهار والمجد والعزة والكرامة برز في مصر الشاعر البهاء زهير "فقد كان من كبار عصره، وكان الشاعر الذي يعبر عن العصر تعبيرًا صادقًا... وطريقته في الشعر والنثر هي التي جعلت لاسمه بقاء على الزمان لم يتح لكثير من كُتاب العصر وشعرائه، وهي كذلك التي جعلت لاسمه من الرفعة في عصره أكثر مما ارتفع به مقامه من الملك الصالح"⁽²⁾.

إذًا الذي رفع من شأن الشاعر البهاء زهير طريقته في الشعر والنثر، لا مقامه عند الملك الصالح حيث كان "قائمًا في ديوان الإنشاء صاحب سلطات ومكانة تعدل سلطان الوزير ومكانته إن لم تزد عليهما"⁽³⁾.

ويحدثنا هيكل عن طريقة الشاعر البهاء زهير في الشعر والنثر فيقول: "أول ما يلفت النظر من أثر الحياة المصرية في أدب البهاء زهير أسلوبه، وكذلك أنه جعل لغة الحياة الجارية في بساطتها ومرونتها لغة للشعر"⁽⁴⁾، ولأن الشاعر البهاء زهير استخدم في أسلوبه عند نظمه للشعر لغة الحياة، كان ذلك مثار نقد، يقول هيكل: "على أن طريقته في النثر والشعر هي الطريقة التي تلفت اليوم نظر مترجميه، وهي التي جعلت بعض كُتاب عصره وشعرائه يتهمونه بالضعف وعدم المقدرة على مجاراتهم"⁽⁵⁾.

رغم أنه كان لهيكل رأي واضح في طريقة البهاء زهير في الشعر والنثر، وإعجابه بهذه الطريقة التي -من وجهة نظره- رفعت قدره، وأعلنت منزلته إلا أنه من باب الإنصاف ذكر الرأي الآخر الذي يخالفه في رأيه، وخروجًا من هذا الاختلاف لجأ هيكل إلى رأي ابن خلكان المؤرخ المعروف، فاستشهد برأيه حيث "يقول ابن خلكان: (وشعره كله لطيف، وهو كما يقال السهل الممتنع، وأجازني رواية ديوانه، وهو كثير الوجود بأيدي الناس)"⁽⁶⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/19).

(2) المصدر السابق، ج1/20.

(3) المصدر نفسه، ج1/20.

(4) المصدر نفسه، ج1/24.

(5) المصدر نفسه، ج1/20.

(6) المصدر نفسه، ج1/20.

مما سبق يتبين أن هيكلًا لم يكن يتعصب لرأيه، بل كان حريصًا على أن يقيمه على الدليل، وكان لا يجد غضاضة في ذكر الرأي المخالف لرأيه، وفي الوقت نفسه هناك ما يلفت النظر، حيث إنه كان يخلط بين انتمائه الصادق لوطنه مصر ومشاعره تجاهه، وبين الموضوع الذي يتناوله، فيحاول أن يضيف عليه نوعًا من ميوله وأحاسيسه وقناعاته، يقول هيكل: "اتصلت نفس البهاء بطبيعة مصر وبيئة الحياة فيها، وطبيعة مصر كلها رقة وعدوبة، وكلها نغم هادئ جميل... وكلها نضارة عيش وسهولة وانسراح"⁽¹⁾ ثم يبني على هذا الوصف وهذه المشاعر ما يريد الوصول إليه فيقول: "ولعل هذا يفسر لنا ما نراه من كثرة الغزل في شعر البهاء زهير، بل لعل شعره كله الغزل... أكثر غزله خلق وإبداع"⁽²⁾.

ويرى الباحث أنه لا يمكن بناء نتيجة مفادها أن شعر البهاء زهير كله غزل على هذا الوصف، ولو كان ما ذهب إليه هيكل دقيقًا لكان مما يكمل هذه النتيجة أن شعراء مصر جميعًا كلهم لا ينظمون إلا شعر الغزل، وكأن مصر لا تعرف من أغراض الشعر إلا شعر الغزل، وهذا بالطبع ينقص من قدر شعر مصر وشعرائها.

ومن الشعراء المصريين الذين تحدث عنهم هيكل في مقالاته الشاعر الكبير محمود سامي البارودي، فقد رسم له صورة فقال: "البارودي شاب شاعر قوي الحس، طموح إلى العلا، ابتسم له الحظ فقربه من صاحب العرش... وأرعى لشبابه ولهوى الشباب العنان، فعرف الشراب ومجالسه، والغواني وفتنتهن، والطرب بالموسيقى وبالغناء، وقال في الأغراض جميعًا"⁽³⁾.

هذه الصورة التي رسمها هيكل للبارودي الشاب توحى بأنه كان يميل إلى المجون وحياة اللهو والهوى، ويكمل هيكل: "اندفع الشاب يقرأ الشعر العربي القديم فتختزن ذاكرته القوية منه... وألقى البارودي في هذا الشعر روعة وجمالاً... وهذا الشعر... يتناول الحياة كلها، جدها وهزلها، حلوها ومرها، ففيه الغزل والوصف والحكمة... وتحركت نفس الشاب لقول الشعر بعد أن توفر على مطالعته واستظهاره"⁽⁴⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/25).

(2) المصدر السابق، ج1/25-26.

(3) المصدر نفسه، ج1/41.

(4) المصدر نفسه، ج1/34.

كانت عند البارودي ميول شعرية، فحاول أن يغذيها ويصقلها فأقبل على قراءة الشعر العربي القديم، فحفظ منه، وفهم معانيه، ثم جاشت قريحته بقرض الشعر بفعل المخزون الشعري الذي كان في ذاكرته، فبدأ ينظمه في كثير من الأغراض على غرار شعراء العرب القدامى.

تناول هيكل في هذه المقالة مراحل حياة البارودي، وعلاقة كل مرحلة بتطوره الشعري، ثم خلص هيكل إلى أن شعر البارودي كان كله جديداً، "كانت محاكاته الأقدمين جديدة، وكانت معارضته إياهم جديدة، وكانت رياضته القول على مثالم جديدة، فقد هوى الشعر العربي قبله إلى درك من الانحلال... وبين هذا الشاعر الذي بعث الشعر العربي إلى الحياة من جديد... فعمله هذا خلق لا ريب، وهو في عصره جديد كله، وهو جدير لهذا أن يتسنى ذروة المجد وأن يجلس بين الخالدين"⁽¹⁾.

حاول هيكل أن يقيم البارودي وشعره، فأصدر الأحكام التالية:

- 1- يعد شعر البارودي الذي قلده فيه شعر الأقدمين العرب شعراً جديداً.
- 2- عارض البارودي الشعراء الفحول، وهذا دليل على تمكنه من الشعر وقوته في نظمه.
- 3- البارودي هو المجدد للشعر العربي بعد أن أصابه الانحلال.
- 4- رأى هيكل أن شعر البارودي احتوى على الإبداع، بل إن شعره كله إبداع.
- 5- يستحق البارودي أن يجلس على عرش الشعر في عصره، وأن يكتب اسمه في الخالدين.

وتعليقاً على تقويم هيكل لشعر البارودي، يرى الباحث أن هيكل وضع البارودي في مقام أعلى من مقام شعراء العرب الفحول، فقد أظهره بأنه كان يتفوق عليهم، هذا الأمر فيه نوع من المبالغة، صحيح أن للبارودي فضلاً كبيراً في بعث الشعر العربي واستنهاضه، وأن شعره جزل في نظمه وفي أسلوبه، وأنه بذلك فاق شعراء عصره، إلا أنه رغم ذلك لم يبلغ الدرجة أو المستوى التي بلغها أمراء الشعر العربي وأعلامهم أمثال: امرئ القيس وعنترة وزهير وطرفة وأبي نواس والمنتبي والمعري.

وفي مقالة أخرى تحدث هيكل عن شاعر النيل حافظ إبراهيم، وتتبع حياته، والعقبات التي واجهها فيها، وسفره إلى خارج مصر، والآلام التي تركتها الغربة في نفسه، حمل هموم شعبه، وحاول أن يوصل صوت هذا الشعب، فقد "انطبعت حياة الشعب المصري في نفس حافظ، وأوحت إليه كما أوحى له حب مصر كل شعره، فالشعب المصري ظمئ للحربة... فليكن حافظ

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/51).

الصوت القوي الذي ينشد أغاني الحرية... والشعب المصري ظمئاً للعلم الصحيح وللجامعة... فليكن حافظ الصوت الذي يرتفع طلباً للجامعة... وكلما شعر الشعب المصري بحاجته إلى شيء أو بتألمه من شيء وجد في حافظ الصوت القوي الذي يرتفع طالباً ما يطلب الشعب، متألماً لما يتألم منه الشعب"⁽¹⁾.

يرى هيكل أن حافظ إبراهيم جزء لا يتجزأ من الشعب المصري، وأنه وطني بامتياز، وأن وطنيته دفعته لأن يمثل الشعب ويتحدث باسمه، فيطلب له الحرية والعلم ورفع الأمل والمعاناة، هذه هي الصورة التي رسمها هيكل لحافظ إبراهيم، ومن كانت له هذه الصورة فهو بالتأكيد قريب من قلوب الناس، فحافظ إبراهيم "دائم ألمه لما أصاب مصر في حريتها وفي أخلاقها وكرامتها، لكنك... تستطيع أن تقدر ما تفيض به قصائده عن مصر من قوة العاطفة، ومن صدق الإخلاص، ومن جلال الروعة مما يجعلك تحس إحساساً مادياً بأن الوطن تجسد في نفس هذا الجندي الشاعر"⁽²⁾.

لقد حوّل حافظ إبراهيم آلامه وآلام شعبه إلى ثورة شعرية لعلها تجد استجابة شعبية فقد "ظل حافظ يقنم الميادين، ويحطم ما حوله من الأوهام، ويستنهض الهمم حتى سنة 1911م... وإذا الشعب الذي يستنهض أضعف من أن يثور، وأن يلقي عن ظهره أعباء الظلم... هناك وقف متلفتاً يسائل شعره إن كانت لا تزال به قوة جديدة قديرة على أكثر مما صنع وعلى تحريك الشعب وقهر الظالمين، وما نحسبه يئس من قوة شعره، ولكنه يئس من الشعب الذي لم يتحرك"⁽³⁾.

شخصية حافظ إبراهيم كما رسمها هيكل شخصية ثورية، وحافظ كشاعر أخذ دوره في هذه الثورة، فسخر قصائده من أجل إشعال هذه الثورة على الظلم، ورغم حرصه في شعره على استنهاض الهمم، وجد نفسه بعد حين وحيداً في الميدان، فظن أن الضعف كان في شعره، وأن به خللاً حال بينه وبين الاستنهاض الشعبي، لكنه بعد ذلك أدرك الحقيقة وهي أن شعره ما زال قوياً، فمعانيه وألفاظه ونظمه منظومة تشكل ثورة، لكن شعبه أصابه اليأس والإحباط فلم يتحرك ولم يثور.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/72-73).

(2) المصدر السابق، ج1/71.

(3) المصدر نفسه، ج1/76.

أما أمير الشعراء أحمد شوقي فقد نال حظه في هذه المقالات، ففي حديثه عنه ذكر هيكل أن أحمد شوقي "درس في مصر ثم أتم دراسته في أوروبا، وتأثر بالوسط الأوروبي وبالشعر الأوروبي تأثرًا كبيرًا... وإنك لتكاد تشعر حين مراجعتك أجزاء ديوانه... وكأنك أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر"⁽¹⁾.

وبمزيد من التفصيل والتوضيح لهذا الاختلاف يقول هيكل: "إلا أن كليهما شاعر مطبوع يصل من الشعر إلى عليا سماواته، وأن كليهما مصري يبلغ حبه مصر حد التقديس والعبادة، أما فيما سوى هذا فأحد الرجلين غير الرجل الآخر، أحدهما مؤمن عامر النفس بالإيمان، مسلم يقدس إخوة المسلمين ويجعل من دولة الخلافة قدسًا تفيض عليه شئونه وحوادثه وحي الشعر وإلهامه، حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها، محافظ في اللغة يرى العربية تتسع لكل صورة، ولكل معنى ولكل فكرة ولكل خيال"⁽²⁾.

أما صورة شوقي الأخرى والتي هي على نقيض الأولى فهي أنه "رجل دنيا يرى في المتاع بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة وغاياتها، متسامح تسع نفسه الإنسانية وتسع معها الوجود كله، ساخر من الناس وأمانتهم، مجدد في اللغة لفظًا ومعنى"⁽³⁾.

الصورة التي رسمها هيكل لشخصية أحمد شوقي توحي بأن فيها ازدواجًا واختلافًا وتناقضًا، شخص عربي وشخص غربي، وشوقي العربي هو المصري الذي يعشق مصر إلى حد التقديس، وهو مؤمن مسلم مخلص حكيم، يعتز بلغته العربية ويحافظ عليها، أما شوقي الغربي فهو الرجل الذي يعشق الدنيا ومتاعها ونعيمها، إنساني، ساخر، متشائم، مجدد في اللغة.

ملاحظ هذه الشخصية المتناقضة يوحي بأننا أمام أبي نواس جديد ظهر في هذا الزمان، ويتساءل هيكل: "كيف كان هذا الازدواج؟ كيف جمع شوقي في نفسه بين هذين الشاعرين؟ شاعر الحياة العربية بحضارتها الإسلامية... وبين شاعر الحياة الغربية الخاضعة لحكم العلم وما يكشف عنه كل يوم من جديد؟"⁽⁴⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/94).

(2) المصدر السابق، ج1/94.

(3) المصدر نفسه، ج1/94.

(4) المصدر نفسه، ج1/95.

وبعد رسم شخصية شوقي يحدثنا هيكل عن المعاني التي أثرت في نفس شوقي فيقول: "كان العرب ومكة والوحي والقرآن والإسلام والرسول ﷺ كلها معانٍ لها من الأثر في نفس شوقي ما ليس لسواها من آثار الماضي... بل إنه ليؤمن بهذه المعاني إيماناً يتجلى في الكثير من قصائده على صورة تتركنا في حيرة كيف يبلغ الإيمان من نفس هذا المحب للحياة كل هذا المبلغ"⁽¹⁾.

تأثر شوقي بالمعاني الإسلامية التي تجلت في كثير من أشعاره، لكن الذي أصاب هيكل بالحيرة كيف جمع شوقي بين الإيمان بهذه المعاني وحب الحياة، لكن يُحسب لشوقي أن "له ذاتيته التي لا تُخفى، فهو شاعر الحكمة العامة وهو شاعر اللغة العربية السليمة... وما يميز شعره جميعاً يبدو كأنه شرقي عربي لا يتأثر بالحياة الغربية إلا بمقدار... فهو بمعانيه وصوره وخیالاته يحيط مما في الغرب بكل ما يسيغه الطبع الشرقي وترضاه الحضارة الشرقية، أما لغته فتَعَمُدُ إلى بعث القديم من الألفاظ"⁽²⁾.

بعد أن وضع هيكل صورة شوقي أمامنا، وفصل ملامحها بالازدواج الذي فيها، حاول أن يميل بنا إلى صورة شوقي العربية، فذكر أنه مؤمن بالمعاني الإسلامية، وأن ذاتيته عربية، وأن من طبعه الحكمة، وأن تأثره بالحياة الغربية كان محدوداً يرضاه الطبع الشرقي والحياة الشرقية، وأنه كان يهتم بلغته العربية حتى أتقنها وحاول التجديد فيها.

النثر وفنونه:

قدم هيكل لكثير من الكتب، منها كتاب (قضايا التاريخ الكبرى أو أشهر المحاكمات والجرائم) تأليف محمد عبد الله عنان، وقد جاء في تقديمه لهذا الكتاب: "ولصديقنا الأستاذ محمد عبد الله عنان ولع خاص بالوقوف على التاريخ وتدوينه... وها هو ذا اليوم يقدم للجمهور تاريخ عدة من القضايا الكبرى التي وقعت في الأمم المختلفة"⁽³⁾، يبدو أن هذا التقديم لهذا الكتاب جاء على خلفية أن هيكلًا رجل قانون، ولأن موضوع الكتاب يتعلق بالقانون، لكن هذا التقديم أخذ مسحة أدبية، يقول هيكل: "إنك لترى في رواية هذه القضايا، أو الجرائم الكبرى، إلى أي حد تنتشعب مطامع النفس الإنسانية، وكيف تدفع هذه المطامع إلى الجريمة، فإذا نجح صاحبها

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/100).

(2) المصدر السابق، ج1/102.

(3) المصدر نفسه، ج1/211.

كانت جريمته في نظر العالم عملاً عظيماً من أعمال البطولة، وإن هو أخفق لم يكن ما يناله من قصاص كافياً لمحو إثمه، بل يظل بغيضاً إلى الناس محققاً عندهم⁽¹⁾.

المتأمل في هذا الكلام يجده أقرب إلى الأدب منه إلى القانون، ففيه تحدث هيكل عن مطامع النفس الإنسانية وعلاقتها بالجريمة، ثم تحدث عن طبائع الناس ونظرتهم للجريمة، هذا الكلام يخلو من جفاف الأسلوب القانوني ويبعد عن استخدام المصطلحات القانونية، وفي نهاية هذه المقدمة نجد شذا العطر الأدبي فواخاً دون أن يكون له علاقة بالقانون، يقول هيكل عن عنان: "فهو كثير الإنتاج في الترجمة والتأليف إلى حد عظيم، وأنت إذا رجعت إلى ما ترجمه ووضعه من روايات وكتب ومقالات أدهشك خصبه في الإنتاج، وعجبت كيف يتسنى لشاب في سنه أن تكون له هذه الآثار"⁽²⁾.

وفي تقديم هيكل لكتاب (فصول شرعية اجتماعية) للباحث محمود شلتوت، بين أن الاجتهاد طريقة شلتوت في الكتابة، يقول هيكل: "فإنما أقصد الاجتهاد بمعناه العلمي الصحيح، هذا الاجتهاد الذي يستمد حياته من الماضي وحقائقه، غير مكتفٍ بما يزينه الخيال، أو يميله الهوى من آراء لم يُنضجها الزمن، ولم تثبت على الأيام"⁽³⁾.

ورغم أن الكتاب الذي قدم له هيكل يختص بالأمر الشرعية والاجتماعية إلا أن هيكلًا أثر أن يستخدم الأسلوب الأدبي في التقديم (يزينه الخيال - يميله الهوى - ينضجها الزمن)، ويقول: "والذين يذهبون إلى إنكار الماضي لا يستطيعون أن يقيموا حياة جديدة، لأن الحياة الإنسانية نهر متصل ينبع من حيث بدأت الإنسانية، ويتسلل خلال العصور والأجيال، يسقي أبناء اليوم من رحيق ما خلف آباؤهم حتى يبلغ بالإنسانية غاية المدى من الكمال"⁽⁴⁾.

احتوى أسلوبه على أنواع من الجمال، فنجد التشبيه في قوله (الحياة الإنسانية نهر متصل ينبع...) وقوله (يسقي أبناء اليوم من رحيق...) وقوله (يبليغ بالإنسانية غاية المدى...) هذا دليل على أن هيكلًا كان يعشق الأدب، فكان يسري في أسلوبه، كما يسري دمه في عروقه، ومن عشق شيئاً أخلص له، ولم ينفك ينسائه، فهو رفيقه في حله وترحاله.

وكذلك نجد أسلوب هيكل الأدبي الجميل في تقديمه لكتاب (صور من الريف) لزكي عبد القادر، هذا الكتاب ذكره بقصة زينب التي ألفها وهو في ريعان شبابه عندما كان طالباً في

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/211).

(2) المصدر السابق، ج1/214.

(3) المصدر نفسه، ج1/245.

(4) المصدر نفسه، ج1/246.

باريس، كما ذكره هذا الكتاب بالأيام التي عمل معه فيها في جريدتي السياسة والسياسة الأسبوعية، يقول هيكل في تقديمه لهذا الكتاب مخاطبًا مؤلفه: "إن كتابك الذي تنشره اليوم لأصدق شاهد على قوة هذه الذكرى وقوة تشبثها بالذكريات... أليست هي ذكرى الطبيعة البارعة التي ألهمت الموسيقي موسيقاه بحفيف شجرها، وغناء طيرها، وترانيم أبنائها بما تنتفس عنه عواطفهم البريئة الساذجة، والتي ألهمت المصور صورته بأشجارها الباسقة، ونباتها اليانع، وجداولها وغدرانها"⁽¹⁾.

هذه القطعة الأدبية بناها هيكل على التقسيم ليحدث في النفس نوعًا من الموسيقى ليثيرها، كما استخدم الألفاظ الموحية بجمال الريف (الطبيعة البارعة - ألهمت الموسيقي - حفيف شجرها - غناء طيرها - ترانيم أبنائها - عواطفهم البريئة - أشجارها الباسقة - نباتها اليانع - جداولها وغدرانها)؛ الألفاظ فيها جمال ونظمها فيه جمال، وإيحاء الألفاظ فيه جمال، وحسن التقسيم فيه جمال، وهكذا نرى جمال أسلوب هيكل الأدبي كله جمال في جمال.

وننتقل من المقدمات التي كتبها هيكل لبعض الكتب إلى المساجلات الأدبية، أفعال وردود أفعال، نقد ونقد النقد خاصة بين الأدباء والنقاد الكبار هيكل وصاحبه طه حسين وجورجي زيدان والرافعي وغيرهم.

هيكل وطه حسين:

ألف هيكل كتابه (في أوقات الفراغ) وقد خصه للأدب والنقد، وبعد نشره، كان على عادة كبار الأدباء والنقاد أن يسطروا حول المنشور آراءهم من خلال مقالات ينشرونها في الجرائد والمجلات، وكان لطه حسين رأيه في هذا الكتاب، وردًا على هذا الرأي كتب هيكل مقالة بعنوان (في أوقات الفراغ إلى طه حسين)، حيث بين في المقدمة أنه تربطه بطه حسين علاقة صداقة، لكن هذه الصداقة لا تخلو من التناء والمداعبة والعتاب والنقد، يقول هيكل مخاطبًا طه حسين: "لست أدري بما أجيب عن رسالتك إليّ عن كتابي (في أوقات الفراغ) فقد ذهبت فيها مذاهب من التناء والمداعبة، ومن العتاب، ومن النقد كنت فيها جميعًا مؤثرًا صديقك، متأثرًا بهذه الرابطة القديمة المتينة التي تربطنا... فهل أثنى أنا الآخر عليك أم أدعبك أم أعاتبك أم أنفدك؟"⁽²⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/251-252).

(2) المصدر السابق، ج1/279.

هذا كلام ناعم فيه ملاطفة ومجاملة، وهو مدخل للموضوع، وما إن يصل هيكل إلى صلب مراده، ترى وتيرة الأسلوب تتغير، وكأنك تسمع سجلاً لا نقداً هادئاً، هذا السجال يدل على غضب وثورة في النفس، حيث يصور هذا السجال مظلوماً يدافع عن حقه، ومقهوراً يدفع التهمة الموجهة إليه، يقول هيكل لطفه حسين: "لكني مع ذلك أرى واجباً أن أدفع شبهات وتهماً وجهتها في كتابك إليّ، وأعتقد أنك ظلمتني بها، وأول تلك التهم ما زعمت من تواضعي وعدم معرفتي قيمة كتابي، فإني أؤكد لك أنني لست متواضعاً، ولست جاهلاً قيمة عملي، بل لقد يكون في نفسي من الكبرياء المستور بستار الألم لا بستار التواضع ما تشعر أنت ويشعر كثير من أصدقائنا بشيء من مثله"⁽¹⁾.

يبدو أن طه حسين عندما نقد كتاب هيكل (في أوقات الفراغ) كان حاداً ولاذعاً في نقده، مما أثار حفيظة هيكل، فربما أن هيكل اعتبر هذا النقد نوعاً من الإهانة الشخصية له، فأراد أن يشفي غليله لعله يجد بعض الراحة النفسية، أو كما يسميه علماء النفس تفرغ نفسي، فجاء أسلوبه فيه نوع من الغلظة والشدّة.

وفي المقالة نفسها، وبعد أن أفرغ هيكل ما في جعبته من غضب، بدأت نفسه تهدأ، والعقلانية تعود إليه فيقول لطفه حسين بأسلوب آخر: "وتهمة أخرى وجهتها إليّ يا أخي وكنت أود لو أن لها أساساً من الحق فأستغفرك عنها، وأنا واثق من غفرانك فيكون لي بذلك لذة طهر المذنب من ذنبه"⁽²⁾.

وتعود المياه إلى مجاريها مرة أخرى، وتذهب ثورة الغضب تماماً، وتطيب نفس هيكل، وتشرق التعابير الجميلة من جديد، وكأن ما كان من كلام غليظ في السابق مجرد ومضة انطفأت أو شرارة ذهب بريقها، يقول هيكل بنفس الهادئ المطمئن: "لكني أؤكد لك اليوم... أن صداقتنا لن يفسدها مشاء، وإني ما كنت ولن أكون منك إلى خير ما يكون الصديق من صديقه، وإذا غضبت أنا يوماً منك فلن يكون لهذا الغضب ثورة... لن يذر هذا الغضب في نفسي عليك حفيظة، ولن أكون بعده إلا أكثر حباً لك وأشد حرصاً على صداقتك"⁽³⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ح1/280).

(2) المصدر السابق، ج1/281.

(3) المصدر نفسه، ج1/281.

أما على الجانب الآخر، أو كما يقولون في الاتجاه المعاكس، فقد وجه هيكل نقده إلى كتاب طه حسين (في الأدب الجاهلي) وقد جاء في مقدمة هذا النقد: "تفضلت فأهديتني كتابك (في الأدب الجاهلي) وطلبت رأيي فيه... على أن واجب الصداقة يدفعني مع ذلك إلى أن أعلن لك رأيي"⁽¹⁾.

طلب طه حسين من هيكل أن يذكر له رأيه في كتابه (في الأدب الجاهلي) فوافق هيكل بحكم الصداقة والعلاقة التي تربط بينهما أن يقرأه بإمعان ويذكر رأيه فيه، وفعلاً أوفى هيكل بذلك، فقام بنقد الكتاب فذكر إيجابياته وسلبياته، وما يؤيده فيه وما يخالفه، وما يتفق معه وما لا يتفق، وما يعجبه منه وما لا يُعجبه.

يبدأ هيكل نقد الكتاب من حيث الشكل والطباعة فيقول: "فكتابك يا صديقي متقن الطبع، جيد الورق، قليل الخطأ الطبيعي... ولكتابك فهرس -أيضاً-، لكن كتابك من كتب العلم، وقد يصح مثل هذا الفهرس الذي وضعته لكتب الأدب، أما فهرس كتب العلم، فيجب أن تكون أكثر إيضاحاً للموضوعات التي تشتمل عليها فصول الكتاب"⁽²⁾.

يشيد هيكل بطباعة الكتاب وحسن ورقه، لكنه يعترض على فهرس الكتاب، حيث عدّ كتاب (في الأدب الجاهلي) كتاب علم وليس كتاب أدب، وهذا الفهرس لا يناسب كتاب العلم، لكنه يناسب كتاب الأدب، وبعد الفهرس ينتقل إلى المصادر فيقول مخاطباً طه حسين: "خبرني من أي المصادر استقيت مباحثك؟... أحسبك تقرّني على أن كتب العلم تعد ناقصة إذا لم يدون فيها ثبت أسماء الكتب التي اعتمد عليها المؤلف تدويناً يسمح بالرجوع إليها... وأنت يا أخي قد أهملت الثبت، وأهملت الإشارة في الهوامش، وطوعت بذلك للقارئ المنتظن أن يتوهم أنك تركته بلا ثبت ولا هامش لتتعدر عليه المراجعة والتحقيق"⁽³⁾.

كان نقد هيكل للمصادر أن طه حسين أهملها من حيث تدوينها وثبتها، وكذلك أهمل الإشارة إليها في الهامش، هذا يوقع القارئ في حرج شديد، ورغم أن هيكلًا خالف طه حسين في موضوع الفهرس والمصادر إلا أنه أيده وشاركه الرأي في مسألة حرية البحث في الأدب، وعدم ربط اللغة والأدب بالبحوث الدينية، يقول هيكل: "اسمح لي أن أهنتك مخلصاً لتأييدك حرية

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/285-286).

(2) المصدر السابق، ج1/286.

(3) المصدر نفسه، ج1/286-287.

البحث في الأدب على أنه أثر اجتماعي وأثر نفساني له قيمته العلمية العظيمة في فهم تاريخ الإنسانية، وسمح لي كذلك أن أشاركك الرأي والمسؤولية في تسفيه القول بربط اللغة والأدب بالبحوث الدينية على أنهما وسيلة لفهم القرآن والحديث أو لإثبات عريية القرآن⁽¹⁾.

أيد هيكل طه حسين في رأيه الذي يقوم على أن فهم تاريخ الإنسانية يتطلب حرية البحث في الأدب كأثر اجتماعي ونفساني، كما ويشاركه الرأي بعدم الرجوع إلى الأدب الجاهلي عند تفسير القرآن الكريم وفهم الحديث الشريف أو لإثبات أن القرآن عربي اللغة.

كما أيد طه حسين في طريقته العلمية لدراسة تاريخ الأدب العربي حيث يقول: "كان سعيك لدرس الأدب العربي على هذه الطريقة العلمية قيامًا بواجب من أسمى الواجبات التي تستحق التعزيز من أنصار العلم جميعًا"⁽²⁾، وفي الوقت نفسه خالفه في رأيه في النقد الذاتي والنقد الموضوعي حيث يقول: "على أن مشاركتي إياك الرأي يا صديقي في هذا الموضوع يدعوني إلى أن أخالفك في موضوع آخر، ذلك رأيك في النقد الذاتي والنقد الموضوعي... ولست أدري إن كنت أستطيع التفاهم وإياك في هذا الموضوع... ففوة حجتك، وسعة اطلاعك، واعتدادك بنفسك تميل بك إلى النظرة الذاتية"⁽³⁾. يرى هيكل أن طه حسين يميل إلى النقد الذاتي أكثر من النقد الموضوعي ويعمل لذلك أنه قوي الحجة، واسع الاطلاع، وأنه معتد بنفسه، وبالطبع فقد خالف هيكل طه حسين في ذلك لأن هيكلًا يميل دائمًا إلى النقد الموضوعي.

ويحاول هيكل أن يجد نقاط التقاء مع طه حسين فيذكره بأنه ذكر في أول كتابه وفي غير موضع أنه يريد أن يأخذ "في دراسة الأدب بمذهب ديكرت، ومذهب ديكرت علمي وطريقته موضوعية، فأنت إذًا متفق وإياي على أن هذه الطريقة هي وحدها المجدية"⁽⁴⁾، أي يريد أن يجذبه ناحية الطريقة الموضوعية أو النقد الموضوعي.

وأخيرًا وبشكل مجمل يعلن هيكل موقفه الواضح من كتاب طه حسين (في الأدب الجاهلي) فيقول: "أبدي لك إعجابي الذي لا حد له بكتابك في مجموعته وفي تفصيله، هو بعد محاولة لإخضاع تاريخ الأدب العربي لمذاهب البحث العلمي، لكنها محاولة جريئة موفقة..."

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/288).

(2) المصدر السابق، ج1/289.

(3) المصدر نفسه، ج1/289-290.

(4) المصدر نفسه، ج1/291.

فأنت في الواقع قد هاجمت حصناً طال زمن إغلاقه... وأنت يا صاحبي قد خرقت في الحصن منفذاً للشمس والهواء والنور"⁽¹⁾.

بعد نقد طويل مفصل بيدي هيكل إعجابه بكتاب طه حسين إعجاباً شديداً، ووجه الإعجاب جاء من إخضاع طه حسين تاريخ الأدب العربي لمذاهب البحث العلمي، واعتبر هذه المحاولة شجاعة وناجحة، وأن طه حسين بهذه التجربة وصل إلى مكان لم يستطع أحد أن يصل إليه من قبل.

وعلى المنوال نفسه يسير هيكل مع طه حسين في كثير من المقالات، وهي: (ثورة الأدب من هيكل إلى طه) و(طه حسين مع المتنبي) و(على هامش السيرة، الجزء الثاني من كتاب طه حسين) و(مع أبي العلاء في سجنه)⁽²⁾.

هيكل وجورجي زيدان:

كتب هيكل مقالة بعنوان (جورجي زيدان كما عرفته) وقد نشره في مجلة الهلال أول أغسطس 1929م، وقد أقر هيكل فيها أنه لا توجد بينه وبين جورجي زيدان صلة أو معرفة شخصية، وأنه يوجد بينهما فرق كبير في السن، وأن هيكلًا كان معجباً بروايات جورجي أيام كان طالباً في دراسته الثانوية، وأثناء وجوده في باريس للدراسة وصله خطاب من جورجي زيدان أبدى فيه تقديره لمقالاته الخاصة بكتاب مصطفى صادق الرافعي، هذا التقدير جعله يرسل له كتابه (تاريخ أدب اللغة العربية) لنقده نقدًا صريحًا، يقول هيكل: "وأعجبت أنا بهذه الرسالة وتوفرت على قراءة الكتاب وتدوين الملاحظات عليه، ثم كتبت عنه عدة مقالات نشرتها (الجريدة)... مع هذا كتب إليّ جورجي زيدان يشكرني على هذه المقالات"⁽³⁾.

وحول نقد هيكل لكتاب جورجي (تاريخ أدب اللغة العربية) يذكر هيكل أن جورجي زيدان "أول من تعرض لهذا التاريخ على طريقة تحاكي طريقة البحث الحديث في البعد عن التعصب وفي تحري الحقيقة لذاتها... كان ينظر للغة العربية وللأديب العربي نظرة موضوعية وبيحثها على ضوء الطرائق الحديثة... وكان أسلوب جورجي زيدان أسلوبًا صحفيًا لا يمتاز بمتانة

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/291-292).

(2) ينظر: المصدر السابق، ج1/297-338.

(3) المصدر نفسه، ج1/342.

الديباجة ولا بروعة البيان، وإن كانت منه بساطة ويسر يجعلانه قريباً من أفهام الناس جميعاً⁽¹⁾.

قام هيكل بنقد كتاب جورجى زيدان (تاريخ أدب اللغة العربية) بناءً على طلبه، وقد سجل هيكل ملاحظاته على هذا الكتاب ونشرها في مقالات في (الجريدة)، وتقبل جورجى زيدان هذا النقد بكل أريحية وشكره عليه، وهذا دليل على تفتح عقلية جورجى زيدان وسعة صدره، وأنه يقدر النقد ويقبله، ويرى هيكل أن جورجى زيدان في كتابه كان يتحرى الحقيقة؛ لذلك كان يبحث عنها بطريقة البحث العلمي دون تعصب، وأنه كان موضوعياً في نظرتة للغة العربية وللأدب العربي، أما أسلوبه فكان متواضعاً يتميز بالبساطة واليسر كأسلوب الصحافة التي تحرص على إفهام الناس، بمعنى أن أسلوبه كان يخلو من ألوان الجمال، وإحكام الصياغة.

اللغة والأسلوب:

كتب هيكل هذه المقالة بعد أن قرأ كتاب (خطرات نفس..) لصديقه منصور فهمي، والذي دفعه لكتابة هذه المقالة الصدمة التي تلقاها في مقدمته، حيث إن منصور فهمي جمع مجموعة مقالات له في هذا الكتاب، وكلف صديقه الأستاذ صادق عنبر مراجعة الطباعة، وبنى هيكل على هذه المراجعة أن منصور "يعترف بأنه كان يخطئ في لفظ أو إعراب خطأ دعاه إلى تصحيح ذلك حين جمع خطراته، وإلى الاستعانة في التصحيح باللغوي المعروف الأستاذ صادق عنبر"⁽²⁾.

وقد وصف هيكل هذا الاعتراف بأنه ساذج وبيّن موقفه منه فقال: "أعتقد بأن هذا الاعتراف الساذج لا يعبر في شأننا عن كل الحقيقة، فنحن على احترامنا للغة العربية... لا نعرف اللغة العربية، نعم! نحن لا نعرف عربي، ولست إذ أقول هذا أقوله عن تواضع... ولكني أقوله لأنه يعبر عن الحقيقة"⁽³⁾.

بعد اعتراف منصور فهمي بأنه يخطئ في اللغة العربية لذلك لجأ لصديقه الأستاذ عنبر ليصح له ما كتبه في كتابه (خطرات نفس)، اتبعه هيكل في هذه المقالة (اللغة والأسلوب) باعتراف آخر يكمله أو يؤكد وهو كما يقول: (لا نعرف اللغة العربية.. نحن لا نعرف عربي) ثم يؤكد ذلك بأنه حقيقة لا تواضع، ويضيف هيكل معلقاً على هذين الاعترافين: "والآن يجب

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/343).

(2) المصدر السابق، ج1/362.

(3) المصدر نفسه، ج1/362.

بعد هذه الاعترافات أن أقف برهة لأتفاهم والقارئ لِمَ لا نعرف نحن اللغة العربية، وكيف لا نعرفها... وإني لاعتترف أن الفن الوحيد الذي استطعت أن أربط اتصاله في ألفاظه ومعانيه باللغة العربية القديمة هو الشعر، والشعر الجزل الذي يقوله كبار شعرائنا⁽¹⁾.

رأى هيكل أن اللغة العربية السليمة ذات الأصول الصحيحة هي التي تتصل في ألفاظها ومعانيها بلغة الشعر القديم الذي نَظَّمه كبار الشعراء، هذا بالنسبة لعلاقة اللغة بالشعر، أما علاقتها بالنثر فيقول عنها: "أما في النثر فالبون شاسع والهوة سحيقة، ولعلي لا أغلو إذا قلت أن المعاصرين من كُتابنا الذين يرجعون إلى الأدب العربي القديم لا يبتغون من وراء رجوعهم أكثر من العثور على لفظ يعبر عن صورة في نفوسهم، أو تعبير يرون فيه رشاقة أو سلاسة يحسن معه اقتباسه أو القياس عليه، وهذا لا يعدو المحسنات اللفظية في الكتابة"⁽²⁾.

يرى هيكل أن كُتاب النثر المعاصرين عندما يرجعون إلى الأدب القديم لا يبتغون من ذلك سوى العثور على ألفاظ يستخدمونها لتقوي أسلوبهم ولتزيده جمالاً، وليس هدفهم في ذلك التعمق في دراسة اللغة العربية وإتقانها، ويصل هيكل على أثر ذلك إلى نتيجة مفادها - كما يقول - أن: "اللغة التي نكتبها نحن اليوم تختلف عن اللغة التي كان يكتبها السلف الصالح اختلافاً عظيماً، وقيم الألفاظ وقواها تختلف كذلك تمام الاختلاف عن قيم الألفاظ وقواها في الماضي"⁽³⁾.

استطاع هيكل بعد عرضه لهذا الموضوع ومناقشته إياه أن يحل اللغز المحير وهو: لماذا تختلف لغتنا الآن عن لغة السابقين العرب؟ ولماذا نجد في لغة السلف الصالح الجزالة والعذوبة والقوة، وفي المقابل نجد في لغتنا الحاضرة الركافة والضعف!!؟

سادساً - المقالة الدينية:

للمقالة الدينية في نفس الإنسان السوي مكانة، لما تحمل له من رسالة، فهي توجهه وتوعيه بأمور دينه وتبصره بمقاصد شريعته، وتحفزه على أن يؤدي فرائضه وواجباته، وتنبهه إلى حيث المخاطر المهلكة، فتحدد له المسير، والحلال والحرام، وتطلب منه الالتزام بأركان الإيمان، وتحذره من نواقض الإسلام، وهي تُعنى "بدراسة قضايا العقيدة، وشعائر الدين ودورها

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/362).

(2) المصدر السابق، ج1/362-363.

(3) المصدر نفسه، ج1/363.

في حياة الفرد والمجتمع، وبديهي أن موضوعاتها مما يمس حياة الإنسان وصلته بنفسه ومجتمعه وخالفه"⁽¹⁾.

إن كاتب المقالة الدينية لا يألو جهداً في الدفاع عن القيم الدينية، ويحاول جاهداً الكشف عن المكائد التي تحاك ضد الدين وأهله، كذلك فإنه يفضح العناصر الهدامة الملحدة التي تسيء إلى الدين، وتشوه صورة من يتمسكون به.

فكاتب المقالة الدينية يهتم "بإبراز عاطفته الدينية نحو أمر يمس العقيدة أو يتصل بالمجتمع، فيكتب مقالة تبين عن رأيه فيما هو بصدده، متسمّاً أسلوبه بالتدفق الشعري نحو القيم الدينية، والذب عنها، والإخلاص لما تدفع إليه، فهو لا ينطلق في توجهه من عبث أو تلبّ أو استدرار، قدر ما يستند إلى ذلك المنبع العظيم النير المشرق، يستمد منه توجهه، ويمتحن من نميرة أفكاره"⁽²⁾.

تحتاج المقالة الدينية إلى عاطفة صادقة، وأسلوب متدفق نابع من الإخلاص، وأفكار واضحة، والعاطفة والأسلوب والأفكار كلها يجب أن تستند إلى القرآن الكريم وإلى الحديث الشريف، وكاتب المقالة يجب أن ينظر للأمور نظرة إسلامية، و"النظرة الإسلامية نظرة ربانية محيطها العالم وموضوعها الإنسان"⁽³⁾.

مجال المقالة الدينية واسع، ونظرة الكاتب فيها نظرة مفتوحة على العالم الذي يبتغي له كل الخير، ومحور المقالة الإنسان وخدمته وسعادته في الدنيا والآخرة، وللحديث عن المقالة الدينية عند هيكمل، يقول طه وادي: "كانت هذه المقالات الدينية فتحاً لميدان واسع استوعب كثيراً من نتاج هيكمل في التأليف والبحث الديني، كما استمرت الموضوعات الدينية والفلسفية في كتاباته الصحفية كثيراً"⁽⁴⁾، ويقول عبد العاطي محمد أحمد: إن كثيراً من كُتاب المقالة ذوي النزعات الليبرالية رجعوا إلى "جذورهم الإسلامية التي بدأت تقوى مرة أخرى في الثلث الثاني من القرن العشرين، حيث عادوا إلى الكتابة عن الإسلام بلغة عقلانية عصرية، فكتب محمد حسين هيكمل عن حياة محمد (1935م) مدافعاً عن القيم الأخلاقية والاجتماعية للإسلام"⁽⁵⁾.

(1) حنطور، فن المقال في الأدب المصري الحديث (ص99).

(2) العوين، المقالة في الأدب السعودي الحديث (ج1/206).

(3) قطب، السلام العالمي والإسلام (ص172).

(4) وادي، هيكمل رائد الرواية (ص161-162).

(5) أحمد، الفكر السياسي للإمام محمد عبده (ص284).

عاد هيكل إلى جذوره الإسلامية مدافعاً ومنافحاً عن دينه بعد أن خلع جميع الثياب التي لبسها قبل ذلك، فلقد تغيرت حياته بعد رحلة الحج، فأقبل على تأليف الكتب الإسلامية المختلفة بعد أن رجع إلى الإسلام ودرسه من جديد، يقول هيكل في كتابه (حياة محمد): "والإسلام دين سعي وكفاح وجهاد في نواحي الحياة الروحية والعلمية والدينية والذنبوية جميعاً"⁽¹⁾.

لم يكن هذا المفهوم الجديد للإسلام واضحاً في ذهن هيكل قبل أن يكتب كتاباته الإسلامية، كان يعتقد قبل ذلك بأن الإسلام دين الرجعية والتخلف وأنه لا يصلح لهذا الزمان، وكانت ميوله غربية، وكان مفتوناً بالحياة الغربية.

وبمناسبة المولد النبوي تحدث هيكل في الإذاعة اللاسلكية للمملكة العربية السعودية عن الرسالة الإسلامية وأثرها في التفكير الإنساني، وقد سجل هذا الحديث الإذاعي في صورة مقالة جاءت مع مقالاته، يقول هيكل في هذا الحديث: "قويت الأمة الإسلامية حين آمنت برسالة محمد عليه السلام، لأنها نزعت عن تفكيرها كل شائبة من شوائب الضعف، وسمت إلى حيث لا تؤمن بشيء إلا بالله جل شأنه وتعالى أسماؤه، هناك أطلق العقل العربي من قيود الوثنية والشرك ومظاهر الضعف جميعاً... وإذا فُكَّت قيود العقل تضاعفت قوته، وتضاعفت قدرة الإنسان على الحياة وما فيها، وتضاعف سلطانه على الكائنات جميعاً"⁽²⁾. فالإيمان عنده مصدر قوة، ومنطلق تحرر، ومصدر سيادة.

ويرى -أيضاً- أن ما أحدثته الرسالة الإسلامية من آثار في التفكير الإسلامي لم يكن حدثاً عابراً، أو أن هذا الحدث مجرد ومضة سعد بها الناس، ولكنه حدث "قامت على أساسه حضارة استقرت قرونًا، ولا تزال آثارها باقية إلى وقتنا الحاضر، ولم يكن هذا الأثر سطحيًا ولا محدودًا، بل كان عميقًا، وكان واسع الانتشار في مختلف الأمم"⁽³⁾.

رسالة الإسلام رسالة خالدة، أنزلها الله على الخلق بواسطة الرسل لتبقى آثارها في الوجود إلى يوم القيامة، ولتنتشر في ربوع العالم لينهلوا من خيرها، ويعيشوا في ظلها آمنين مطمئنين "إنها لرسالة عظيمة وأمانة ثقيلة، لكنها حقيقة بهذه الشعوب التي آمنت بالله وبرسالة محمد ﷺ، رسالة العقل والعلم والحرية والمساواة والعدل"⁽⁴⁾.

(1) هيكل، حياة محمد (ص 577).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج 6/12).

(3) المصدر السابق، ج 6/14.

(4) المصدر نفسه، ج 6/15-16.

هذه هي مبادئ الإسلام التي حررت العقل لينطلق في الآفاق ويسبح في التفكير ليصل في النهاية إلى الحقيقة التي تؤدي إلى الإيمان الكامل بالله، هذه المبادئ نزلت على النبي ﷺ من خلال القرآن الذي جسده على الأرض، يقول هيكل في ذلك: "ولست آتي بجديد حين أذكر أن أسمى صورة الكمال كما دعا إليه محمد عليه السلام، إنما هي الإيمان الصادق بالله، والمساواة التامة أمامه جل شأنه، والعمل في سبيل رضاه وحده لا إله إلا هو، إذا بلغت الإنسانية أن تنظم حياتها وتقيم نظمها على أساس من هذه القواعد كان ذلك خير هادٍ لها إلى الغاية التي تنشدها"⁽¹⁾.

ويركز هيكل على دور الرسالة المحمدية الإسلامية في الحياة الإنسانية لأنها هي المنقذ لهذا العالم، وهي التي تأخذ بيد الإنسانية نحو بر الأمان وشاطئ السلام، وهي دعوة الأخوة في الله، وتوآخي الإنسانية على أساس الحق، فهي تدعو "القوي ليأخذ بيد الضعيف، والعامل بيد العاجز، والغني بيد الفقير للبلوغ بالنفس الإنسانية غاية ما تستطيع أن تبلغه من الخير عن طريق الإيمان بالحق جل شأنه"⁽²⁾.

إنها دعوة الإسلام التي تهيئ للعالم سبيل الرضا والسعادة، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بالإيمان، فالإيمان هو منبع الخير، ومصدر الأمل، وبقوته ترفرف أعلام السلام، وبهداه تُزال الخصومات، وتنتهي الحروب.

وبمناسبة شهر رمضان تحدث هيكل عن الصيام وأثره في الحياة من محطة الإذاعة البريطانية، وقد سجّل هذا الحديث كمقالة ضُمت إلى مقالاته، يقول فيها: "وأول أثر للصيام في حياتنا الفردية أنه يخرج بكل واحد منا على مألوف حياته في أشهر الإفطار، ويحررنا بذلك من الرق للعادات اليومية التي نخضع لها طوعاً أو كرهاً، ويقوى بذلك إرادتنا وسلطاننا على أنفسنا"⁽³⁾.

يؤكد هيكل على أن الصيام عبادة وليست عادة، عبادة تحرر الإنسان من الخضوع للمعتاد، وتقوي إرادته، وتعلي سلطانه، ليصل إلى مغزى الصيام وهو التقوى، مصداقاً لقوله

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/25).

(2) المصدر السابق، ج6/30.

(3) المصدر نفسه، ج6/37.

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (1).

ويمضي هيكل بشيء من التفصيل عن أثر الصيام في الحياة فيقول: "الصيام رياضة يقصد بها إلى أن تتغلب النفس على متعها المادية جميعاً طيلة النهار شهراً كاملاً من كل سنة... وحسبنا أن يكون اتجاهنا النفسي في أيام الصوم على هذا النحو لنسمو بأنفسنا فوق دنيا الحياة الدنيا وباطل زخرفها" (2).

الصوم كما يراه هيكل ويراه المؤمنون رياضة نفسية لكل صائم، فعندما تتغلب النفس البشرية على متاعها المادي لمدة شهر وعلى طول النهار تتجه نحو السمو الروحي، وتحرر من دنايا وزخرف الحياة، فتزداد الفضائل، وتقل الرذائل، تصفد الشياطين فتخدم نار الفتن، وتدفن أسباب الشرور، والخير يعم، والبركة تحل، ويزيدنا هيكل من الشعر بيتاً عندما يتحدث عن أثر الصيام فيقول: "زاد ذلك إيماننا بالله تثبيتاً، فازدادت أنفسنا قوة على قوة... تقوية الشخصية الفردية بتحريرها من كل عبودية لغير الله، ومن كل خوف إلا مخافة الله" (3).

الصوم يزيد الإيمان بالله في النفس ويثبتته، ويعطي النفس زيادة في القوة، ويقوي الشخصية ويحررها، ويمنع عن الإنسان الخوف من البشر، هذا على صعيد الفرد الصائم حيث تتغير حياته وشخصيته ونفسيته، والمُعَيَّر هو الصيام الذي زاد في الإيمان، والإيمان زاد النفس تعبئة روحية جعلته يتخلى عن مظاهر الضعف الإنساني كلها، وبذلك يتحول إلى إنسان آخر يمتلك صفات القوة وأسبابها.

أما على صعيد المجتمع الإسلامي، فإن الصيام يحدث آثاراً إيجابية في سلوك المسلمين الصائمين فهو "يقوي بينهم معاني الإخاء الإنساني، ويدعو قلوبهم ليرحم ضعيفهم، ويبسر لغنيهم أن يجعل فيما رزقه الله من المال حقاً معلوماً للسائل والمحروم" (4).

وفي سياق الصوم يتحدث هيكل عنه في مقالة أخرى بعنوان (شهر العبادة) فيقول: "في هذا الشهر يجب أن يتجرد الإنسان إلى الله، وأن ينسى رغبات جسده، ونزوات نفسه، وأن يقاوم هذه الرغبات والنزوات، وأن يترفع عن كل منقصة، وألا يتحرك لسانه إلا بالخير، فإذا هفا عن

(1) [البقرة: 183].

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/38).

(3) المصدر السابق، ج6/38.

(4) المصدر نفسه، ج6/39.

غير عمد استغفر ربه... وفي هذا الشهر يجب أن يحاسب الإنسان نفسه عما قدم... نستطيع فيه أن نسمو فوق أنفسنا إذا أمعنا في تطهير قلوبنا ووجداننا من كل رجس وذنس"⁽¹⁾.

معاني جميلة ربطها هيكل بالصوم، وهي من لوازمه، معاني التجرد والتطهر والاستغفار والتوبة ومحاسبة النفس، هذه المعاني تسمو بها النفس الإنسانية، وتصفو من كل رجس وذنس، فالشهوات منضبطة، والنزوات محكومة، ولا مجال في الصوم إلا للحق والخير، علاقة قوية مع الله، وعلاقة طيبة بين الناس، استقرار نفسي، وانضباط خلقي وسلوكي، فالسعادة كل السعادة في الصيام.

وينتقل هيكل من الحديث عن عبادة الصوم إلى الحديث عن عبادة الحج حيث يقول: "وأنا أذكر حجة الوداع وحج أبي بكر بالناس في هذه المناسبة لما في هذين الحادثين الجليلين في تاريخ الإسلام من دلالة على حكمة الحج"⁽²⁾.

حج أبو بكر رضي الله عنه بالناس في السنة الثامنة للهجرة، وحج الرسول صلى الله عليه وسلم بالناس حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، ذكر هيكل هاتين الحجتين باحثاً عن حكمة الحج، فيقول: "للحج حكمة أسمى من أداء الشعائر بالطواف والسعي والوقوف بعرفة والنزول إلى منى... وإذا كان الناس لا يطالبون بأكثر من الشعائر... فأولياء الأمور... مطالبون بما هو أكبر من ذلك وأعظم، مطالبون بأن يعطوا المسلمين، ويبينوا لهم حقوقهم وواجباتهم، ويطالعوهم بشؤونهم وأحوالهم، حتى إذا عاد الحجاج من المسلمين إلى بلادهم أبلغوا أهلها ما أبلغ إليهم، وطلبوا منهم التعاون على نفاذه لخيرهم جميعاً، ولخير المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها"⁽³⁾.

يرى هيكل أن الحج عبارة عن مؤتمر عام يجتمع فيه المسلمون من أجل أمرين: الأول أداء فريضة الحج بكل شعائرها كاملة، والأمر الثاني ويتعلق بأولياء أمور المسلمين من الحكام والرؤساء والملوك، حيث إن على هؤلاء المهمة الكبرى في توجيه الناس والاهتمام بشؤونهم ورسم السياسة العامة للأمة الإسلامية، أما الحجاج فمهمتهم بعد أداء فريضة الحج العودة إلى ديارهم وتطبيق هذه السياسة بالتعاون مع الأهل والسكان ومع الذين يعيشون معهم في بلادهم.

يرى هيكل أنه من الضروري عقد مؤتمر إسلامي سنوي في موعد الحج ليتخذ قرارات في جميع المسائل المعروضة على بساط البحث... وقد لا يتيسر أن يتخذ كذلك كل عام قرارات في

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/71).

(2) المصدر السابق، ج6/59.

(3) المصدر نفسه، ج6/60-61.

جميع الشؤون التي تمس الدول الإسلامية، لكن الحكمة تقتضي أن تتخذ قرارات في المسائل التي يتطلع الرأي العام في البلاد الإسلامية إلى تقرير رأي فيها، فالقرارات التي تتخذ في هذه الشؤون إذا لقيت التأييد الصادق من هذا الرأي العام كان لها وزنها في الحياة الدولية⁽¹⁾.

أراد هيكل أن يكون للحج دور أساس في حياة الأمة الإسلامية خاصة، وفي الحياة الدولية عامة، حيث يتخذ في موسم الحج مجموعة من القرارات المهمة على حسب الأولوية والتي يتطلع إليها الرأي العام في البلاد الإسلامية وهي قابلة للتنفيذ والتحقيق، هذه القرارات سيكون لها وزنها في عملية تغيير أحوال الأمة، وسيكون للأمة بعد ذلك مكانتها ومنزلتها بين الأمم الأخرى.

وفي مقالة لهيكل بعنوان (أحرص على الموت توهب لك الحياة) يستعرض فيها رحلة التعب والزهد التي عاشها النبي ﷺ في سبيل إيصال دعوته، وإبلاغ رسالته، فكم من مرة تعرضت حياة النبي ﷺ للخطر، لكنه كان يمضي بكل ثقة ويقين بأن الله سينصره، وكان هيكل يعلق على كل موقف من مواقف النبي ﷺ يتخذ منه العبرة والعظة، فقد علق على الغزوات التي خاضها النبي ﷺ بنفسه، وتعرضت فيها حياته للخطر، حيث يقول: "واجه رسول الله ﷺ الموت في هذه الغزوات، وواجهه في كثير من المواقف، بل لقد كان حريصاً على مواجهته حتى لكأنما يريد أن يصارعه ويصرعه، ذلك بأنه كان يؤمن بأن للحياة الإنسانية غرضاً سامياً... خلقنا لنقر في العالم الحق ولنبلغ بالعالم الكمال"⁽²⁾، ويتساءل هيكل عن قيمة الحياة بدون غاية سامية "فما الحياة وما قيمتها إذا لم تكن غايتها فكرة سامية يراد تحقيقها، لتطل الحياة أو تقصر، لنكن فيها أغنياء أو لنكن فقراء، إن لها خاتمة ننتهي إليها جميعاً، وما يبقى لنا من الحياة عند هذه الخاتمة هو قيمة هذه الحياة"⁽³⁾.

يرى هيكل أنه لا بد أن يكون للإنسان في حياته غرض سام، وأن تكون خاتمته حسنة، وبهذين الأمرين تكتمل حياة الإنسان ويكون لها قيمة، ومن الأمور التي تساعد على تحقيق هذين الأمرين: الحرية والزهد، فالإنسان لا يستطيع أن يسمو إلى مكان الحق أو معرفته "إلا إذا بلغ هذه الحرية لعقله وقلبه وروحه ونفسه... هذه الحرية هي أعز شيء في الوجود، بل هي الحياة كلها، والوجود كله... أرايتم أيها السادة أن زهد رسول الله ﷺ في الحياة إنما كان زهداً في

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/62).

(2) المصدر السابق، ج6/19.

(3) المصدر نفسه، ج6/20.

هذه المظاهر الزائلة... كان يزهد في هذه المظاهر الزائلة ولا يعبأ بها حرصاً منه على الحياة الإنسانية الكاملة⁽¹⁾.

وفي مقالة أخرى لهيكل بعنوان (مصادر البعث العربي والإسلامي) يقول فيها: "لقد تركت هذه العصور الإسلامية الزاهرة تراثاً من الأدب ومن ثمرات الفكر جديرًا بأن نفخر به على الأجيال... ولكن المفارقة بهذا التراث لا تجدي وحدها.. إنما الجدوى والغناء في بعث هذا التراث، وفي إظهار ما كان له من أثر في حياة العالم في العصر الذي وضع فيه، ومما حدث على أثر ذلك من تقدم إنساني مستند إليه"⁽²⁾.

يمتلك المسلمون على مر عصورهم الماضية تراثاً ضخماً زاخراً، لكن تم إهماله للأسف ولم يجد من يبعثه ويستفيد منه من أبناء الأمة الإسلامية، وظل مجرد مصدر للمفاخرة، وهنا يستنهض هيكل الهمم للعودة إلى هذا التراث والاستفادة منه كما استفاد منه العالم الغربي من قبل فبنى على أنقاضه حضارته ونهضته.

ومن المقالات الدينية التي أثارت انتباه الباحث، وجعلته يقف مطولاً عندها، متعمقاً فيها، محللاً لها، مقالة لهيكل بعنوان (الإسلام والحضارة) لما فيها من الأفكار الجدلية التي تحتاج إلى مناقشة، فقد بدأ هيكل مقالته بالحديث عن مجلة (لايف) الأمريكية، وبين أنها "من كبريات الصحف الأسبوعية في العالم، ومن أعظمها أثراً في اتجاه الرأي العام الأمريكي، ولها أثرها كذلك في اتجاه الرأي العام العالمي"⁽³⁾.

هذا كلام مهم لمعرفة أهمية هذه المجلة، لكن الأهم ما نُشر فيها من مقالة عن الإسلام ونهضته في العالم الإسلامي، وقد سمتها المجلة -كما يقول هيكل- الصراع بين العقيدة الإسلامية والحضارة الغربية، يقول هيكل -كمدخل لموضوع هذه المقالة- أن المجلة "ذكرت أن أسس الفلسفة الإسلامية والحضارة الغربية واحدة، وأن بينهما مع ذلك فوارق أساسية يجب التوفيق بينها، وأن اتجاه العالم الإسلامي في الوقت الحاضر سيؤثر في تاريخ العالم، وأن ما لهذا الاتجاه من أثر يتوقف إلى حد كبير على ما للإسلام من قدرة في تكيف نفسه مع تطور الحياة"⁽⁴⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/21).

(2) المصدر السابق، ج6/46.

(3) المصدر نفسه، ج6/65.

(4) المصدر نفسه، ج6/65.

تعد هذه المقالة واحدة من المقالات المتسلسلة التي تكتب في هذه المجلة عن الإسلام، حيث يقوم بالكتابة كتاب غربيون، ويعلق هيكل على الفكرة السابقة التي أفادت أن للفلسفة الإسلامية والحضارة الغربية أساس واحد، وأن الفوارق بينهما بسيطة والتوفيق بينهما ليس مستحيلًا، وأن الإسلام يستطيع أن يؤثر في العالم إذا كَيَّف نفسه مع تطور الحياة، يقول هيكل: "إن في الإسلام -عقيدة وفلسفة- قدرة على التطور لم يجاره فيه أي دين آخر أو أي فلسفة أخرى في القرون الماضية، وأن الإسلام وفلسفته أكثر قدرة... على تيسير ما نسميه اليوم (التعايش السلمي) بين الشعوب والدول، وأنه كان قديرًا على ذلك فيما مضى لولا أن وقفت السياسة الغربية من الإسلام موقف خصومة"⁽¹⁾.

يرى هيكل أنه لدى الإسلام القدرة على التطور والتعايش السلمي، لكن الذي وقف في وجه هذا التعايش خصومة الغرب للإسلام، إذًا حُكِّم هيكل، الإسلام بريء، والغرب مدان، ورغم هذه الإدانة إلا أن هيكلًا لا يريد إثباتها "ولا حاجة بي في إثبات ذلك إلى أن أرجع إلى عهد الحروب الصليبية... قال غير واحد من المؤرخين أن الحروب الصليبية قد دفعت إليها اعتبارات سياسية، وأن الدين علالة لبعث الحماسة في نفوس المحاربين"⁽²⁾. ويمضي هيكل في إثبات الخصومة التي لا يريد أن يذكرها فيردد مقولات لبعض كتاب الغرب "والتي تعبر عن تفكير الغرب إزاء العالم الإسلامي... (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا)... (ما أخذ الصليب لا يسترده الهلال)... (الآن انتهت الحروب الصليبية)"⁽³⁾.

ورغم هذه الأدلة التي ساقها هيكل بنفسه على خصومة الغرب للإسلام؛ إلا أنه أصر على أنها "لم تكن تعبر عن عقيدة دينية أو تعصب لعقيدة دينية بقدر ما كانت تصور السياسة التي رسمها الغرب إزاء الشرق وإزاء الإسلام"⁽⁴⁾.

يعجب الباحث من موقف هيكل ومن مناقضته لنفسه، فتارة يقر بأن الغرب وقف من الإسلام موقف خصومة، وأن تصريحات قاداته تدل دلالة واضحة على هذه الخصومة، ورغم ذلك فأن هيكلًا يعد هذه الخصومة خصومة سياسية وليست دينية.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/65-66).

(2) المصدر السابق، ج6/66.

(3) المصدر نفسه، ج6/66.

(4) المصدر نفسه، ج6/66.

والسؤال: أليس الإسلام دين، والصليب رمز للدين المسيحي؟ أوليس -أيضاً- الهلال رمز للدين الإسلامي؟ ولماذا طلب الغرب من الإسلام أن يكيف نفسه مع تطور الحياة؟ أليس معنى هذا أن يتخلى الإسلام عن مبادئه وقيمه؟ أوليس هذا طعن فيه؟ ويزداد عجب الباحث عندما يتحدث هيكل عن الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية بهذا الأسلوب الذي يقول فيه: "أدى تسلط الدولة العثمانية على العالم العربي الإسلامي من شمال إفريقيا حتى شرق العراق إلى تدهور العالم الإسلامي، لأن الدولة العثمانية لم تكن عربية... نشأ عن ذلك أن فقدت الدول العربية ثقافتها بدولة الخلافة، وعجزت في الوقت نفسه عن مناهضة خطة الغرب ف وقعت في براثنه دولة بعد دولة... وأدى فقد الثقة بدولة الخلافة... إلى نهوض الدول العربية الإسلامية واحدة بعد أخرى تدافع عن نفسها وعن حريتها"⁽¹⁾.

هذا الكلام الذي صرح به هيكل فيه اتهام لدولة الخلافة الإسلامية بالتسلط على العالم العربي والإسلامي مما أدى إلى التدهور، ويرى أن سبب هذا التسلط أن دولة الخلافة دولة غير عربية، وهذا ما جعل الدول العربية أن تفقد الثقة بها، أزمة فقد الثقة هذه تزامنت مع خطة غربية لإخضاع الدول العربية للغرب، كذلك فإن فقد هذه الثقة جعلت الدول العربية الإسلامية تهض.

ويرى الباحث أن هذا الكلام ليس فيه منطق، لأن دولة الخلافة كانت تجمع ولا تفرق، وأن عدم عروبتها هو السبب في فقد الثقة بها، وأن الدول العربية بعد فقد الثقة خضعت للدول الغربية، أليست الثقة هي التي تمنعها من الخضوع؟ ثم كيف خضعت للدول الغربية ونهضت في الوقت نفسه؟.

ومن العجيب -أيضاً- وبعد مؤامرات الغرب على الشرق الإسلامي وتسلطه عليه ومحاولة إخضاعه له، وخصومته العلنية للإسلام، كيف يركز هيكل على فكرة التعايش السلمي مع الغرب، فقد ذكر الفكرة وكررها في هذه المقالة أربع مرات، فتارة يقر أن عقيدة الإسلام وفلسفته لها القدرة على تيسير التعايش السلمي، ومرة يؤكد على أن التاريخ الإسلامي فيه تعايش سلمي بين الأديان والشعوب، ثم يأتي لفكرة التعايش السلمي من زاوية العلم والحضارة، وأخيراً يربط التعايش السلمي بالثقة بين العالم الإسلامي والسياسة العالمية.

وفي نهاية المقالة يبحث هيكل عن إجابة السؤال الذي طرحته مجلة (لايف) الأمريكية: كيف يتم التوفيق بين الفلسفة الإسلامية والحضارة الغربية؟

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/66-67).

يرى هيكل أنه لا بد من زرع الثقة بينهما حتى يتم هذا التوافق، يقول هيكل في ذلك: "ولا حل لمشكلة الثقة إلا أن يدرك الناس جميعاً، والساسة في مقدمتهم أن التطور الذي فرضه العلم في هذا القرن العشرين يفرض علينا أن نلتمس الوسيلة التي تجعل من العالم كله وطناً لبني الإنسان جميعاً، وأن نعمل لجعل الحياة مستطاعة بسلام في هذا الوطن... ولا محيص لنا أن ندعن لهذا الغرض، وأن نقبل حكمه طائعين راضين بدل أن نُلزم به إلزاماً، ونقسر عليه قسراً"⁽¹⁾.

إن فكرة الثقة بين الشرق والغرب، وفكرة الوطن الواحد، وفكرة الإلزام بهذه الأفكار هي ما تسمى اليوم (العولمة)، هذا الأمر يجعل الباحث يتوقف عند أمرين:

الأول: فكرة العولمة فكرة قديمة لكنها طبقت حديثاً، وأنها فكرة غربية، فلولا أن هيكلًا درس في الغرب لما كان مقتنعاً بها، ومروجاً لها.

الثاني: هدف فكرة العولمة إخضاع العالم للنظام الجديد طوعاً أو كرهاً، ويبدو أن الغرب خططوا لهذه الفكرة مبكراً وجيشوا لها من يروجون لها.

من خلال دراسة وتحليل مقالات هيكل الدينية رأى الباحث أن يسجل الملاحظات التالية:

1- جاءت مقالات هيكل الدينية قليلة بالقياس على أنواع مقالاته الأخرى، وقد كتبها في المناسبات الدينية خاصة المولد النبوي، وهذا يدل على أن المقالة الدينية لم تأخذ الأولوية عنده، وربما يعود سبب ذلك إلى تركيزه في كتابة هذا النوع في الكتب وليس في المقالات.

2- المقالة الدينية عند هيكل تميل إلى السيرة النبوية أو إلى موضوعات عامة أكثر من ميلها إلى العقيدة والتفسير والحديث والفقهاء، وكان يربط هذه المقالات بفلسفته الخاصة ونظريته للحياة والواقع.

3- تحدث هيكل عن الحكمة من ركني الصيام والحج فقط، ولم يتحدث عن بقية أركان الإسلام.

4- كشفت مقالات هيكل الدينية عن سطحية ثقافته الدينية، وتواضع تعمقه في المصادر والمراجع الإسلامية، وعدم تبنيه فكر علماء السلف الصالح.

5- لم يتأثر هيكل في مقالاته الدينية بأسلوب القرآن الكريم على عكس ما جاء في كتابه (في منزل الوحي) ولم تحتو هذه المقالات على قصص للعبارة أو للتشويق.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/69).

6- ركز هيكل في مقالاته الدينية على معانٍ جديدةٍ عصريةٍ قريبة من فكر الغرب مثل:
الإنسانية والحرية والتراث والحضارة.

الفصل الثاني

دراسة بناء المقالة عند هيكل

الفصل الثاني

بناء المقالة عند هيكل

من المعلوم أن المقالة فن نثري مكتوب، يعبر فيها كاتبها عن فكرة جالت في خاطره، أو موضوع ذي أهمية يمس حياة الناس، ويتبنى همومهم، أو قضية ملحة تحتاج إلى دراسة وحل، وحول ذلك يطوف كاتب المقالة باذلاً جهده، منعماً نظره، مبدياً رأيه، للوصول في نهاية مقالته إلى نتيجة فيها فائدة ونفع.

والمقالات ليست على مستوى واحد في نفوس الناس من حيث القيمة والقدرة، فحكم الناس على المقالة الواحدة متفاوت، لكن الذي يزيد من إعجاب الناس بالمقالة، حيوية أفكارها، وتنوع موضوعاتها، وما تتميز به من الجدة والابتكار والواقعية، فالقارئ عندما يقرأ المقالة يعرضها على عقله أولاً، ثم على قلبه ثانياً، ثم على جوارحه للتفاعل معها، فكلما وجد القارئ في نفسه رضا عنها، وقناعة بها، زادت نسبة قبوله لها.

والمقالة الجادة المقبولة هي التي تتناول الأحداث بالتحليل، واتخاذ المواقف الواضحة اتجاهها، فهي مرآة لأخلاق وسلوكيات صاحبها، فبقدر ما يملك كاتبها من أدوات إقناع، وأسلوب مؤثر جاذب، تحصد المقالة الإعجاب والرضا والقبول.

والحديث عن بنية المقالة، يمكن تقسيمها من حيث بنيتها وقالها الفني إلى ثلاثة أنواع: الموضوعية والذاتية والموضوعية الذاتية، والمتأمل في هذه الأقسام يجد فيها قواسم مشتركة، وفي الوقت نفسه يجد التباين والاختلاف، فعلى سبيل الخصائص المشتركة بينها أنها جميعاً ذات مقدمات تناسب طبيعة المقالة، وأنها تتميز في أسلوبها بالسهولة والوضوح، وأنها تخلو من المبالغة وعدم المصادقية، وأنها تبتعد عن الكلام المعسول المتكلف، وأن عباراتها سلسلة، وألفاظها معبرة، وأفكارها مرتبة متماسكة، أما مساحات التباين فيما بينها، فستظهر بعد تناولها بشيء من التفصيل، ومن خلال عرضها على المعايير العلمية والمنطقية التي تفصل بينها.

والمتأمل في مقالات هيكل يجد أنها قد شملت هذه الأنواع الثلاثة، لكن هناك اختلاف في نسبة تناول كل نوع منها، فقد قام الباحث بتصنيف هذه المقالات بعد أن قرأها وتعرف على محتواها والأسلوب الذي كتبت به، ومن ثم بين خصائص كل منها، وسيقوم الباحث بإذن الله باستعراض أجزاء منها كنماذج وشواهد تدعم ما يذهب إليه في حكمه عليها من حيث نوعها وأسلوبها وما يتعلق بها.

البناء الذاتي:

البناء الذاتي تجربة عقلية كما أنها تجربة وجدانية في الوقت نفسه، هذه التجربة خاض غمارها كاتب المقالة، فأراد أن يعبر عنها بأسلوبه، وأن يخرجها إلى النور بقلمه.

وكاتب المقالة ذات البناء الذاتي يستند أثناء كتابته للمقالة إلى ركائز فنية متينة، تستهوي النفس، فهو يستخدم الأسلوب الأدبي الذي يثير الانفعال ويُجيش العاطفة، فيشعر القارئ بصدى هذه التجربة في عمق نفسه وتفاعل روحه.

لقد جمع هيكل الكاتب في مقالاته بين الصحافة والأدب والنقد، كما أنه تميز بأسلوبه الأدبي، والمتأمل في مقالاته يجد ميله الواضح إلى الموضوعات الأدبية، لكنه كان حريصاً في مقالاته على أن ينقل تجاربه الذاتية التي خاضها في بلاده وفي بلاد العرب والغرب، ولسعة اطلاعه ولتنوع ثقافته، وانفتاحه على الحضارات الأخرى استطاع هيكل أن يبني شخصيته الواعية ذات الخبرة، هذا كله ساعده في كتابة مقالاته خاصة الذاتية منها.

والحديث عن مقالات هيكل ذات البناء الذاتي وطبيعتها وموضوعاتها وأسلوبها وخصائصها، وما توحى به من ملامح لشخصية هيكل، يمكن التعرف على ذلك من خلال العرض التالي:

أولاً- طبيعة المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل:

كثيراً ما كان هيكل يميل إلى كتابة المقالة ذات البناء الذاتي، فقد كتب في هذا النوع من المقالة ما يقرب من ستين مقالة أو يزيد، تناول خلالها موضوعات مختلفة منها ما يتعلق بذكرياته ومنها ما له علاقة بقراءاته، وبعضها سجل فيها خواطره وانطباعاته، وأخرى كان فيها نصيب لذوقه وإعجابه، ولزياراته ومغامراته.

ومن المقالات ذات البناء الذاتي التي تناول فيها هيكل ذكرياته في الماضي، مقالات لها علاقة بنشأته الأولى في الريف، فقد كتب مقالة بعنوان (صور من الريف)، تساءل فيها: "كيف يجني الزمن على ذكرى الريف في نفس ابن الريف؟... هي ذكرى صادقة خالدة، لأنها صورة هذه الحياة الريفية الخالدة والصادقة في بساطتها، وفيما تجلوه أمامنا من ألوان تتجدد على الزمن، فلا سلطان للزمن عليها، أليست هي ذكرى الطبيعة البارعة..."⁽¹⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/251-252).

ثم يمضي هيكل في مقاله متحدثاً عن أثر الريف في نفسه وفي نفوس الناس والمخلوقات جميعاً، هذه المقالة تدل على اعتزاز هيكل بأنه ابن الريف، وأنه يحن إليه دائماً رغم أنه ترك الإقامة فيه، كما أنه يرى أن الحياة الطبيعية الحقيقية التي تخلو من الكدر والتعقيدات هي في الريف، لأن أهل الريف يتميزون بالفطرة السليمة، وكرم الطبع، ونبيل العادات والتقاليد، علاوة على جمال الطبيعة في الريف الذي يبعث على الهدوء والسكينة.

كما أن للريف في نفس هيكل أثراً إيجابياً، وذكريات تبعث في روحه السعادة، فإنه يذكر -أيضاً- في مقالة أخرى له بعنوان (من ذكرياتي الصحفية) ما أصابه من ألم وحن، حيث يقول: "ولما توليت رئاسة التحرير وأصبحت صحفياً محترفاً عملت بكل قوتي للدفاع عن فكرة آمنت بها، هذه الفكرة هي الحرية للفرد، والحرية للجماعة، والحرية للأمة... وأعرق ذكرى باقية في نفسي كانت من آثار هذا الدفاع عن الدستور والحرية، كان ذلك يوم 17 نوفمبر 1922م⁽¹⁾. ويفصل هيكل القول حول هذه الذكرى الباقية آثارها في نفسه، فيذكر أنه عندما كان في مكتبه في ذلك اليوم يمارس عمله الصحفي إذ به يسمع طلقات نارية، وبعد أن خرج ليتبين الأمر فإذا به يتفاجأ بأنها عملية اغتيال لعضوين من مجلس إدارة حزبه وهما حسن باشا عبد الرازق، وإسماعيل بك زهدي.

وعن أثر هذه الحادثة في نفسه يتحدث هيكل قائلاً: "هذه ذكريات لا تبرح خيالي قط، وكيف تبرح ناظري صورة زهدي ممدداً في غرفتي ونحن من حوله... ولن تبرح ذاكرتي كلماته الأخيرة، ولا المشهد (المهوب) الرهيب الذي سار يودع حسن باشا عبد الرازق إلى مقره الأخير"⁽²⁾.

هذه الذكريات الأليمة التي باتت محفورة في ذاكرته لا تغادره، بل تجعله دائماً في حالة حزن وغم كلما تذكرها، هذا دليل على وفائه لزملائه، وإيمانه الشديد بفكرته، فهو رغم الألم والتحديات إلا أنه واصل طريقه الصحفي مما يوحي بقوة شخصيته التي بقيت ثابتة محتسبة لا تعباً بالمحن ولم تهتز من المخاطر التي قد تلحق بها.

هذه ذكريات هيكل بطلوها ومرها في مصر موطنه الأصلي، أما ذكرياته في بلاد الغرب فهي كثيرة، وقبل الدخول إلى هذه الذكريات يسجل هيكل ملاحظة حولها فيقول: "تثير الحوادث

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/102).

(2) المصدر السابق، ج6/103.

في الذهن ذكريات يكاد الإنسان ينساها لولا هذه الإثارة... رأيت أن أسجلها لما في بعضها من فكاهاة وفي البعض من عبرة"⁽¹⁾.

يرى هيكل أن ما تتركه الحوادث في النفس من آثار هو الذي يثبتها في الذاكرة، وأن هذه الذكريات فيها عبرة كما فيها طرافة، لكنه لم ينسَ اللحظات الجميلة التي استرعت انتباهه، وحفرت في ذاكرته، يصور هيكل إحدى هذه اللحظات وهو في بلاد الغرب "وأذكر كذلك مساء يوم كنت في جنيف، وكنت قد ركبت الباخرة التي تدور في أرجاء بحيرة (ليمان) إذ استوقف القمر الذي يتسلق الجبال المحيطة بالبحيرة ناظري... كم كنت سعيدًا بمنظر هذا القمر يومئذ!"⁽²⁾.

إلى جانب هذه الذكريات الجميلة في تلك البلاد، ذكر هيكل في مقالاته العديد من لقاءاته مع مسئولين غربيين، لكن الباحث لم ير أهمية كبيرة لهذه اللقاءات لا سيما أنها لقاءات سياسية لا يظهر من خلالها أي أهداف واضحة، لكن يبدو أن هيكلًا أراد تدوينها فقط في مذكراته.

وللباحث بعض الملاحظات على ذكريات هيكل التي ذكرها في مقالاته ذات البناء الذاتي وهي أنه كان حريصًا على ذكر المكان والزمان التي حدثت فيه، وأن منها ما كان في مصر والبلاد العربية مثل فلسطين ولبنان وسوريا ومنها ما كان في بلاد الغرب، وأكثرها كان في فرنسا، هذه الذكريات تثير أحيانًا الإعجاب وتحدث الإمتاع، لكنها في أحيان أخرى يشعر القارئ أنها تدور في فلك ليس فيه شيء من ذلك، وهدفه منها إبراز علاقته الشخصية مع مستويات رفيعة من السياسيين الغربيين، كما يلاحظ الباحث أن إعجاب هيكل ببلاد الغرب وتعلقه بها أشد من إعجابه ببلاد العرب وتعلقه بها.

ثانيًا - موضوعات المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل:

المتأمل في موضوعات المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل يكاد يجزم أن هيكلًا حاول طرق جميع الأبواب، بمعنى أنه كتب في موضوعات مختلفة وعديدة منها ما مس الحياة المصرية خاصة في الريف، ومنها ما له علاقة بالأدب والنقد والصحافة والتاريخ والفن والقومية والثورة والسياسة والإنسانية والمرأة والعروبة والإسلام، لكن أكثر الموضوعات حظًا في الكتابة الأدب والفن، لذلك اجتهد الباحث أن يتحدث عن بعض الموضوعات الخاصة بالأدب والفن في مقالات هيكل ذات البناء الذاتي.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/95).

(2) المصدر السابق، ج6/261.

ففي مجال الأدب كتب هيكل مقالات تتعلق بالشعراء الكبار كالمتنبي مثل: (طه حسين مع المتنبي)⁽¹⁾ و(سر الاحتفال بالمتنبي)⁽²⁾، ومنها بيان ما له علاقة بالأدب مثل: (بين الأدب والصحافة)⁽³⁾ و(صلة الأدب بالقانون)⁽⁴⁾، ومنها ما هو متعلق باتجاهات الأدب مثل: (القديم والحديث، القدامى والمحدثون)⁽⁵⁾ و(الاتجاه في الأدب العربي الحديث)⁽⁶⁾، ومنها ما هو متعلق بفنون الأدب مثل: (أدب القصة)⁽⁷⁾ و(الكتابة والأدب)⁽⁸⁾، ومنها ما متعلق بظاهرة مثل: (الربيع والأدب)⁽⁹⁾، أو ما هو متعلق بحاجة مثل: (أدبنا الحديث لا يسد حاجة العصر)⁽¹⁰⁾.

ومما لاحظته الباحث على موضوعات الأدب في المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل أنها عامة ومتنوعة وتتناول جانبًا مهمًا في نظر هيكل له علاقة باهتمامات عصره، فبعض هذه الموضوعات يعد مشاركة فاعلة من هيكل مع ما هو مطروح كالموضوعين الخاصين بالمتنبي، ومنها ما هو متعلق بشخص هيكل كرجل قانون أو صحفي أو ناقد أو أديب، كما أنه يلاحظ على هذه الموضوعات أنها اهتمت بالشعر والنثر معًا، وكذلك بتقديم الأدب وحديثه.

أما في مجال الفن فقد كتب هيكل مقالات عن الفن في مصر مثل: (الفن في مصر)⁽¹¹⁾ و(المرأة المصرية والفن)⁽¹²⁾، ومقالات عن رجال الفن مثل: (أرباب الفن)⁽¹³⁾ و(إحياء ذكرى رجال الفن)⁽¹⁴⁾، وتحدث عن تاريخ الفن مثل: (الفنون الجميلة عند العرب والمسلمين)⁽¹⁵⁾،

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/309-323).

(2) المصدر السابق، ج2/285-290.

(3) المصدر نفسه، ج2/137-142.

(4) المصدر نفسه، ج2/273-278.

(5) المصدر نفسه، ج2/337-341.

(6) المصدر نفسه، ج2/345-348.

(7) المصدر نفسه، ج2/383-386.

(8) المصدر نفسه، ج2/279-283.

(9) المصدر نفسه، ج2/297-301.

(10) المصدر نفسه، ج2/291-295.

(11) المصدر نفسه، ج2/435-438.

(12) المصدر نفسه، ج2/449-459.

(13) المصدر نفسه، ج2/427-433.

(14) المصدر نفسه، ج2/439-443.

(15) المصدر نفسه، ج6/55-58.

وعن ذوق الفن وجماله مثل: (ذوق الجمال وتعهده في نفوس الناشئة)⁽¹⁾ و(الفنون الرفيعة)⁽²⁾ و(تهذيب المواهب)⁽³⁾، ومن خلال اطلاع الباحث على هذه الموضوعات وموضوعات أخرى تناولت الفن، فإنه يلاحظ أن هيكلًا تذوق الفن العربي عامة والفن المصري خاصة، وأكثر تركيزه في هذه الموضوعات كان على الفن المصري، كذلك كان هيكل يتذوق الفن الغربي، لكن لكل من تذوق الفن العربي والفن الغربي عنده طعم خاص وميزة ينفرد فيها كل منهما عن الآخر.

وعودة إلى موضوعات المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل بشكل عام، فإن الباحث يلمس فيها الحيوية والأهمية، ويعتقد الباحث أنها تستهوي من يقرأها، وأن منها ما يستأثر بلب قارئها لدرجة الإعجاب، كما يلاحظ أن هذه الموضوعات تمس الحياة بشكل مباشر، فالإنسان بحاجة إلى الأدب والفن والصحافة والقانون والقيم الاجتماعية والجمال والمواهب والتعاون والسياسة والحضارة والتعليم والإنسانية والفكر والمغامرة والحرية والتاريخ والعلم والعاطفة... الخ.

ثالثًا - عناصر المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل:

كان هيكل يبدأ هذه المقالات بمقدمات مختلفة، لكن يوجد تشابه في بعض هذه المقدمات، فعلى سبيل المثال بدأ مقدمة مقالاته بسؤال كما في مقالته (الشك)⁽⁴⁾ (أدبنا الحديث لا يسد حاجات العصر)⁽⁵⁾ وبدأها بجملة فيها إثارة ونوع من الفلسفة كما في مقالته: (بين الأدب والصحافة)⁽⁶⁾ (فن الشجاعة)⁽⁷⁾، وبدأها بذكر سبب نشر المقال كما في مقالته: (صلة الأدب بالقانون)⁽⁸⁾ و(سبيلنا إلى الاستقرار)⁽⁹⁾، وبدأها بمقولة متداولة بين الناس أو لأحد الأعلام كما في مقالته: (الربيع والأدب)⁽¹⁰⁾ و(مجد تكوّن)⁽¹¹⁾، وبدأها بحكاية بسيطة كما في مقالته:

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/419-426).

(2) المصدر السابق، ج2/467-470.

(3) المصدر نفسه، ج2/445-447.

(4) المصدر نفسه، ج2/123.

(5) المصدر نفسه، ج2/291.

(6) المصدر نفسه، ج2/137.

(7) المصدر نفسه، ج5/325.

(8) المصدر نفسه، ج2/273.

(9) المصدر نفسه، ج5/155.

(10) المصدر نفسه، ج2/297.

(11) المصدر نفسه، ج6/151.

(الأمل والمثل الأعلى)⁽¹⁾ و(في بيت لحم، كنيسة المهد ومغارة الحليب)⁽²⁾، وبدأها بتوجيه الخطاب إلى فرد أو جماعة كما في مقالته: (صور من الريف)⁽³⁾ و(في أوقات الفراغ)⁽⁴⁾ و(أحرص على الموت توهب لك الحياة)⁽⁵⁾.

وبدأها بذكر التاريخ كما في مقالته: (عدلي يكن باشا)⁽⁶⁾ و(مغامرات في الهواء)⁽⁷⁾ ومنها ما بدأها بالاقتباس من القرآن الكريم كما في مقالته: (في بيت لحم)⁽⁸⁾ ومنها ما بدأها بأسلوب التعجب كما في مقالته: (سعد زغول باشا، مآثم الوطن)⁽⁹⁾ ومنها ما بدأها بمقدمة كمقدمة القصة القصيرة كما في مقاله: (محمد محمود باشا)⁽¹⁰⁾ ومنها ما بدأها بذكر اسم كتاب من التراث كما في مقالته: (الفنون الجميلة عند العرب والمسلمين)⁽¹¹⁾ ومنها ما بدأها بالحوار كما في مقالته: (العهد البائد)⁽¹²⁾ ومنها ما بدأها بالتعبير عن المشاعر ونقل الأحاسيس كما في مقالته: (خواطر في دار الأوبرا)⁽¹³⁾.

وجد الباحث من خلال استعراضه لمقدمات مقالات هيكل ذات البناء الذاتي أنه لم يسر فيها على قالب واحد، ولم يلتزم بديباجة محددة، بل أطلق لنفسه الحرية في الدخول إلى الموضوع والتمهيد له، كما يلاحظ الباحث أن هذه المقدمات جاءت بشكل عفوي بعيداً عن التكلف، وأنه كان يربطها بمضمون المقالة رابط قوي، ويمكن القول بأن هيكل استطاع أن يمهد لمقالاته هذه بشكل جيد ومناسب.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/393).

(2) المصدر السابق، ج5/29.

(3) المصدر نفسه، ج1/251.

(4) المصدر نفسه، ج1/279.

(5) المصدر نفسه، ج6/17.

(6) المصدر نفسه، ج5/357.

(7) المصدر نفسه، ج6/91.

(8) المصدر نفسه، ج5/23.

(9) المصدر نفسه، ج5/345.

(10) المصدر نفسه، ج5/363.

(11) المصدر نفسه، ج6/55.

(12) المصدر نفسه، ج6/85.

(13) المصدر نفسه، ج2/95.

أما عن عرض هيكل لأفكاره في هذا النوع من المقالة فيبدو أنه بذل جهدًا يستحق التقدير، فقد حاول تجلية الموضوع حيث ألبسه حلة أنيقة من جمال الأسلوب، وروعة العبارات، وحسن اختيار الألفاظ، فعندما تحدث عن الريف المصري، حاول أن يجسد فيه "الطبيعة الباردة التي ألهمت الموسيقي موسيقاه بحفيف شجرها، وغناء طيرها، وترانيم أبنائها بما تنتفس عنه عواطفه البريئة الساذجة، والتي ألهمت المصور صورته بأشجارها الباسقة ونباتها الينع، وجداولها وغدرانها"⁽¹⁾.

وتبدو قوة التعبير ودقته جلية خلال عرض هيكل لأفكاره، فقد أعلن في تصريح جريء، ونقد لاذع أن دار الأوبرا المصرية تخدم الأجانب ولا تخدم المصريين حيث قال بهذا الشأن: "ها نحن من سنوات لا نسمع في دار الأوبرا المصرية غير الغناء الإيطالي، والموسيقى الأوروبية، وها هي كثير من مقاعد الأوبرا مما حولي خالي، وكثرة الحضور من الأجانب عن مصر، وما نحسب الأوبرا أنشئت يوم أنشئت من أموال المصريين ويعرق جبينهم، ليستمتع بها الأجانب النازلون مصر، ويحرم المصريون منها خلا بضع مئات لا يجد أكثرهم اللذة الحقيقية في الذهاب إليها"⁽²⁾.

ومساهمة من هيكل في حل مشاكل مجتمعه، وتبني قضايا أمته، فقد عرض هيكل أفكارًا لمقاومة خطر التبشير على أبناء المسلمين، فقد حاول أن يتحمل المسؤولية اتجاه الدفاع عن دينه وبشارك في إزالة هذا الخطر، فجال بخاطره أن يكتب كتابًا في السيرة النبوية عن حياة النبي ﷺ بأسلوب جديد يكون أقرب إلى الإقناع والإفهام، وذلك بعد أن رأى "حملات الصحف عن المبشرين لا تكفي وحدها للقضاء على حركتهم، ورأيت أن أحدًا لم يتقدم لمنازلتهم من الطريق الناجع المثمر، طريق بيان عظمة الإسلام وجلال الحق فيه، وجمال الدعوة التي يدعو إليها... نكتب سيرة صاحب الرسالة على نحو يتفق والوسيلة العلمية التي ينشأ أبنائنا عليها، حتى إذا قرأوا هذه السيرة أدركوا عظمة النبي ﷺ وعظمة رسالته"⁽³⁾.

ويلاحظ على هيكل أثناء عرضه للأفكار أنه يحاول نقل تجربته الذاتية للقارئ ليستفيد منها، فهو كإنسان واجه متاعب الحياة وتحدياتها كغيره من البشر، وتجاوز الصعوبات والألم بكل شجاعة وبسالة، هدفه من ذلك زرع الأمل ونشر التفاؤل بين جمهوره القراء، وهذا إن دل فإنما يدل على وعيه الكامل لدوره القيادي، فالقائد الناجح لا يعرف الانكسار، ولا يقر بالهزيمة

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/252).

(2) المصدر السابق، ج2/96.

(3) المصدر نفسه، ج2/238.

أمام من يقودهم، حفاظاً منه على معنوياتهم، وتحصيناً لهم من الانهيار النفسي، يقول بهذا الصدد: "أقول هذا عن تجربة وبقين، فقد واجهتني في الحياة صدمات كثيرة، وبعضها بالغ غاية العنف، وقد كدت أنهزم أمام بعضها وأفقد أعصابي، وسرعان ما تبينت أن الهزيمة وانهيار الأعصاب يوشكان أن يقضيا على كياني، فأما حين صابرت وواجهت الصدمات بعزم وثقة بالله فقد مرت هذه الصدمات كما يمر اليوم الحار المرهق الحرارة يعقبه نسيم رقيق"⁽¹⁾.

وبعد نقل تجربته الذاتية المبنية على الثقة بالله ثم بنفسه يحاول هيكل أن يضع عناصر أخرى جديدة تدعم مواقفه وتجاربه السابقة، وهذا يدل على حرصه الدائم على تطوير ذاته وتنمية قدراته، وفي الوقت نفسه إكساب غيره كل جديد حيث يقول: "ولا شيء يعاوننا على الصبر وعلى الثقة بالنفس كالعامل والإكباب عليه والاندماج فيه... واحترام الذات عنصر من عناصر الشجاعة لا يقل قدرًا عن الثقة بالله، وعن الثقة بالنفس... هو إحساس داخلي يحميننا من الضعف ومن الدنيايا ومن كل ما لا يرضاه الخلق الكريم"⁽²⁾.

ومن شدة حرص هيكل على قبول تجربته الذاتية عند قرائه، فإنه كان يعمد إلى سَوق قصص واقعية شيقة تحمل رسائل فيها فائدة ونفع لمن يقرأها، يقول هيكل: "وأذكر صديقاً كان له ولدان، وكانا كل رجائه في الحياة، وأصابه القدر يوماً في أحدهما، ورأيت زوجه الأسكتلندية بعد ذلك بأشهر في لندن، ولم تلبس سواداً، وجاء ذكر مصابها ومصاب زوجها عرضاً فقالت: لقد أنجبنا نحن هذا الولد الذي مات، ولا نزال قادرين على أن ننجب غيره، وفي خلال العام الذي كان فيه مصابهما أنجبا ولداً آخر هو اليوم بين ذوي المكانة من الشبان"⁽³⁾. لقد حملت هذه القصة معاني كثيرة أهمها أنه لا بد للإنسان أن يصبر على قدر الله وألا ييأس، وأن يكون ذا ثقة بأن الله سيعوض صبره على مصابه خيراً.

ما ذكر سابقاً جاء في مقالة لهيكل بعنوان (فن الشجاعة)، ويقف الباحث عند هذه المقالة على ملاحظتين: الأولى تسمية عنوان المقال بفن الشجاعة، وكأن هيكل يريد لمن يقرأ هذه المقالة أن يدرك أن الشجاعة فن لا يقل أهمية عن فن القتال مثلاً، فهو يحتاج إلى تعلم مهارات خاصة حتى يتقنه الإنسان، ويحاول هيكل أن يستعرض هذه المهارات من خلال أفكاره المتسلسلة، أما الملاحظة الثانية، فأن هيكل قد تمكن في هذه المقالة من تحقيق التناسق بين أفكاره وترابطها وتماسكها وتكاملها، وهذا دليل على إجادة هيكل لفن كتابة المقالة.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/329).

(2) المصدر السابق، ج5/329.

(3) المصدر نفسه، ج5/328.

رابعًا - خصائص المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل:

نظرًا لسعة تجارب هيكل الإنسانية، وامتداد خبراته العملية، وتنوع ثقافته فقد جمع بين الثقافة العربية والغربية، حيث احتوت مقالات هيكل الذاتية على موضوعات مختلفة، وغطت مجالات متعددة، وهو -في الوقت ذاته- عندما كتب تلك المقالات لم يكتبها في زمن واحد، ولا مكان واحد، ولا ظروف واحدة، لذلك فلا عجب عندما يلاحظ من ينعم النظر في هذه المقالات أنها ليست على مستوى واحد من حيث قوة الأسلوب، أو عمق الفكرة، أو غزارة المعنى، فالتباين واضح في هذه المقالات، وهذا دليل على تدرجه في عملية إجادة الكتابة، وأنه كان حريصًا على الارتقاء الدائم، فالوصول إلى درجة الإتقان في الكتابة لا يأتي بين عشية وضحاها، وإنما يتحقق بعد اطلاع واسع ومستمر، ومتابعة فاعلة، والاستفادة من خبرات الآخرين.

ولو استعرضنا مقاليتين لهيكل دارتا في فلك واحد من حيث الموضوع فصل بينهما فارق زمني كبير لوجدنا هذا التباين، فعلى سبيل المثال: كتب هيكل مقالة بعنوان (الفنون الرفيعة وأثرها في حياة شرقنا العربي)⁽¹⁾ في نوفمبر 1933م ونشر في مجلة الهلال تحدث فيه عن واقع الفن ومفهومه في الشرق العربي في تلك الأيام، فذكر أن الفن الجميل تأثر بما أصاب الشرق من هوان سياسي وانحلال اجتماعي حتى كاد أن يصبح بكاءً كله، هذا البكاء وهذه النغمة المحزونة كانت تستهوي الجماهير في الشرق استهواء يجعلها تهرع إلى سماعها وتطرب أشد الطرب لها.

ويضيف هيكل على أن تقدير الفن ونجاحه في ذلك الزمن كان رهناً لحكم الجماهير عليه حكمًا يدر المال على صاحبه، ولم يبقَ رهناً بنقد الناقدين ذوي العلم والمعرفة في الفن، وعلاجًا لحالة الفن يقترح هيكل تجاوز الدموع والشجون إلى التماس المثل الأعلى لإرجاع الحياة إلى الفن وذلك من خلال الدعوة إليه بقوة وحرارة، والمثل الأعلى المنشود في الفن يكون بالارتقاء به ورفع مستواه بدلًا من الهبوط به لإجابة رغائب الجمهور وشهواته.

أما المقالة الأخرى التي كتبه هيكل بالمعنى ذاته فجاءت بعنوان (الفن والحياة)⁽²⁾، وقد كتبها هيكل قبل وفاته بأيام (أي في عام 1956م) ولم تُنشر إلا في مجلة الثقافة، العدد 100، ديسمبر 1981م، وقد تحدث فيها هيكل عن الخالدين الذين وهبوا أنفسهم للفن الرفيع حيث نأوا بأنفسهم عن النزول إلى الجمهور سمواً بفنهم.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/467).

(2) المصدر السابق، ج2/389.

لقد قسم هيكل الفن في هذه المقالة إلى قسمين: فن شعبي وفن رفيع، فذكر أن من مميزات الفن الشعبي التكرار والمبالغة في المرح أو الترح، لكنه سريع إلى التغيير مع الأجيال مما يجعل بقاءه وخلوده غير يسير لأنه لا يستند إلى قواعد ثابتة، فهو يعبر عن مشاعر متغيرة حسب حظ الجمهور من الثقافة العقلية أو العاطفية.

وتحدث هيكل عن الفن الرفيع، وذكر أن الوصول إليه صعب المنال لا يتحقق بين عشية وضحاها، وإنما يحتاج إلى موهبة ودراسة دقيقة وتجارب شخصية، وبلوغ المراتب العليا من الفن يحتاج -أيضاً- إلى أعوام.

وعن أثر الفن الرفيع في نفوس الجماهير ذكر هيكل أنه يحمل رسالة عميقة الأثر في حياة المجتمع كله، ربما لا يصل هذا الأثر إلى السمو في تقدير هذا الفن لكنه على الأقل يهذب ويؤثر في ذوي النفوس الحساسة وإن لم يكونوا مثقفين.

وعن مزايا الفن الرفيع أوضح هيكل أنه يصل بين الأجيال بعضها ببعض، ويمهد لوحدة الإنسانية وللتفاهم والتعايش السلمي في جو ممتع بجمال الحياة والكون.

بعد هذا العرض لما جاء في المقالتين السابقتين الذي يفصل بينهما زمن طويل يقدر بثلاثة وعشرين عاماً، يرى الباحث أنه يمكن استخلاص التباين بين هاتين المقالتين من خلال التالي:

1- وصف هيكل واقع الفن ومفهومه في هاتين المقالتين في فترتين زمنييتين مختلفتين، الفترة الأولى اتسمت بالضعف لثلاثة أسباب: الأول أن هذا الفن كان متأثراً بالأوضاع السياسية والاجتماعية السيئة، والثاني أنه كان خاضعاً لرغبة الجماهير وليس لحكم النقاد، والسبب الثالث أن الفن في تلك الفترة لم يحمل رسالة سامية، وإنما كان هدفة مادياً بحثاً.

2- إن حالة الضعف هذه التي أصيب بها الفن استدعت هيكل أن يفكر في وضع علاج لها وهو الارتقاء بهذا الفن ورفع مستواه.

3- أما الفترة الزمنية الثانية كما جاءت في المقالة الثانية فقد اتسمت بالتفريق بين نوعين من الفن: الفن الشعبي والفن الرفيع، والفن الشعبي هو الذي يلبي رغبات الناس، فأقبالهم عليه شديد فتراهم يستخدمونه في أفراحهم وأتراحهم، وهو متغير بتغير الأجيال فلا تحكمه قواعد ثابتة، وهو لا يحتاج إلى مزيد من الموهبة والتجربة.

4- أما الفن الرفيع فهو الفن الخالد وهو أسمى منزلة وأكبر قدرًا وأكثر أثرًا في نفوس الناس لأنه يحمل رسائل سامية عميقة، وهو فن إنساني يدعو إلى التفاهم والتعايش السلمي بين البشر من خلال التمتع بجمال الكون والحياة.

ولتحديد التباين في مفهوم الفن وواقعه عند هيكل خلال فترتين زمنييتين من حياته، فقد سجل الباحث الملاحظات التالية:

1- أطلق هيكل في المقالة الأولى على الفن الذي يريده الفن الجميل، وفي المقالة الثانية سماه الفن الرفيع، ربما يعود سبب تغيير الاسم إلى أن الفن الرفيع أكثر عمقًا في المفهوم وأدق في المعنى والدلالة من الفن الجميل في نفس هيكل.

2- في المقالة الأولى وصف هيكل لحالة الفن المتردية علاجًا عامًا ليس فيه تفصيل، ولم يكن بالمستوى المطلوب، بالمقابل نجد هذا العلاج في المقالة الثانية أكثر وضوحًا وتفصيلًا، وهذا يدل على مدى توسع إدراك هيكل خلال الفترة الزمنية التي تفصل بين المقالتين.

3- للخروج من حالة الجمود تجاه الفن رأى هيكل أن في الفن سعة تستوعب جميع الناس، فللفن الشعبي جمهوره، وللفن الرفيع جمهوره، والذي يحكم ذلك ويحدده مستوى الفن ومستوى الجمهور.

4- ارتقى هيكل بمفهوم الفن، فبعد أن وصفه بالجمال ولم يبين له هدفًا واضحًا في المقالة الأولى، ذكره في المقالة الثانية بأنه رفيع في مستواه، خالد في معناه، لأنه يحمل رسالة سامية تهذب نفس الإنسان، وتمتع بروحه، وتبني شخصيته، وترفع معنوياته، وترسخ هويته الوطنية، ويحمل -أيضًا- رسالة إنسانية توحد البشر وتواخي بينهم على أساس التمتع بجمال الكون والحياة.

ومن خصائص المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل أنها لا تقوم على الجدل والمناقشة، فليس هدفها عرض المعلومات أو إثبات الحقائق، وإنما التعبير عن تجربة ذاتية، ورؤية خاصة، وقد بلغت ذاتية هيكل مبلغها في مقالة له بعنوان (تهذيب المواهب وصلة ما بين العلم والفن)⁽¹⁾ حين صرح بكل وضوح عن إحدى تجاربه الخاصة إذ يقول: "واني لأعترف اعترافًا صريحًا ليس فيه أي شيء من التواضع بأنني ما أزال إذ أقرأ بعض صحف، وبعض قصائد في الأدب الغربي أراني أمامها ضعيفًا، حتى ليبلغ بي من الإعجاب بها أن أحسد الكاتب أو الكاتبة... لا أجد ما

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/445).

يعادل هذا الذي أقرأ في لغتنا التي نكتبها اليوم ومن أقلام كُتابنا وشعرائنا الممتازين⁽¹⁾. ربما يُرى في تصريح هيكل نوع من الإفراط لأنه قد يسيء إليه حيث اتهم نفسه بالضعف والحسد، وأظهر إعجابه بالأدب الغربي أكثر من إعجابه بالأدب العربي.

كذلك من خصائص المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل أنه كان يتجنب فيها الوعظ والإرشاد المباشر وإن كان في مضمون ما كتب ما يوحي بذلك، كذلك كان حريصاً على عدم الوقوع في الكلام المتكلف أو الترتيب المفتعل، ففي مقالة له بعنوان (احرص على الموت توهب لك الحياة)⁽²⁾ يبدو فيه نوع من الوعظ والإرشاد للوهلة الأولى، لكن من يقرأ هذه المقالة لا يجد شيئاً من ذلك، ومما جاء في هذه المقالة: "لن يستطيع إنسان أن يسمو إلى مكان الحق ولا أن يعرفه إلا إذا بلغ هذه الحرية لعقله وقلبه وروحه ونفسه، وهذه الحرية هي التي دعا رسول الله ﷺ قومه إليها، ونصح إليهم أن يتحللوا من قيود التعصب لما وجدوا عليه آباءهم في سبيلها، وهذه الحرية هي أعز شيء في الوجود، بل هي الحياة كلها، والوجود كله"⁽³⁾.

من يتأمل هذه الفقرة يجد فيها دعوة إلى الحرية، لكن هيكل لم يستخدم فيها أسلوب الأمر المناسب للوعظ والإرشاد، وإنما ترك الأمر للقارئ ليفهم تلك الدعوة بنفسه، وقد حاول هيكل أن يقنع القارئ بما يريد من خلال مثال ساقه من حياة الرسول ﷺ، حين دعا قومه إلى الحرية العقلية، والتخلي عن التعصب الأعمى، والتبعية المقيتة للآباء الكافرين، ثم بين أهمية هذه الحرية فجعلها تساوي الحياة والوجود، ويلاحظ في هذه الفقرة -أيضاً- أن هيكلًا قد ابتعد عن التكلف في الكلام والافتعال في ترتيبه إلى حد العفوية فقال: (نصح إليه ولم يقل نصحهم) ثم أنه أعطى (الحرية) مساحة واسعة من التشبيه -فيها نوع من المبالغة- فشبها بالحياة كلها، وبالوجود كله.

ومن الخصائص التي تميزت بها المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل البراعة في تصوير الحقيقة، والصدق في التعبير عن المشاعر، ففي مقالة له بعنوان (المرأة المصرية والفن ماذا ينقصها في إلهامه)⁽⁴⁾ تحدث فيها بوضوح وصراحة حيث رأى أن المجتمع المصري لا يسيغ معنى الجمال والفن ولا يقدره لذاته، وأن رجال الفن الموهوبين في مصر مظلومون لأنهم لم يجدوا من يشجعهم من رجال الحكومة أو المنقذين أو الأغنياء، يقول هيكل مفصلاً: "كانت

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/446-447)

(2) المصدر السابق، ج6/17.

(3) المصدر نفسه، ج6/21.

(4) المصدر نفسه، ج2/449.

التمثيل وكانت الصور والنقوش معتبرة إلى زمن قريب بعض المحرمات الدينية... وكانت آثار الفن الجميل الأخرى في ما خلا الغناء والشعر منظوراً إليها نظرة قاسية مرموقة بعين الإنكار، بل العداوة، وكانت المرأة نفسها في هذا العهد القريب حرمة يجب أن تحتجب وراء الجدران، ولمحاربة هذا الجمود في التفكير بُذلت جهود ضخمة غاية الضخامة لاقى أصحابها في سبيل القيام بها أشق التضحيات"⁽¹⁾.

آثار هيكل في هذه المقالة قضية مختلفاً عليها في مصر بين رجال الدين ورجال الفن، فلكل طرف منهما موقفه وحجته، والشاهد في ذلك أن هيكلًا عندما تناول هذه القضية تناولها بكل أمانة كما هي بغض النظر عن رأيه الشخصي فيها، وصور الحقيقة بكل جوانبها، وعبر عنها بكل صدق.

ويضاف إلى خصائص المقالة ذات البناء الذاتي عند هيكل محاكاة الواقع من خلال التصوير الفني الذي يبرز الحركة والحياة والمشاعر، وحول أثر الأدب في الحياة، وأنه ليس مجرد ترفيه روعي أو إمتاع عقلي حيث يقول هيكل: "إن الأدب هو ميراث الإنسانية الخالد، وأثر العقول الباقي... وليس هناك... تطور حدث أو حركة قامت إلا كانت أثرًا من آثار الأدب، ونتيجة لازمة لما يقوم به الكتاب والأدباء من تنوير الأذهان، وتنقيف العقول، وإعداد النفوس للحركة والوثوب... إن الأدب هو أنفذ حكمًا وأبعد سلطانًا من سائر مظاهر الحكم والتسلط، ذلك أن دولة الحكام والفاثحين إنما تقوم على القانون أي على القوة، وأما دولة الأدب فإنها تقوم على العقائد وتتمو في كنف المبدأ أو الشعور... الدولة الأولى لا تلبث أن تزول بزوال القائمين بها، أما الدولة الثانية فإنها لا تزول أبد الدهر"⁽²⁾.

لم يكتفِ هيكل في هذه المقالة برسم صورة بيانية للأدب، وإنما حاول أن يجسد عالم الأدب في تصوير فني حسي ليكون أكثر جمالاً وبهاءً وجلالاً، فبعد أن تحدث عن أهمية الأدب وآثاره ودوره جعله حاكمًا وسلطانًا يملك دولة أطلق عليه دولة الأدب، هذه الدولة وصفها بأنها خالدة لا تزول لأن فيها مقومات البقاء الأبدي فهي تقوم على العقائد والمبادئ والأحاسيس.

لقد برع هيكل في هذا التصوير الفني للأدب، حيث أهداه روحًا بعثت فيه الحياة حتى أصبح له القدرة على الحركة والعطاء فهو ينير الأذهان، ويتقف العقول، ويعد النفوس للحركة والوثوب، بل إن هذا الأدب الذي هو كلام منظوم جميل سواء كان شعرًا أو نثرًا أصبح الحياة

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/455-456).

(2) المصدر السابق، ج2/223.

بذاتها، فهو دولة كاملة الأركان تملك السيادة والحكم والسلطان في ظل العقائد والمبادئ، والأدب -أيضاً- كله مشاعر وأحاسيس فهو ينفذ إلى القلوب طواعية، ويتفاعل مع الجوارح تأثراً، وخالصة القول في ذلك أن هيكلًا استطاع في هذه المقالة أن يعطي من قدر الأدب ويرفع من شأنه عندما بين أثره في الحياة كما أراد من خلال هذا التصوير الفني البديع الرائع.

ومن الخصائص -أيضاً- أن هيكلًا في مقالاته الذاتية اختار الألفاظ الجزلة الفصيحة المناسبة للموضوع، واستخدم العبارات التي تألق في تأليفها وتنسيقها، يقول في مقالة له بعنوان (الربيع والأدب)⁽¹⁾: "الربيع من أوله لآخره باسم وضاح الجبين، تكسو الأزاهير أرضه جمالاً وروعة، وتبعث من شذاها إلى هوائه أريجاً في عبقة الحياة والنعمة والمسرة... الربيع ليس فصل الجمال وكفى، بل هو فصل الحياة مجلوة في أبرع صور الحياة، وأكثرها نشاطاً وإثماراً"⁽²⁾.

لقد استخدم هيكل في هذه الفقرة الألفاظ الجزلة الفصيحة المناسبة للتعبير عن جمال فصل الربيع مثل: (وضاح - الأزاهير - روعة - شذاها - أريجاً - عبقة - المسرة - أبرع) إنه يريد بذلك أن يرسم أجمل صورة للربيع، وهو في الوقت ذاته استخدم عبارات برع في تأليفها وتنسيقها بل تألق وتألقت فيها فعندما أراد أن يصف الربيع قال أنه: (باسم وضاح الجبين، تكسو الأزاهير أرضه جمالاً وروعة، وتبعث من شذاها إلى هوائه أريجاً)، من يقرأ هذه العبارات يتمتع بجمال معانيها، ويتقيأ ظلال إحياءاتها، فالربيع وجه كالقمر ترتسم عليه الابتسامة، وينبعث منه النور، أما جسده فتكسوه الأزهار الملونة ذات البهجة والجلال، أما رائحة هوائه فهي كالمسك أو العنبر، فالربيع عندما يحل يغير طعم الحياة ولونها بنشاطه وثماره، هكذا أراد هيكل أن يرسم صورة الربيع من خلال ألفاظه الجزلة العذبة وعباراته المحكمة الرصينة.

خامساً- ملامح شخصية هيكل من خلال مقالاته ذات البناء الذاتي:

1- من يقرأ مقالات هيكل الذاتية يتبين له أنه كان رجلاً متحضرًا ومنفتحًا على الثقافة الغربية، صقلت طبيعته المدنية، وهذبت ميوله خيالاته الواسعة في الحياة، هذه الخبرات هي التي جعلته يقول: "لكل شعب حيويته، والشعوب التي تعرف كيف تقوي أسباب الحيوية فيها، وتعرف كيف تستفيد من ظروف الحياة هي الشعوب التي لا يعرف اليأس إلى نفسها سببًا،

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/297).

(2) المصدر السابق، ج2/297-298.

والتي تستطيع أن تقاوم شدائد الحياة، ومن استطاع أن يقاوم الشدائد استطاع أن يتمتع من الحياة بخير أنعمها"⁽¹⁾.

إن عدم اليأس ومقاومة الشدائد هما اللذان يستعيدان الحيوية المفقودة إلى أهلها، ويضرب هيكل مثلاً على ذلك في مقالته (حيوية الشعوب وأثر الظروف فيها)⁽²⁾ فقد نقل تجربة ألمانيا التي خاضت الحروب وذاقت ويلاتها، لكن الشعب الألماني بعد سنوات عديدة استعاد حيويته كاملة، ويتساءل هيكل: ما هي الفلسفة التي طوعت الشعب الألماني لأن يعمر ما خربت الحرب في بلاده، وأن ينهض هذه النهضة الصناعية العظيمة، فحولت حياة هذا الشعب من الهوان والذلة إلى حياة العزة في أقل من عشر سنوات؟ ويجب هيكل على هذا التساؤل، ذلك بأن الشعب الألماني فكر في غده وما بعد غده ولالأجيال المتعاقبة، معتبراً حياة الوطن وحدة متصلة تتوارثها الأجيال، فالماضي للجميع والمستقبل للجميع، ومجد الوطن مجد لكل فرد من أفراده، ولأن قوة الوطن عزة لكل أبنائه.

لم يكتفِ هيكل بسرد الأحداث، وإنما بحث في مراميها من خلال تفكيره الراقى فلقد عاش سنوات عديدة في بلاد الغرب وانفتح على ثقافته، فوصل إلى ما وصل إليه من تحضر ومدنية أثرت إيجاباً في طبيعته، وهذبت ميوله، وقومت سلوكه.

2- يتأمل هيكل في الموضوع الذي يكتب فيه بعمق، وليس وراء هذا التأمل أهداف خفية تبعث على الشك أو تثير الاستفهام، هذا التأمل يبعث في النفس المتعة، لقد تأمل هيكل نظرية الشاعر محمد إقبال الذاتية التي ابتكرها تفكيره "وأضفى عليها خياله الشعري إبداعاً وجمالاً وقوة... الذاتية عنده هي الروح المنشئ الذي أودعه الله الإنسان، وجعل العمل والدأب فيه وسيلتنا إلى انتشار هذه الروح فيما حولنا، وإبراز ما تتطوي عليه نفوسنا من قوة وخير... يجب أن تنمو الذاتية حتى تبلغ كمالها... تنمو بالسعي والعمل الدائب الذي لا ينقطع، ونموها وإزهارها وإثمارها هو الذي يجعل للحياة قيمتها... الحرية ملاك الذاتية التي تتيح لنا القوة على الحياة والتسلط على الطبيعة"⁽³⁾.

تأمل هيكل ذاتية إقبال بعمق، فرأى أن مدلولها لا يعني الأنانية التي هي عند بعض الناس مصدر الشرور لأنها مرتبطة بأهواء النفس، لقد أوضح هيكل أن الذاتية عند إقبال

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/115).

(2) المصدر السابق، ج6/111.

(3) المصدر نفسه، ج1/203.

بعيدة عن هذا المعنى، فهي روح أودعها الله في الإنسان ليعمل ويجد ويعطي ويحقق الخير، والذاتية كالشجرة التي تنمو وتزهر وتثمر، ونماؤها لا يكون إلا بالسعي الجاد والعمل الدؤوب، وثمرتها هذه الذاتية أنها تجعل للحياة قيمة، وتعطي الإنسان قوة وحرية، ومن ثم تمكنه من القدرة على تحمل أعباء الحياة، والتعايش مع الطبيعة، والارتقاء بالمجتمع، والتضحية في سبيل الحق، وهذا كله يحقق النصر والعزة.

3- كان هيكلٌ ذا عقلية واعية تميل إلى حرية الفكر، وتدعو إلى التخلص من الجمود والتعصب، ففي مقالة له بعنوان (الإسلام وحرية الفكر) يقول: "إن الإسلام أكثر الأديان إباحة لحرية الفكر... حرية في اقتحام ميادين العلم على اختلافها، وأن نهى الناشئة من أبنائنا ليضطلعوا بالأعباء الجسام التي تطالبهم بها حضارة هذا العصر الذي نعيش فيه، وألا يستمعوا إلى أقوال المتعصبين وأرباب العقول الضيقة والأفكار المحدودة بمن يريدون الرجوع بالإنسانية القهقري إلى عهد لا يمكن أن تترد الإنسانية إليها"⁽¹⁾.

لقد أدرك هيكل أهمية حرية الفكر المستتير والانفتاح الواعي على الآخر لبناء مستقبل واعد، فطالب الأجيال الناشئة باقتحام ميادين العلم المختلفة لبناء حضارة تليق بالعصر الذي يعيشون فيه، وحذر من خطر التعصب الأعمى الذي يتبناه أصحاب العقول الصغيرة الذين لا يسعون إلى التقدم والازدهار، بل همهم العودة إلى العصور السابقة ليعيشوا حياة البؤس والتخلف.

4- كان هيكلٌ شجاعاً في موقفه، جريئاً في قوله لا يجامل عند إحقاق الحق، وبيان زيف الباطل، وجه نقده اللاذع بكل قوة إلى أبناء العروبة الذين تأثروا بالغرب، فقد عزموا على "أن يطرحوا جانباً معاني الفضل والكرامة والشهامة والكرم والإيثار والمحبة ليسلكوا إلى المجد الموهوم أدنى السبل إلى الجريمة، وأبعدها عن الخير والحق والجمال... أصبحنا نتخذ المثل الأعلى في الحياة من حثالة أبناء الغرب الذين يفدون إلى شرقنا مزودين بظاهر زائف من علم، وفضل، وباطن حالك اللون من شراهة وافتراس"⁽²⁾.

نعم كان هيكلٌ صاحب موقف رجولي يدل على أصالته العربية والإسلامية، فرغم أنه كان متأثراً بالثقافة الغربية إلا أنه كان حازماً عندما استدعى الأمر ذلك، فكيف يسكت عن أبناء

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/49-51).

(2) المصدر السابق، ج2/158.

جلدته الذين تخلوا عن مبادئهم وقيمهم!!! وكيف لا يقوم بدوره في بيان حقيقة المستشرقين الذين يريدون لوطننا العربي كل شر، ويحيكون له المكائد والمؤامرات.

ثانياً - البناء الموضوعي:

من أهداف العلم في هذا الكون اكتشاف الظواهر المختلفة والبحث عن العلاقات التي تربط بينها، ويمكن القول أن جميع العلوم تشترك في عمليتي الاكتشاف والبحث من أجل التوصل إلى قوانين ونظريات تعبر عنها وتفسرها، ولتحقيق هذه الأهداف عمد أهل العلم إلى استخدام الأسلوب العلمي لأنه يتميز بالدقة والموضوعية، وهو أقرب طريق، وأقصر سبيل للوصول إلى الحقائق العلمية.

ويشير الأسلوب العلمي في البحث العلمي إلى الإطار الفكري الذي يعمل بداخله العقل بخطوات التفكير العلمي للكشف عن حقيقة مجهولة أو البرهنة على حقيقة لا يعرفها الآخرون.

وتختلف المقالة الموضوعية عن البحث العلمي، فهي مجرد دراسة أو تلخيص لموضوع أو مشكلة قام ببحثها عالم معين، وهي لا تضيف شيئاً جديداً للمعرفة الإنسانية، فهي لا تزيد عن تقديم ملخص لمعلومات سبق اكتشافها، ولا يُطلب من كاتب هذا النوع من المقالة توثيق بياناته، بل يكفي منه عرض ملاحظاته وخبراته، وبحق له أن يحلل ويضيف آراء تثري الموضوع.

وتتميز المقالة الموضوعية بإثارة التشويق لدى القارئ، وبتقديم الحقائق والمعلومات بشكل مباشر ومختصر وموضوعي.

ولتناول البناء الموضوعي في مقالات هيكل، والتعرف على طبيعة هذا البناء وموضوعاته وطريقة عرض الأفكار فيه وخصائصه ثم اكتشاف ملامح شخصية هيكل من خلاله يقف الباحث عند المحاور التالية:

أولاً - طبيعة البناء الموضوعي في مقالات هيكل:

تتسم المقالات ذات البناء الموضوعي بالعديد من السمات والخصائص نذكر منها:

1- علمي واضح ودقيق، خالٍ من شوائب الغموض وتعقيدات اللبس، وقد تحدث هيكل عن حرية الرأي في مقالة له بعنوان (تكوين العقل الحديث) قائلاً: "أدت حرية الرأي إلى تعاون العلم والفلسفة والأدب في الأعوام المائة الأخيرة، تعاوفاً خطأ بالإنسانية خطوات لا يكاد العقل يصدقها، وخطأ بها هذه الخطوات الجبارة في جميع ميادين الحياة، وأصبح الناس

أكثر وقوفًا على سنن الكون وعلى حقيقة أمره... وأفادت الصناعة من العلم فارتفعت
بالإنسان من الأرض إلى السماء... وأصبح يفكر في الانتقال عبر الأثير من كوكبنا
الأرضي إلى المريخ أو إلى غيره من الكواكب⁽¹⁾.

في هذه الفقرة تحدث هيكل بشكل علمي عن آثار حرية الرأي في ميادين الحياة عامة
وعلى الإنسان بصفته سيد المخلوقات في هذا الكون خاصة، فالفكرة التي أراد هيكل أن
يوصلها للقراء جاءت واضحة، فقد بين تاريخ التعاون بين العلم والفلسفة والأدب فحدده (في
الأعوام المائة الأخيرة) ثم ذكر ثلاث نتائج لآثار حرية الرأي: الأولى: أن الناس أصبحوا
أكثر وقوفًا على سنن الكون وعلى حقيقة أمره، والثانية: أن الإنسان أفاد من الصناعة التي
بُنيت على العلم فأخذ حظه الوافر من الرقي والازدهار، والثالثة: هذا التقدم العلمي جعل
الإنسان يفكر كيف ينتقل من كوكب الأرض إلى كواكب أخرى.

2- ومن طبيعة البناء الموضوعي في مقالات هيكل أنه يخاطب العقل، أو بمعنى آخر يوجه
حديثه لمن يفهمونه ويفيدون منه من أهل العلم وطلابه، وحول كثرة المتعلمين وقلة التوظيف
في مصر، وانتشار البطالة، كان لهيكل هذا الرأي الذي يقول فيه: "بلادنا في سعة رقعتها
بحاجة إلى أن ينتشر متعلمون في أنحاء جميعًا ليستغلوا مرافقها... تسير في القرى لتراها
خالية أو تكاد من الأطباء أو من غير الأطباء الذين يستطيعون أن يجدوا فيها رزقًا حسنًا،
وأن يفيدوا أهلها بوجودهم بينهم، وواحاتنا وصحارانا مليئة بخيرات كثيرة لو أنها وجدت
الباحثين عنها، لكانت موضعًا لعمل العشرات والمئات من هؤلاء المتعلمين"⁽²⁾.

وجه هيكل خطابه إلى فئة المتعلمين الذين يعانون من البطالة، يتبرمون من ضيق
العيش، ويشكون من قلة العمل، أمام هذه الحالة حاول هيكل أن يأخذ دوره فنبه إلى أمور
قد تغيب عن بال الكثيرين، لعله يكون معها أو فيها الحل، وهي أن أرض مصر واسعة،
وهي مليئة بالخيرات، لكن المشكلة تكمن في عدم استغلالها واستثمارها، فلو انتشر هؤلاء
المتعلمون وفق خطة محكمة في القرى والواحات والصحاري لوجدوا أبواب الرزق مفتوحة.

هذه الحلول التي طرحها هيكل تحتاج إلى تفكير عميق وعمل دؤوب، ولا يستطيع أحد
أن يفهم ذلك ويقدره إلا المتعلمون، لذلك كان الخطاب موجّهًا لهم.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/270).

(2) المصدر السابق، ج4/209.

3- وتتسم عناوين موضوعات المقالة الموضوعية عند هيكل بالإيجاز والجدية والجادبية والتشويق، فمن الموضوعات التي تميزت عناوينها بالإيجاز (قرية ظالمة) و(هكذا خلقت) و(إنكار التقدم) و(تركيا الحديثة) و(السودان ومصيره) و(موجة نقاؤل) وغيرها. ومن العناوين التي اتصفت بالجدية (تكوين العقل الحديث) و(الاجتهاد والتقليد) و(الرأي العام كأداة للرقابة الاجتماعية) و(من مشاكلنا التعليمية و(الثقافة وحماية الاستقلال) و(قضية فلسطين في الأمم المتحدة) و(دور مصر في الجمعية العامة) و(تدوين مبادئ القانون الدولي) وغيرها، ومن العناوين التي اتسمت بالجادبية (المثل الأعلى وسيلة العمل المحبوب) و(مصر لمن؟ للمصريين أم للأجانب؟) و(الاتجاهات الاجتماعية الحديثة) و(نظم التعليم وعظلة المتعلمين) و(الجامعة المصرية هي جامعة الجيزة) و(العالم بين الحرب والسلام) و(الشرق الأوسط بين يومه وغده) و(الهلال والصليب الأحمر والأديان السماوية) وغيرها، ومن العناوين التي امتازت بالتشويق (ما وراء المدينة الحديثة) و(صلة الأدب بالقانون) و(مجمع اللغة العربية الملكي) و(غاندي ومعرض الهند) و(الشرق يكسب حرته) و(رسالة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في العالم) وغيرها.

4- الموضوعية من طبيعة البناء الموضوعي في مقالات هيكل، فقد تحدث هيكل عن كتاب (تكوين العقل الحديث)⁽¹⁾ الذي ألفه الأستاذ جون هرمان راندل المحاضر بجامعة كولومبيا الأمريكية، ونقله إلى العربية جورج طعمة، ونشرته مؤسسة فرانكلين، ويتناول موضوع الكتاب التراث الفكري الذي استندت إليه الحضارة في العصر الحديث، ومن مظاهر الحيادية عند هيكل في هذه المقالة أنه ذكر أن النبي محمدًا ﷺ لم يكن أول من نادى بكلمة التوحيد ودعا إليها، بل سبق إليها الرسل وأصحاب الكتب المقدسة، وذكرها الحكماء في بلاد أخرى، ومن باب الإنصاف للنبي محمد ﷺ، فقد قال: لكن أحدًا لم يجاهد في سبيل التوحيد جهاده، ومن موضوعية هيكل في هذه المقالة أنه ذكر رأي راندل الذي كان يخالفه وهو اختياره للقرن الثاني عشر كنقطة البدء لتطور التفكير الغربي الحديث، فقد عذر هيكل راندل لهذا الاختيار فقال: أن لرانلد لا ريب اعتباراته الخاصة التي أدت إلى هذا الاختيار، وهذا دليل على احترامه للرأي الآخر رغم مخالفته له حيث قال: وأحسبني لا أوافق الأستاذ راندل على هذا الرأي، وقد برر هيكل لعدم موافقته على هذا الرأي، ولم يقف هيكل عند حد

(1) ينظر: هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/255-273).

مخالفة راندل الرأي بل قال بكل وضوح وموضوعية: على أن ما يخالغ نفسي من حيرة سببها أن راندل اختار القرن الثاني عشر نقطة البدء في تكوين الفكر الحديث لا يجني في شيء على جلال هذا الكتاب الذي وضعه، فهو كتاب قيم ومحاولة جريئة لتصوير التطور الفكري تطورًا انتهى بالإنسانية إلى ما بلغته من حضارة، وقال: ولراندل تأويل لاختياره القرن الثاني عشر بدءًا لتكوين العقل الحديث، ولهذا التأويل قيمته وإن اختلف الرأي فيه.

ويقر هيكل بأنه يعتمد الموضوعية في كتابته للمقالات ذات البناء الموضوعي، فعلى سبيل المثال يقول في مقدمة مقالة له بعنوان (الرأي العام كأداة للرقابة الاجتماعية): "لأن كنت صحفيًا... فإنني سأقف من بحثي هذا موقفًا موضوعيًا إلى غاية ما أطيق من الصحافة والصحفيين في اتصالهم بالرأي العام وفي تعبيرهم عنه حكمًا عدلًا غير متأثر بعلمي الصحفي، ولا ناظر إلا للحقائق الواقعة كما هي... ذلك لأنني أعتقد أن توخي الحقيقة لذاتها ومحاولة تصويرها في أدق صورها أكفل بتوجيه الرأي العام وجهة صحيحة"⁽¹⁾.

هذا الإقرار منه يدل على حرصه الشديد على الموضوعية وعلى توخي الحقيقة والحكم العادل وذلك لتوجيه الرأي العام بشكل سليم.

5- ومن طبيعة البناء الموضوعي في مقالات هيكل أنه اعتمد على الملاحظة والتجربة والوصف الكمي الذي يقوم على وسائل الإحصاء، فكثيرًا ما كان يبدي هيكل ملاحظاته بكل جرأة وصدق، وكان حريصًا على وصولها إلى المعنيين بها ولو كانوا ذوي سلطان، يقول هيكل بهذا الشأن: "وإذا كان لنا أن نبدي بشأن الزعماء مثل هذه الملاحظة، فإننا يجب كذلك أن نوجهها إلى الصحافة... على أن الأخذ بالرد والجدب والشدة وهذه الهزات العنيفة التي شهد الرأي العام المصري... فهي قد أثمرت عنده من قوة الملاحظة والنقد أضعاف ما كان له قبل الحرب وفي أعقابها... لكن هذه الظاهرة الصالحة، ظاهرة قوة الملاحظة والنقد عنده تبشر في المستقبل بأحسن الثمرات"⁽²⁾.

إن حرص هيكل على إبداء الملاحظات النافعة والنقد البناء لخير الوطن والمواطن يوحي بعدة دلالات: أولها أنه صاحب رأي وفكر وموقف، وثانيها أنه يملك الشجاعة الكاملة التي تحفزها لأن يعبر عن رأيه بكل حرية وأمانة وثقة، وثالثها أنه شديد الإخلاص لوطنه وشعبه، فهو لا يبخل عليهم بما رزقه الله من ملكات وقدرات تفيد الصالح العام، ورابعها أنه يؤمن بالأثر الإيجابي لهذه الملاحظات.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج3/261).

(2) المصدر السابق، ج3/270-271-272.

أما عن التجارب العامة أو تجارب هيكل الخاصة، فقد كان حريصاً على الاستفادة منها، فكثيراً ما كان يذكرها في مقالاته كشواهد حية ليعزز بها مواقفه وآراءه، يقول هيكل في هذا المضمون: "إن الأمم تمر في حياتها بتجارب كثيرة قبل أن تستقر فيها مبادئ الحرية وقواعدها... وقد دلتنا تجارب الماضي على أن تضامننا واتحادنا عن صفاء نية، وإيمان صحيح بالتضامن والاتحاد هما اللذان يصلان بنا إلى غاية ما ننشد من أغراضنا، وأن الفرقة والانقسام كانتا وبالأعلى على هذه الأمة في كل أطوارها... فليفكر المسئولون منا في ذلك كله، وليصوروا مستقبل هذه الأمة متخذين الموعظة والعبرة من تجارب الماضي القريب والماضي البعيد"⁽¹⁾.

هذه التجربة التي ساقها هيكل في مقاله (عهد جديد) تدل على مدى وعيه بحياة الأمم وتاريخها، ثم بسنن الله في كونه، وقد وجه هيكل هذه التجربة للناس عامة، وللمسؤولين منهم خاصة، وذلك ليتخذوا منها العبرة والموعظة.

أما الوصف الكمي الذي يقوم على وسائل الإحصاء، فقد ذكر هيكل في مقالاته لها نماذج، منها حديثه عن زيادة عدد السكان فيه بالنسبة التي تطرد بها في مصر، حيث يقول: "قل من بلاد العالم ما تطرد زيادة السكان فيه بالنسبة التي تطرد بها في مصر، فقد كان عدد سكانها في سنة 1917م (12718255 نسمة) فأصبح في سنة 1937م أي بعد عشرين سنة (15911525 نسمة) أي أنه زاد في هذه الفترة الوجيزة بنسبة خمس وعشرين في المائة، وقد كانت الزيادة مطردة في المدن وفي الأرياف جميعاً، لكن نسبتها في المدن كانت أعلى من نسبتها في الأرياف بصورة محسوسة"⁽²⁾.

اهتمام هيكل بقضية الزيادة في عدد السكان في مصر، وحرصه على توفير هذه الإحصائية الكمية لبيان حجم المشكلة، وليعتمد عليها في تحليله عندما كتب مقاله (هجرة الريف إلى المدن) لتدل على تبنيه الصادق لقضايا أمته والتحديات التي يواجهها شعبه، فهو لم يكتفِ بذكر هذه القضية كظاهرة اجتماعية خطيرة تهدد مستقبل مصر، بل تناولها بشكل علمي يعتمد على الدليل الرقمي والإحصائيات الرسمية التي استقاها من مصادرها الخاصة بها حتى يلفت انتباه المسؤولين والمهتمين ليأخذوا هذا الأمر على عاتقهم بجدية، ويتحملوا المسؤولية كاملة محاولين إيجاد العلاج المناسب لهذه القضية.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/152).

(2) المصدر السابق، ج4/126.

6- ومن طبيعة البناء الموضوعي في مقالات هيكل المحافظة على حدود الموضوع وإطاره العام من خلال تعريفه له في بيئته وزمانه، ففي مقالة له بعنوان (الجامعة المصرية هي جامعة الجيزة، ولا بد لمصر من جامعات غيرها)⁽¹⁾، وقد حدد هيكل بيئة موضوعه وجعل له إطارًا عامًا لم يتجاوزه، فكل ما طرحه في مقاله متعلق بشكل مباشر بالموضوع الذي يتحدث عنه، فأهم الأفكار التي ذكرها في هذا الموضوع ما يلي:

أ- أهمية وجود الجامعة ودورها في توجيه البلاد الوجهة الصالحة من أجل الحاضر والمستقبل، وحتى تقوم بهذا الدور لا بد من استقلالها عن الوزارة التي تخضع لسياسة البلاد.

ب- تواجه الجامعة مشكلة اكتظاظ الطلبة في مدرجاتها.

ت- المطالبة بإنشاء جامعات أخرى لحل مشكلة اكتظاظ الطلبة وتدني مستواهم التحصيلي.

ث- الحديث عن زيادة ميزانية الجامعة.

ج- إعادة النظر في توزيع المساقات الأكاديمية على برامج الجامعة.

أما الزمن فقد ظهر أكثر من مرة في ثنايا الموضوع فقد ذكر هيكل أن نتائج بعض الكليات كانت محزنة هذا العام بسبب تعديل قوانين خاصة بالامتحانات وغيرها في العام الماضي، وكذلك تحدث هيكل عن تقديم الطلبات للقبول بالجامعة للالتحاق بالدراسة كل عام وذلك في شهري سبتمبر وأكتوبر.

لم يخرج هيكل عن الإطار الذي حدده للموضوع، فقد ألزم نفسه في مقاله ببيئة موضوعه، وذلك من خلال التركيز على الأفكار التي تخدمه، أما عن علاقة الموضوع بالزمن، فقد ذكره هيكل بوضوح عندما تحدث عن النتائج المحزنة لبعض الكليات، وكذلك موعد قبول طلبات الطلبة الخاصة بالتحاقهم بالجامعة.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/227).

ثانياً - موضوعات المقالة ذات البناء الموضوعي عند هيكل:

اتجه هيكل في مقالاته الموضوعية بالحديث عن موضوعات عديدة، بعضها متقارب في العناوين مثل: (الرأي العام كأداة للرقابة الاجتماعية)⁽¹⁾ و(الرأي العام في مصر)⁽²⁾ و(تدوين مبادئ القانون الدولي)⁽³⁾ و(تدوين القانون الدولي)⁽⁴⁾، ومنها ما هو مختص بالتعليم مثل: (نظم التعليم وعطلة المتعلمين)⁽⁵⁾ و(تنظيم التعليم في مصر)⁽⁶⁾ و(من مشاكلنا التعليمية)⁽⁷⁾ و(الجامعة المصرية هي جامعة الجيزة)⁽⁸⁾ و(مجمع اللغة العربية الملكي)⁽⁹⁾، ومنها ما يختص بمصر مثل: (مصر لمن؟ للمصريين أم للأجانب؟)⁽¹⁰⁾ و(دور مصر في الجمعية العامة للأمم المتحدة)⁽¹¹⁾، ومنها ما هو متعلق ببعض الدول مثل: (تركيا الحديثة)⁽¹²⁾ و(السودان ومصيره)⁽¹³⁾ و(قضية فلسطين في الأمم المتحدة)⁽¹⁴⁾ و(غاندي ومعرض الهند)⁽¹⁵⁾، ومنها خاص بالشرق مثل: (الشرق الأوسط بين يومه وغده)⁽¹⁶⁾ و(الشرق يكسب حرته)⁽¹⁷⁾، ومنها ما هو عالمي أو دولي مثل: (العالم بين الحرب والسلام)⁽¹⁸⁾ و(رسالة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في العالم)⁽¹⁹⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج3/261).

(2) المصدر السابق، ج3/273.

(3) المصدر نفسه، ج5/89.

(4) المصدر نفسه، ج5/119.

(5) المصدر نفسه، ج4/207.

(6) المصدر نفسه، ج4/211.

(7) المصدر نفسه، ج4/313.

(8) المصدر نفسه، ج4/227.

(9) المصدر نفسه، ص271.

(10) المصدر نفسه، ج3/63.

(11) المصدر نفسه، ج5/61.

(12) المصدر نفسه، ج3/135.

(13) المصدر نفسه، ج3/149.

(14) المصدر نفسه، ج5/53.

(15) المصدر نفسه، ج5/177.

(16) المصدر نفسه، ج5/261.

(17) المصدر نفسه، ج5/269.

(18) المصدر نفسه، ج5/221.

(19) المصدر نفسه، ج5/295.

ومنها تعليق على بعض الكتب مثل: (مفتاح كتاب الحياة)⁽¹⁾ و(سيرة النبي لابن هشام)⁽²⁾ و(تكوين العقل الحديث)⁽³⁾، ومنها عناوين مثيرة وجذابة مثل (الثقافة وحماية الاستقلال)⁽⁴⁾ و(صلة الأدب بالقانون)⁽⁵⁾، ومنها عناوين مفتوحة مثل: (التفكير الصحيح)⁽⁶⁾ و(الاجتهاد والتقليد)⁽⁷⁾ و(قربة ظالمة)⁽⁸⁾ و(هكذا خلقت)⁽⁹⁾ و(إنكار التقدم)⁽¹⁰⁾ و(موجة تهاول)⁽¹¹⁾... الخ.

من خلال استعراض الباحث لعناوين المقالة الموضوعية لاحظ التالي:

- 1- أن هيكلًا كان شديد الاهتمام بالموضوعات السياسية والاجتماعية التي تهم الرأي العام الدولي عامة، والرأي العام المصري خاصة.
- 2- الموضوعات التي تناولها هيكل في هذه المقالات تدل على سعة ثقافته، وعمق تجربته، فقد جمع فيها بين الأمور السياسية والاجتماعية والتعليمية والثقافية والأدبية والقانونية.
- 3- حاول هيكل في بعض مقالاته أن يجمع بين موضوعين مختلفين في عنوان واحد وذلك بالربط بينهما وبين علاقة كل منهما بالآخر مثل الرأي العام والرقابة الاجتماعية، والأدب والقانون، والاجتهاد والتقليد.
- 4- دلت أنواع عناوين المقالات على أن هيكلًا كان متعدد المواهب، فكان رجلًا سياسيًا ووزيرًا للتعليم، وضيعًا في القانون الدولي، وحصيفًا ماهرًا، ووطنياً مخلصًا، وكاتبًا حاذقًا، وناقداً بارعًا.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/233).

(2) المصدر السابق، ج1/247.

(3) المصدر نفسه، ج1/255.

(4) المصدر نفسه، ج4/319.

(5) المصدر نفسه، ج2/267.

(6) المصدر نفسه، ج2/59.

(7) المصدر نفسه، ج2/243.

(8) المصدر نفسه، ج2/325.

(9) المصدر نفسه، ج2/343.

(10) المصدر نفسه، ج2/353.

(11) المصدر نفسه، ج5/187.

ثالثاً - عناصر المقالة ذات البناء الموضوعي عند هيكل:

حاول هيكل في مقدمة مقالاته الموضوعية أن يهيئ نفوس قرائه للدخول إلى الموضوع الذي يتناوله بحيث يجد القبول عندهم بدايةً ومن ثم يكملوا قراءة أفكار الموضوع وخاتمته، وهو إزاء ذلك عمد إلى طرق مقدمة الموضوع من بابها الرئيس بوضوح، بمعنى أنه جعل بين عنوان المقالة ومقدمتها تجانساً كبيراً، فقد قال في مقدمة مقالة له بعنوان (نظم التعليم وعطلة المتعلمين): "عاد الحديث عن نظم التعليم وعن عطلة المتعلمين، وذلك لمناسبة نظر ميزانية الجامعة..."⁽¹⁾.

لقد انطلق هيكل بمقدمته هذه من الحديث المتداول في البرلمان المصري حول نظم التعليم وعطلة المتعلمين ليعطي للموضوع أهمية خاصة تدفع القارئ إلى متابعة القراءة حتى نهاية الموضوع، وكذلك نجد هذا الأمر مكرراً في كثير من المقالات كـمقالته (العالم بين الحرب والسلام)⁽²⁾.

ويلاحظ في مقدمات مقالاته هذه أن بعضها يقوم على معارف مسلم بها لدى القارئ مثل قوله في مقدمة مقالته (سيرة النبي لابن هشام): "لا يكاد يخلو كتاب من كتب التاريخ التي وضعها العرب والمستعربون من سيرة النبي ﷺ..."⁽³⁾.

ويقصد هيكل بذلك أننا نشم شذا سيرته ﷺ في كل كتب التاريخ التي ألفها العرب أو المستشرقون، ونجد هذا الأمر -أيضاً- مكرراً في الكثير من هذه المقدمات مثل ما جاء في مقدمة مقالته (التفكير الصحيح)⁽⁴⁾.

ويوجد في بعض مقدمات هذا النوع من المقالات معارف مثيرة للقراء هدفها جذب القارئ وتشويقه ليُقبل على قراءة هذه المقالة بنفس رضية مفتوحة لا تعرف الملل ولا السامة، يقول هيكل في مقدمة مقالته (مفتاح كتاب الحياة): "هذا الكتاب الذي أقدم اليوم له يحتوي على فكرة علمية جديدة أعتقد أنها لا بد ستحدث ثورة في التفكير العلمي..."⁽⁵⁾، ويقول في مقدمة

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/207).

(2) المصدر السابق، ج5/221.

(3) المصدر نفسه، ج1/247.

(4) المصدر نفسه، ج2/59.

(5) المصدر نفسه، ج1/233.

أخرى: "للمرة الأولى في تاريخ الأمم المتحدة اتفقت الدول الغربية وروسيا السوفيتية على مسألة ذات خطورة عالمية، تلك مسألة إنقاص التسلح..."⁽¹⁾.

إن المتأمل في حجم هذه المقدمات ليجد التباين بينها، فمنها الطويلة، ومنها المتوسطة، ومنها القصيرة، فهيكل لم يلزم نفسه بعدد من الأسطر في مقدمات مقالاته، فعلى اعتبار أن المقدمة القصيرة تقع من سطر إلى خمسة، والمتوسطة من ستة أسطر إلى عشرة، والطويلة من أحد عشر سطرًا فما فوق، نجد لهذه التقسيمة نماذج كثيرة، فكنموذج للمقدمات الطويلة مقدماتي هيكلي (مجمع اللغة العربية الملكي)⁽²⁾ و(تركيا الحديثة)⁽³⁾، أما المقدمات المتوسطة فنجدها في مقالتيه (مصر لمن؟ للمصريين أم للأجانب؟)⁽⁴⁾ و(الاتجاهات الاجتماعية الحديثة)⁽⁵⁾، وكذلك نجد المقدمات القصيرة متوفرة في العديد من مقالاته منها (السودان ومصيره)⁽⁶⁾ و(هكذا خلقت)⁽⁷⁾ و(إنكار التقدم)⁽⁸⁾.

ويلاحظ في بعض المقالات أن من مزايا مقدماتها المساعدة في فهم الموضوع، يقول هيكلي في مقالة له بعنوان (الرأي العام في مصر، أسباب نشاطه، وأسباب فتوره): "تقع في عهد الوزارات المصرية المختلفة تصرفات تثير النقد والاعتراض، فموظفون يرقون إلى درجات لا يستحقونها، وآخرون يحرمون من حقهم في الترقية وفي العلاوة، أو ينقلون إلى بلاد لا تتوفر فيها طمأنينة العيش..."⁽⁹⁾، ونجد هذه المزية موجودة -أيضًا- في مقدمة مقالة هيكلي (من مشاكلنا التعليمية)⁽¹⁰⁾، وفي الكثير من مقدمات مقالات هيكلي.

(1) هيكلي، مقالات محمد حسين هيكلي (ج5/187).

(2) المصدر السابق، ج2/271.

(3) المصدر نفسه، ج3/135.

(4) المصدر نفسه، ج3/63.

(5) المصدر نفسه، ج3/205.

(6) المصدر نفسه، ج3/149.

(7) المصدر نفسه، ج2/343.

(8) المصدر نفسه، ج2/353.

(9) المصدر نفسه، ج3/273.

(10) المصدر نفسه، ج4/313.

وخلاصة القول في مقدمات المقالات ذات البناء الموضوعي أنها تعمل على تهيئة نفوس القراء قبل التعمق في التفاصيل، وأنها مبنية على معارف معروفة أو مثيرة، وأنها من حيث الطول متفاوتة ليست على مستوى واحد، وأخيراً فإن لهذه المقدمات أهميتها الخاصة لأنها تساعد القارئ على فهم الموضوع ومن ثم استيعاب مضمونه.

أما عرض الأفكار، فكان هيكل حريصاً على أن يعرضها بوضوح، وأن يبينها كاملة، وأن يفصل في جزئيات الموضوع ما أمكن ويذكر أحياناً المناسبات المتعلقة به، ففي مقاله له بعنوان (التفكير الصحيح) فإن هيكلًا عرض فكرته الرئيسية بوضوح ثم أتبعها بأفكار تجليها وتكملها، فكرته الرئيسية انصبت على "البحث وراء الحقيقة من حيث هي، وتقرير هذه الحقيقة عند الوصول إليها من غير نظر للنتائج العلمية التي تترتب عليها إن كانت نافعة أو ضارة"⁽¹⁾، أما الأفكار الأخرى التي جاءت مساندة لها ومكملة لما ذهبت إليه، فقد عرضها هيكل بتسلسل منطقي فيذكر⁽²⁾:

- 1- أن الوصول إلى الحقيقة لا يتحقق إلا في ظل الحرية والبعد عن الأوهام.
 - 2- الحقيقة تحتاج إلى سلام دائم، ونفوس مطمئنة تتمتع بالسكينة.
 - 3- للوصول إلى الحقيقة لا بد أن يأخذ أرباب العقول والحكمة والعلم والفن أدوارهم كاملة دون تدخل من العسكريين أو السياسيين في حركة الحياة.
 - 4- في غياب الحقيقة يخبو شعاع الذهن، وينطفئ نور الحق، وتدفن العقول القوية، ويحمل بدلاً منها الذلة والضعف والفتك وسيطرة الشهوات.
 - 5- التفكير الصحيح هو أحسن تفكير يستطيع العقل البشري أن يصل إليه في زمن من الأزمنة، أما أخط مراتب التفكير فهو الذي يقوم على الطمع والقهر بالقوة.
- وفي موضوع آخر بعنوان (من مشاكلنا التعليمية)⁽³⁾ يذكر هيكل المناسبة التي دعت لتناول هذا الموضوع وهي أن مدير جامعة القاهرة (محمد كامل مرسي) أراد تعزيز التعليم الجامعي وذلك بإضافة سنة إعدادية للكليات النظرية، وأن سبب هذا التعزيز ضعف الطلبة في اللغة العربية واللغات الأجنبية.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/59).

(2) ينظر: المصدر السابق، ج2/59-60-61.

(3) المصدر نفسه، ج4/313.

كان هيكل يلزم نفسه بما يتطلبه الموضوع من منطق في العرض والبحث والجدل، ففي مقالة له بعنوان: (قضية فلسطين في الأمم المتحدة سنة 1947م) وهو خطاب ألقاه هيكل أمام اللجنة الخاصة بالقضية الفلسطينية في الجمعية العامة، يقول هيكل في هذه المقالة: "لا أريد الخوض في مسائل القانون أو العدالة، وكل ما أريده هو ذكر الحقائق، وبوصفي رجلاً مسئولاً في بلادي المتاخمة حدودها لفلسطين... أطلب إليكم ألا تتغاضوا عن هذه الحقيقة، ألا وهي أن أحد القرارات التي قد تتخذونها سيؤدي إلى إراقة الدماء..."⁽¹⁾. وحول موقف مصر والدول العربية من اليهود يقول هيكل: "أؤكد لكم مرة أخرى أن مصر كغيرها من الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية لا تكن أي عداة نحو اليهود إلى الآن، وفي مصر والعراق وغيرها من الدول العربية شغل اليهود مناصب حكومية، في حين أن بعضهم الآن نواب وشيوخ في مجالسنا البرلمانية... فما هو الدليل الذي تحتاجون إليه بعد ذلك على أن العالم العربي لا يفرق بين العناصر والأديان، وأنه لا يضر أي عداة للمواطنين اليهود"⁽²⁾.

حاول هيكل في خطابه أمام الجمعية العامة بالأمم المتحدة أن يقنع مستمعيه بقوة المنطق فذكر لهم الحقائق الخاصة بالقضية الفلسطينية، وحذرهم من اتخاذ قرارات تؤدي إلى إراقة الدماء، وعرض عليهم هذه الحقائق بوضوح لا يؤدي إلى جدل، فذكر أنه لم يدخل إلى الموضوع من جهة القانون أو من باب العدالة، إنما بصفته مسئول مصري يرأس وفد بلاده، وأن بلاده مصر تقع بجانب فلسطين، ومما عرضه هيكل أن مصر لا تعادي اليهود كيهود، بل إن اليهود في مصر والعراق قد شغلوا مناصب حكومية، ومنهم من وصلوا إلى مجالس البرلمان كنواب أو شيوخ، وهذا دليل على أن العالم العربي ليس عنده عنصرية على أساس الدين، واستطرد هيكل في مقاله بأن قرأ عليهم مقتطفات من مقالة نشرت في صحيفة (نيويورك بوست) في 21 نوفمبر سنة 1947م، وهي من أكثر الصحف مناصرة لليهود، حيث جاء في المقالة أنه بمجرد اشتعال القتال في فلسطين بين العرب واليهود فسيكون هناك قتلى كثير، وأن (الهاجانا) اليهودية تمتلك أسلحة سنقتل بها عددًا كبيرًا من العرب، وقال هيكل في ختام خطابه: "إذا قررتم تقسيم فلسطين، وأشعلتم نار حرب عنصرية، وكنتم السبب المباشر في سفك دماء العرب في فلسطين فستكونون عن طريق غير مباشر السبب في إراقة دماء اليهود في الشرق الأوسط"⁽³⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/53).

(2) المصدر السابق، ج5/53-54.

(3) المصدر نفسه، ج5/58.

لقد حَمَلَ هيكل بالمنطق والبحث الجاد والجدل المثمر الأمم المتحدة مسؤولية سفك دماء العرب واليهود في فلسطين، وطالبهم باتخاذ قرار حكيم يمنع سفكها، وهذا يدل على ذكاء هيكل السياسي، فلم يبد تحيزه الواضح تجاه إخوانه العرب في فلسطين وإن كان يضر ذلك، لكنه حاول أن يقنع مستمعيه بما يملك من أدلة وشواهد ومنطق حتى يؤثر ذلك على قرارهم، ومن ثم يمنع كارثة إنسانية قد تحدث بفلسطين، ولقد وقع بالفعل ما حذر منه.

كان هيكلٌ أثناء عرضه للأفكار يذكر ظاهرة ثم يحاول إيجاد تفسير لها، ففي مقالة له بعنوان (العالم بين الحرب والسلام) يقول هيكل: "يمتاز هذا العام بكثرة المؤتمرات والمعاهدات والاتفاقات التي عقدت فيه... كلها توحى إلى تصفية جو العالم من التوتر العنيف الذي سادته منذ انتهت الحرب العالمية الثانية، وإلى إقرار السلام... وأنت مع هذا ترى في المعاهدات التي عقدت تناقضاً، وترى فيها ما لا يتفق وأغراض السلم التي يعلن الجميع أنهم يسعون إلى توطيد أركانه... أترانا نستطيع التوفيق بين هذا التباين في الاتجاه الشرقي أو في الاتجاه الغربي... وإذا نحن لم نستطع التوفيق، فهل نستطيع على الأقل تفسير هذه المواقف المتناقضة؟"⁽¹⁾.

بعد الحرب العالمية الثانية سادت العالم حالات من التناقضات السياسية، فكل الساسة يظهرون حرصهم الشديد على السلم العالمي وإنهاء العنف والتوتر سواء في الشرق أو الغرب، وهم من أجل ذلك يعقدون المؤتمرات والمعاهدات والاتفاقيات، لكن الواقع الملموس يظهر غير ذلك، فالتناقض والتباين واضح بينهم، فهنا يحاول هيكل أن يجد لهذه الحالة الغريبة أو الظاهرة العجيبة تفسيراً فيقول: "تفسير هذه الظاهرة أن العالم يسوده اضطراب فكري يجعل كبار الساسة فيه عاجزين عن أن يتبينوا طريقهم السوي... وهذا الاضطراب الفكري يزداد ما بين آونة وأخرى إذ يطالعهم العلم بمكتشفات لم تكن في حسابهم من قبل، وهم لهذا يتحسسون طريقهم كل صباح، ويحيون يومهم متربصين ما يجيئ به الغد، وهم إلى ذلك مختلفوا الميول والنزعات اختلافاً زاده منذ الحرب العالمية الأولى ظهور قوى جديدة في العالم لم يكن يحسب حسابها من قبل، وفي هذا المضطرب يتأرجح العالم منذ سنوات"⁽²⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/221-222).

(2) المصدر السابق، ج5/222.

أرجع هيكل هذا الاختلاف بين الشرق والغرب إلى الاضطراب الفكري الذي يسيطر على كبار الساسة في العالم ويزداد تأثيره عليهم يوماً بعد يوم، والذي قد يغير المعادلة بين فينة وأخرى عندما تظهر قوى جديدة في العالم لم يكن يحسب حسابها، وهذا هو سبب الاضطراب والتأرجح في المواقف السياسية.

أيًا كان الأمر بالنسبة لتفسير هذه الظاهرة، فإن الباحث يبدي إعجابه بطريقة عرض هيكل لهذه الظاهرة ومحاولته تفسيرها، وهذا دليل على أن هيكلًا كان لا يقبل الأمور على علاتها، بل يجتهد للوقوف عندها مستكشفاً ما وراءها، ومفسراً لما تحمله من ألغاز.

ومن الأساليب التي اتبعها هيكل في عرض أفكاره تقديم المقدمات واستخراج النتائج، ففي مقالة له بعنوان (السلام البارد)⁽¹⁾ أراد هيكل أن يبين خطورة السلام البارد وأثره في الحياة، فتحدث في البداية عن الحرب الباردة التي أدت إلى سلام بارد يشويه الخوف والقلق من أن تعود الحرب الباردة أو الحرب الحامية -على حد تعبير هيكل- ثم تحدث عن مظاهر السلام البارد التي أبرزها عدم الثقة بين الأمم، وبين الأفراد كذلك، ثم ذكر أثر السلام البارد على الاقتصاد العالمي وما يسببه من أزمات اقتصادية واضطرابات في الحياة الاقتصادية.

بعد تقديم هيكل لهذه المقدمات يحاول أن يستخرج النتائج، والخلاصة التي وصل إليها فيقول: "إذا انعدمت الثقة اضطرب الاستقرار، فترددت البنوك في معاملاتها، وتأثرت الصناعة بهذا التردد، وتأثر العمل والعمال بتأثر الصناعة، وتأثرت الحالة الاجتماعية بتأثر العمال... اضطراب ينتشر من ميدان إلى ميدان، ومن طبقة إلى طبقة حتى يتناول المجتمع كله من كل نواحيه، وهذه نتيجة من نتائج السلام البارد"⁽²⁾.

من طبيعة البشر أنهم يميلون إلى السلام ويكرهون الحرب لما تحدثه من ويلات، لكن هيكل رأى أن للسلام البارد خطراً لا يقل عن خطر الحرب لما يحدثه من أثر سلبي على الحياة العامة، ففي هذه المقالة تحدث هيكل عن أسباب وجود ما يسمى بالسلام البارد، ثم بين طبيعته، ثم ذكر مظاهره، وأخيراً تطرق إلى نتائجه، ومن اللافت للنظر أن هيكلًا رتب النتائج بعضها على بعض، فلكل نتيجة علاقة بأختها، فعدم الثقة بين الدول والأفراد يؤدي إلى عدم الاستقرار، وعدم الاستقرار يؤدي إلى تردد البنوك في معاملاتها، هذا التردد يؤثر على الصناعة، وتراجع

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/191).

(2) المصدر السابق، ج5/192.

الصناعة يؤثر على العمل والعمال، وهكذا فإن المحصلة النهائية لهذا التأثير الاقتصادي السلبي سيشمل المجتمع بأسره، بل الحياة كلها.

المتأمل في عرض هيكل للأفكار يجد حرصه على ترتيب الأفكار وتسلسل المعاني، ففي مقالة له بعنوان (المثل الأعلى وسيلة العمل المحبوب) حاول فيها أن يرسم صورة للمثل العليا في الحياة قائلاً: "إن هذه المثل العليا جميعاً تستحق الإعجاب والتقدير كما يستحقها حب العمل والإخلاص للغاية السامية إخلاصاً صادقاً، فهذا الحب وهذا الإخلاص هما أثمن ما في الحياة، هما مفتاح سرها في الحياة، بل ما في الوجود كله من كمال وجمال، وبهما تستطيع الإنسانية التقدم"⁽¹⁾.

وقبل أن يصل هيكل إلى ما وصل إليه سابقاً ذكر مجموعة من الأفكار، فرتبها وسلسل معانيها كالتالي⁽²⁾:

1- ذكر صور فقراء الهنود الذين يقضون حياتهم يعانون ألواناً من تعذيب نفوسهم ابتغاء طهارة أرواحهم، والصعود بها لتتصل بالملأ الأعلى.

2- طرح هيكل رأي الفيلسوف الألماني نيتشه المتمثل في أن المثل الأعلى الحق هو في قوة الغلب والاستعلاء.

3- ناقش هيكل التناقض بين الصورتين السابقتين، وبين أن بينهما صوراً أخرى كصورة الفلاح الذي يذهب إلى المسجد ليؤدي صلاة الفجر ثم ينطلق إلى مزرعته ليعود منها مساءً، وصورة لشخص يسعى لامتلاك ثروة وجاه، وصورة لشخص آخر يجمع بين المال والجمال.

4- وذكر هيكل صورة مميزة خاصة برجال الفن المُحبُّون لفنهم المخلصون له، المترفعون عن الاتجار به، وقصد برجال الفن كل المخلصين في أعمالهم سواء أكانوا علماء أم عمال أم صناعاً أم أرباب الفنون الجميلة، غايتهم من إخلاصهم بلوغ المثل الأعلى.

5- في الفكرة الأخيرة يتحدث هيكل عن رؤيته للمثل الأعلى وكيف يتحقق، فيذكر أنه يصبح واقعاً إذا تغلب الإنسان على الحياة بالسمو فوقها، وعن طريق العمل وحبه وجني ثماره والسعي إلى الكمال والجمال.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/93).

(2) ينظر: المصدر السابق، ج2/89-93.

مما سبق يلاحظ الباحث أن هيكلًا كان حريصًا على ترتيب أفكاره وعرضها بشكل مناسب، وقد حاول أن يجعل لكل فكرة منها مذاقًا خاصًا من خلال تنوع الصور التي توضحها، أو عندما تناولها بالمناقشة، لقد برع هيكل في الوصول إلى الفكرة الرئيسية التي أرادها دون تكلف أو عناء.

ويضاف إلى ترتيب الأفكار حرص هيكل على حسن التقسيم والاستناد إلى الأرقام، ففي مقالة له بعنوان (التشريع المصري والفقہ الإسلامي) قسم هيكل منهجه في الحياة فقال: "المعرفة رأس مالي، والعمل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله تعالى أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر رداي، والرضا غنيمتي، والفقر فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، وطاعة الله حسبي، والجهاد خلقي، وقرّة عيني في الصلاة"⁽¹⁾.

هذا التقسيم يحمل معاني جميلة شاملة، من تمسك بها وحققها في ذاته شعر بالسعادة، لأنها تبعث على الطمأنينة والاستقرار النفسي، وتدفع عن النفس القلق والاضطراب جانبًا، فما أجمل هذا المنهج الذي عنوانه الزهد والصبر والصدق واليقين والطاعة.

وكان هيكل يستند إلى الأرقام في مقالاته ذات البناء الموضوعي، ففي مقالته التي جاءت بعنوان (تنظيم التعليم في مصر) يقول: "كانت مدارس التعليم الثانوي للبنين سنة 1920 تسعًا، بها 3314 تلميذًا، أما الآن فهي ست وثلاثون بها 19749 تلميذًا، وقد انتقل عدد مدارس التعليم الابتدائي من 34 في سنة 1920م إلى 932 مدرسة الآن، وانتقل عدد تلاميذها من 10749 في سنة 1920م إلى 24301 الآن"⁽²⁾.

ومن مميزات عرض الأفكار عند هيكل الدقة في الشرح والتحليل، ففي مقالة له بعنوان (مصر لمن؟ للمصريين أم للأجانب؟) حيث بدأ هيكل فكرة مقالته من بحث نشر في جريدة (الطان) الفرنسية، فقد اتهم هذا البحث قادة الرأي العام في مصر الذين تعلموا في أوروبا ميلهم إلى الحضارة الإسلامية وعزوفهم عن الحضارة الأوروبية، وعدم الميل إلى الأجانب المقيمين في مصر بل مقتنهم، لقد اهتم هيكل بهذه التهمة فقام بشرحها وتحليلها، فذكر التالي⁽³⁾:

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/18).

(2) المصدر السابق، ج4/212.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ج3/63-67.

1- هذه التهمة جزء من السياسة الأجنبية الموجهة إلى الشرقيين حيث يرون أن من أسبابها انحطاط هذه الشعوب وتأخرها، وعدم فهمها للتسامح، وهي تطرح باستمرار في مناسبات مختلفة، من أجل تحقيق مطامع سياسية أو تبرير لإجراءات قمع، حيث إنها انتشرت وأصبحت ظاهرة فشلت عاطفة قومية عندهم، أو اتجاهًا فكريًا له آثاره في السياسة الأوروبية والسياسة الشرقية.

2- فسر هيكل قصد الأجانب من هذه التهمة وهذا الادعاء بأن المصريين لا يُقبلون على الأجانب ولا يعتبرونهم أصحاب حق في مصر كأبناء مصر، وتساءل هيكل أليست معاملة الأجنبي في أي بلد من بلاد العالم تختلف عن معاملة ابن البلد؛ لأن أهل البلاد ينظرون للأجنبي بأنه دخيل يريد أن يشاركهم حقوقهم وأرزاقهم بغير حق في بلادهم؟ لذلك تصدر القوانين لحماية أهل البلاد منهم بالتضييق عليهم، وهذا معمول به في أوروبا نفسها، وفي فرنسا بشكل خاص التي انطلق منها البحث والتهمة في جريدة (الطان).

3- يرى هيكل أن هذه التهمة باطلة في مصر، لأن الأجانب يمسون بخناق مصر من الجهة الاقتصادية، فبأيديهم مفاتيح البنوك والشركات الكبرى، فثروة مصر ليست ملكًا لمصر بمقدار ما هي ملك للأجانب، وأبناء مصر لا يعملون لحساب مصر بمقدار ما يعملون لحساب الأجانب، فرأس مال الشركات الأجنبية في مصر يبلغ ثمانين مليون جنيه، ودين مصر الذي أكثره مملوك للأجانب يبلغ تسعين مليونًا. ويتساءل هيكل مرة أخرى: أليست هذه التهمة الموجهة لمصر تدل على تعصب الأجانب ضدها وكرهيتهم إياها؟.

4- لقد حلل هيكل هذه التهمة الموجهة إلى المصريين عامة وإلى المتعلمين منهم في أوروبا خاصة للتأثير عليهم وإضعافهم حتى لا يغدوا ثروتهم القومية التي تقوم على تقوية الاقتصاد والخلق والسياسة وكل ما يتصل بالوطن، ويرد هيكل على هذه التهمة بأنهم لا ينكرون فضل البلاد التي تعلموا فيها، وعلى هذا الأساس تُبنى الصداقة بينهم، وأنهم في مصر ضيوف لهم حق الإكرام، أما اتهامهم بالتعصب والتقصير في حق الأجانب فهذا غير مقبول على الإطلاق لأن وراءه غاية تهدف إلى ألا تكون مصر للمصريين اقتصاديًا وثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا.

5- في النهاية يقر هيكل بأن الأجانب في مصر ضيوف مرحب بهم لا سادة يتحكمون في شئوننا، وأنه يجب على المصريين ألا يخشوا هذه التهمة الموجهة إليهم، فإله خلق مصر للمصريين، وخلق المصريين في مصر ليكونوا سادة في وطنهم لا أجراء عند الأجانب.

بعد هذا الشرح الواضح والتحليل الدقيق الذي بينه هيكل في هذه المقالة، يقف الباحث مبدئياً ملاحظاته التالية:

1- أظهرت هذه المقالة مدى وعي هيكل بالطبيعة الاستعمارية للأجانب، وأبرز مقاصدهم حيث كانوا ينوون الهيمنة والسيطرة على خيرات البلاد العربية وإغراقها في الديون، وبين خبثهم ومكرهم، وفضح سياستهم المبنية على العنصرية والكراهية للعرب والمسلمين.

2- وضح هيكل الخطورة المترتبة على كيل الأجانب للاتهامات الباطلة للعرب عامة وللمصريين خاصة، فذكر أنهم يهدفون من وراء ذلك إضعافهم وتشكيكهم في دينهم، وقتل الروح الوطنية والقومية عندهم من أجل إخضاعهم لهم، ومن ثم الانسلاخ عن دينهم، والتخلي عن عروبتهم، والتنصل من هويتهم الوطنية.

3- اعترز هيكل في هذه المقالة بقوميته والتمسك بوطنيته، وأبدى غيرته على دينه، وأقر بالسيادة الكاملة للمصريين على مصر، وأنه قوي لا يضعف أمام المغريات أو الاتهامات.

4- أصدر هيكل على الأجانب حكماً فيه عدل وإنصاف، فموضوعيته جعلته يحدد نوع العلاقة معهم، فجعل لهم حق الصداقة والضيافة والكرم لا حق السيادة والسيطرة على بلاده سياسياً واقتصادياً وثقافياً لأنه يدرك تماماً عقليتهم الاستعمارية المبنية على الاستعلاء والطمع.

كان هيكل أثناء عرضه للأفكار يسوق الشواهد التي تدعمها للتأكيد على صحتها وصوابها، ففي حديثه عن القواميس المتداولة اليوم رأى أن بعضها قاصر لا يفي بحاجات العصر، وبعضها به أغلاط وتحاريف بسبب اللهجة والبيئة، وطالب بتقييد ألفاظ اللغة وضبطها حتى لا يتسرب إليها ألفاظ قد تفسدها، وذكر أن ذلك كان سبباً من الأسباب التي دفعت بعض العلماء إلى وضع معاجمهم، وللتأكيد على هذا السبب ساق هيكل شاهداً لذلك قول صاحب لسان العرب: "وذلك لما رأيت قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد صار اللحن في الكلام يعد لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعاييب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعجمية، وتفاصحو في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون وصنعتة كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون"⁽¹⁾.

(1) ينظر: هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/186).

وبعد أن ينتهي هيكل من عرض أفكاره يعمد إلى الخاتمة التي هي ثمرة المقالة ونتيجة لها، حيث تأتي هذه الخاتمة واضحة وصريحة، وأحياناً تلخص العناصر الرئيسية المراد إثباتها في عرضه، وأحياناً تأتي الخاتمة حازمة، تدل على ثبات وثقة ويقين، يقول هيكل في خاتمة مقالته (دور مصر في الجمعية العامة للأمم المتحدة): "لن نرضى الظلم، ولن نقبل الهوان، ولن نُفرض علينا سياسة يملها الصهيونيون وَمَنْ وراءهم من أشياعهم... سيرى الصهيونيون وغير الصهيونيين ممن يؤيدون سياستهم أن أبناء البلاد العربية قوم إذا قالوا فعلوا، وإذا لم ينتصروا في جولة انتصروا في الجولة التي بعدها، وأن لهم النصر الأخير في كل حال، ذلك بأنهم مع الحق، وبأن الله هو الحق، فالله معهم، وهو ناصرهم"⁽¹⁾.

بعد استعراض طريقة هيكل في كتابة مقالاته ذات البناء الموضوعي الخاصة بالمقدمة والموضوع والخاتمة، فإن الباحث يسجل ملاحظاته التالية:

1- احتوت معظم هذه المقدمات على عنصر التشويق حتى لمس الباحث أن فيها نوعاً من الجاذبية نحو الموضوع، كما لاحظ أن هناك علاقة قوية بين عناوين المقالات وهذه المقدمات، وهذا أعطى الموضوع حيوية خاصة من بدايته، وأن السبب في اختلاف حجم المقدمة من مقالة إلى مقالة يرجع إلى طبيعة الموضوع ذاته.

2- استطاع هيكل أن يعرض أفكاره عرضاً كاملاً واضحاً ومفصلاً وبشكل مرتب ومتسلسل، وكان منطقيًا في طرح أفكاره، ودقيقاً في شرحه وتحليله لها، كما كان حريصاً على الإقناع بها من خلال ذكر الحقائق وتفسير الظواهر وسوق الأدلة والشواهد، وكان يركز على استخراج النتائج التي كان يصل إليها دون تكلف أو عناء.

3- كان هيكل حريصاً على أن تكون الخاتمة ذات ثمرة وفائدة، فكان ديدنه فيها الصراحة والوضوح، وكان يقول فيها رأيه، وكان عندما يختم مقالته يكون على درجة عالية من الإيمان بالله والثقة بالنفس، واليقين بصحة ما أراد.

رابعاً- خصائص المقالة ذات البناء الموضوعي عند هيكل:

بحكم طبيعة هذا النوع من المقالة وما تستلزمه من موضوعية، فإن هيكل كان حريصاً على بيان الحقائق وإيصالها إلى الأذهان بكل وضوح، ففي مقالة له بعنوان (الثقافة وحماية الاستقلال) يذكر هيكل هذه الحقيقة فيقول: "الرقى الثقافي للشعوب من وسائل الدفاع عن الحرية

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/74).

والاستقلال، وهو إلى هذا يفتح أمامنا مغالقات ما في الحياة من جمال ويحبب إلينا الحياة، ويجعلنا ندافع عن مثلنا العليا فيها، وفي مقدمة هذه المثل حرية بلادنا وكرامتها وعزتها⁽¹⁾.

في هذه الفقرة وضح هيكل أمرين:

الأول: أن للرفي الثقافي أثر إيجابي على وعي الجماهير، وفي بعثهم ونهضتهم مما يحفزهم على الدفاع عن حريتهم واستقلالهم وكرامتهم وعزتهم ومثلهم العليا.

الثاني: أن للرفي الثقافي فوائد جمة منها أنه يحبب الحياة إلى الناس فيتمتعون بجمالها، ويفتح الآفاق أمامهم.

ومن خصائص المقالة الموضوعية عند هيكل أنه استخدم الألفاظ دقيقة الدلالة في معانيها الأصلية، ففي مقالة له بعنوان (الهلال والصليب الأحمر والأديان السماوية) يقول هيكل: "رسالة الصليب الأحمر والهلال الأحمر رسالة بر ورحمة، فهما يواسيان المنكوبين في الحروب، ومن نزلت بهم الكوارث من جراء هياج الطبيعة وثورانها"⁽²⁾.

تحدث هيكل في هذه الفقرة عن الرسالة الإنسانية التي يؤديها كل من: الصليب الأحمر والهلال الأحمر، هذه الرسالة وصفها هيكل وصفًا دقيقًا جمع فيها كل معاني الخير (البر والرحمة)، ثم تحدث عن وظيفة هذه الرسالة فذكر أنها تواسي المنكوبين في الحروب، فالحروب دائمًا تجر النكبات والويلات، وهؤلاء المنكوبون أشد ما يحتاجون أثناء الحرب وبعدها إلى المواساة والدعم المادي والمعنوي، ويحتاج إلى هذه المواساة وهذا الدعم ضحايا الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والبراكين والفيضانات.

ويلاحظ أن هذه الألفاظ عبرت عن معانيها الأصلية ودلت على المراد منها، فخلت من ألوان البيان والبديع.

ومن سمات هذا النوع من المقالة أن أسلوبها حقيقي تقريرى، فلا مجال للأسلوب الإنشائي فيها، ففي مقالة لهيكل بعنوان (الاجتهاد والتقليد) يوضح فيها كيف أن فقهاء وعلماء المسلمين وضعوا القواعد، ونظموا حياة الأفراد في كل كبيرة وصغيرة، معتمدين في ذلك على القرآن الكريم أولًا ثم الحديث والسنة ثانيًا ثم الإجماع والقياس والاجتهاد، وقد فصل هيكل هذه الأمور الخاصة بالإنسان قائلًا: "كيف يأكل الإنسان وكيف يشرب، وكيف يستحم، وكيف يمشي، وكيف يتعاشر

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/321-322).

(2) المصدر السابق، ج5/291.

مع غيره، وكيف يؤدي التحية، وكيف يردها، وكيف يقوم، وكيف ينام، وكيف يعامل أهله في بيته...»⁽¹⁾.

كل هذه الأساليب حقيقية تقريرية، فالأكل هو الأكل الحقيقي والشرب هو الشرب الحقيقي فلا مجال للمجاز أو لغيره من تشبيه أو تورية.

ومن هذه الخصائص -أيضاً- أن الأفكار تميل إلى الصرامة والجفاف لأنها تخلو من العاطفة والخيال والبديع، ومثال ذلك ما وضعه هيكل عندما تحدث عن آثار تقسيم فلسطين في الحاضر والمستقبل قائلاً: "إن أخطاء الساسة كثيراً ما تتساوى مع الجرائم، لأنها تمهد للقلق والاضطراب، وتمهد للثورات والحروب، وتمهد للقتل والخراب والدمار، والصيحة التي ارتفعت بتقسيم فلسطين... تساوي الجريمة في أبشع صور الجريمة، بل هي في نظري أبشع من كل عبث سياسي أثبت الزمان خطأه، ورفعته إلى صف الجريمة، لما يترتب عليه في حياة العالم من آثار ذهبت بعشرات الألوف بل بالملايين من الأرواح البريئة ضحية لهذا الخطأ، وسيرى الذين نادوا بسياسة تقسيم فلسطين أن ما يحاولونه من تنفيذ هذه السياسة بالبطش والقوة ستبقى آثاره أجيالاً متعاقبة، وسيصلى ناره الألوف والملايين من الناس، لا في فلسطين وحدها، ولكن في أرجاء الأرض جميعاً"⁽²⁾.

بين هيكل في هذه الفقرة أن أي خطأ سياسي يرتكبه الساسة له ثمنه الباهظ، بل يعد جريمة نكراء لما يترتب عليه من حروب وقتل وخراب ودمار وتشريد، والجريمة الكبرى التي ارتكبتها الساسة الدوليون والتي تحدث عنها هيكل هي موافقتهم ودعمهم لقرار تقسيم فلسطين، هذا القرار الجائر عبث بحياة شعب بأكمله فشرده من أرضه، وعرضه للمذابح والمجازر الصهيونية، بل جعل المنطقة العربية كلها في حالة غليان دائم.

يرى الباحث أن رؤية هيكل السياسية الخاصة بخطر تقسيم فلسطين وما يترتب عليها كانت رؤية ثاقبة وعميقة، فكل الذي حذر منه وما كان يتوقعه حدث بالفعل.

أما الأفكار التي وردت في هذه الفقرة فقد انسجمت مع طبيعة الموضوع، فجاءت جافة تخلو من الجمال البلاغي، فلا عاطفة ولا صوراً خيالية ولا محسنات بدعية لأن المجال لا يتسع لذلك.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/243).

(2) المصدر السابق، ج67/5.

من الخصائص -أيضاً- أن اتجاه هذا النوع من المقالة يميل إلى الإفهام والإقناع وليس الإمتاع، بمعنى أن الكاتب فيها يحرص على إفهام القارئ وإقناعه بما يكتب، فالمهم عنده وصول الفكرة بوضوح حتى يتم استيعابها عن قناعة، يقول هيكل في مقالة له بعنوان (لغتنا العلمية): "لا بد من تطويع ألفاظ العلم، ليفهمها أوساط المتعلمين، أو ليفهمها على الأقل الحاصلون على إجازتهم الجامعية العليا... ولا سبيل إلى تطويع ألفاظ العلم إلا أن يتولى المشتغلون بالعلم أنفسهم هذه المهمة... عملوا على أن يتصل الجمهور بهذه الألفاظ عن طريق ما يكتبونه تبسيطاً للعلم، وما يلتزمون لذلك إليه من مختلف الوسائل، مستعينين بالأدباء والصحف والمجلات لهذا الغرض"⁽¹⁾.

طرح هيكل فكرة جديدة على المجمع اللغوي، وهي أن يقوم الأساتذة العلماء المتخصصون بتبسيط العلم وتطويع ألفاظه كل في مجاله، ويعفى من هذا الأمر المجمع اللغوي وحتى تجد هذه الفكرة قبولاً، وتكون أكثر إقناعاً صوغ لها بأن هؤلاء العلماء هم أكثر من غيرهم خبرة، وأدق تخصصاً، ثم حدد لهم الوسيلة وهي أن يوصلوا هذه الألفاظ إلى الجمهور عن طريق ما يكتبونه في الصحف والمجلات، ويساعدهم في هذه المهمة الأدباء.

مما سبق فإن الباحث لاحظ أن هيكلًا في مقالاته ذات البناء الموضوعي قد حقق خصائص وسمات تتناسب مع طبيعة هذه المقالات وخصوصيتها، فقد كان حريصاً على إيصال الحقائق بوضوح وموضوعية تامة، وأنه استخدم الألفاظ دقيقة الدلالة في معانيها الأصلية كما استخدم الأسلوب الحقيقي التقريري، وأن أفكاره كانت تميل إلى الجفاف، وأنه كان حريصاً على الإفهام والإقناع.

خامساً - ملامح شخصية هيكل من خلال مقالاته ذات البناء الموضوعي:

أقبل هيكل على الموضوعات التي كتب فيها بثبات واقتدار، فثباته كان واضحاً من خلال مواقفه الشجاعة، وصراحته الجريئة، وتمثل ذلك من خلال:

1- محاولته قول الحق ولو كان مرأ، أو كلفه الكثير، أو وضعه في حرج شديد، فلقد دعا هيكل إلى مبدأ استقلال الجامعة المصرية عن الوزارة "وهو مبدأ مقرر في بلاد العالم كلها... والجامعة في العهود المختلفة تبدو من حيث صلتها بوزير المعارف مستقلة في الظاهر، ولكنها في الحقيقة تخضع لسياسة البلاد في كل عهد، تخضع للسياسة خضوعاً فعلياً، إن لم يكن هذا الخضوع قانونياً... إننا نرى في هذا الوقت وفي هذه السنين الأخيرة الطلاب

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/355-356).

يتحكمون في أساتذتهم وفي عمدائهم، بل نراهم يتحكمون فينا نحن رجال الهيئة التشريعية، كما نراهم يتحكمون في رجال السلطة التنفيذية⁽¹⁾.

إن هذا الكلام الواضح الذي لا يحتمل التأويل، والصريح الذي لا يقبل التفسير، ليدل على أن هيكلًا كان رجلًا حرًا وصاحب مبدأ وموقف ورؤية، وكان يملك إلى جانب ذلك القدرة على البيان، والقوة في التعبير، فكان يدافع عن مبادئه بإيمان راسخ، ويطرح رؤيته بكل شجاعة، ويعبر عن موقفه بكل جرأة، فالحق في نظره أحق أن يُتَّبَع، والحقيقة يجب أن ترى النور، والباطل لا بد أن يُزْهَق.

2- ومن ملامح شخصية هيكل التي برزت في هذا النوع من المقالة قدرته على توجيه النقد للحاكم والمحكوم على حدٍ سواء، ففي مقالته (الاجتهاد والتقليد) يقول هيكل: "وفي رأينا أنه لا مفر للعالم الإسلامي كي ينهض النهضة الخليفة بالدين القيم من أن يحطم قيود التقليد الأعمى، وأن يفتح باب الاجتهاد، وأول ما يجب لذلك أن يقضي في النفس الإسلامية على فكرة النظام الاستبدادي والحق المطلق في الحكم... الحاكم في الإسلام معرض للنقد المستمر والتقويم المتصل... ومن يتعد حدود الله حاكمًا كان أو محكومًا فقد أثم قلبه، ومن أثم قلبه حاكمًا كان أو محكومًا فقد حق عليه الجزاء"⁽²⁾.

الحاكم والمحكوم في نظر هيكل سواء، فكلاهما لا بد أن يخضع للنقد والتقويم حتى تستقيم أمور الحياة، ويرى هيكل أن العالم الإسلامي لن ينهض أو يتغير حاله إلى الأفضل ما دام هناك حكم استبدادي يتحكم فيه، وعلى مبدأ الشورى يجب أن يكون الحكم قائمًا، فالانفرادية تمثل الدكتاتورية المرفوضة، لأن الحاكم إنسان مُعْرَضٌ دائمًا للخطأ، هذا الخطأ ربما يكون جسيمًا فيعرض الأمة كلها إلى الخطر والهلاك.

3- ومن ملامح شخصية هيكل في هذا السياق، الحياد والموضوعية، يقول هيكل في مقالة له بعنوان (عالم يسوسه العجز): "ولسنا نبتغي تأييد وجهة النظر الأمريكية أو وجهة النظر السوفييتية، وغاية ما نقوله أن السياسة العالمية أظهرت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية من العجز ما لا نعرف له نظيرًا في التاريخ، فقد انتهت هذه الحرب بالفعل منذ أكثر من عشر سنوات، ومع ذلك لم يعقد صلح يقر أمور العالم في نصابها من بعد انتهائها، بل أصبح

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/227-228).

(2) المصدر السابق، ج2/249.

المهزومون في تلك الحرب خير حال من المنتصرين، وانقسم المنتصرون فيما بينهم وأصبحوا أعداء ألداء⁽¹⁾.

هذه نظرة تحليلية لهيكل حول السياسة العالمية، حيث اتسمت هذه النظرة وهذا التحليل بالموضوعية، بل إن موقف هيكل كان حياديًا تجاه السياسة الأمريكية والسياسة السوفييتية، فلم يميل إلى أحدهما، وقد أعرب هيكل في هذه الفقرة عن عدة أمور:

الأول: أنه ليس مع السياسة الأمريكية ولا مع السياسة السوفييتية لأن سياستهما هي التي أدت إلى الحروب والكوارث، فالطرفان في نظره وقعا في الخطأ، وليس أحدهما أفضل من الآخر.

الثاني: أن السياسة العالمية أصابها العجز لأنها قاصرة عن أن تعقد الصلح بين القوى المتحاربة بعد مضي عشر سنوات على انتهاء الحرب العالمية الثانية.

الثالث: موازين القوى تغيرت فالمنتصرون انقسموا وتفرقوا ودب بينهم العداء، والمهزومون أصبحوا أحسن حالًا من المنتصرين.

بعد هذا العرض، تبدو صورة هيكل أكثر وضوحًا، فهي توحى بقوة شخصيته، فقد كان صاحب موقف ومبدأ ورؤية يعبر عنها جميعًا بحرية وطلاقة، حيث كان صريحًا في رأيه، أمينًا في طرحه، موضوعيًا في نقده، حياديًا في تقييمه.

ثالثًا - البناء الموضوعي الذاتي:

يغلب على المقالات ذات البناء الموضوعي الذاتي الطابع العلمي إلا أنه يأخذ من الأسلوب الأدبي بعض سماته، ويلاحظ أنه قد يطغى أحدهما على الآخر أحيانًا، لكن الكاتب المختص والمحترف هو الذي يجمع بينهما بتوازن، فلا مجال لطغيان أحدهما على الآخر.

لذا ينبغي المحافظة على طبيعة الموضوع من حيث إنه علمي، لكن لماذا يدخل الأسلوب الأدبي على الموضوع العلمي؟ إن الهدف من ذلك التخفيف من حدة الجفاف فيه، وتلطيف جو الموضوع، وبث الحيوية والإشراق فيه، وجعله أكثر بساطة ويسرًا لتستوعبه العقول، وتستهو به النفوس، وبذلك يكون قد نقل المعلومات والحقائق بشكل ممتع ومؤثر.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/260).

طبيعة المقالة ذات البناء الموضوعي الذاتي عند هيكل:

يبدو أن هيكلًا كان مولعًا بكتابة هذا النوع من المقالة، فقد كتب منها تسعين مقالةً أو يزيد قليلًا، وقد جاءت هذه المقالات متنوعة الموضوعات شملت قضايا علمية وإنسانية، فقد تناول هيكل فيها الأدب والشعراء، والتربية والتعليم والثقافة وبعض الكتب، وتحدث عن الحضارة والترجمة، وجمع في بعضها بين موضوعين مختلفين أو متناقضين، كما كتب باستفاضة عن الشئون المصرية مثل: القرية والفلاح والإصلاح والفن والتاريخ والحكم، وتكلم عن الحرية والشباب، وتوسع في حديثه فتناول موضوعات متعلقة بالوطن العربي وأعلام العرب والعالم والإنسانية، وتطرق إلى الموضوعات السياسية، والصليب الأحمر، وموضوعات متنوعة كثيرة.

وحول طبيعة هذه الموضوعات لاحظ الباحث ما يلي:

1- بعض الموضوعات تعالج قضايا مهمة تخص حياة المصريين، وتتبنى قضاياهم، وتحمل همومهم، وهي تخاطب جميع فئات الشعب المصري ابتداءً من الفلاح ومرورًا بأرباب العلم والفن، وانتهاءً بالحكام، وقد أظهرت هذه الموضوعات انتماء هيكل الحقيقي للوطن، وإخلاصه الصادق لبلاده، يقول هيكل: 'قباسم الوطن وباسم الإخلاص له، نهيب بالأكثرية المسلمة من أهل هذه البلاد أن تحذو حذو الأقلية في تعليم أبنائها، ونهيب بهؤلاء الأبناء أن يتوفروا على الجد والسعي، وألا يتركوا فرصة من فرص التحصيل تمر دون انتهازها... ونتوجه به كذلك كي يتعاون الكل أكثرية وأقلية في سبيل القضاء على هذا الخطر وفي سبيل تنمية ثروة البلاد العلمية والأدبية'⁽¹⁾.

لقد سمى هيكل تحكم الأقلية في الأكثرية خطرًا قياسًا على ما يحدث في بعض البلاد كتغلب الأقلية اليهودية على الأكثرية المسيحية في الشئون العامة، فرجال المال الأقوياء في أوروبا هم اليهود، ورجال العلم المبرزون هم اليهود، وأكثر الأسماء التي تحدث ثورات علمية أو اجتماعية هي أسماء يهود⁽²⁾.

وعي هيكل بما يحدث خارج مصر هو الذي دفعه لهذا التوجيه وهذا التنبيه الذي بدأه باسم الوطن وباسم الإخلاص له، وقد جاء هذا التوجيه متوازنًا وعقلانيًا فلم يثر الأكثرية ضد الأقلية، وإنما حاول أن يجمع بينهما على قاعدة الجد والسعي لتنمية ثروة البلاد العلمية والأدبية.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/36).

(2) ينظر: المصدر السابق، ج4/33.

2- احتوت هذه المقالات على موضوعات علمية وأدبية وفكرية واجتماعية وسياسية، أما الموضوعات الدينية فكانت قليلة، ويبدو أن هيكلًا كان حريصًا على طرق الموضوعات التي تمس حياة الناس بشكل مباشر، أو تناول موضوعات لها علاقة بالوعي الثقافي وبما يدور في المجتمع المصري والعربي والدولي، لذلك نجد أن هيكلًا كان في هذه الموضوعات وطنيًا يعترف بمصريته، وقومياً يعترف بعروبيته، وإنسانياً يعترف بانتمائه للمجتمع الدولي، يقول هيكل: "ولئن بلغ الإنسان ما بلغ من حب الإنسانية إلى حد الفناء فيها، فلن ينسيه ذلك قوميته، كما أن قوميته لن تنسيه يوماً من الأيام شخصيته، وكيف ينسى أحد أهل وطنه وهم أبداً مرجعه ومآله"⁽¹⁾.

رأى هيكل أنه لا غنى للإنسان عن وطنه ولا عن قوميته ولا عن إنسانيته، فهو مرتبط بها جميعاً، فالعلاقة بينها تكاملية، فلا غرابة أن يكون الإنسان -كما يرى هيكل- وطنياً وقومياً وإنسانياً في الوقت نفسه؛ لأنه لا يجد تعارضاً بينها، بل يرى أنه لا يمكن للإنسان أن يكون قومياً إلا إذا كان وطنياً، ولا يمكن أن يكون إنسانياً إلا إذا كان قومياً، فالانتماء لكل واحدة منها يمثل مستوى معيناً، هذه المستويات كحلاقات مترابطة، وترابطها هذا يعطي قوة ووعياً ومقاماً أعلى لمن يتمسك بها.

3- أظهرت هذه المقالات قدرة هيكل الفنية، فكان يدفع الملل والفتور عن جو المقالة، وكان يركز في الوصف الحسي، والشعور النفسي، كما أبرزت هذه المقالات تمكنه العلمي حيث التأمل العقلي، والتنظيم الموضوعي، والتنسيق الفكري، وقد تجلّى ذلك واضحاً من خلال التنوع في هذه الموضوعات والإجادة فيها، وفي مقالة لهيكل بعنوان (الكتابة والأدب) يتساءل فيها: "كيف وفق بعضهم إلى تصوير هذه الحقائق النفسية تصويراً أوفى على الغاية من البراعة والدقة... إنما تدعو إليه حاجتنا إلى تنظيم التفكير حتى لا يضطرب ويتشوش، وهو أثر محتوم للطريقة العلمية التي غزت عالم الفكر في الأجيال الأخيرة... والتفكير على هذه الطريقة العلمية أكفل ببلوغ ما نطمح في بلوغه من حسن أو خير أو جمال، وهو كذلك حسن في البحوث النفسية والروحية، بل هو كذلك حسن في الإنتاج الفني"⁽²⁾.

يرى هيكل أن الكاتب المجيد البارع هو من يصور الحقائق النفسية بدقة وعمق من جميع أبعادها وزواياها، ويجتهد في هذا التصوير حتى يصل بها إلى درجة الكمال

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/104).

(2) المصدر السابق، ج2/279-282.

والوضوح، من جهة ثانية دعا هيكل إلى ضرورة تنظيم التفكير للتخلص من الاضطراب والتشويش، فتنظيم التفكير طريقة علمية معتمدة في عالم الفكر، وهي أقصر الطرق لبلوغ الغاية في الجمال والخير والحسن، وفي البحوث النفسية والروحية والإنتاج الفني.

4- دلت الموضوعات الاجتماعية ذات البناء الموضوعي الذاتي التي تناولها هيكل في مقالاته على أنه كان حريصاً على تطوير مجتمعه وازدهاره، وذلك من خلال أداء الواجب وبذل الجهد والتضحية، كما دلت هذه الموضوعات على أن هيكلًا كان صاحب خبرة وتجربة اجتماعية، فكان يميل إلى الأصالة، ويحافظ على الكرامة، ويدعو إلى النزاهة في الحكم والإخلاص في العمل، يقول هيكل: "أداء الواجب يقتضي النزاهة فيه، والإخلاص له، وعدم النظر إلى المقابل المادي الذي تجنيه من ورائه، والتضحية في سبيله بالوقت والجهد بكل ما يحتاج إليه من وقت ومن جهد، ثم قدرنا أن خير جزاء لنا عن القيام بواجبنا هو رضى النفس، وطمأنينة الضمير"⁽¹⁾.

رأى هيكل أنه لا بد من بذل الجهد المتوج بالتضحية، وأداء الواجب المزين بالإخلاص، والعمل المعطر بالنزاهة في كل الميادين الاجتماعية دون توقع شكر من أحد، أو انتظار عائد مادي، وفي مقابل ذلك يكون الجزاء الأوفى من الله، ثم الوصول بهذا إلى رضى النفس وطمأنينة الضمير.

وخلاصة القول في طبيعة المقالة الموضوعية الذاتية عند هيكل أن موضوعاتها عالجت قضايا علمية وإنسانية مختلفة، وقد احتلت القضايا الاجتماعية التي تخص الشعب المصري المساحة الكبرى، فقد حاول هيكل فيها أن يجد الحلول المناسبة لهذه القضايا، ثم جاءت دعوته إلى العمل على ارتقاء وتطوير المجتمع المصري، كما دلت طبيعة هذه المقالات على شخصيته الواعية المثقفة العقلانية الوطنية القومية والإنسانية.

موضوعات المقالة ذات البناء الموضوعي الذاتي عند هيكل:

في هذا اللون من المقالات طرق هيكل موضوعات عديدة دلت على امتداد أفقه، وسعة ثقافته، وعمق خبرته، وأصالة تجربته، وقد كان له أثر ورأي في معظم الموضوعات التي تناولها خاصة التي كانت سائدة في عصره أو كان مجتمعه بحاجة إليها، وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد رأى الباحث أن يذكر بعض عناوين المقالات كنماذج للموضوعات التي تناولها هيكل، ففي مجال الأدب كتب هيكل (التجديد في الأدب وكيف أفهمه) و(الأدب بين جيلين) وتحدث عن

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/75).

شعراء فكان منهم (شوقي والملحمة القومية) و(إقبال شاعر الإسلام)، وفي التربية والتعليم تناول (مشكلة التربية) و(إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية)، وتحدث عن بعض الكتب منها: (عرض كتاب المملكة العربية السعودية) و(كتاب النظام السياسي في الولايات المتحدة)، وحول الحضارة كتب هيكل (أمل الحضارة في الأمم المتحدة) و(الحضارة المصرية القديمة وأثرها في الحضارة التي جاءت بعدها)، وعن الترجمة كتب (عصر ترجمة أم عصر تأليف) و(الترجمة للمعاصرين، سعد زغلول باشا وكتاب التراجم)، وكثير من المقالات جمع فيها هيكل بين موضوعين مختلفين مثل: (فصول شرعية اجتماعية) و(الحرب والحضارة)، أو جمع بين موضوعين متناقضين مثل: (الخير والشر) و(العالم القديم والعالم الجديد)، كما كتب بتوسع كبير عن الشؤون المصرية، فقد تحدث عن أهمية تعليم التاريخ في مصر في مقالته (تاريخ مصر وآدابها) و(تعليم التاريخ في نطاق العلاقات الثقافية الدولية 1947م)، وعن الحكم في مصر كتب (نظام الحكم في مصر ومبلغ إيمان ساستها به) و(الحياة النيابية وطبيعة الحكم) وعن الفلاح المصري (الفلاح وسياسة الإصلاح) و(واجبنا نحو الفلاح)، وحول الفن المصري (الفن المصري جهود جماعة الخيال في سبيله) و(هل من خطوة جديدة في سبيل الفن المصري) أما فيما يتعلق بالوطن العربي فقد تحدث هيكل في مقالاته عن ذلك تحت عنوان (العرب بين يومهم وغدهم) و(العروبة وجماعة الدول العربية، هل فشلت الجامعة العربية)، وعن بعض أعلام العرب المشهورين تحدث هيكل في مقالات عن (ابن خلدون حياته وتراثه الفكري) و(مع أبي العلاء في سجنه)، وحول العالم تحدث هيكل في مقالاته عن (أزمة العالم، أزمة خلق، وأزمة عقيدة) و(العالم بين يومه وغده)، وعن الإنسانية (العظماء والفكرة الإنسانية) و(الثروة الإنسانية) وعن السياسة (العلاقات السياسية كما ينبغي أن تكون بين الأمم) و(السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط)، وتحدث عن الصليب الأحمر (الصليب الأحمر ورسائله السامية) و(الصليب الأحمر واتفاقيات جنيف)، وتناول موضوع الحرية في (الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية) و(الحرية ومدلولها الإنساني)، كما تحدث عن الشباب في (الشبيبة والمستقبل) و(إلى أخواني الشبان)، إلى جانب ذلك تحدث هيكل في موضوعات عامة كثيرة مثل: (حكم العادة) و(الوجديات - في عالم الأرواح) و(الشعور بالواجب) و(عهد جديد) و(الرأي لمن يعلم) و(حكمة الحج أمس واليوم).

المتأمل في عناوين تلك الموضوعات يلاحظ أن هيكلًا كان حريصًا على تناول معاني الحياة، ففي مجال التعليم تحدث عن التربية والتعليم والعلم والثقافة والفقه والنقد والامتحانات، وفَصَّلَ المعاني الراقية مثل: الحضارة والمدنية والإنسانية والخير والسلام، كما تناول الجوانب الضرورية للحياة مثل: الحرية والمستقبل والإيمان والإصلاح والنظام والعلاقات والاستقلال،

وتحدث كذلك عن الجوانب الكمالية منها مثل: الفن والثروة والتجديد، وخاض هيكل في كثير من الأمور التي تتعلق بتنظيم الحياة مثل: التشريع والقضاء والعدالة والواجب والحكمة، وهناك أمور عادية تناولها هيكل مثل: الواقع والخيال والعادة، أما الجوانب السلبية في الحياة فقد تحدث عنها هيكل على استحياء مثل: الحرب والإلحاد والشر والأزمة.

من خلال معاني الحياة السابقة التي عرضها هيكل في مقالاته يحسب الباحث أنه كان يطمح أن يرى مصر دولة مستقلة ذات سيادة سياسية كاملة بعيدة عن التبعية الاستعمارية، ترفرف على كل أراضيها راية الحرية، وتُبنى على العلم والإيمان، وتعيش حياة مدنية حضارية راقية يحكمها النظام والقانون.

عناصر المقالة ذات البناء الموضوعي الذاتي عند هيكل:

تباينت أحجام المقدمات التي كتبها هيكل في مقالاته ذات البناء الموضوعي الذاتي، فتراوحت بين الطويلة والمتوسطة والقصيرة، لكن الذي غلب عليها الحجم المتوسط ثم القصير ثم الطويل، وقد بدأ هيكل هذه المقدمات بطرق مختلفة، فتارة بالنداء كما في مقالته (رسالة شوقي الشعرية) و(ثورة الأدب)، أو ذكر مناسبة كما جاء في مقدمة مقالته (إقبال شاعر الإسلام) و(عصر ترجمة أم عصر تأليف) أو بدأها بإذاعة خبر للتشويق مثل (شوقي والملحمة الكبرى) أو للإثارة مثل (على هامش السيرة) أو بالسؤال كما في مقدمة مقالته (الحضارة المصرية القديمة وأثرها في الحضارة التي جاءت بعدها) و(النور الجديد أيان يكون مطلعته)، وربما يأتي في المقدمة نوع من السخرية كما في مقالته (الحرب والحضارة -1) أو التهكم كما في (الحرب والحضارة -3)، وهناك مقدمات بعيدة عن العنوان أو لا علاقة لها به كما في مقالته (الحرب والحضارة -2) و(حكم العادة)، وفي بعض المقالات كان هيكل يدخل إلى الموضوع مباشرة كما في (لا صلة البتة بين التجديد والإلحاد) و(الحرب ومدلولها الإنساني) وكان يبدأ أحياناً مقدماته بعرض شكوى كما في مقالته (توحيد الثقافة والتعليم الأولي) و(باب النقد المجمع اللغوي) أو طرح مشكلة كما في مقاله (مشكلة التربية)، وكان هيكل أحياناً يدعو لقراءة كتاب معين في مقدمة مقالاته كما في مقالته (علم الدولة) أو تقديم مؤلف كما في مقدمة مقالته (فصول شرعية اجتماعية للعالم الباحث الأستاذ محمود شلتوت) وكان يذكر التاريخ كما في مقدمة مقالته (اتجاهنا الثقافي) و(القضية الفلسطينية).

بعد إلقاء الضوء على ما تميزت به مقدمات مقالات هيكل ذات البناء الموضوعي الذاتي وجد الباحث أن هناك تنوعاً وتبايناً فيها، فلم يُلزم هيكل نفسه طريقة معينة عند كتابتها، ويبدو

أن هيكلًا كان يجتهد بغير تكلف ودون الالتفات أو التركيز على شكل المقدمة، فعلى حسب هذا الاجتهاد تأتي المقدمة، وربما وقف هيكل قليلاً عند بعضها لكنه لم يعرها عناية كبيرة بحيث تبدو منمقة جاذبة، وربما كان لطبيعة الموضوع دور في فرض نوعية المقدمة حتى يكون بينهما انسجام وتناغم، ويُلاحظ الباحث أن هيكلًا كان يكتب بعض مقدماته على عجل، وأخرى يكتبها كأنها خاطرة جالت بنفسه، أو هي تعليق على حدث معين، ومن هذه المقدمات ما كان يميل إلى الواقع ويتوافق مع الأحداث والمناسبات، ويؤخذ على بعض مقدمات هيكل أنه كان يدخل فيها مباشرة دون تمهيد، وأنه لا يوجد في بعضها صلة تربطها بعنوان المقالة، وأن هيكلًا كان يذكر رأيه الشخصي مباشرة في المقدمة.

أما عرض الأفكار، فقد تناول فيها هيكل قضايا علمية وإنسانية كان لها دور كبير في إثراء الحياة الفكرية بما أثارته من أفكار جديدة، فمن القضايا العلمية التي طرحها هيكل قضية العلاقة بين العلم النظري والعلم التطبيقي، حيث يقول: "انتقل العلم سريعًا بعد خروجه من الميدان النظري إلى الميدان العملي، وبدأ العلم يغزو من ميادين الحياة والكون ما لم يكن أحد يفكر في غزوه تفكيرًا قويًا مستقرًا... فهذا الهواء قد أصبح في سلطاننا تطير طائرنا مخترقة إياه... وها هو النشاط العلمي موزع في كل ناحية من نواحي الحياة في الجماد والنبات والحيوان، في الأرض والماء والهواء، في الذرات والالكترونات، وما هو أدق... والعلم التطبيقي في هذا أكثر نشاطاً من العلم النظري وأغزر آثاراً مادية، وإن استمد العلم التطبيقي حياته من العلم النظري"⁽¹⁾.

تحدث هيكل عن العلم النظري والعلم التطبيقي، فبين أن العلم النظري هو الأساس، فقد سبق العلم التطبيقي في الوجود، وأن العلم التطبيقي اعتمد عليه كأساس للانطلاق إلى الميدان العملي، فاستمد حياته منه، لكن العلم التطبيقي سبق العلم النظري في النشاط وسرعة الانتشار في كل الميادين، وقد كانت آثاره المادية أغزر من الآثار المادية للعلم النظري.

كان هيكل يريد بذلك الوصول إلى أن العلاقة بين العلم النظري والعلم التطبيقي علاقة تكاملية، فلكل علم منهما فضله وقيمه، ولا يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخر، وكأنه يريد أن يؤكد على أن دائرة العلم لا تكتمل ولا تنهض إلا بالجمع بينهما، ثم أن هيكلًا عندما أشار إلى نواحي الحياة من جماد ونبات وحيوان وأرض وماء وهواء وذرات والالكترونات أراد أن يثير العقول، ويلفت الانتباه إلى أهمية التقدم العلمي في هذه المجالات وتسخيرها لصالح الإنسان من

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/150).

خلال الاختراع والاكتشاف، فالتطورات في زمن سابق كانت من المعجزات والخورق، لكنها بعد أن استخدمت أصبحت شيئاً عادياً، وعليه فإن هناك أشياء كثيرة بحاجة إلى الاكتشاف والتسخير والتوظيف لصالح الإنسان وخير البشرية.

ومن القضايا الإنسانية التي تعرض لها هيكل قضية الاهتمام بزيادة الثروة الإنسانية في العالم كله، وقد وضح هذه القضية بقوله: "الثروة الإنسانية التي أريد أن أتحدث عنها هي الثروة المعنوية، وهي أساس الحضارة القومية، كما أنها مصدر كل ثروة سواها... هي العمود الفقري لحياة الجماعات، وهي الثروة التي يمتاز الإنسان بإنتاجها غير محتاج إلى أي عنصر من عناصر الإنتاج الاقتصادي، غير محتاج إلى الطبيعة أو إلى رأس المال"⁽¹⁾ وقد وضح هيكل قصده بالثروة الإنسانية فقال: "أقصد بهذه الثروة الإنسانية ما أقام الإنسان خلال العصور من معنويات روحية وفنية وعلمية وفلسفية وما يتصل بذلك من الثمرات... وليس يتسع المقام للحديث عن أنتجوا الثروة الإنسانية في الأمم المختلفة وما كان لهم من فضل في إقامة البناء الضخم الذي تستند إليه حياة هذه الأمم المعنوية، وما تستمتع به من حضارة"⁽²⁾.

طرح هيكل هذه القضية المهمة، لأنه كان يعلم النتائج المترتبة عليها، فلكثير من الأعلام بصمات إيجابية في الحياة، وأثار خالدة في هذه الدنيا، لكنهم لم يجدوا من يقدرهم ويعرف قيمة أعمالهم، لأن المقياس المادي في نظر كثير من الناس يطغى على المقياس المعنوي ويتفوق عليه، هؤلاء الناس الذين تركوا خلفهم ثروة إنسانية عظيمة، فرفعوا المعنويات التي كانت بحاجة لمن يرفعها من خلال مواقفهم الإنسانية النبيلة، وفكرهم الإنساني المجيد، ونتائجهم الفني الإنساني المؤثر، هؤلاء لم يألوا جهداً من أجل إسعاد البشرية، فكانوا يواصلون ليلهم بنهارهم ليبحروا في عالم الفن والعلم والفلسفة؛ ليبحثوا فيه عن كل جديد يخدم الإنسانية، هؤلاء في نظر هيكل هم أساس الحضارة وبناتها، وهي العمود الفقري لكل المجتمعات البشرية، لذلك لا بد من تخليد ذكراهم والاستفادة من نتاجهم.

لقد عرض هيكل أفكاره بتسلسل منطقي وبأسلوب سهل مفهوم، ففي مقالة له بعنوان (السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط) يقول: "كان الشرق الأوسط منذ فجر التاريخ محط أنظار العالم، ولا يزال محط نظره في وقتنا الحاضر... كان الشرق الأوسط في الأيام الخوالي ممر التجارة بين الشرق والغرب... ازدادت أهمية الشرق الأوسط منذ القرن السابع عشر، ثم

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/135).

(2) المصدر السابق، ج4/136-138.

اطردت هذه الزيادة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حين بدأت أوروبا سياستها الاستعمارية في آسيا، ثم حين شقت قناة السويس، فقربت بين الشرق والغرب...⁽¹⁾ وتابع هيكل حديثه عن الشرق الأوسط فيقول: "هذا الشرق الأوسط إذا منابع البترول تلفت إليه النظر... وإذا بعض البلاد التي كانت تعتبر صحراء جرداء... تقفز إلى الصف الأول في نظر الاقتصاد العالمي، وإذا العالمان القديم والجديد -أوروبا وأمريكا- يتسابقان يريد كل منهما أن تكون له الكلمة الأولى والنفوذ الظاهر في هذه البلاد... مصير مصر ارتبط بمصائر الشام والعراق أكثر مما ارتبط بمصائر السودان وليبيا... مصر والبلاد العربية جميعاً وبلاد الشرق الأوسط كلها كثيراً ما عانت من سياسة الارتجال"⁽²⁾.

لقد تتبع هيكل تاريخ السياسة في الشرق الأوسط، فوجد أطماع المستعمرين فيه مستمرة منذ فجر التاريخ وحتى اليوم، وخلال تتبعه عرض أفكاره بتدرج وتسلسل بشكل واضح يسهل فهمه، وذكر أن أهمية الشرق الأوسط قديماً كانت تتبع من كونه ممر التجارة بين الشرق والغرب، وفي القرون الأخيرة كانت الحاجة للتقريب بين الشرق والغرب أكثر إلحاحاً فتم حفر قناة السويس، ثم ازداد الطمع في الشرق الأوسط بعد اكتشاف البترول فيه، فتنافست عليه أوروبا وأمريكا، ثم تحدث عن السياسة في مصر فرأى أن مصيرها مرتبط بمصير الشام والعراق أكثر من ارتباطه بمصير السودان وليبيا، وأضاف أن الدول العربية وبلاد الشرق الأوسط تحكمها سياسة الارتجال.

يقف الباحث أمام ما تقدم فيرى أن هيكلًا كان يتمتع بالوعي السياسي لأنه كان يدرك ما جرى في الماضي وما يجري في الحاضر، وأنه كان يعلم أن سياسة الاستعمار واحدة في مضمونها في كل زمان لأنها مبنية على نهب الخيرات، واستغلال مقدرات الآخرين لصالحها، وأنها لا تتمتع بأي أخلاق ولا تضبطها مبادئ، ولا تتصف بأي قيم إنسانية، وقد بلغ بالاستعمار الأمر أنه كان يتنافس فيما بينه لبسط النفوذ وإحكام السيطرة واحتلال البلاد بدون وجه حق.

نظر هيكل إلى السياسة في الوطن العربي وفي الشرق الأوسط فوجد الساسة فيها يرتجلون السياسة ارتجالاً دون وعي أو تخطيط، وكان هيكل يريد أن يحملهم مسئولية الأحداث التي وقعت في بلادهم، وقد أرجع طمع الاستعمار في هذه البلاد إلى ضعف الساسة داخلياً في إدارة شئونهم، وخارجياً بعدم مقدرتهم على ممارسة السياسة الناجحة.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج3/303-304-305).

(2) المصدر السابق، ج3/305-307.

ولأن هذا النوع من المقالة يجمع بين البناء الموضوعي والبناء الذاتي فإن هيكلًا كان حريصًا على التخفيف على قرائه من وطأة استخدامه للمصطلحات العلمية الجافة، فكان يبسط الفكرة بسيطاً أثناء عرضها، فلا يشعر القارئ بالملل، ففي معرض تعريف هيكل للمحاماة يقول: "ما المحاماة؟ هي عرض الوقائع عرضًا شائقًا، وتوجيهها إلى غاية تقنع القاضي وتنعج الجمهور السامع بما في كلام المحامي من حق... هو أدب في المذكرات التي تكتب وتقدم للمحكمة، وهي خطابة في المرافعات، وكلما ازداد المحامي حُسن أداء في الكتابة وفي الكلام كان أقدر على أداء مهمته، ولن يتسنى ذلك له إلا إذا كان ملماً إمامًا حسنًا بأمر كثيرة تتصل بالأدب وفي مقدمتها قوة الحجة، وسلاسة العبارة، وحسن الأسلوب، واتساق المنطق"⁽¹⁾.

أراد هيكل في الفقرة السابقة أن يبين الصلة بين الأدب والقانون، فأورد في تعريف المحاماة بعض المصطلحات القانونية مثل: الوقائع والمذكرات والمرافعات، وأراد أن يوضح معناها من خلال بسط مفهومها، فلم يذكرها مجردة جافة، فعندما تحدث عن الوقائع ذكر أنه لا بد من عرضها بشكل شائق بحيث تقنع القاضي والجمهور، أما المذكرات التي تقدم للمحكمة فيجب أن تكتب بإحكام وبأسلوب عذب جذاب كما يُكتب الأدب، أما المرافعات أمام المحكمة فإن الكلام فيها يحتاج إلى إعداد جيد، وحسن الأداء، وقوة الخطاب أثناء المرافعة، وأخيرًا ينبغي للمحامي أن يلم بأمر تتصل بالأدب مثل: قوة الحجة، وسلاسة العبارة، وحسن الأسلوب، واتساق المنطق، وهذا ما يجمع الأدب بالقانون.

ومن يقرأ أفكار هيكل في المقالات ذات البناء الموضوعي الذاتي يجد فيها آثارًا للثقافة الفلسفية والمنطقية والقانونية والسياسية والأدبية والنقدية، فقد كتب هيكل مقالة بعنوان (مع أبي العلاء في سجنه) تحدث فيها عن حياة أبي العلاء المعري، فقد كف بصره، وحبس نفسه في داره، وظل زاهدًا متقشفًا يأبى أن يتناول طعامًا فيه روح أو ما يتصل بذوي روح، ولا يعرف من الثياب إلا أخصنها ملمسًا، لقد حاول هيكل أن يشخص هذه الحالة الغريبة من نوعها، أو أن يفلسف ما صنعه المعري الشاعر والأديب، وأن يجعل لهذا التصرف اللامعقول قبولًا عقليًا بالمنطق يقول هيكل: "كان أبو العلاء يملك في الحياة ما يقصر دونه الجاه، وما يتضاءل إلى جانبه كل عرض في الدنيا، كان يملك اللغة، وكان يملك المعرفة، وكان له من الذكاء ما يسر له المتاع بهذه وتلك، وهو قد كان في الثلاثة من سجنونه يجد في العبث باللغة، وبألوان المعرفة، وبما ينشأ عن نماذج اللغة والمعرفة من فلسفة متاعًا يلذه ويبهر الناس ويثير إعجاب

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/267-268).

المعجبين... فكما ينلهى الناس بلعب النرد أو الشطرنج، كان أبو العلاء ينلهى بالتزام ما لا يلزم في اللغة والشعر والنثر، وبالتزام ما لا يلزم في التفكير وفي تنسيق ألوان المعرفة والعلم، بذلك استطاع أن يخلق لنفسه متاع الحياة، وأن يتغلب بهذا المتاع على طولها⁽¹⁾.

لقد حاول هيكل أن يفسر صمود أبي العلاء المعري في سجنه الذي فرضه على نفسه في بيته والذي امتد خمسين عامًا، وذلك من خلال تحليل شخصيته التي تثير الجدل، إذ كيف برجل كيف فاقد البصر أن يتحمل آلام العمى والسجن، والبعد عن ملذات الحياة، كل ذلك اجتمع عليه في وقت واحد، لقد ذهب هيكل إلى أن المعري كان يملك أدوات الحياة الحقيقية وهي اللغة والمعرفة والذكاء، هذه الأدوات أمدته بالصبر والجَد، فكانت تمثل له القوة البديلة التي يستعين بها على مواجهة مشاكل الحياة، فقد أغنته عن الجاه والتمتع بالدنيا ونعيمها، وقد كان المعري يملك القدرة على تطويع اللغة والتسلي بألوان المعرفة، وقد جمع بين اللغة والمعرفة ليؤلف فلسفة خاصة به أثارت الإعجاب، حيث وجد فيها اللذة والمتاع والتلهي والتسلية وملاءمة وقت الفراغ، وقد استغل حالته هذه بتأليف الكتب مثل كتاب لزوم ما لا يلزم في اللغة والشعر والنثر والتفكير.

تبدو آثار ثقافة هيكل الفلسفية من خلال تفسيره لصمود المعري في سجنه، وآثار المنطق عندما بحث عن البديل الذي أغناه عن المتعة بملذات الدنيا والتغلب على آلام السجن، أما الثقافة الأدبية فقد أبرز هيكل ما ألفه المعري من كتب أدبية أثناء سجنه.

وكان هيكل عندما يعرض أفكاره يكثر من الاستطراد لتوضيح هذه الأفكار والتدليل على صحتها، ففي مقالة له بعنوان (الشعور بالواجب) يؤكد هيكل على أن أداء الواجب في العمل أو في الحياة لا يحتاج إلى من يذكر به أو يحفز عليه، أو وسيط يستخدم نفوذه فيوحي بسرعة الأداء، وقد استطراد هيكل في أفكاره حول هذا الموضوع كثيرًا، كان من أبرز هذا الاستطراد ما يلي⁽²⁾:

1- يذكر هيكل أن رجلًا ألح عليه أن يتدخل له عند طبيب أجنبي يعمل في مصر، ونظرًا لأنه لا تربطه به علاقة، فتحدث مع طبيب مصري كي يخاطبه في أمر ذلك الرجل، فقال الطبيب المصري لهيكل: لو كان الطبيب مصريًا لهان الأمر، أما الطبيب الأجنبي فيعتبر ذلك إهانة له باتهامه بعدم أداء واجبه، وفي الوقت نفسه هذه التوصية لن تزيد من عناية

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/333-334).

(2) ينظر: المصدر السابق، ج2/71-76.

الطبيب الأجنبي بالمريض لأنه يعرف جيداً كيف يؤدي واجبه، وعندما وصل هيكل هذه الرؤية للرجل المصري لم يقتنع لأن الأمور في مصر لا تسير إلا بهذه الطريقة.

2- تحدث هيكل عن أن الأعمال لا تؤدي إلا تحت ضغط الإلزام أو بالتوسل والرجاء، وضرب أمثلة عديدة على ذلك: شملت الطبيب والمحامي والقاضي والمُمتحن، ومن يعمل عملاً حرّاً أو عملاً حكومياً، هذه الظاهرة تدل على فقر في الخلق الذاتي، وإفلاس في الخلق الاجتماعي، وهو نوع من أنواع الرشوة المباحة من وجهة نظرهم، هذه الخطوات لا تسير بالأمة نحو الشرف ولا توجهها نحو الرقي.

3- ذكر هيكل أنه اشتغل بالمحاماة عشر سنوات، فكان دائم الاتصال بالقضاء، وكان يشعر بالردة تسري في نفسه حين يسمع أن قاضياً يلفت نظره إلى قضية خاصة لكي لا تؤجل، أو لكي يعنى بقراءة أوراقها، ويتساءل أين ضمير هذا القاضي الذي يجب عليه إقامة العدل بين الناس بدون تنبيه أو تدخل من أحد، لقد اعتبر هيكل أداء الواجب بهذه الطريقة فيه نوع من العجز والفساد الذي يثير التقزز على حسب تعبيره.

هذه بعض الاستطرادات التي عرضها هيكل في هذه المقالة، حيث أراد بذكرها توضيح أفكاره، والتدليل على صحتها بإيراد أمثلة عملية عليها من الواقع المعاش، أو من خلال تجاربه الشخصية وثقافته العامة.

وكان هيكل ينهي خاتمة مقالته بنتيجة معينة محددة يسوقها إلى القارئ بأسلوب عقلي وجداني، يقول هيكل في ختام مقالته (العلاقات السياسية كما ينبغي أن تكون بين الأمم): "يستطيع الساسة أن يبلغوا ما نريده لهذا العالم من سلام وتعاون إذا صدقت نياتهم... فلم يتأثروا بتقاليد الماضي، ومطامع الحاضر، ولم يجعلوا الفكرة القومية والفكرة العالمية خصمين يقتتلان، بل مهدوا لتعاونهما تعاوناً يجعلنا نعيش في عالم أفضل من العالم الحاضر، عالم تتحقق فيه الحرية والمساواة والإخاء للجميع أمماً وأفراداً، إنهم إن فعلوا أقاموا صرح الحضارة على أمتن دعامة، ورفعوا الإنسانية إلى المكانة الواجبة لها، ومهدوا لنضج الضمير الإنساني نضجاً يجعل الأخوة الإنسانية حقيقة واقعة، ويقر في العالم الفضل والمحبة والسلام"⁽¹⁾.

بعد أن تحدث هيكل في مقالته هذه عن قواعد العلاقات السياسية بين الأمم على أساس التعاون العالمي، رجاء القضاء على الحرب وأسبابها، وتمني أن تقدر الإنسانية أن تتقدم خطوة نحو الكمال، وبعد إسقاط هذا الموضوع على الواقع السياسي العالمي، ودراسة إمكانية تحقيقه،

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج3/204).

خرج هيكل بهذه النتيجة، وهي أنه يمكن تحقيق السلام والتعاون في العالم وبين الأمم المختلفة إذا صدقت نوايا الساسة ونسوا ما حدث في الماضي، وتخلوا عن مطامعهم الحاضرة، وتبنوا الفكرة الإنسانية التي يستظل في ظلها الجميع، بعد ذلك سوف تتحقق الأمنيات: الحرية والمساواة والإخاء للجميع، وستبنى بعد ذلك حضارة عالمية إنسانية حقيقية شعارها المحبة والسلام.

في هذه الخاتمة استطاع هيكل أن يخرج بنتيجة محددة الأبعاد، واضحة المعالم، فقد مزج في إطارها بين فكره العقلي وشعوره الوجداني، فهذه النتيجة يرتضيها العقل ويقبلها ويأمل في تحقيقها لأنها أساس لسعادة البشرية وإبعاد الشقاء عنها، وهي في الوقت نفسه خرجت من وجدان هيكل الصادق الذي يكره الحروب التي تخلف الدمار والخراب والقتل والتشريد، ويتطلع إلى تحقيق السلام العالمي والإخاء الإنساني، وبناء حضارة تجمع شمل الأمم المختلفة المشتتة والمفتتة والمتحاربة.

وخلاصة القول في عرض هيكل لأفكاره في مقالاته ذات البناء الموضوعي الذاتي أنه تناول فيها قضايا علمية وإنسانية أثرت الحياة الفكرية، وأنه عرض هذه الأفكار في تسلسل منطقي وبأسلوب سهل مفهوم، وأنه حاول التخفيف من استخدام المصطلحات العلمية لدفع الملل عن القارئ، وأنه ظهرت في أفكاره آثار ثقافته الفلسفية والمنطقية والقانونية والسياسية والأدبية والنقدية، كما برز أثناء عرضه للأفكار إكثاره من الاستطراد لتوضيح هذه الأفكار والتدليل على صحتها هو دليل -أيضاً- على اتساع ثقافة هيكل، أما الخاتمة فكانت تحتوي على نتيجة واضحة يعبر عنها هيكل بأسلوبه العقلي والوجداني.

خصائص المقالة ذات البناء الموضوعي الذاتي عند هيكل:

من خصائص هذا النوع من المقالة حسن اختيار الألفاظ ودقة استعمال الأساليب التي تعبر عن المعاني، ففي مقالة لهيكل بعنوان (مقارنات) يقارن فيها بين الذكاء والذاكرة، يقول هيكل: "المقارنة متعذرة، لأنها بين شيئين مختلفين... مقاديرها تختلف من شخص إلى شخص، وبين شعب وشعب... لا نستطيع أن نتصور شخصاً عديم الذاكرة إطلاقاً أو عديم الذكاء إطلاقاً... صور الذكاء تختلف، وصور الذاكرة تختلف، فمن الناس من عندهم ذاكرة قوية في الألوان، وآخرون ذاكرتهم قوية في الأصوات... والذكاء كذلك يختلف، فمن الناس من هم أذكى

في التجارة، وفيهم من هم أذكيا في العلم أو في الاختراع، ويتعذر أن يعقد الإنسان مقارنة منتجة بين هذه الصور والألوان المختلفة من الذكاء والذاكرة⁽¹⁾.

من الملاحظ أن المقارنة التي عقدها هيكل بين الذكاء والذاكرة تحتاج إلى نوع من التركيز في التعبير، وهذا ألزمه لأن يكون دقيقاً في استخدام الألفاظ وفي استعمال الأساليب، فقد خرج هيكل في النهاية بنتيجة مفادها أن المقارنة بين الذكاء والذاكرة متعذرة وصعبة، وقد بين أسباب ذلك بوضوح وذكر ما يلي:

1- أن الذكاء والذاكرة شيان مختلفان؛ لأن لكل منهما خصائصه وسماته وصوره ودرجاته الخاصة به.

2- أكد هيكل على أن الذكاء والذاكرة متوفران في كل إنسان، لكنهما يختلفان من شخص إلى شخص، ومن شعب إلى شعب، بمعنى أنهما مستويان مختلفان.

3- بين هيكل أن صور الذكاء العقلي تختلف من إنسان إلى إنسان، فمن الناس من عندهم ذكاء في التجارة، وآخرون عندهم ذكاء في العلم والاختراع، وكذلك الذاكرة تختلف من شخص إلى شخص، فمن الناس من عندهم ذاكرة قوية في الألوان، وآخرون عندهم ذاكرة قوية في الأصوات، وهكذا.

بذلك استطاع هيكل أن يميز بين شيئين متشابهين شكلاً، مختلفين مضموناً، حيث إن هذا الاختلاف يتطلب مزيداً من التركيز للوصول إليه، فالذاكرة والذكاء عند كثير من الناس شيء واحد، أو على الأقل يصعب الفصل بينهما، لكن هيكل بشدة إدراكه لمعنى كل منهما، وفهمه لخصائصهما وصورهما استطاع أن يفصل بينهما، وذلك باختياره الألفاظ المناسبة والأساليب المعبرة.

ومن الخصائص -أيضاً- أن هيكلًا في مقالاته هذه كان يهدف إلى الإفهام والإقناع الممزوجين بالتشويق والإثارة، ففي مقالة لهيكل بعنوان (العائلة القضائية هل تستعيد مكانتها الأولى في مصر) بين هيكل في التمهيد لهذا الموضوع أن الذي دفعه لتناول هذا العنوان فوز الثري ورجل الأعمال الأمريكي (مستر هوفر) في رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تساءل هيكل في البداية "هل أن لحكم الجماعات أن ينتقل من يد رجال الفكر إلى يد رجال العمل... رئاسة الجمهورية كانت دائماً من قبل ذلك في يد رجال الفكر ورجال القانون... وذهب بعضهم

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/381).

إلى أن سياسة الشعوب أصبحت عملية أكثر مما كانت من قبل، وأن رجال الأعمال أكثر احتكاكاً بالشعوب من رجال التفكير... رجال الأعمال هؤلاء أكثر تقديرًا لنفسية الشعوب وسياستها⁽¹⁾، أما رأيه الشخصي في هذا الموضوع فقد وضحه قائلاً: "وذهب آخرون -وأنا بطبيعة تربيتي القانونية والفكرية أميل إلى رأيهم- إلى أن قيام رجال الأعمال على سياسة الشعوب ليس إلا ظاهرة من ظاهرات الاضطراب العام الذي أعقب الحرب، وأن التفكير في سياسة الدول ليس بطبيعته من شأن رجال الأعمال، وأن الحكماء والمفكرين عائدون لا ريب وفي زمن غير بعيد إلى المكانة التي كانت لهم من قبل... المكانة التي لا يمكن أن يقوم فيها سواهم بالسداد والحكمة"⁽²⁾.

في هذه المقالة يقف هيكل أمام سؤال مهم ومُحَيَّر وهو: مَنْ الأجدر والأقدر على حكم البلاد بشكل أفضل؛ رجال الأعمال أم رجال الفكر والسياسة والقانون؟ حاول هيكل أن يكون موضوعياً وصريحاً عندما أجاب على هذا السؤال هدفه في ذلك إقناع وإفهام من يقرأون له، وللباقته في الإجابة وبراعته في الأسلوب افترض جواً من المنافسة بين فريقين: الأول يؤيد أن يكون حاكم البلاد أو رئيس الدولة من رجال الأعمال، وفريق ثانٍ يناصر رجال الفكر والسياسة والقانون ليكون أحدهم الرئيس، هدفه من هذه المنافسة إحداث التشويق والإثارة، ويحسب لهيكل أنه لم يرضَ لنفسه أن يقنع قارئه عنوة بوجهة نظره الخاصة التي أعلن عنها بصراحة، وإنما بدأ بوجهة النظر المخالفة لرأيه، وقد ساق لها كل المبررات، في المقابل وازن بين هذه المبررات ومبررات وجهة النظر الأخرى التي كان يؤيدها، وذلك لإقناع القارئ وإفهامه بوجهتي النظر من جميع الزوايا، فعندما بين أسباب اختيار الشعب الأمريكي لرجل الأعمال لرئاسة أمريكا ذكر التالي:

- 1- تغيرت سياسة الشعوب فأصبحت تميل إلى الجانب العملي أكثر من الجانب السياسي والفكري والقانوني.
- 2- ذكر هيكل أن رجال الأعمال هم الأقرب من الشعوب والأكثر احتكاكاً من رجال الفكر من وجهة نظرهم.
- 3- يملك رجال الأعمال القدرة على فهم وتقدير نفسية الشعوب وسياستها.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/23).

(2) المصدر السابق، ج4/23-24.

كما وضع هيكل الرأي الآخر الذي يميل إليه، وقد برر له بالتالي:

1- عد هيكل اختيار رجال الأعمال للرئاسة ظاهرة سلبية تدل على الاضطراب الذي أصاب الناس بعد الحرب، بمعنى أنه ردة فعل منهم ضد رجال السياسة والفكر الذين كانوا يحكمون البلاد قبل وأثناء الحرب، فاختيار رجال الأعمال هم البديل عنهم، وهو في الوقت نفسه محاسبة وعقاب لهم؛ لأنهم يتحملون المسؤولية الكاملة عن الحرب ونتائجها.

2- بين هيكل أن رجال الأعمال يختصون فقط بعالم التجارة والمال والاقتصاد ولا شأن لهم بالسياسة، وأنهم لا يتمتعون بالذكاء العقلي الذي يجمعون فيه بين الفكر والسياسة والقانون والحكمة.

3- أراد هيكل في نهاية المطاف أن يحسم أمر الرئاسة لصالح السياسيين وإشغال هذه المكانة؛ لأن غيرهم لا يملكون السداد والحكمة التي يملكونها.

مما سبق لاحظ الباحث أن هيكلًا حاول أن يكون موضوعيًا قدر الإمكان عندما طرح هذا الموضوع، ثم أنه كان يحترم الرأي الآخر أو وجهة النظر المخالفة له، فقد ذكرها بكل أمانة قبل أن يذكر رأيه الشخصي.

لقد نقل هيكل هذه التجربة الديمقراطية من أمريكا، وأراد أن يسقطها على بلده مصر، ويبدو أن هيكلًا عندما ذكر هذه التجربة الأمريكية ذكرها على سبيل العبرة والخبرة السابقة ليستفيد منها الشعب المصري.

إن تتبع هيكل لما يحدث في أمريكا وغيرها من بلاد العالم ليدل على أنه متفتح وواعٍ ومتابع للسياسة الدولية.

امتلك هيكل القدرة على التمييز بين الأمور الحساسة التي تمس حياة الشعوب ومصالحها، وهذا دليل على أنه كان يملك العمق الحسي، والتأمل العقلي، والنظر إلى الأمور بحكمة.

ومن خصائص المقالة الموضوعية أنها تحتوي على القليل من الصور الخيالية قياسًا بالمقالة ذات البناء الذاتي، وذلك لتوضيح الفكرة وشرحها وتجليتها، ففي مقالة لهيكل بعنوان (نحو عالم أفضل) حدد فيها خطوات السعي "لإقامة عالم أفضل، فلا مفر لنا من أن نصفي جو العالم من سلطان القوى المادية المطلق، وأن نعترف للمعنويات بسلطانها، وأن نسلم بأن القيم الأخلاقية والعاطفية السامية هي التي توجه العالم الأفضل، أما ما بقيت القوى المادية هي

المتحكمة فسيبقى العالم يعاني ما يعانيه من آلام نفسية، وستبقى الحياة عبئاً يحمله الناس على كره منهم خضوعاً لغريزة الاحتفاظ بالحياة⁽¹⁾.

احتوت هذه الفقرة على العديد من الصور الخيالية مثل: (نصّي جو العالم - نعترف للمعنويات بسطانها - القيم الأخلاقية توجه العالم - القوى المادية المتحكمة - ستبقى الحياة عبئاً يحمله الناس).

أراد هيكل بهذه الصور أن يوضح فكرته، ويُجَلّي معانيه، فهو يطمح إلى رؤية يرى فيها تَغَيَّرًا في واقع البشرية، ويتطلع إلى إقامة عالم أفضل، واجتهادًا منه نحو تحقيق ما يصبو إليه، فقد رسم خريطة للطريق، ووضع خطة عمل، وحدد خطوات للتنفيذ، وقبل ذلك شَخَّصَ الحالة التي يعيشها العالم، نظر فوجد أجواء الدول متكدرة بسبب الحروب والخلافات والصراعات بينها، ولهذه الأسباب مسببات وهي طغيان سلطان القوى المادية، فالذين يملكون المال والسلاح هم من يتحكمون في مصر والعالم، لذا فقد حدد هيكل أول الخطوات نحو عالم أفضل وهي البدء بتصفية جو العالم من السلطان المطلق للقوى المادية، ثم رأى أنه لا بد من أن يكون للمعنويات قوة وسلطة، ثم نادى بأنه يجب أن تسود القيم الأخلاقية والعاطفية في هذا العالم، وأن يكون لها دور إيجابي في توجيهه، لأن هذه القيم تحمل رسالة الرحمة والمودة وتبعث على التقارب والتعاون والتسامح، وهذا كله سيدفع عجلة تقدم العالم إلى الأمام نحو التطور والازدهار والرخاء، بالمقابل إذا بقي الوضع على حاله، وظلت القوى المادية هي المتحكمة في شؤون العالم، فإن المعاناة الإنسانية ستزداد، وآلام البشرية ستنتشر، وشقاء العالم سيعم.

هذه هي رؤية هيكل للعالم والبشرية، رؤية إنسانية عميقة، حملت معاني الرحمة والخير والسعادة، وبحثت عن الأفضل والأحسن، هذه الرؤية دلت على فطرة هيكل السليمة، وانتمائه الصادق، وأصالته القديمة، فهو لم يفكر في نفسه فيكون أنانيًا، بل فكر تفكيرًا شاملاً عامًا لخير هذا العالم وهذا دليل على إثارة وطيب نفسه، وسعة صدره، وبُعد أفقه، وأنه يملك قلبًا إنسانيًا كبيرًا.

لم يحفل هيكل بالبديع في هذا النوع من المقالات، ويمكن القول أن المحسنات البديعية لم تأخذ حقا فيها، فلم يحرص على إبراز أيٍّ منها، حتى أن الكثير من مقالاته خلت منها تمامًا، وبعضها كادت أن تخلو اللهم إلا حسن التقسيم في بعض العبارات، فيبدو أن حرص هيكل على أداء المعاني كان أكثر من حرصه على الجمال البلاغي، ولأن السجع مفقود لم تتوفر

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/277).

الموسيقى، أما الجناس والتورية فحظهما في هذه المقالات سيئ فلم يكن لهما فيها مكان، أما التشبيه فقد ورد قليلاً جداً بشكل معقول ومقبول بعيداً عن المبالغة، وإن كان ثمة تفسير لذلك؛ فإن هيكلاً بصفته الصحفية يوضح هذا الأمر قائلاً: "عناء الصحفي في عمله أضعاف عناء الأديب في عمله، فالأديب غير مطالب بشيء إلا أن يلهم هذا الشيء بعد تأمل وروية، وهو حر في أن يعاود التأمل، وفي أن ينقب ويبحث... أما الصحفي فلا غداء له إلا في الرحي الطاحنة، رحي الحوادث وتقلباتها، والناس وأهوائهم والمصالح العامة وتقدمها وتأخرها"⁽¹⁾.

كان هيكلاً بهذا القول يقر بأن توالي الأحداث ومتابعتها، وتعدد الموضوعات واختلافها، وسرعة الكتابة فيها هي السبب في أن جعلته بعيداً عن إعطاء البديع حقه في مقالاته هذه، وذلك بتزيين الكلام به، فهو بهذا العذر فسر خلو مقالاته من هذه الألوان البلاغية.

مما تقدم يتضح للباحث أن هيكلاً في مقالاته ذات البناء الموضوعي الذاتي كان حريصاً على إبراز خصائص هذا النوع من المقالات بحيث يلمس القارئ هذه الخصائص بوضوح، ومما لمسه الباحث من هذه الخصائص دقة استخدام الألفاظ وحسن اختيارها، وكذلك التركيز في الأساليب لتعبير عن المعاني بشكل واضح، وكان هيكلاً إلى جانب ذلك يحترم القارئ فيحرص على إفهامه وإقناعه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإن كان هذا السبيل هو سبيل التشويق والإثارة، ثم وجد الباحث أن اهتمام هيكلاً بالصور الخيالية كان أكثر من اهتمامه بالمحسنات البديعية، فالصور الخيالية أخذت حقه في مقالاته ولو بشكل نسبي، بينما المحسنات البديعية لم يكن لها أثر في هذه المقالات.

ملاح شخصية هيكلاً من خلال مقالاته ذات البناء الموضوعي الذاتي:

رسمت هذه المقالات صورة واضحة لشخصية هيكلاً كان من أبرز معالمها ما يلي:

1- أنه شديد الاعتزاز بنفسه، رغم اعترافه بأنه إنسان يخطئ ويصيب يقول هيكلاً: "ولن أرضى لنفسي أن أكون إلا أنا، أنا بما في من حسنٍ وقبيح، من خيرٍ وشر، من عرف ونكر، والحمد لله الذي جعلني كما أنا، ولم يجعلني شراً مما أنا"⁽²⁾.

وكان هيكلاً راضياً عن أسلوبه معتبراً إياه جزءاً من كيانه وشخصيته، يقول في ذلك: "إنني لا أضيّق بأسلوبي ولا أجد به بأساً... فليكن أسلوبِي ما يكون فلن أرضى به بديلاً، فأسلوب الكاتب هو الكاتب... وما لي أضيّق بأسلوبي ولم أتخذ الأدب يوماً صناعة..."

(1) هيكلاً، مقالات محمد حسين هيكلاً (ج2/141).

(2) المصدر السابق، ج302/1.

طبيعي أن يكون أسلوبى أسلوب الذين درسوا القانون، والذين يرون أن تؤدى المعاني بألفاظ لا تزيد عليها ولا تضيق بها"⁽¹⁾.

كان هيكلٌ يفخر بشخصيته، ويعتز بأسلوبه، وهذا دليل على مدى ثقته بنفسه، ويبدو أن هيكلًا عندما تحدث بهذه اللهجة وهذا الأسلوب كان مستفززًا مما اضطره على هذا الدفاع، ولأنه محامٍ متمكن فإن كان يدافع عن نفسه كما يدافع عن الناس، فشخصيته الأبية كانت لا تسمح لأحد أن يتناول عليه أو أن ينال منه.

2- كان هيكلٌ جريئًا في مواقفه، يصدر أحكامه على الأشياء والأشخاص بكل وضوح، ففي معرض حديثه عن الملحمة التي ألفها شوقي في صباه، والمسرحيات التي ألفها في شيخوخته، والتي يفصل بينهما فترة زمنية تقرب من ثلاثين سنة، يقول هيكل عن هذه الفترة: "يجب قبل بيان ذلك ألا أدعكم تظنون أنني أنقص من قدر المجهود العظيم الذي بذله شوقي في الشعر في هذه السنوات الثلاثين... لكن ذلك لا يمنع من القول بأن شاعرية شوقي انصرفت في تلك الفترة إلى نواحٍ أخرى أقل عظمة من الناحية التي اتجهت إليها ملحمة الأولى"⁽²⁾.

رغم أن هيكلًا يعترف بالمجهود الذي بذله شوقي في شعره في فترة الثلاثين سنة هذه، إلا أنه لم يتوان في إصدار حكمه على شعر هذه الفترة بكل وضوح وصراحة، حيث أفاد بأنها لم تصل على درجة العظمة التي وصلت إليها الملحمة التي ألفها هيكل في شبابه، وعلى قاعدة النقد الموضوعي كان هيكل يتساءل: "ما بال شوقي لم يتم في منفاه ما بدأه في شبابه؟ لقد كان أمامه من فسحة الوقت خلال السنوات الثماني التي قضاها في أسبانيا ما يعينه على أن يبلغ بالملحمة القومية الكمال"⁽³⁾.

فكان هيكلٌ يتهم شوقي في هذه الفقرة بالتقصير لأنه كان بإمكانه أن يرتقي بالملحمة القومية والوصول بها إلى أعلى مستوى من الكمال حيث كانت أمامه فرصة ووقتٌ كافٍ لو استغله لأنجز هذا العمل.

3- أجاد هيكل التحليل النفسي للشخصيات التي تحدث عنها، فقد ربط شخصية ابن خلدون بالوضع السياسي الذي ساد عصره، فقد وصف الحياة السياسية آنذاك بأنها "بدأت تتذر

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/302).

(2) المصدر السابق، ج1/128.

(3) المصدر نفسه، ج1/136.

بالانحلال الذي يسبق التدهور وينخر فيها، وهذا الانحلال السياسي نفسه يفسر جانباً من تفكير ابن خلدون، ويفسر ما رأيت في حياته العملية من تقلب بين الأهواء وذوي السلطان، والحق أنك لتدهش إذ ترى من جانب هذا التقلب الذي لا ينم عن كثير من قوة الخلق، ولترى إلى جانبه القوة الممتازة في التفكير... ولا تجد لهذا التناقض العجيب تأويلاً إلا في الانحلال السياسي وما يورثه الانحلال السياسي من ضعف الأخلاق ومن الأثرة والغرور⁽¹⁾.

استطاع هيكل أن يحلل شخصية ابن خلدون، فوجد فيها تناقضاً عجيباً، فذكر أن ابن خلدون كان يجمع بين القوة الفكرية والعلمية وضعف الخلق، وحاول هيكل أن يفسر ويؤول هذا التناقض، فأرجع ذلك إلى الانحلال السياسي الذي عاصره ابن خلدون حيث كان يتقلب بين الأمراء وذوي السلطان، هذا الانحلال السياسي وهذا التقلب كان من نتائجه ضعف أخلاق ابن خلدون.

4- كان هيكل في هذا النوع من المقالة يميل إلى الجانب العملي والخطاب المباشر لقرائه، فهو يحاول دائماً أن يكون قريباً منهم، فكان يواجه وينصح ويقترح ويوصي ويحذر، فمن توجيهاته "على المصريين وواجباً كذلك عليهم أن يعملوا لبعث هذا الأصل... بأن يترجموا أوراق البردي جميعاً، وأن يعملوا جهد الطاقة لنشر علوم مصر أم العلوم والحضارة في ربوع العالم كله"⁽²⁾.

حرص هيكل على ترجمة أوراق البردي يدل على اعتزازه بتراث بلاده، أما مطالبته المصريين بنشر العلوم المصرية في أنحاء العالم فيدل على أنه يعشق العلم ويحب نشره، كما يدل ذلك على صدق انتمائه لوطنه مصر.

وقد ورد اقتراح لهيكل على شكل سؤال واستفهام عندما قال: "هل تلهم هذه المذكرات يوماً أحد الشعراء ليضع ملحمة كبرى عن الحرب العالمية الثانية؟"⁽³⁾.

لقد اقترح هيكل أن يقوم أحد الشعراء بتأليف ملحمة كبرى حول الحرب العالمية الثانية يذكر فيها كل الأحداث كأنها وثيقة تاريخية، ولأن هيكل عاش هذه الحرب فإن اهتمامه بما جرى فيها لدرجة دعوته إلى توثيق أحداثها؛ ليدل على الأثر العميق الذي تركته هذه الحرب في نفسه.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/375).

(2) المصدر السابق، ج1/400.

(3) المصدر نفسه، ج1/133.

ومن الأمور الخطيرة التي حذر منها هيكل انتشار اليأس بين الناس، حيث قال عنه هيكل: "اليأس أقتل للجماعات من الفوضى... اليأس إذا دخل النفوس سلبها فضائلها، وأضعف مادة الحياة فيها، ثم دفعها إلى سبات الموت"⁽¹⁾.

تحدث هيكل عن خطر اليأس، فهو إذا تمكن من النفوس قتلها، وهو أشد فتكاً من الفوضى، واليأس يضيع الفضائل، وينشر الرذائل، بل يدفع من يصابون به إلى الاستسلام الذي فيه هلاكهم.

إن وعي هيكل بخطر اليأس كمرض اجتماعي، وما يترتب على انتشاره من نتائج سلبية، وعواقب وخيمة، ليدل على مدى إدراكه لطبيعة النفس البشرية، ومعرفته بأهمية رفع المعنويات التي تحتاج دائماً إلى من يهتم بها خاصة في وقت الشدائد والحروب والكروب.

5- كان للسياسة واحتكاكه بالسياسيين أثر في نفسه وحياته، حيث انعكس ذلك في كتاباته، ويعترف هيكل بأثر السياسة في تصوره قائلًا: "إن اشتغالي المتصل بالسياسة قد أثر في تصوري للأشياء، وفي حكمي عليها بعض الشيء، وذكرت لذلك مثلين: أحدهما أنني أسرفت حين أسأت الظن بما يكتبه الأوروبيون عن حياتنا الأدبية، والثاني: أنني أسرفت حين أحسنت الظن بنا وبحظنا من الخيال وبمقدرتنا على الإنتاج، وإني إنما فعلت ذلك لأرضي المصريين والشرقيين في الأدب كما أفعل في السياسة"⁽²⁾.

هذا الاعتراف الصريح بأثر السياسة في نفسه، وفي كتاباته لم يفقد هيكل مصداقيته، بل إن هذا الاعتراف بالخطأ يسجل له كفضيلة من الفضائل، ثم أنه بهذا الاعتراف يكشف عن طبيعة السياسة، وما يصدر عن السياسيين من تصريحات في الإعلام، فكثير منهم يذهب بعيداً عن الحقيقة خشية الوقوع في مواجهة مع طرف من الأطراف، لذلك ترى في أقلامهم سعة، وفي تصريحاتهم مرونة، وهذا يتناسب مع طبيعة السياسة.

يستطيع الباحث أن يوجز ملامح شخصية هيكل التي سبق تناولها فيما يأتي:

1- كان هيكلٌ شديد الاعتزاز بنفسه، مفتخرًا بأسلوبه، وهذا يدل على مدى الثقة الذاتية التي كان يتمتع بها، والتي تتناسب مع عمله كمحامٍ وكسياسي ووزير.

2- كان هيكلٌ صاحب موقف وقرار ورؤية، جريء في أحكامه، وهذا دليل على قوة شخصيته.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/32).

(2) المصدر السابق، ج1/304.

- 3- كان هيكلاً يملك القدرة على التحليل النفسي للشخصيات، فكأنه كان ينفذ إلى داخلها ليكشف عن مكنوناتها وأسرارها، وقد أجاد ذلك.
- 4- تمتع هيكل بالمقدرة على أن يكون حاضراً مع قارئه قريباً منه دائماً، فهو في مقالاته يوجهه ويوصيه ويحذره ويقترح عليه.
- 5- لممارسة هيكل السياسة واحتكاكه بالسياسيين أثر عظيم في حياته العملية.

الفصل الثالث

جماليات المقالة عند هيكل

الفصل الثالث

جماليات المقالة عند هيكل

إن كتابة المقالة جزء لا يتجزأ من العمل الأدبي، فهو بناء فني يوظف كل إمكانيات اللغة الجمالية من خلال الصياغة المحكمة، والنسج اللغوي المتين، للتعبير عن الأفكار والمعاني والأحاسيس التي تراود الكاتب، فيرسم من خلال كلماته وعباراته المنسجمة صورة إيحائية دلالية لفطرته وتجربته وانطباعاته ورؤيته وطموحه.

إن الموضوعات التي تتناولها المقالات تتطلب لونا خاصا من التعامل مع اللغة، وذلك بانتقاء الألفاظ بعناية ودقة، وإجادة التراكيب دون تكلف أو تصنع لتجسد الحالة النفسية للكاتب، وتوصيل رسائل للمتلقين، ومن ثم الوصول إلى قلوبهم ونفوسهم بقصد التأثير فيهم.

وإذا كانت المقالة بحاجة إلى سهولة في اللغة، ورقة في الألفاظ، ووضوح في التراكيب دون إغراب أو تعقيد لتكون قريبة من لغة الناس التي يستخدمونها في حياتهم ليتسنى لهم فهمها واستيعاب مضمونها، فإنها كذلك تحتاج إلى أسلوب يميل إلى البساطة واللطافة والسلامة والرشاقة لينفذ إلى الأفتدة دون عوائق أو موانع، وقد كتب هيكل: "تاريخ العصر الإسلامي الأول بلغة عربية فصيحة لا غبار عليها، ولكن يستطيع كل قارئ معاصر أن يقرأها وأن يفهمها، وأن يذوقها، وأن يسيغها في غير جهد ولا مشقة"⁽¹⁾.

كذلك فإن كاتب المقالة يقوم بتجسيد خبراته الذاتية، وإدراكه الحسي من خلال التوليد الجمالي، بمعنى أنه ينظم ذلك كله في قوالب جمالية محسوسة تؤثر في المتلقي، فتثير فيه الانفعال، وتزيد من قوة التواصل معه، هذا التوليد الجمالي هو عملية تركيبية تهتم بالشكل والمضمون معاً بالدرجة نفسها، لكنه في الوقت ذاته لا يخرج بعيداً عن إطار الموضوعية، فقد كان هيكل "رجلاً مختلفاً، خبر الحياة، ومارس التجارب، وتعمقت فكرته في الأدب... لكنه معتدل الخط من ثورة العواطف، وتوهج الوجدانيات، عميق التغلغل في دخائل النفس البشرية الشاملة، وثيق الاتصال بالغرائر الإنسانية الثابتة تتجلى فيه عبرة الحياة وحقايقها الكامنة في منحى من التعبير هادئ طبع، ولكنه قوي نفاذ"⁽²⁾.

وللتعرف على الجانب الجمالي في مقالات هيكل يمكن الوقوف عند اللغة والأسلوب والخيال والبديع والتناص كما جاءت في مقالاته.

(1) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص54).

(2) المرجع السابق، ص58.

أولاً- اللغة:

اللغة لبنة أصلية، وأساس متين في البناء الفني للمقالة، فاستخدام الألفاظ بعناية، وصياغة التراكيب بإحكام وما يحملان من دلالات، يمثل ذلك وسيلة ذات أهمية خاصة تعلق في سماء حركة التعبير عن معاني الحياة، وتفتح شرفات الواقع، وتستشرف آفاق المستقبل "فكل كلمة هي قطعة من الوجود أو وجه من وجوه التجربة الإنسانية، ومن ثم فإن لكل كلمة طعمًا ومذاقًا خاصًا ليس لكلمة أخرى، لأن التلاحم بين اللغة والتجربة يجعل لكل كلمة كيانًا منفردًا عن كل ما عداه"⁽¹⁾.

واللغة العربية هي نتاج تراكمي لأجيال أبناء العروبة المتعاقبة، فيها كتبوا تاريخهم وتراثهم وشعرهم ونثرهم، وعبروا عن حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأيامهم، استخدموها كوسيلة لاستخراج ما في مكنوناتهم وما يختلج في صدورهم ويبرز سمات شخصياتهم، يقول ابن جني: "أما حد اللغة فهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁽²⁾، ويقول ابن سنان الخفاجي: "اللغة هي ما يتواضع القوم عليه من الكلام"⁽³⁾، أما تمام حسان فيرى أن "اللغة عمل كأبي عمل آخر يقوم به الإنسان مستعملًا يده، وسلوك له معايير وضوابط، وبما أن الكلام عمل وسلوك، فاللغة هي أداة هذا العمل، وقواعدها هي قواعد هذا السلوك... لكن اللغة لا يمكن إلا أن تكون اجتماعية"⁽⁴⁾، ويقول الرافعي: "إنما اللغة مظهر من مظاهر التاريخ، والتاريخ صفة الأمة، والأمة تكاد تكون صفة لغتها، لأنها حاجتها الطبيعية التي لا تنفك عنها، ولا قوام لها غيرها"⁽⁵⁾.

ويرى بكرى شيخ أمين أن الأدباء لجأوا إلى فن المقالة "كلما دارت في رؤوسهم خاطرة، أو أملت بخيالهم فكرة، ولا غرابة بعدئذ إذا اتخذوها مطية ذلولًا لأغراضهم"⁽⁶⁾.

أما لغة المقالة فلمحمد حسين عبد العزيز تصريح واضح بهذا الشأن حيث يقول: "ينبغي أن تكتب المقالة في اللغة التي يفهمها أكبر عدد من أفراد الناس على اختلاف أذواقهم

(1) إسماعيل، الشعر العربي المعاصر (ص156).

(2) ابن جني، الخصائص (ج1/33).

(3) الخفاجي، سر الفصاحة (ص314).

(4) حسان، اللغة العربية معناها ومبناها (ص32).

(5) الرافعي، تحت راية القرآن (ص8).

(6) شيخ أمين، الحركة الأدبية في المملكة السعودية (ص526).

وأفهامهم، وهي اللغة التي تمتاز بالبساطة والوضوح، وتتأى ما أمكن عن صفات التعالي على القراء أو التقعر أو الإغراب، والمبالغة في التعمق⁽¹⁾.

نظرة هيكل إلى اللغة:

يقول هيكل في مقالة له بعنوان (أثر اللغة في حياة الأمم): "اللغة في حياة الأمم وفي حضارتها أرفع مكان... واللغة هي أداة العلم والأدب والفن، وهي الوسيلة لانتقال الفكر بين الناس"⁽²⁾.

ويرى هيكل أن "ارتقاء اللغة من أقوى الأدلة على ارتقاء الأمة التي تتكلمها، وكان انحطاط اللغة المظهر الحاسم لانحطاط الأمة التي تتكلمها"⁽³⁾.

لقد بين هيكل أهمية اللغة في حياة الأمم، لأنها أقوى أداة للتعبير عن الحياة بكل مكوناتها وجوانبها، وقد ربط التقدم والازدهار والرفي في حياة أي أمة بمدى ارتقاء وتطور لغتها. ويؤكد هيكل على أن التمكن من اللغة وحسن توظيفها يحتاج إلى ثروة لا بأس بها من الألفاظ، كما يلزم صاحبها القدرة على استخدام الأساليب بالطريقة المثلى، يقول في ذلك: "فكلما زادت ثروتك من الألفاظ ومن أساليب استعمالها، وما يمكن أن تعبر عنه من مختلف المعاني لذاتها، أو مضافة إلى ألفاظ غيرها، ازدادت أنت قدرة على اختيار اللفظ الذي يصلح للتعبير عن قصدك تعبيراً دقيقاً"⁽⁴⁾.

وكان هيكل ينظر للغة كأى مكون من مكونات الحياة يخضع للتطور، فاللغة عنده "كائن حي متجدد، وهي كذلك وسيلة للتعبير الفكري، والأداء اللغوي، وقد تبلور الاهتمام باللغة عند هيكل حينما أصبح عضواً مجمعياً بالمجمع اللغوي بالقاهرة، وهو أول من اقترح وشارك أعضاء المجمع في وضع معجم بألفاظ القرآن"⁽⁵⁾، وكان يمقت الجمود ولا يقبل الصواب المهجور في اللغة، يقول: "إنى لأرى في بعض الأحابيين خطأ لغويًا سواء في أداء اللفظ لمعنى أو في صرف اللفظ ونحو العبارة، لكنى استطيع هذا الخطأ فأود لو نتاح له الحياة وتسري عليه

(1) عبد العزيز، لغة الصحافة المعاصرة (ص21).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/349).

(3) المصدر السابق، ج2/351.

(4) هيكل، ثورة الأدب (ص36).

(5) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص144).

القاعدة: خطأ مشهور خير من صواب مهجور، ثم تسبغ الأيام على هذا الخطأ من القدامة فيصبح هو الصواب وهو القاعدة⁽¹⁾.

من شدة حب هيكل لتطور اللغة، وحرصه عليها كان يتمنى أن يصبح الخطأ اللغوي الذي يستطيه ويستسيغه صواباً يدرج في كتب اللغة تحت قاعدة يقرها العلماء.

ويرى الباحث أن ما كان يستطيه هيكل من الخطأ اللغوي ربما كان استلهامات لغوية لم يستطع هيكل التعامل معها أو أن يجد لها مخارج ومسوغات لأنه غير متخصص في اللغة، وحول الاستلهامات اللغوية يقول رجاء عيد: "إن كثافة الاستلهامات اللغوية تتجاوز مجرد اقتناص قولي يتجمد في لصق تضميني، وإن تعدد ابتئاتها وتنوع احتشادها يخترق النسيج اللغوي خالفاً توافقاً وتفاقماً مع ماضوية القول، وأحادية المقول، فيتناسخ الماضي في آنية الحاضر، وتتحول الأسماء والمقولات إلى دلالات معاصرة"⁽²⁾.

هذه الاستلهامات اللغوية هي التي تحرف التركيب اللغوي عن مساره الحقيقي لتفسح له مجالاً أوسع في الدلالة، وتعطيه مساحة أرحب في المعنى.

هيكل واللغة العامية المصرية:

استخدم هيكل في كثير من مؤلفاته القصصية اللغة العامية المصرية، وقد برز ذلك بوضوح في لغة الحوار بين الريفيين، وفي المقابل استخدم اللغة الفصحى في حوار المثقفين، كما تضمن السرد بعض الألفاظ العامية التي هي بحاجة إلى شرح وتوضيح، والسؤال: لماذا استخدم هيكل اللغة العامية في هذه المؤلفات؟ وهل كان متعمداً في ذلك؟ وإذا كان الجواب نعم، فما مبرره؟.

يمكن وصف استخدام هيكل للغة العامية المصرية في قصصه بأنها علامة تحدٍ وإشارة جرأة منه، لأن هذا الاستخدام لها مثار جدل ونقد، وربما يجلب عليه تهمة الضعف اللغوي، وعلى اعتبار أن هيكل كان متعمداً في هذا الاستخدام، ربما كان يقصد من ذلك إمتاع القارئ بجعله يعيش جو الريف الطبيعي وذلك بتقريبه من لغة الحياة في الريف، أو أن الذي دفعه لذلك حنينه الدائم إلى الريف واعتزازه بأنه فلاح وفخره باللغة العامية المصرية. يقول هيكل: "إني لأذكر ما لحياة الريف في فصول السنة المختلفة من جمال يصل من عارفيه إلى شغاف القلب،

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/364).

(2) عيد، القول الشعري (ص162).

ويسري بين الجوانح إلى أعماق الفؤاد... هذا كله... يبعث إلى النفس من جميل المعاني، ومن عبارة الجمال، ومن تقديس الخالق، ومن طمأنينة الضمير⁽¹⁾.

وكان لهيكلٌ موقف من استخدام اللغة العامية في الكتابة يقول فيه: "هل يعني أن ننزل بالكتابة إلى مستوى اللغة العامية المصرية...؟ لو أنني أرى هذه اللغة صالحة لذلك لما ترددت في الجواب نعم، غير أنني مع الأسف أراها غير صالحة"⁽²⁾، إذًا قناعة هيكل أن اللغة العامية المصرية لا تصلح للكتابة، ويمضي هيكل في تبريره لهذا الرفض فيقول: "لأنها لغة لا قواعد لها، ولأنه قد بلغ من مختلف اللهجات في التكلم بها أن صرنا لا نعرف أي هذه اللهجات أرشق وألين لأن تكون لهجة الكتابة"⁽³⁾.

يبدو أن هذا الموقف الذي سجله هيكل إزاء الكتابة بالعامية جاء في بداية حياته الأدبية والصحفية عندما كان متأثرًا بالفكر الغربي ومتبنيًا لفكرة الفرعونية والقومية المصرية، لكنه بعد ذلك تراجع فكان يدعو إلى الفصحى ويعتمدها في تأليفه ومقالاته، ويؤكد على ذلك ما ذهب إليه عبد اللطيف حمزة، وعبد العزيز شرف في كتابهما (أدب المقالة الصحفية في مصر): "كان هيكل رحمه الله كما كان بعض زملائه، يحاولون أن يخرجوا من هذا الركود الأدبي، وألا يقلدوا قديمًا، ولا يقلدوا جديدًا، وأن ينشئوا في مصر أدبًا مصريًا، لا يخرج عن اللغة العربية الفصيحة السمحة، ولا يتورط في الابتذال العامي"⁽⁴⁾.

هيكل والإبداع اللغوي:

من المعلوم أن أي كاتب أو أديب لا يصل إلى مرحلة الإبداع إلا إذا مر بمراحل سبقت هذه المرحلة، ويبدو أن هيكلًا مر بهذه المراحل، حيث وضح ذلك طه حسين حينما وجه الكلام لهيكل: "أنت تجيد حتى تصل إلى الإبداع، وتضعف حتى تشرف على الابتذال"⁽⁵⁾، وقد علق محمد رجب البيومي على قول طه حسين قائلاً: "وقد شاء الله أن يهدي هيكلًا إلى التعبير القوي لا على يد طه حسين، بل بنفحة إلهية جذبته إلى الثقافة الإسلامية في معيها الصافي، حين التفت إلى دراسة السيرة النبوية دراسة متأنية ببصيرة... فجاء أسلوبه... مثلًا أعلى للبيان

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/48-49).

(2) الجريدة، من مقالة بعنوان (فوضى اللغة)، ع1867.

(3) المرجع السابق.

(4) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص53).

(5) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص66).

المشرق، وإن القارئ ليتلو ما كتب هيكل في هذا المجال من روائع، فيرى نور النبوة يتألق في السطور تألقاً يرتفع به إلى ذروة الإبداع⁽¹⁾.

يميل الباحث إلى قول البيومي أن هيكلًا وصل إلى مرحلة الإبداع اللغوي حينما اتجه إلى دراسة الثقافة الإسلامية والسيرة النبوية، فاستمد منها قوة لغته حتى وصل إلى مرحلة النضوج ومن ثم الإبداع في البيان والتعبير والصياغة.

ويتحدث عدنان قاسم عن الإبداع اللغوي فيرى أنه: في حالات توهج لحظات الإبداع فإنه يلف اللغة "هالات إيحائية مضيئة فتثمر عطاءً سحريًا، تتمثل في صور شعرية مدهشة، وأنساق موسيقية تتفتح على وجدان المتلقي لأنها تخلق حالتها ولا تصفها من الخارج، وتلك الحالات تتم في تشكيلات لغوية ذات ارتباطات داخلية"⁽²⁾.

يأتي تألق اللغة في لحظات توهج الإبداع، حيث يتجلى المبدع بروحه الفنية في التشكيل اللغوي، وسحر الإيحاء، والصور الشعرية، والموسيقى، بعدها يستقبل المتلقي بقلبه كل ذلك جملة واحدة فيشعر بالدهشة والإعجاب، فيتمتع بالجمال اللغوي، وتألق الإبداع، وهذا ما يلمسه من يقرأ مشهد الحبيج الذي عبر عنه هيكل في كتابه (في منزل الوحي)، الذي صور فيه "رحلته المقدسة تصويرًا دقيقًا يتناول معظم الجزئيات والتفصيلات والوقفات التي وقفها في بلاد الوحي ومنزله... فكأنما الكتاب رحلة روحية لا يكتفي المؤلف فيها بالوصف الحسي، بل نجد نوعًا آخر من الوصف الأدبي يمكن أن نسميه بالوصف الروحي"⁽³⁾.

أما لغة المقالة عند هيكل فيصفها طه وادي، فيقول: "لغة هيكل تتسم بالسلامة والإيقان، ولكن يجب أن ندرك أن هيكلًا في إنتاجه الصحفي المبكر كان يجنح إلى البعد عن الغريب من الألفاظ، ويبتعد عن المحسنات البلاغية والبديعية، بل كان يميل إلى قدر من السهولة اللغوية"⁽⁴⁾.

يفهم من ذلك أن هيكلًا في مراحل كتاباته الأولى كان يميل في لغته إلى السهولة والبعد عن الألفاظ الجزلة، لكنه بعد الدراسة والممارسة استطاع أن يتقن اللغة حتى وصل بها إلى مرحلة الإبداع والتألق.

(1) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص66-67).

(2) قاسم، لغة الشعر العربي (ص157).

(3) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص108).

(4) المرجع السابق، ص171.

رأي النقاد في لغة هيكل:

كان طه حسين في بداية الأمر يتهم هيكل بأنه جمع في لغته بين متناقضين: الإجابة إلى حد الإبداع، والضعف إلى حد الابتذال، وبعد مرور السنين تغير هذا الموقف، فقد وصف لغة هيكل بالإتقان، ونفى عنها تهمة الضعف، لكنه في الوقت نفسه ألصق به شبهة التصنع والتكلف والتفعر في اللغة، يقول في ذلك: "فقد أتقنت اللغة العربية إتقاناً... وأنا لا أستطيع أن أتهمك بالضعف في اللغة العربية، فما رأيك في أنك قد أتقنت اللغة العربية حتى تسرف في هذا الإتقان، وتصطنع من الألفاظ والأساليب ما يصح أن تعاب عليه، لأنه أدنى إلى التفعر منه إلى أي شيء آخر"⁽¹⁾.

ويؤكد على هذا الإتقان وهذه الجودة طه وادي في قوله: "لغة هيكل الأدبية لا مرأى في جودتها سواء بالنسبة للمقالة الصحفية أو غيرها من كتاباته الأدبية، وكل آثاره الأدبية والفكرية تبرهن عن هذه الحقيقة وتؤكدها"⁽²⁾.

أما تهمة التكلف والتصنع فينفيهما عنه محمد رجب البيومي في قوله: "يقتحم هيكل موضوعه، وقد تسلح له بذخيرة الفوز، فعناصره واضحة في ذهنه، صوره تواكب المعاني من غير تصنع ولا افتعال، وألفاظه تتدفق كالسيل وراء معانيه لا يعوقها عائق... وما يزال القلم الساحر يجيش ويهدر، ويتسع وينداح، حتى يبلغ غايته"⁽³⁾.

وحول تمكن هيكل من اللغة العربية وتطويرها للكتابة فقد "شارك زملاءه ومعاصريه في تذليل اللغة العربية، وتمكينها من أن تكون ملجأً للذين يكتبونها، وملجأً للذين يتكلمونها، وشارك زملاءه في أن يتيح للذين يكتبونها ويتكلمونها أن يحرروا أنفسهم من العبودية والإذعان للغة وأن يطوعوا اللغة لحاجاتهم"⁽⁴⁾.

في ضوء ما سبق يتبين أن كتابة المقالة عمل أدبي يحتاج إلى صياغة محكمة تميل إلى السهولة والوضوح لمساعدة المتلقي على الفهم والاستيعاب، وهذا يتطلب دقة في اختيار الألفاظ، وإجادة التراكيب، إضافة إلى التنظيم الجمالي الذي يحدث التأثير بحيث لا يخرج عن إطار الموضوعية.

(1) السياسة الأسبوعية (1926م)، 13 مارس، ع 1.

(2) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص 172).

(3) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص 45).

(4) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص 53).

ويمكن التعرف على لغة هيكل في مقالاته ومؤلفاته من خلال تلخيص ما سبق كالتالي:

1- كان هيكل يدرك أهمية اللغة في حياة الأمم، ودورها في بناء الحضارة لذلك كان دائم الدعوة إلى تطويرها.

2- رأى أن قوة التعبير تحتاج إلى ثروة لغوية توظف بشكل حسن.

3- استخدم في قصصه لغة الحوار بالعامية، وتضمن السرد أحيانًا بعض ألفاظها؛ وذلك لإمتاع القارئ، ولاعتزاز هيكل باللغة العامية المصرية، رغم اقتناعه أنها لا تصلح للكتابة بسبب اختلاف اللهجات، ولأنه لا يوجد لها قواعد.

4- بلغ هيكل مرحلة الإبداع اللغوي عندما أقبل على دراسة الثقافة الإسلامية واتجه إلى الكتابة فيها.

5- تنسم لغته بالسهولة والسلامة والإتقان والبعد عن الألفاظ الغريبة.

6- اتهم طه حسين هيكلًا في البداية بالضعف اللغوي، ثم بالإجادة مع التصنع والتكلف والتعثر في اللغة، وقد نفى محمد رجب البيومي هذه التهمة عن هيكل.

ثانيًا - الأسلوب:

عرفنا فيما سبق أن هيكلًا كان ذا عقلية فلسفية، وأدبية وإبداعية، وقد جمع بين الثقافة العربية والغربية، وبين القانون والسياسة، وبين التاريخ والدين، وكان يميل في كتاباته إلى التأمل والتفكير.

ومما لا شك فيه أن أثر ثقافة الكاتب تنعكس بوضوح على أسلوبه إيجابًا أو سلبيًا، فإذا كان ذا ثقافة متنوعة وواسعة، وجدنا أسلوبه أكثر جاذبية، وأفكاره أشد عمقًا، ومن ثم فإن ذلك يساعد القارئ بشكل مباشر على فهم المقالة والوصول إلى غايته وهدفه.

كذلك فقد تحقق في أسلوبه ترابط الأفكار ووضوحها وانسجام بعضها ببعض، ومتانة الجمل وروعيتها، وكان للكلمات الموحية، والعبارات الثرية، والأساليب البلاغية المتنوعة تأثير في تقوية الأسلوب ورسائلته وعضوبته، وبذلك أحدث الإمتاع عند القارئ.

لقد عبر هيكل عن الحياة، وما عايشه فيها من أحداث حلوة أو مرّة، وسهلة أو صعبة، وما فيها من يأس وتفاؤل، فقد كان في ذلك رائدًا من الرواد الذين ظهروا مع مطالع هذا القرن العشرين، والذين كان لهم الدور الأكبر في حركة التنوير التي أضاعت شتى مجالات الحياة...

وأوقدت مشاعل النور على طريق المواكب الصاعدة لبعث هذه الحياة⁽¹⁾، فجاء أسلوبه أقرب إلى الوضوح والبساطة، وهذا أعطى القارئ نوعاً من الأناقة والألفة عندما يقرأ مقالاته.

حاول هيكل أن ينوع في أسلوبه حسب طبيعة موضوع المقالة، فكان يركز على الجانب الفكري إذا كانت تدور حول فكرة أو رأي، وتركز على جمال العرض ودقته إذا كانت تدور حول مشهد أو ناحية نفسية أو اجتماعية، وقد وصفه طه حسين بالكاتب المجيد المؤثر، حيث يقول: "الناس جميعاً يعلمون أنه كاتبٌ مُجيد، وما أظن بين قراء الصحف من يستطيع أن ينكر أنه مدين لقلم هيكل بساعات لذيدة تأثرت فيها نفسه ألواناً من التأثر، فغضبت مع الكاتب للحق، وسخطت مع الكاتب على الباطل، وشعرت مع الكاتب بالوطنية الصادقة، والحرص على المنفعة القومية، واستمتعت مع الكاتب بلذة العلم والأدب"⁽²⁾.

أسلوب هيكل يدل على شخصيته:

لا شك أن أسلوب الإنسان مرتبط ارتباطاً وثيقاً بشخصيته، وثمره من ثمار ثقافته، وهو مخرج من مخرجات تجاربه وخبراته، لذلك قال (بوفون) Baffon : إن الأسلوب هو الرجل نفسه، وكذلك رأى (فولبير) أن الأسلوب هو طريقة الكاتب الخاصة في رؤية الأشياء⁽³⁾ إذا كان الأسلوب يمتلك طاقات تعبيرية لها دلالاتها وإيحائها، فإنه في الوقت ذاته يكشف عن وجوه التجارب الإنسانية المتنوعة، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال التلاحم الأكيد بين لغة الكاتب وتجاربه، وكلما كان أسلوب الكاتب غزواً وحيويةً ومفعماً بالنبض جاءت تجربته الشخصية فاعلة وموحية ومشعة ومتوهجة ومؤثرة، وقد جاء "أسلوب هيكل دالاً على تفكيره الخاص، معتمداً على مقوماته وثقافته، ويشف في الوقت نفسه عن قوام ثقافي رفيع"⁽⁴⁾.

ويتحدث محمد رجب البيومي عن أسلوب هيكل التعبيري فيقول: "رزق فيضاً إسلامياً دافعاً يجيش في خاطره، لينقله القلم إلى قرائه في استرسال ناصع مكتمل الحلقات، لا ترى فيه ثغرة توحى بضعف، أو نتوءاً يدل على نشاز، ولا يرجع ذلك إلى قدرة المؤلف على الألفاظ، بل يرجع إلى قوة اقتناعه بما يقول، وشدة إيمانه بما يسطر"⁽⁵⁾.

(1) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص273).

(2) المرجع السابق، ص306.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص291.

(4) المرجع نفسه، ص308.

(5) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص78).

أما طه وادي فقد قال: "استطاع بهذا الأسلوب أن يقوم بدور الريادة في الثورة الأدبية والفكرية والسياسية على حدٍ سواء"⁽¹⁾. ويتحدث عن الدلالة النفسية لأسلوبه في كتابة المقالة، فيرى أنها "تكشف عن شخصيته الفكرية، تلك الشخصية الملتزمة التي تعي ثقافتها، وتعي ما يدور في مجتمعها الوطني، وأحياناً العالمي... يعكس آمال وطنه في النزوع نحو التطور الفني والفكري والحضاري"⁽²⁾.

لقد استطاع هيكل من خلال أسلوبه المميز في مقالاته أن ينقل القراء من عبق الماضي إلى شذا الحاضر، فكان يهتك الأفتنة ويزيل الحجب التي تخفي الحقائق بكل ما يستطيع، هدفه في ذلك توعية الناس، وتوجيههم نحو الحقيقة، وهذا يدل على إخلاصه لهم ومصداقيته معهم. وباستنقراء ما تحدث به الكتاب والنقاد آنفاً حول أسلوب هيكل وعلاقته بشخصيته، يمكن للباحث أن يقف على التالي:

- 1- أسلوب هيكل يدل على تفكيره العميق، ويكشف عن ثقافته الراقية.
- 2- ينبض أسلوبه بالحس الإسلامي، ويفيض بالخواطر الصادقة الجياشة، وهو يملك القدرة على الاسترسال المكتمل، ويتميز بالقوة التي ليس فيها ثغرة من ضعف، وعنده ثقة بما يكتب نابعة من إيمانه القوي.
- 3- يدل أسلوبه على دوره الريادي في مجالات الأدب والفكر والسياسة.
- 4- يكشف أسلوبه عن شخصيته الملتزمة الواعية بما يدور في مجتمعها الوطني، وبما يحدث في العالم.
- 5- يبرز أسلوبه طبيعة شخصيته الطموحة التي تسعى دائماً إلى التطور الفني والفكري والحضاري.

أثر التراث الإسلامي في أسلوب هيكل:

يتأثر الكاتب أو الأديب بالحياة السائدة في المجتمع الذي يعيش فيه، كما أنه يؤثر في هذا المجتمع، وهو عندما يستخدم اللغة يستمد أدبه من حياة المجتمع، فما النتاج الأدبي والعمل الصحفي إلا ثمرة من ثمار هذا الاستخدام.

(1) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص173).

(2) المرجع السابق، ص170.

وبمناسبة صدور كتاب هيكل (الفاروق عمر) رأى محمد رجب البيومي أن هيكلًا برع في إبراز "سياسة عمر في الإدارة، وما امتاز به من قدرة فائقة في فهم النص القرآني، وتطبيقه على ما جد من أمور الحياة اجتهادًا واستنباطًا"⁽¹⁾، ورأى أن هيكلًا قد اتجه إلى الثقافة الإسلامية، فدرس كتاب الله وسنة رسوله، "هذه الدراسة التراثية قد نقلت أسلوبه البياني من وضع إلى وضع... كان تعبيره في عهده الأول لا يخلو من ضعف... فلما شرفه الله بالاتجاه الإسلامي المبين، انتفض تعبيره الأدبي مورفًا زاهيًا، وسما اتجاهه الفكري إلى ذروة كتبت لآثاره الخلود"⁽²⁾.

يفهم من ذلك أن هيكلًا عندما أقبل على دراسة الثقافة الإسلامية بكل مكوناتها، تأثر بها أيما تأثر، هذا التأثر كان نقطة تحول في حياته على جميع الأصعدة، فقد سار في طريق الهداية والرشاد، وتغير فكره من الفكر القومي الليبرالي إلى الفكر الإسلامي، وانتقل بأسلوبه البياني الذي كان لا يخلو من بعض الضعف إلى أسلوب يتسم بالقوة والجزالة والرصانة، مما جعله يرتقي في تأليفه ونتاجه الأدبي.

يذكر طه وادي: أن بداية هذا التحول كانت عام 1930م عندما أراد هيكل أن يزود عن دينه نتيجة لنمو حركة التبشير التي استشرى خطرها في مصر، فبدأ يكتب مقالات عن الإسلام ونبيه محمد ﷺ، ثم استوعبت مقالاته الدينية كثيرًا من نتاجه وتأليفه وبحثه الديني⁽³⁾.

يقول هيكل في مقدمة كتابه (ثورة الأدب): "كان الإسلام وما يزال دين أهل هذا الشرق العربي... فلا يمكن أن يؤدي الأدب رسالته إذا أهمل هذا الجانب القوي من جوانب حياة الشرق العربي"⁽⁴⁾، هذا ما كان يعتقد هيكل وما كان يتبناه، فالأدب بدون الإسلام لا يستطيع أن يؤدي رسالته كاملة، وهذا دليل على مدى تأثير الإسلام في نفس هيكل، ومقدار تعلق هيكل بهذا الدين، حيث اعتبره بذلك منهجًا لحياته على الأقل، فأراد أن ينطلق منه في تأليفه ونتاجه وكتاباته.

(1) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص118).

(2) المرجع السابق، ص64-65.

(3) ينظر: وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص161-162).

(4) هيكل، ثورة الأدب (ص12).

ويقول هيكل في مقدمة كتابه (في منزل الوحي): "رأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس، وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين"⁽¹⁾.

أراد هيكل أن يلفت انتباه الأجيال المتعاقبة بعده إلى ما يلزمهم من أفكار صالحة تخدمهم في حياتهم، حيث ذكر لهم تجربته الخاصة التي خاضها والتي تفيد بأن التاريخ الإسلامي هو الذي ينبت ويثمر، حيث تجد فيه النفوس ضالتها، ومن خلال معرفته يمكن لها أن تحقق ذاتها، وتصل إلى غايتها، فالتاريخ الإسلامي تجربة إنسانية رائدة.

ويرى البيومي أن أسلوب القرآن الكريم اختلط بشغاف قلب هيكل، فانثال على لسانه، وأنه سما ببيانه عندما كان يقتبس من الحديث الشريف، وأنه في كتابه (حياة محمد) ترقق بالمعاني، وتألّق بالألفاظ، وذكر أن أقوى ما يظهر من تأثير هيكل بكتب التراث هو دفاعه عن قيادة الإسلام للإنسانية، حين شرح مبادئ الحرية والإخاء والمساواة، وهذا يدل على استيعابه الجيد للأفكار الإسلامية والمبادئ التشريعية، وكذلك إمامه بأقوال خصوم الإسلام، الذين حاربهم هيكل بسلاحه الناقد واطلاعه الواسع البصير⁽²⁾.

هناك مجموعة من الثقافات أثرت في أسلوب هيكل، كما كان للعلم والفلسفة نصيب من هذا التأثير، وكان لمحمد عبده وللطفي السيد كذلك أثر واضح، ويمتد هذا التأثير ليشمل كتب الأدب العربي التراثية مثل آمالي القالي، وأغاني الأصفهاني، وأمثال الميداني، والبيان والتبيين للجاحظ وغيرها⁽³⁾.

في ضوء ما سبق يظهر تأثير هيكل الواضح بالموروث الثقافي الإسلامي، ابتداءً بالقرآن الكريم والحديث الشريف والسيرة النبوية، وانتهاءً بالمؤلفات الإسلامية، وقد اتضح للباحث خلال ذلك التالي:

- 1- غير هيكل اتجاهه الفكري، فقد خلع كل ما يربطه بالفكر الغربي، وتخلّى عن الفكر القومي الليبرالي، وتبنى الفكر الإسلامي، ودعا الأجيال لاعتماده كمنهج حياة.
- 2- قوى أسلوبه البياني من خلال تأثره بالأسلوب القرآني والدراسات الإسلامية.

(1) هيكل، في منزل الوحي (ص24).

(2) ينظر: البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص67-72).

(3) ينظر: هيكل، مذكرات في السياسة المصرية (ج1/25).

3- اتجه في كتاباته وتأليفه إلى الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي والسّير.

4- دعا إلى ريادة الإسلام للإنسانية، كما فسر مبادئها من منطلق الإسلام.

خصائص أسلوب هيكل:

تعد المقالة تجربة إنسانية استوعبها عقل الكاتب ووجدانه فعالجها بطريقة الخاصة من حيث الشكل والمضمون والاتجاه، وعبرَ فيها عن التطور الحضاري الذي مرت به مصر، وقد رأى هيكل أن تربية العواطف تربية سليمة هي السبيل الأفضل لحسن الاستمتاع بالحياة.

وتمتاز مقالات هيكل من حيث "الشكل بالأسلوب الذي يعتبر انعكاسًا لتفرد الكاتب وتميزه، ونعني بالأسلوب هنا طريقة تناول الموضوع وطريقة عرضه، ثم طريقة صياغته للأفكار، وتعبيره عن العواطف"⁽¹⁾.

سيحاول الباحث كشف النقاب عن أهم الخصائص التي توضح طبيعة أسلوب هيكل في مقالاته، وذلك من خلال دراستها والوقوف على الظواهر التي تشكلت فيها، والملاحظات التي استرعت الانتباه لها وهي كالتالي:

1- يبدو أن هيكلًا عندما كتب مقالاته قد تأثر بدراسته للقانون وممارسته لمهنة المحاماة، فقد كان يبدأ مقالاته بمقدمات جاء معظمها مطولًا، ثم يُتبع ذلك بالعرض الموضوعي للأفكار على أساس علمي ومنهجي، وهو خلال ذلك يورد جزئيات الموضوع ويحللها، ثم يردف ذلك "بالنتيجة العامة لهذا الموضوع دون أن نحس بأي فتور أو ملل، لأنه يغلف هذه الموضوعية بتعبير أدبي عاطفي فيه كثير من روح الصداقة والألفة"⁽²⁾.

كان هيكل حريصًا على اتخاذ الموضوعية منهجًا في عرضه ليقنع القارئ والخصوم "فلم يستطع خصومه من السياسيين أن يأخذوا عليه مأخذًا يمس نزاهته، وموضوعيته، وهي الموضوعية التي طبعت كتاباته الأدبية والصحفية بطابعها"⁽³⁾. وكان يزيّن هذه الموضوعية بنوع من جمال التعبير لدفع الملل واليضيبي عليها هذا الرواء الجميل الذي يجعل للفكرة أثرها في نفس القارئ"⁽⁴⁾.

(1) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص163).

(2) المرجع السابق، ص165.

(3) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص298-299).

(4) المرجع السابق، ص300.

هذا الحرص الشديد على إقناع القارئ وإرضائه يدل على وعي هيكل المستنير، فقد خاطب عقل القارئ ووجدانه في وقت واحد وذلك لكسبه واستقطابه، من جهة أخرى فإن اعتماده للموضوعية في كتابة مقالاته يوحي بمدى تأثره بالأسلوب العلمي، ويعطي انطباعاً خاصاً عن طبيعة شخصية هيكل ومنهجه في الحياة، والذي يُبرز ميله إلى الترتيب والتنظيم والتخطيط والتنسيق قبل الشروع في العمل، ونفوره من العشوائية والغوغائية غير المثمرة.

2- نظراً لتنوع ثقافة هيكل واتساعها، فإنه كثيراً ما كانت تتوارد عليه الخواطر أثناء كتابته للمقالات فيسطرها ويثبتها كجزء أساس فيها، وهذا ما يسمى بالاستطراد الذي كان يكثر منه "ويطيله، فيطول تبعاً لذلك نفسه في المقالة ويكثر عدد صفحاتها، وإذا كان هذا الاستطراد وسيلة لتوضيح الأفكار والتدليل على صحتها، فإنه في الوقت نفسه دليل على اتساع ثقافة الأديب"⁽¹⁾.

هذا الاستطراد الذي تميز به هيكل لم يأت من فراغ، وإنما هو ثمرة من ثمار عمره الذي قضاه في القراءة والاطلاع والدراسة، لذلك فلا عجب أن نلمس في هذا الاستطراد ثقافة هيكل متنوعة المشارب من شرق وغرب، ومتعددة المجالات: في السياسة والصحافة والفكر والدين والتاريخ والأدب والاجتماع، ومن مقالاته التي استطردها بشكل مستفيض: (تهذيب المواهب وصلته ما بين العلم والفن) ومقالة أخرى بعنوان: (أزمة العالم، أزمة خلق وأزمة عقيدة).

3- في مقالات هيكل الكثيرة والمتنوعة ما يدل على عنايته بالأفكار، وتركيزه على المعاني بالدرجة الأولى، ثم يأتي اهتمامه بالألفاظ والعبارات بالدرجة الثانية، فقد كان "يعتمد على الفكرة ودقة أدائها أكثر مما يعتمد على اللفظ المنمق المزوق، وسبب ذلك أن التشريع والقوانين بوجه عام، يقتضي كاتبها ألا يزيد في ألفاظه على ما يقصد إليه من المعاني"⁽²⁾، وليس معنى هذا أنه لم يكن حريصاً على السلامة اللغوية، وإنما كان في إنتاجه الصحفي "يجنح إلى البعد عن الغريب من الألفاظ، ويبتعد عن المحسنات البلاغية والبديعية، بل كان يميل إلى قدرٍ من السهولة اللغوية"⁽³⁾.

(1) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص168).

(2) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص297).

(3) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص171).

معنى هذا أن الأفكار والمعاني احتلت عنده المرتبة الأولى، بينما أخذت الألفاظ واللغة المرتبة الثانية، وهذا ما أكد عليه في كتابه (ثورة الأدب) حيث قال عن اللغة أنها: "لا تتصل بالأدب لذاته إلا من حيث هي كساء الأدب"⁽¹⁾.

يُفهم من ذلك أن السهولة اللغوية في مقالات هيكل كانت سمة غالبية فيها، وليس معنى هذا أن هيكلًا لم يكن متمكنًا من اللغة، أو أنه زاهدٌ فيها، وإنما قد يكون هذا الأمر متعمدًا من طرفه بهدف توصيل رسائله التي احتوتها مقالاته إلى قطاع واسع من جمهور القراء، وكان يقصد من وراء هذه السهولة مراعاة المستوى الثقافي واللغوي لهم.

دفاع هيكل عن أسلوبه:

ساد في عهد هيكل معارك أدبية ونقدية ساخنة، كان منها ما وجهه طه حسين إلى هيكل حيث انتقده في أسلوبه ولغته، وذلك بعد تأليفه كتاب (ثورة الأدب) حيث ذكر طه أن هيكلًا "من أصحاب المعاني بين الكتاب، وأنه يهمل لغته إهمالًا شديدًا، ويتورط في ألوان من الخطأ واضطراب الأسلوب، يدنيه أحيانًا من الابتذال، والغريب أنه لا يضيق بذلك، ولا يجد به بأسًا"⁽²⁾.

إزاء هذا الاتهام الصريح لهيكل بأنه يهمل لغته فيقع في الأخطاء اللغوية مما يتسبب في اضطراب أسلوبه، وقف هيكل مدافعًا عن لغته وأسلوبه، فكان مما أورده في هذه الدفاع:

1- أنه لم يشعر بأي نوع من أنواع الضيق والحرَج تجاه أسلوبه، ولم يجد به بأسًا، ويقر هيكل أن هناك اختلافًا بينه وبين طه حسين حول اللغة والأسلوب فيقول: "نحن حقًا مختلفان في أمر اللغة والأسلوب... لكنني لم أعرف قط منك أن لغتي وأسلوبِي يديني من الابتذال، بل عرفت منك غير هذا"⁽³⁾.

رغم أن هيكلًا يعترف بهذا الاختلاف إلا أنه ينفي عن أسلوبه صفة الابتذال، ثم يوجه اللوم لطله لأنه سكت عنه سنوات طويلة ولم ينتقده في لغته وأسلوبه، بل على العكس كان يصف أسلوبه بالإجادة والإتقان، واعتبر هذا السكوت خدعة من طه له، وعق للصداقة، وعدم الوفاء لها من حق، ثم يمضي هيكل في اعتزازه بأسلوبه قائلاً: "فليكن أسلوبِي ما يكون

(1) هيكل، ثورة الأدب (ص35).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/300).

(3) المصدر السابق، ج1/301.

فلن أَرْضَى به بديلاً، فأسلوب الكاتب هو الكاتب... والحمد لله الذي جعل كثيرين ممن تناولوا كتابي هذا وغيره من كتبي يعجبهم أسلوبِي أكثر مما أعجبك يا صديقي⁽¹⁾.

يعلن هيكل أنه راضٍ كل الرضا عن أسلوبه لأنه يمثل شخصيته، ثم إنه هون على نفسه بأن هذا النقد للغته وأسلوبه إنما هو مجرد رأي شخصي لفرد، وعزاؤه في ذلك أن من قرأوا كتبه أُعجبوا بأسلوبه.

2- بين هيكل علاقة أسلوبه بالأدب والقانون فيقول: "لم أتخذ الأدب يوماً صناعة، ولا أنا توفرت على دراسة الأدب... وطبيعي أن يكون أسلوبِي أسلوب الذين درسوا القانون، والذين يرون أن تؤدي المعاني بالألفاظ لا تزيد عليها ولا تضيق بها، والذين لا يعنيه ذلك بهرجة اللفظ للفظ، وقد زادني حرصاً على هذا الأسلوب أي رأيت مثله موضع الإطراء من طائفة من كبار الكُتاب والفلاسفة"⁽²⁾.

يقر هيكل بأنه لم يدرس الأدب كمتخصص فيه، وإنما هو اجتهاد منه، وأن الأدب ليس المجال الوحيد الذي يكتب فيه، بالمقابل يذكر بأنه درس القانون وتخصص فيه، لذلك فلا عجب أن يتميز أسلوبه بأن تكون فيه الألفاظ على قدر المعاني دون زيادة أو نقصان، كذلك رأى أنه لا يهيمه عند استخدامه للألفاظ أن يختار المبهرجة والمنمقة منها، وأكد على أن ما زاده قناعة بهذا الأسلوب واعتماده له ما وجده من مدح وثناء من كبار الكُتاب والفلاسفة لمثل هذا النوع من الأسلوب.

3- اعترف هيكل لطفه حسين بأنه جراء السرعة وقعت منه بعض الهنات، يقول: "اعترف يا صديقي بأنك على حق حين أخذتني بأنني أسرع فيفوتني ذلك التحقق من بعض الشئون، وأنتك وقعت على هنة ما كان يجوز لي أن أقع فيها"⁽³⁾. وحاول هيكل أن يبرر لهذه السرعة، فاستشهد لذلك بالأدب الغربي وقال: "نزعت القصة شيئاً فشيئاً بأسلوبها إلى الإيجاز، لا في وقائعها، ولكن في بهرجة الألفاظ التي تقص بها تلك الوقائع، ولعل ميل العالم الحاضر إلى السرعة في كل شيء هو الذي عفى علي الإطالة... لعل هذا الميل إلى السرعة هو الذي مال حتى بالأدب إلى أسلوب القانون"⁽⁴⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/302).

(2) المصدر السابق، ج1/302-303.

(3) المصدر نفسه، ج1/303.

(4) المصدر نفسه، ج1/303.

وحول الهنات التي وقع فيها هيكل وذكرها طه حسين في مقالاته بالتفصيل منتقداً إيها، وفي الوقت الذي اعترف فيه هيكل بتلك الهنات أو أنه عزا سببها إلى السرعة وعدم التدقيق والمراجعة، يعلق هيكل على طريقة نقدها، فيصفها بالغثة المبتذلة⁽¹⁾، ثم يتحدث عن أسلوبه واصفاً طبيعته وخصائصه فيقول لطه حسين: "وأنت تعرفني كما يعرفني الناس أشدهم قصداً في الأسلوب، وأكثر زهداً في التكرار، وفي التفهيق باللفظ المجوف والعبارة القليلة من المعنى وإن خلا فيها الرنين"⁽²⁾.

في ضوء ما سبق يخلص الباحث إلى أن هيكلًا كان معترًا بأسلوبه، مدافعًا عنه، داحضًا للاتهامات التي وجهها طه حسين لأسلوبه ولغته، وقد اعترف في تردد بالأخطاء اللغوية البسيطة التي وقع فيها والتي جاءت نتيجة للسرعة وعدم التدقيق والمراجعة.

لقد رسم هيكل صورة واضحة لأسلوبه، فذكر أنه يعبر عن شخصيته، وأن كثيرًا ممن قرأوا كتبه أعربوا عن إعجابهم بأسلوبه، وأن الألفاظ في أسلوبه جاءت على قدر المعاني، وأكد على أنه لا يميل إلى الألفاظ المنمقة المبهجة، وأن دراسته للقانون أثرت في أسلوبه فمال به إلى الإيجاز والتركيز وعدم الإطالة، وكان لا يحبذ التكرار أو التفهيق والتفحرف في اللفظ والعبارة، أو تعمد الموسيقى على حساب المعنى، وقد عبر عن الزهد في أسلوبه، ساعيًا إلى تحقيق القصد منه، فالأسلوب في نظره وسيلة وليس هدفًا لذاته.

ثالثاً - الخيال في مقالات هيكل:

مما لا شك فيه أن للخيال مكانة هامة ومنزلة رفيعة في عالم الأدب شعره ونثره، فلا يكاد يخلو أي عمل أدبي منه، لأنه يعد عنصرًا أصيلاً فيه، ولو حاول أي كاتب أو أديب أن ينأى بقلمه عنه، فإن لغته تأتي تقريرية مباشرة، وربما يجيء فكره مجردًا من الإحساس، لذلك فالأدب بشكل عام بحاجة دائمًا إلى نظم جيد، وإلى تصوير أخاذ ليكتمل وليخرج على أجمل هيئة وأحسن صورة.

وإذا كان الخيال عنصرًا أساسيًا من عناصر التعبير الفني عن الأفكار والعواطف، فإن الأديب أو الكاتب لا يستغني عنه قط عند التعبير عن تجاربه الذاتية ورؤيته للحياة، فهو وسيلة للتأثير في النفوس، وهو سبيله لإقناع القراء بأفكاره.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/307).

(2) المصدر السابق، ج1/307.

والمتمأل في مقالات هيكل عامة، وفي مقالاته الأدبية خاصة يجد فيها خاصية التصوير مستندة إلى عناصر البيان لكونها دعامة أساسية من دعائم الصياغة الفنية، ولأنها تزيد المعنى وضوحًا، وتكسبه تأكيدًا، ويرى هيكل أن "تأثر نفس الكاتب أو الشاعر بالبيئة الطبيعية والاجتماعية المحيطة به تأثرًا يجعله يتمثل هذه البيئة وتمثله حتى لا يصدر فيما يكتب أو ينظم إلا عن وحيها وإلهامها"⁽¹⁾.

لقد تناول هيكل في إحدى مقالاته الشاعر البهاء زهير بالحديث عن شعره، فقد وصف التصوير فيه بأنه "تصوير رقيق لعواطف سامية تجيش بنفسه، وتجول في خاطره"⁽²⁾، أراد هيكل بذلك أن يوضح سمات الشعر الجيد العذب وذكر رقة التصوير وسمو العاطفة، وقد ربط بينهما ليؤكد على العلاقة التي تجمعهما، فالتصوير الفني لا يكتمل نضوجه إلا إذا خرج من عاطفة جياشة وإحساس مرهف.

تحدث هيكل عن التصوير في شعر البارودي، فقد رأى في شعره ظاهرة تلفت الانتباه وهي أن تصويره للواقع كان يتصف بالبساطة والسلامة والقوة، وأنه اعتمد في هذا التصوير على حاسة النظر أكثر من اعتماده على سواها، كما أكد على أن تصوير المنظور صفة بارزة في شعر البارودي كله، وكان تصويره الروائي للمنظورات يغالبه وهو يقلد⁽³⁾.

ويؤخذ على هيكل إقراره لهذا النوع من التصوير دون إبداء أي ملاحظات تجاهه، فالتصوير المنظور كالصورة الفوتوغرافية يمكن لمن يراها أن يصفها فقط دون أن يتفاعل مع عناصرها، وكان الأوفى بهيكل أن يقف على البعد الجمالي لهذا التصوير، ويبحث عما وراء هذا التصوير من لمسات فنية، أو أن ينتقد هذا التصوير بكل وضوح ودون مجاملة، لكن يبدو أن هيكلًا كان شديد الإعجاب بالبارودي وشعره وهذا ما أنساه أو جعله ينسى هذه المثالب، والدليل على هذا الإعجاب غير المحدود قوله: "وحسب البارودي ديوانه آية لمجده، وترثًا للأجيال بعده، فهذا الديوان تمثال عبقرية خالدة، وهو باقٍ لذلك بقاء الأبد"⁽⁴⁾.

أما التصوير في شعر حافظ إبراهيم فقد تحدث عنه في مقالة له بعنوان: (حافظ إبراهيم حياة نفسه في شعره) فذكر أن "هذا الشعر ينزع إلى التصوير المحسوس نزعة صريحة ظاهرة

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/23).

(2) المصدر السابق، ج1/27.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ج1/38-39.

(4) المصدر نفسه، ج1/56.

تجعلك في كثير من الأحيان ترى خواطر حافظ فيه، وكأنها لوحة مرسومة أمامك تقع منها على الدقيق والجليل⁽¹⁾.

إذا كان التصوير عند البارودي تصويرًا منظورًا فإنه عند حافظ إبراهيم تصويرًا محسوسًا، يستطيع من يقرأه أن يلمسه بقلبه قبل أن يشاهده بعينه، فالجمال فيه مجسد بكل تفاصيله الدقيقة.

ورغم جمال هذا النوع من التصوير إلا أن هيكلًا اكتفى بذكره فقط، ولم يتطرق إليه بشيء من التفصيل، أو أن يأخذ بلب القارئ إلى مساحة أكثر عمقًا وأوسع أفقًا.

وفي مقالة أخرى له بعنوان (وطنيات حافظ) يقول: "صدق الشاعر في تصوير عواطفنا وآلامنا وآمالنا هو الذي يدفع نفوسنا إلى الطرب بشعره والحماسة له"⁽²⁾.

يرى هيكل أن التصوير الصادق للعواطف والأحاسيس والشعور المعبر عن الآلام والآمال هو ما يطرب النفوس ويمتعتها، وأن الشعر الذي يتميز بهذا الوصف هو الشعر الذي يستحق التقدير والاحترام لأن فيه ما تصبو إليه النفس، فهو جدير بالحماسة له والإعجاب به، وقد رأى هيكل أن الشعر من خلال هذا التصوير يحمل رسالة عظيمة مفادها أنه صور "ما تتطوي عليه جوانحنا، وما تنبض به قلوبنا، وما تهوي إليه أفئدتنا من ألم وأمل وخوف ورجاء، وانكسار للمذلة، وتوثب للعزة، ووصف به أدواءنا، واستنهض به همنا"⁽³⁾.

التصوير الجميل في نظر هيكل هو ذلك التصوير الذي يغوص في أعماق النفس، أو هو الذي ينفذ بعدسته إلى القلوب والجوارح للوصول إلى الحالة الداخلية وما فيه من ضعف وقوة أو ألم وأمل أو من خوف ورجاء، وما فيها من مذلة وعزة، هذا التصوير هو التصوير الصادق بكل المقاييس، فليس فيه تستر على شيء، ولا تجاوز لأي شيء، هو دقيق حساس هدفه تصوير الحقيقة بكل أبعادها بلوها ومرها، وحاضرها ومستقبلها، بإيجابياتها وسلبياتها.

ويرى هيكل أن في التصوير الجميل دعوة لتحبیب الحياة إلى الناس، والتمتع بجمالها، يقول هيكل: "الكاتب والمصور والموسيقيار... هم الذين يحبون الحياة إلى الناس بما يصورون لهم من ألوان الجمال فيها وليس الجمال في الخيال الذي لا يصف واقعا، وله في ماضٍ تردد

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/75).

(2) ينظر: المصدر السابق، ج1/79.

(3) المصدر نفسه، ج1/84.

الأساطير أفاصيصة بقدر ما هو فيما يقع عليه حسنا وتتأثر به مشاعرنا، وتهتزله جوارحنا، بل أن تصوير هذا الجمال يدفعنا إلى الإقبال عليه لتزيده بهاء وروعة⁽¹⁾.

مهمة التصوير في نظر هيكل غرس محبة الحياة في نفوس الناس من خلال بيان ما في هذا التصوير من ألوان الجمال الذي يؤثر في الأحاسيس والجوارح، ومن ثم فإن من يستشعر به يقبل عليه بنفس مفتوحة غايتها التمتع بهذا الجمال، والجمال يزداد روعة وحسناً إذا وجد من يقدره ويعلي من شأنه.

بعد هذا العرض يحسب الباحث أنه استطاع أن يقدم رؤية هيكل للتصوير والخيال من خلال مقالاته، هذه الرؤية يمكن تجليتها من خلال التالي:

- 1- يرى هيكل أن الطبيعة والبيئة وبما توحيان وتلهمان يستمد منهما الأديب مادته التصويرية.
- 2- لا يكتمل الخيال في الأدب، ولا يصل إلى مستوى النضوج إلا إذا اجتمعا فيه التصوير الرقيق والعاطفة السامية.
- 3- وصف هيكل تصوير البارودي بأنه منظور بمعنى أنه عادي أو تقليدي ليس فيه تميز ولا إبداع، ووصفه بالبساطة والسلامة والقوة والسبب أنه لم يرتبط بالإحساس.
- 4- ذكر هيكل أن التصوير في شعر حافظ إبراهيم كان محسوساً، عبر فيه عن خواطره بشكل دقيق وجميل.
- 5- يرى هيكل أن التصوير الصادق هو الذي يعبر عن العواطف والآلام والآمال، وأنه جدير بالاحترام والتقدير.

6- وضح هيكل أن للتصوير غايات فيها: الغوص في أعماق النفوس والقلوب والجوارح للوصول إلى الحقيقة بكل أبعادها، ومنها تحبيب الناس في الحياة ودعوته للتمتع بجمالها.

التصوير في كتابات هيكل:

يقول طه وادي: "أن هيكلًا كان يمتاز بقدرة فائقة على الوصف والتصوير، بل إنه يعد من أكثر أدباء عصره تفننًا في هذه الناحية وأطولهم نفسًا فيها"⁽²⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/254).

(2) وادي، هيكل رائد الرواية (ص111).

يبدو أن وادي كان يقصد بأن هذا الوصف وهذا التصوير موجودان في كتب هيكل خاصة السيرة أو ذات الطابع القصصي فيها، وفي بعض مقالاته، أما الكتب فيقول عنها وادي: "ولكن الجديد الذي سنجد عند هيكل هو أننا نجد له كتبًا تزخر من أولها إلى آخرها بالوصف الحسي والنفسي والبشري في ثوب قصصي جذاب، يروع الفكر، ويدهش الوجدان، وهذه الكتب هي: عشرة أيام في السودان، ولدي، في منزل الوحي"⁽¹⁾.

وحول زيارته للسودان التي استغرقت عشرة أيام ألف هيكل كتابه (عشرة أيام في السودان) وقد سجل فيه ملاحظاته ومشاهداته والمعلومات التي جمعها أثناء الرحلة، يقول وادي عن هذا الكتاب: "قالكتاب بفصوله العشرة عبارة عن شريط سينمائي، التقطه مصور بارع لرحلته إلى السودان، وفي أثناء عرض هذه الرحلة تكاد تحس أن الكاتب لا يترك شيئاً يدعو إلى النظر أو التفكير إلا وقف عنده ووصفه بعين الرائي، وحلله ببصيرة الواعي"⁽²⁾.

رأى وادي أن هيكلًا برع في تصويره لرحلته، وما أعجبه في هذا التصوير دقته وقد شبهه بالشريط السينمائي، وشموليته وقد طال هذا التصوير كل ما يلتفت الانتباه أو يدعو إلى التفكير، أما هيكل بصفته المصور لهذه الرحلة فقد وصفه بالبارع والبصير والواعي، وإن كان ثمة دلالة لما ذهب إليه وادي، فإن الباحث يستشف من قوله أن هيكلًا كان يملك أدوات التصوير، وأنه كان بارعًا في استخدامها، بمعنى أن عنده المقدرة الفنية على التصوير وتوظيف ألوان البيان وأنواع الخيال في عمله الأدبي.

ومن الصور الوصفية المدهشة الساخرة التي رسمها هيكل في هذا الكتاب والتي التقطها أثناء رحلته، إجلال شعب السودان لشخص السيد المرغني الذي وصل إلى حد التبرك به، وبالمكان الذي يجلس فيه، يقول هيكل: "فحين حاول أن يصعد إلى القطار تهافت الناس حوله كالهوام بين متبرك بالعربة التي يجلس فيها، ومقبل للدرجة التي رقى عليها لداخل العربة، وبين مقبل لليد، لا تقوى عينه على أن ترى صاحب البركات"⁽³⁾.

إن من ينظر إلى هذه الصورة ربما يعتبرها حدثًا عاديًا عابرًا لا يستحق الوقوف عنده، لكن هيكل الواعي البصير -كما وصفه وادي- أراد من هذه الصورة أن يوصل للقارئ مستوى الجهل الذي وصلت إليه شريحة من الشعب السوداني، وأن هناك معتقدات خاطئة، وسلوكيات

(1) وادي، هيكل رائد الرواية (ص105).

(2) المرجع السابق، ص105-106.

(3) هيكل، عشرة أيام في السودان (ص78).

غير سليمة يمارسها هؤلاء الناس، وأن بعض المتنفذين في هذا البلد يستغل هذه السذاجة بغير حق لصالحه ليصنع له مكانة وشعبية بينهم.

لقد كان لهيكل القدرة على التخيل والوصف معاً، ففي كتابه (في منزل الوحي) يعود إلى الوراثة ألف وأربعمائة سنة ليصور بعدسته الافتراضية لحظات صعود الرسول ﷺ إلى غار حراء ومكوته فيه للتفكير والعبادة، وقد صور هذه اللحظات بكل أبعادها، وكأنه شاهد هذا المنظر بأمر عينيه، وشهد تلك اللحظات بروحه وجسده حيث يقول: "وها هو ذا على سفح حراء يصعد إليه وسيما التفكير مرتسمة على قسماط محياه... ويستمر في تصعيده وزاده معه حتى يبلغ قمة الجبل، هنالك يجد ماء المطر القليل قد اختزنته بعض أخاديد شعابه، ويجلس على مقربة من هذا الماء، ومن غار قريب منه هو مأواه أثناء نومه، ويجيل بصره فيما حوله من خلق الله، ثم يرجع البصر ويغمض عينيه الواسعتين الجميلتين إغماضة تأمل وإدكار لكل ما سمع وما رأى"⁽¹⁾ ويكمل هيكل هذه الصورة لحظة غياب الشمس وقدم الليل فيقول: "فإذا جن الليل، وتألفت النجوم وانتشرت في قبة السماء، أجال بصره فيها، وفكر في أمرها وفي خلقها وفي خلق هذا العالم العظيم كله"⁽²⁾.

هذه صورة كلية تخيلها هيكل فوصفها بأحاسيسه بكل دقة، فخرجت كأنها مشهد تمثيلي بذل المخرج فيه كل جهده، وسخر كل إمكانياته ليرى النور وهو على أكمل وجه، وليؤثر فيمن يشاهده أيما تأثير، وقد نجح هيكل في رسم هذه الصورة بكل أبعادها، فالمتأمل فيها يرى الرسول ﷺ وهو يكابد المشقة والعنت وهو يصعد هذا الجبل قاصداً سفح غار حراء، وتزداد معاناته لأنه وحيد لا يجد من يسانده أو يسري عنه، وقد ذهب من أجل أمر عظيم لا يدري كيف سيكون شأنه، صعد بإرادته عن طيب نفس، كيف لا وقد خرج دون أن يشعر به أحد يبحث عن هدف سام، وغاية كبرى، إنها معرفة حقيقة هذا الوجود بما فيه والوصول إلى خالقه، صور لحظات الصعود المضنية يحمل زاده، ويكتفي بالقليل من ماء المطر المخزن في بعض الأخاديد، هذه حال أصحاب الهمم العالية والغايات النبيلة، فهم دائماً يتعالون على الحزن والألم، ويتجاوزون المحن والفتن دون أن تهتز نفوسهم جزءاً، فثباتهم على ما يؤمنون به يوزن الجبال الرواسي، لذلك فلا عجب أن نرى عزائمهم كأنها صنعت من فولاذ.

(1) هيكل، في منزل الوحي (ص 227).

(2) المصدر السابق، ص 227.

وبعد أن يستريح قليلاً يبدأ برنامج السري بينه وبين خالقه، إنه التأمل بالقلب، لحظات يجول فيها ببصره، ثم يرجع البصر ويغمض عينيه، ليعطي الفرصة لإيمانه أن يتفاعل مع روحه، لتصفو تلك الروح من كدر الحياة وهمومها، لحظات يخلد فيها بنفسه مع الله، فما أجملها من لحظات حين تسودها الطمأنينة، ويغمرها الأمن والأمان، ويخيم عليها الاستقرار النفسي، ويكون عنوانها الثقة بالله والتوكل عليه.

أما في الليل المظلم، وتحت ضوء القمر وتألّق النجوم، حيث يسود الهدوء، وتتجلى السكينة، فإن التفكير أعمق، ومسافة الوصول إلى الحقيقة أقصر.

هذا ما أراده هيكل من هذا التصوير، فوجود الرسول ﷺ في هذا المكان الموحش ليس عبثاً، وإنما تمهيداً لحدث عظيم سيغير مجرى التاريخ، وسيعيد بوصلة الحياة إلى الاتجاه الصحيح، إنه نزول الوحي وحمل أمانة الإسلام وتبليغها للناس كافة، إنها لحظات انتظار لنزول الرحمة والبشارة من السماء إلى الأرض لينعموا أهلها ويسعدوا.

التصوير في مقالات هيكل:

المتأمل في مقالات هيكل يجد التصوير فيها أحياناً يصل إلى حد البراعة والتميز حين يعتمد فيه على دقة الملاحظة، وعندما تتفاعل أحاسيسه مع الطبيعة بعمق، فجاء هذا التصوير رشيقيًا، والوصف متألقًا، ففي مقالة له يصف الطبيعة المصرية بجلالها وجمالها فيقول: "ليجلس من شاء عند سفح الأهرام، وليحدق ببصره إلى ناحية النيل، يرى السماء المهيبة الجلال في صفوها تُظَلُّ نطاقاً من الخضرة الباسمة تنفسح من وراء صحراء تذهب من البصر إلى الأفق... ما أشد جلال السماء، وبساطة الصحراء، وقوة الخصب"⁽¹⁾.

هذه صورة مركبة للطبيعة المصرية، يشاهد فيها الأهرام والنيل والسماء الصافية، والأرض الخضراء الخصبة، والصحراء الجرداء الواسعة، أراد هيكل بهذا التصوير أن يرسم لمصر وطنه الغالي على نفسه صورة ساحرة تستهوي القلوب، وتدهش النفوس، وتذكر فضل الله ونعيمه على أهل مصر.

وامتد تصوير هيكل في مقالاته ليشمل المرأة المصرية في الريف، هذه المرأة البسيطة في لباسها، المتواضعة في حياتها، الحريصة على لحمة أسرتها والعلاقة مع جيرانها، تكافح مع زوجها من أجل حياة كريمة يصفها فيقول: "تقع العين على المصرية الريفية الممشوقة القد..."

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/473-474).

الجذاب لونها القمحي أو الأسمر، وهي تارة تسير وجرتها فوق رأسها، وأخرى ينثني قوامها اللدن عند حافة النهر لتملأ الجرة، وفي مرة ثالثة تستند إلى جرتها لتتال إغفاءة جزاء تعبها ومشقتها من فجر اليوم إلى مقيله⁽¹⁾.

أن هيكلًا بهذه الصورة أراد أن يلفت الانتباه، ويسلط الضوء على المرأة الريفية التي تقيل ولا تستقيل فهي دؤوبة في عملها، مستمرة في بذل الجهد من طلوع الفجر حتى مغيب الشمس.

ربما يقرأ من يتأمل في ملامح هذه الصورة أسئلة كان هيكل يرغب في طرحها وهي: أين حقوق هذه المرأة؟ ولماذا تعيش هذه الحياة المضنية من مشقة وتعب وعناء؟ أما أن لها أن تستريح فتجد بغيتها في التعليم؟ أليس من حقها أن ترتقي وتتطور حتى تصل إلى ما وصلت إليه أخواتها المصريات في المدن؟.

ثم كأنه في هذه الصورة أراد أن يوجه اللوم إلى الجهات المسؤولة، ويتهمها بالتقصير ومن ثم يدعوها إلى أخذ دورها في البناء والتنمية، يذكرها بضرورة توصيل المياه إلى البيوت، وفتح المدارس لتعليم البنات، حقًا إنها صورة حقيقية من الواقع المصري تدعو إلى الشفقة على هذه المرأة، كما تدعو إلى مد يد العون لها على جميع الأصعدة لأنها تمثل نصف الشعب المصري.

واستكمالًا للحديث عن الخيال والتصوير في مقالات هيكل يُلاحظ أنه لم يكثر كثيرًا في استخدام الصور الجزئية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، ولم يضمنها أسلوبه بشكل واضح إلا نادرًا، ذلك لأن الموضوعات التي تناولها كانت في أغلبها تتعلق بالمجال السياسي والاجتماعي والثقافي، حتى الموضوعات ذات الطابع الأدبي جاءت فيها هذه الصور قليلة، ربما يعود ذلك إلى قناعة هيكل بالتصوير العام أو الصور الكلية أكثر من قناعته بالصور الجزئية، أو لأن طبيعة الخطاب المقالي تميل إلى السهولة والمباشرة، لكن رغم ندرة هذه الصور وقلتها فإن القارئ لا يعدم أن يجد بعض الصور الجميلة التي تخلص لبه، ومن الأمثلة على الصور الجزئية التي جاءت في مقالات هيكل ما ورد في قوله: "والأديب الذي تقيد حريته خير له أن يحطم قلمه، لأن القلم المقيد لا يمكن أن يسمو إلى غاية إنسانية سامية"⁽²⁾.

جمع هيكل في هذه الفقرة القصيرة أنواعًا من الصور الجزئية، ففي قوله (تقيد حريته) استعارة مكنية، حيث شبه الحرية بإنسان مقيد اليدين، وهذه الصورة توحى بالمرارة والألم جراء

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/474).

(2) المصدر السابق، ج2/374.

فقدان الحرية كما تبرز خطورة الفقد لها، كما نجد الكناية في قوله (خير له أن يحطم قلمه) هذه كناية عن الامتناع عن الكتابة اعتراضاً وتنديداً بفقد الحرية، وتوحي بالدعوة إلى عدم السكوت عن هذا الأمر ولو كلف ذلك الثمن الباهظ، وقد جاء التشبيه البليغ في قوله (القلم المقيد) ثم الاستعارة في قوله (القلم.. يسمو).

ومن أمثلة الاستعارة -أيضاً- قوله: "عمت العالم موجة حطمت الأفكار والنظم القديمة"⁽¹⁾. شبه الأفكار والنظم القديمة بشيء مادي يُحطَّم، وقوله: "الحرية تقيد نفسها حين تتجاوز حدودها"⁽²⁾. فقد شبه الحرية بإنسان يقيد نفسه بنفسه، وقوله: "والدعاة إلى الحرية وإلى الديمقراطية في العالم هم الذين صفعوا وجه الديمقراطية"⁽³⁾. شبه الديمقراطية بإنسان له وجه يُصَفَع عليه.

ومن الصور الخيالية الجزئية -أيضاً- التشبيه، وقد ورد في مقالات هيكَل في قوله: "ولكن هذه الجامعة لم تبقَ الأداة الطيبة في يد إنجلترا"⁽⁴⁾. فقد شبه الجامعة العربية بالأداة الطيبة، وقوله: "أصبحت الحرية أسطورة كالأساطير التي نسمعها عن عهود اليونان"⁽⁵⁾. شبه الحرية بالأسطورة، وقوله: "ونحن على أبواب عهد جديد نريد أن نستفتح صفحة مبرئة من سيئات الماضي وأوزاره"⁽⁶⁾. شبه العهد الجديد بمبنى له أبواب كما شبهه بكتاب له صفحات.

في ضوء ما سبق لاحظ الباحث أن هيكلاً كان يركز في مقالاته ومؤلفاته على التصوير الكلي أكثر من التصوير الجزئي، وأنه برع في التصوير الكلي، حيث كان دقيقاً في وصفه، وكان لهذا الوصف إحياءاته ودلالاته التي تعبر عن المعاني التي أرادها.

رابعاً - البديع في مقالات هيكَل:

إذا كان ميدان البلاغة نظم الكلام وتأليفه، فإنه في الوقت نفسه يضيف عليه رونقاً وجمالاً، كما يرتقي به صعوداً نحو الكمال الفني ليوصف بعد ذلك بالكلام البليغ.

(1) هيكَل، مقالات محمد حسين هيكَل (ج5/271).

(2) المصدر السابق، ج5/245.

(3) المصدر نفسه، ج5/67.

(4) المصدر نفسه، ج5/268.

(5) المصدر نفسه، ج5/242.

(6) المصدر نفسه، ج5/158.

والبديع في البلاغة العربية القديمة وجه من وجوه تحسين الكلام وتجويده أو هو "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة، ووضوح الدلالة"⁽¹⁾. وهو كذلك "النظر في تزيين الكلام وتحسينه لنوع من التتميق"⁽²⁾.

يرى عبد العزيز عتيق أن "عبد الله بن المعتز هو أول من قام بمحاولة علمية جادة في سبيل تأسيس علم البديع وتحديد مباحثه... وقدامة بن جعفر... زاد فيه تسعة أنواع جديدة، وأبو هلال العسكري... أضاف إليها حتى بلغت عنده سبعة وثلاثين نوعاً، ثم جاء ابن رشيق القيرواني فزاد على من تقدموه تسعة أنواع"⁽³⁾.

ويتحدث أحمد إبراهيم موسى عن البديع، فيقول: "هذه الصنعة تخلع على النظم ثوب الرونق، وتكسبه الروعة إذا كانت سهلة، سمحة، متممة بسيمى الطبع القوي، والفطرة الجياشة التي تحرص على المعنى، فتوفر له كل ما يكسبه القوة والإبانة والوضوح، وتجذب له من الألفاظ ما يلائمه ويتفق معه"⁽⁴⁾.

ومن يذكر لفظ البديع يتبادر إلى ذهنه الشيء الجديد المحدث الذي نشأ على غير مثال سابق، وللبديع أنواع متعددة تعارف عليها البلاغيون أشهرها الطباق والجناس والسجع والتورية، وهناك أنواع أقل شهرة منها مثل: اللف والنشر وبراعة الاستهلال والازدواج وغيرها.

ويكثر البديع في المقالات الأدبية فيزيئها ويجملها خاصة إذا جاء منسجماً مع المعاني دون تكلف، ونابعاً من الإحساس الصادق للأديب، يقول أبو هلال العسكري: "هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف، وبرئ من العيوب، كان في غاية الحسن ونهاية الجودة"⁽⁵⁾.

في مقالة لهيكل بعنوان (اللغة والأسلوب) يفصح فيها عن موقفه تجاه استخدام المحسنات اللفظية فيقول: "الإجماع اليوم منعقد على أن هذه المحسنات اللفظية هي أقل في الكتابة قيمة، فأما ما سوى هذه المحسنات اللفظية فجديد في اللغة العربية كله"⁽⁶⁾.

(1) السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (ج2/224).

(2) ابن خلدون، المقدمة (ص761).

(3) عتيق، في البلاغة العربية... (ص493).

(4) موسى، الصبغ البديعي في اللغة العربية (ص113).

(5) العسكري، كتاب الصناعتين (ص267).

(6) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/363).

يرى هيكل أن حظ المحسنات اللفظية وقيمتها في الكتابة هو الأقل، وما سواها من أدوات الكتابة فيعد جديدًا وأكثر أهمية وأعلى شأنًا، ربما الذي دفع هيكلًا إلى هذا الموقف عدة أسباب أهمها: ما رآه من تكلف فيها وتعهد الإكثار فيها عند الكثير من الكتاب والأدباء في عصره والعصور التي سبقت عصره؛ ظنًا منهم أنها تزيد الأسلوب جمالًا، ومفهوم هيكل لجمال الأسلوب يختلف مع مفهومهم له، فهو يرى الجمال في الألفاظ ليس في شكلها وإنما ينبع من رشاقتها وسلاستها وتأثيرها في النفوس، وقدرتها على التعبير عن الأفكار والعواطف.

لذلك فلا عجب أن نرى لهذا الموقف صدى في أسلوبه وأثرًا في كتاباته، وقد رأى طه وادي ذلك مجسدًا في مقالاته حيث يقول: "يجب أن ندرك أن هيكلًا في إنتاجه الصحفي المبكر كان يجنح إلى البعد عن الغريب من الألفاظ، ويبتعد عن المحسنات البلاغية والبديعية"⁽¹⁾ وبزَّر وادي موقف هيكل من البعد عن استخدام المحسنات قائلاً: "وهذا شيء طبيعي بالنسبة لكاتب لم يتعمق في الثقافة العربية حتى ذلك الحين، وقد ظل الوضوح اللغوي صفة أساسية في كتابات هيكل... كانت عنايته القصوى - فيما يبدو - تتجه نحو المعاني والأفكار، ولعل هذا يعد أثرًا من آثار الثقافة الفرنسية"⁽²⁾.

عزا وادي هذا البعد عن استخدام المحسنات إلى سببين:

الأول: أنه في بداية عمله الصحفي لم يكن متعمقًا في الثقافة العربية؛ لذلك لم يجد استخدام أدوات اللغة.

والسبب الثاني: تأثره بالثقافة الفرنسية التي تشربها أثناء دراسته فركز على المعاني والأفكار دون اللغة والأسلوب، ويعتقد الباحث من خلال اطلاعه على مقالات هيكل أنه بقي على هذا الموقف، ولم يدخل عليه أي تغيير.

براعة الاستهلال:

ومن فنون البديع الأكثر توفرًا في مقالات هيكل (براعة الاستهلال) لابتداء كلامه بالألفاظ العذبة الخالية من الثقل والتنافر، البعيدة عن التعقيد، المطابقة لمقتضى الحال.

(1) وادي، هيكل رائد الرواية (ص171).

(2) المرجع السابق، ص151.

لقد سمى ابن المعتز براعة الاستهلال حسن الابتداء "وفي هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع... اعلم أنه اتفق علماء البديع على أن براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلة المعاني واضحة في استهلالها، وألا يتجافى جنوب الألفاظ عن مضاجع الرقة"⁽¹⁾.

أما النويري فمفهوم براعة الاستهلال عنده يتمثل في قوله: "أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه ببيت أو قرينة تدل على مراده في القصيدة أو الرسالة أو معظم مراده"⁽²⁾.

لقد أبدى هيكل اهتمامًا كبيرًا عند افتتاحه لمقالاته قبل أن ينفذ إلى قلب الموضوع وجوهره، ومن يقرأ هذه الافتتاحيات يلمس فيها براعة الاستهلال بكل أنواعه، فعلى سبيل المثال فقد استخدم براعة الاستهلال بالاستفهام لتحقيق الأغراض التالية:

1- إخبار القارئ بأمر ما:

أراد هيكل إخبار القارئ بأنه يسود العالم الغربي شعور بالقلق النفسي بسبب عدم وجود صلة حقيقية بين الإنسان الغربي ووجوده، وأن الحضارة الغربية المادية زادت هذه الصلة تعقيدًا، لذلك اتجه بعض مفكري الغرب وعلمائه إلى الشرق لدراسة عقائده وفلسفته، وبقصد إخبار ما سبق للقراء طرح هيكل سؤاله: "هل تُرى يهتدي أولئك الباحثون في تاريخ الشرق إلى عقيدة بسيطة يستريح إليها العالم في طوره الحاضر ويجد فيها ملجأ المعنوي يشكل من خلاله بكل ما في الوجود خلال الزمان والمكان؟"⁽³⁾.

2- للتشويق من أجل جذب القارئ لمحتوى المقالات:

قرأ هيكل مسرحية شعرية بعنوان (ولادة) للشاعر علي عبد العظيم فأعجبه وقد وصفها بأنها ممتعة فكتب مقالة أراد فيها لفت الانتباه إليها وأن يبعث الشوق في نفوس القراء للإقبال عليها، من أجل ذلك بدأ مقالته بسؤال: "هل من فارق بين حديث ابن زيدون وبين ولادة؟"⁽⁴⁾.

كانت ولادة شاعرة مميزة، أحبها ابن زيدون وأحبته، ونافسها في حبها كثيرون، وقد اتصل كل منهما بصاحبه أوثق اتصال، لكن الظروف السياسية في الأندلس حالت بينه وبينها

(1) الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب (ج1/19).

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (ج7/110).

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/131).

(4) المصدر السابق، ج1/157.

فَحُرِّمَتْ مِنْهُ، وَحُرِّمَ مِنْهَا، وَقِصَّةٌ حُبَّهَا كَانَتْ قِصَّةً فَنِيَّةً بَدِيعَةً، غَنَّاها الشَّعْرُ فِي أَعْذَبِ نَغْمٍ وَأَجْمَلِ إِيقَاعٍ⁽¹⁾.

3- الإعلام غير المباشر:

أراد هيكل الحديث عن الحياة العامة في الأندلس والمغرب ومصر في عصر ابن خلدون، كما أراد أن يبدي رأيه في هذا العصر، لكنه لم يصرح بذلك بل أخفاه في الإجابة على عدة أسئلة طرحها في مقدمة المقالة وهي: "أما ابن خلدون... من هو وما نسبه؟ وفي أي البيئات شب وعاش؟ وما أثره في الحياة السياسية لعصره؟ وكيف كتب مقدمته وسائر كتبه؟ وماذا كان أثره بمصر حين حضر إليها؟ وماذا كان تأثيره بها؟"⁽²⁾.

ويضاف إلى الاستهلال بالاستفهام الاستهلال بالحوار، حيث يجعل مقدمة المقالة عبارة عن حوار يدور بينه وبين شخص آخر، ومن خلال هذا الحوار يعرض أفكاره، ويحاول أن يعالج القضايا التي يطرحها، ومن الأمثلة على براعة الاستهلال بالحوار ما كتبه هيكل في مقالة له بعنوان (العهد البائد) يقول فيها: "قال له صاحبه وهو يحاوره: لكنك يا صديقي من رجال العهد البائد، وحسبك هذه مطعنًا عليك. وأجاب: نعم يا أخي، أنا من رجال العهد البائد، لكنني فيه من نوي الشرف والاستقامة، وفي كل عهد رجال أولو شرف واستقامة..."⁽³⁾.

وهكذا استمر هذا الحوار على هذه الشاكلة حتى نهاية المقالة، فقد استغرق هذا الحوار خمس صفحات، أراد خلالها كل طرف أن يقنع الطرف الآخر بوجهة نظره، لكن الخاتمة جاءت لتنتهي هذا الحوار دون انتصار رأي على آخر، معلنة أن التوجه نحو تحقيق الأهداف الاستراتيجية للأمة هو الذي يجمعها، ويوحد كلمتها، ويرص صفوفها، ويقوي بنيانها، هذا ما أراده هيكل من وراء هذه المقالة، وهذا ما ابتغى توصيله لأبناء العروبة يقول: "وحسبي وحسبك أن ندرك كلانا أن أمتنا سليمة البنيان لنؤمن بأنها بالغة لا محالة ما تصبو إلى بلوغه"⁽⁴⁾.

ومن براعة الاستهلال بدء مقدمة المقالة بالأسلوب الخبري لإثارة ذهن القارئ ولتشويقهم، ففي مقالة له بعنوان (خطر إسرائيل) يبدأ هيكل بهذا الخبر فيقول: "بدأ التوتر بين الدول العربية وإسرائيل يشغل حيزًا بارزًا في السياسة الدولية، فشغل به كبار الساسة، وشغل الرئيس إيزنهاور

(1) ينظر: هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/157-159).

(2) المصدر السابق، ج1/367.

(3) المصدر نفسه، ج6/85.

(4) المصدر نفسه، ج6/89.

حتى استغرقت عنايته به جانبًا كبيرًا من مؤتمره الصحفي الذي عقد بالبيت الأبيض يوم الأربعاء الماضي⁽¹⁾.

هذا الأسلوب الخبري الذي استخدمه هيكل في مقدمة هذه المقالة التي تحمل عنوانًا مثيرًا، أراد به أن يلفت انتباه القارئ لما يحصل من أحداث ومواقف سياسية في الساحة العربية والدولية، هذا الخبر الذي صرح به رآه على درجة عالية من الأهمية لأنه يبرز موقف الولايات المتحدة الأمريكية من الصراع العربي الإسرائيلي من جهة، ولأنه متعلق بمصير الدول العربية ومستقبلها من جهة أخرى.

وخلاصة الأمر حول استخدام هيكل لبراعة الاستهلال بكل أنواعه سواء بالاستفهام أو الحوار أو الأسلوب الخبري، فإنه يمكن القول بأنه نجح في هذا الاستخدام إلى حد ما، فقد استطاع أن يخبر القارئ ويثير شوقه ويجذب انتباهه من خلال طرح الأفكار المهمة، ومعالجة القضايا الساخنة ما استطاع إلى ذلك سبيلًا ولو نظرة، ومحاولة الوصول بالقراء إلى قاعدة تفاهم تتقارب فيها الرؤى السياسية والفكرية.

الموازنة:

وهي نوع من أنواع البديع اللفظي يقع في النثر والشعر، وفيه تتساوى الفاصلتان في الوزن دون التقفية، ولقد تحدث ابن الأثير عنها فقال: "هي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن، وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساوي الألفاظ وزنًا. وللکلام بذلك طلاوة ورونق وسببه الاعتدال؛ لأنه مطلوب في جميع الأشياء، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان، وهذا لا مرأى فيه لوضوحه"⁽²⁾.

ومن أمثلة الموازنة التي وردت في مقالات هيكل ما يلي:

- 1- قوله: "هذا المشهد الساحر البديع يحرك الأجيال بنجوى الجمال، وسحر الهوى، وملذات الغرام"⁽³⁾. فقد وزن بين الجمال والهوى والغرام.
- 2- وقوله: "ما حياة رجل يكفيه أن يجد قوت يومه، وليس له من وراء ذلك رجاء في مال يحصله، أو جاه يميزه، أو سلطان يكون له، أو علم يسمو به"⁽⁴⁾. فقد وزن بين: يحصله ويميزه، وبين: يكون له ويسمو به.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج5/159).

(2) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (ج1/272).

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/24).

(4) المصدر السابق، ج4/111.

3- وقوله: "كان لي، إذ كنت محامياً بالمنصورة... صديق من الأعيان، كريم المحتد، خفيف الروح، جميل الصوت"⁽¹⁾. فالموازنة جاءت بين المحتد والصوت والروح والصوت.

الطباق:

الطباق في اصطلاح علم البديع هو "الجمع بين الضدين أو بين الشيء وضده في كلام أو بيت شعر"⁽²⁾. وقد جاء الطباق بشكل وفير في مقالات هيكل، ومن أمثلتها:

1- قول هيكل: "بين السود أذكيا وأغبيا، كما أن بين البيض أذكيا وأغبيا"⁽³⁾. فالطباق بين السود والبيض وبين أذكيا وأغبيا.

2- وقوله: "والهام الطبيعة الناس يختلف باختلاف أمزجتهم، ومراكزهم في الحياة، وأحوالهم من الصحة والمرض، والغنى والفقر، وطبائع نفوسهم المتفاوتة بين الرضى والثورة، وبين الطاعة والتمرد"⁽⁴⁾. جاء الطباق بين الصحة والمرض، وبين الغنى والفقر، وبين الرضا والثورة، وبين الطاعة والتمرد.

3- وقوله: "ولتري العوامل الظاهرة والخفية التي لعبت أدواراً أساسية أو أدواراً ثانوية في تطوره"⁽⁵⁾. فالطباق بين الظاهرة والخفية، وبين أساسية وثانوية.

4- وقوله: "لا يفرقون بين صغير من الأمم وكبير، ولا بين ضعيف من الناس وقوي، ولا بين غني منهم وفقير"⁽⁶⁾. فالطباق يبرز واضحاً في قوله صغير وكبير، وضعيف وقوي، وغني وفقير.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/255).

(2) عتيق، في البلاغة العربية... (ص495).

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/243).

(4) المصدر السابق، ج1/170.

(5) المصدر نفسه، ج5/306.

(6) المصدر نفسه، ج5/280.

خامساً - التناص:

رغم أن التناص يمثل ظاهرة أدبية ونقدية قديمة في الأدب العربي إلا أن مفهومه كمصطلح لم يتبلور إلا في العصر الحديث، ومما تجدر الإشارة إليه أن مصطلح التناص ظهر في النقد الأوروبي عام 1966م على يد البلغارية التي تحمل الجنسية الفرنسية (جوليا كريستيفا)، التي عرفته بقولها: "هو ذلك التقاطع داخل التعبير مأخوذ من نصوص أخرى"⁽¹⁾، وبعد أن توسع النقاد الغربيون في دراسته ازداد مفهومه وضوحاً وعمقاً، وشاع في الأدب الغربي، ثم انتقل إلى الأدب العربي.

ويرى رجاء عيد "مفهوم التناص أنه حضور لنصوص متعددة مع النظر إلى تلك النصوص بحسبانها مداخلات نصية وتحولات فنية"⁽²⁾، أما محمد مفتاح فيعرفه بقوله: "التناص هو تعالق نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة"⁽³⁾.

معنى هذا أن التناص هو تداخل النصوص أو تفاعلها مع بعضها البعض، وهذا يدل على أن هناك علاقة بين نص جديد وآخر قديم، وأنه عندما تتم عملية التناص تتشابك خيوط النصين فينشأ عن ذلك دلالات جديدة، ومن هنا فإن التناص عبارة عن "الوقوف على حقيقة التفاعل الواقع في النصوص، في استعاداتها أو محاكاتها لنصوص-أو لأجزاء من نصوص- سابقة عليها"⁽⁴⁾.

لقد خضعت نظرية التناص لكثير من الدراسات العربية، وقد ظهر نتيجة لذلك الاختلاف في الآراء حوله، ومما خلص إليه بعض النقاد أن النصوص الجديدة ما هي إلا قراءات جديدة لنصوص سابقة لها⁽⁵⁾، وأن التناص كأداة مفهومية وآلية إجرائية وظيفته الوقوف على جماليات النص الشعري وخصوصيته قدر الإمكان⁽⁶⁾، وأنه ينبغي التعامل "مع النص على أنه بنية مفتوحة على الماضي مثلما أنه وجود حاضر يتحرك نحو المستقبل"⁽⁷⁾.

(1) السعدني، التناص الشعري (ص 77-78).

(2) عيد، القول الشعري منظورات معاصرة (ص 230).

(3) مفتاح، تحليل الخطاب الشعري... (ص 123).

(4) أبو حميدة، دراسات في النقد الأدبي الحديث (ص 35).

(5) ينظر: موسى، آفاق الرؤية الشعرية (ص 38).

(6) ينظر: وعد الله، التناص المعرفي في شعر عز الدين المناصرة (ص 266).

(7) الغدامي، ثقافة الأسئلة في مقالات النقد والنظرية (ص 113).

وللحديث عن التناص في مقالات محمد حسين هيكل، فإن الباحث يرى أنه يمكن تناول ذلك من خلال أنواع التناص: الديني والتاريخي والأدبي والأسطوري.

1- التناص الديني:

اللجوء إلى القرآن الكريم والاستفادة من معانيه، واستخدام بعض ألفاظه أو اقتباس أجزاء من آياته أو الإشارة إلى قصة من قصصه يفجر لدى الأديب أو الكاتب طاقات إبداعية جديدة، فالقرآن الكريم منهل خصب لجميع أنواع التفاعلات النصية⁽¹⁾ وهو مصدر سخي، ومعين لا ينضب، ومرجعية دلالية لها حضورها في الأدب العربي، وهو الباعث على النهوض بانفعالات المبدعين وإثراء تجاربهم، ومنحهم التأثير في النفوس بما يملك "من تصورات لنشأة الكون، وتفسير سحري لظواهره المتنوعة"⁽²⁾.

اعتقد الباحث أن التناص في مقالات هيكل سيكون متوفرًا كتوفره في الشعر الحديث، لكنه تفاجأ بعد أن بذل جهدًا في الدراسة أن التناص فيها متواضع ونادرٌ، وحاول أن يتبين الأمر بعد تحليله فاهتدى إلى -حسب ظنه- أن مصطلح التناص ومفهومه ظهر في بدايته في أوروبا عام 1966م، أي بعد وفاة هيكل بعشر سنين، وربما كان هذا سببًا لعدم توفره، أما لماذا لم يربط هيكل في مقالاته بين الحاضر المعاش والماضي المنقضي من الناحية الدينية أو التاريخية أو الأدبية، ولو فعل ذلك لوجدنا عنده تناصًا؟.. يمكن القول أن طبيعة كتابة المقالة تستلزم السرعة وتستوجب الإنجاز دون تأني لمواكبة الأحداث والمستجدات، لذا فقد جاءت مقالات هيكل خطابية مباشرة.

ورغم هذا الاعتقاد الذي لم يجد له الباحث ما يسانده إلا أن هناك آثارًا قليلة للتناص الديني، ففي مقالة لهيكل بعنوان (الإيمان والعلم) يقول هيكل: "وكذلك ترانا كلما ازددنا علمًا أقنعنا العلم بأن الغيب المستور عنا أعظم بكثير من أن نحيط به، أو نخترق حجه بوسائلنا الحسية"⁽³⁾.

(1) ينظر: الزواهره، التناص في الشعر العربي المعاصر (ص86).

(2) نصر، الرمز الشعري عند الصوفية (ص35).

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/400).

يبدو أن هيكلًا في هذه الفقرة استفاد من معاني القرآن الكريم، فقوله: (ازددنا علمًا) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾⁽¹⁾، وقوله: (الغيب المستور عنا أعظم بكثير من أن نحيط به) مأخوذ -أيضًا- من قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾⁽²⁾، وقوله: (نخترق حبه بوسائلنا الحسية) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطْعَمْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾⁽³⁾.

وكان هيكلٌ في بعض الأحيان يستخدم في أسلوبه بعض ألفاظ القرآن الكريم مثل قوله: "والذين يسعون في مناكب الأرض ابتغاء الرزق"⁽⁴⁾.

فمن الألفاظ القرآنية التي استخدمها (مناكب) وهي مقتبسة من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾⁽⁵⁾، وكذلك استخدم اللفظ القرآني (ابتغاء) وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾⁽⁶⁾.

وكان يقتبس أحيانًا أجزاء من الآيات القرآنية مثل قوله: "البر الذي يجعلنا نؤثر على أنفسنا ولو بنا خصاصة"⁽⁷⁾، هذه المقولة مقتبسة بشكل واضح من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفْسِهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾⁽⁸⁾، وكذلك قوله: "عشرات ومئات من المساجد يذكر فيها اسم الله... فإذا هي عامرة بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب"⁽⁹⁾، مقتبس من قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾⁽¹⁰⁾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾⁽¹¹⁾.

(1) [طه: 114].

(2) [البقرة: 255].

(3) [الرحمن: 33].

(4) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/162).

(5) [الملك: 15].

(6) [البقرة: 207].

(7) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/105).

(8) [الحشر: 9].

(9) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/120).

(10) [النور: 36].

(11) [الرعد: 28].

وكذلك فإن الحديث الشريف كان مصدرًا إلهاميًا ومحورًا دلاليًا يستوحي منه الأدباء معانيهم وأفكارهم، فقد تضمنت بعض أقوال هيكل في مقالاته -وهي قليلة جدًا- أجزاءً من الأحاديث النبوية، فقله: "خير الإخلاص أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، وأن يشعر بأن خيره في خير أخيه، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا"⁽¹⁾، فهذه المقولة تضمنت معانيها من حديثين شريفيين: الأول: يقول فيه الرسول ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"⁽²⁾، والحديث الثاني: يقول فيه: "إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا"⁽³⁾.

2- التناص التاريخي:

في الأدب الحديث يقوم كثير من الأدباء بتوظيف المادة التاريخية في عملهم الأدبي، لأنهم يدركون أنها تمثل لهم رصيلاً معرفياً هاماً، وثراءً دلاليًا غزيرًا لا يمكن الاستغناء عنه، فعندما يستحضر الأديب الأحداث التاريخية في نصوصه الأدبية، فإنه بذلك يكون قد أضاف في وجدان المتلقي قيمًا تاريخية وحضارية ومعرفية وروحية وجمالية جديدة، وهذا ما تعارف عليه النقاد وأطلقوا عليه التناص التاريخي، وهو "تداخل نصوص تاريخية مختارة قديمة أو حديثة مع النص الفني بحيث تكون منسجمة ودالة قدر الإمكان على الفكرة التي يطرحها المؤلف أو الحالة التي يجسدها ويقدمها في عمله"⁽⁴⁾.

وسرد المواقف التاريخية في العمل الأدبي ليس هدفًا لذاته، وإنما يقوم الأديب باختيار بعض المواقف المشرفة فيجعل منها رسالة مضيئة تنبض بالحياة، فيعيد صياغتها لتتناغم مع التجربة الشعرية المعاصرة⁽⁵⁾.

وكذلك فإن استدعاء الشخصيات التاريخية يتم اختيارها على أساس الأثر الذي أحدثته، فمنها ما له من أثر إيجابي، ومنها من ترك أثرًا سلبيًا، ومن هنا فإن الأدباء اتخذوا من الأولى رمزًا للبطولة والشرف والفداء، ومن الثانية رمزًا للجريمة والخيانة والمذلة، وهذا يعني أن الكاتب أو الأديب تجاوز حواجز الزمن، فقام بإخراج هذه الشخصية من إطارها التاريخي المحصورة فيه إلى واقع جديد، فأكسبها أبعادًا معنوية جديدة بعد أن نفخ فيها روحًا جديدة.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج4/116).

(2) [البخاري: صحيح البخاري، ج1/12، رقم الحديث13].

(3) [المرجع السابق، ج1/103، رقم الحديث481].

(4) [البنداري وآخرون، التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر (ص295)].

(5) [ينظر: المرجع السابق، ص295].

يرى هيكل أن "الأدب هو ميراث الإنسانية الخالد... وليس هناك فيما يذكر التاريخ أو يعلمه الناس تطور حديث أو حركة قامت إلا كانت أثرًا من آثار الأدب"⁽¹⁾. أراد هيكل بهذا القول أن يربط بين الأدب وحركة التاريخ، فعلى سبيل المثال فإن الأديب أو الشاعر يشيد بما عاصره وشاهده من انتصارات وبطولات حتى تبقى خالدة راسخة في أذهان الأجيال اللاحقة، ولشدة أثرها في هذه الأجيال يتخذون منها رمزًا وإشارة مختصرة للحق وكل أمر عظيم يعيد للأمة كرامتها وعزتها، وهذا هو التناص بعينه.

ويعيب هيكل على الشعراء الذين يذكرون في شعرهم الحوادث والمشاهد التاريخية مجردة كما هي دون أن يضيفوا عليه روح عصرهم، ويجعلوها تتفاعل مع مشاعرهم وإبداعاتهم فتصبح جزءًا من نصوصهم بصياغة جديدة، يقول هيكل: "الذين ينحتون من العصور التي سبقتهم، وينظرون إلى الحوادث والمشاهد بعين أهل تلك العصور، لا بل بعين أهل عصرهم لا يمثلون في الواقع عصرهم ولا العصر الذي ينحتون عنه"⁽²⁾.

يرى هيكل أنه لا بد للشاعر أن ينظم المشاهد والأحداث التاريخية بعين أهل عصره، وليس بعين أهل ذلك العصر الذي حدثت فيه، فلربما فطن هيكل أن هذه الأحداث وهذه المشاهد قد أوقفها التاريخ عن الحركة بعد أن انتهت في عصرها، بل إن دورها في ذلك العصر قد توقف، أما عندما تنتقل بصورتها الحية إلى عصرٍ آخر يلي عصرها، فلا بد أن تعود إليها حركتها وحيويتها، وهذه العودة لا تتحقق إلا بفعل الشعراء المبدعين، ومن ثم فإنه يمكن القول أن هذه الأحداث والمشاهد يختلف لونها وطعمها ورائحتها في العصر الحديث عما كانت عليه في عصرها.

ومن العجيب أن نرى هيكلًا يؤكد على مفهوم التناص بطريقته فيقول: "إن حياة المسلمين بالأندلس جديرة باستلهم أروع المعاني وأقوى الإحساسات"⁽³⁾، وهذا بالفعل ما حدث بعد وفاة هيكل فقد رمز الشعراء والأدباء حديثاً ضياع فلسطين بفقدان الأندلس أو الفردوس المفقود.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/223).

(2) المصدر السابق، ج1/183.

(3) المصدر نفسه، ج1/159.

3- التناص الأدبي:

الأدب هو خلاصة التجارب الشعورية والفكرية والحياتية لأي أمة، والأجيال المتعاقبة هي من تقوم بنقل هذه التجارب، فالموروث الأدبي من شعر أو حكمة أو مثل إذا أُدخل إلى النصوص الأدبية الحديثة تفاعل معها، فجعلها ذات معانٍ فياضة تزخر بالدلالات وتفتح المجال للتحليل والتأويل فلقد "وجد الشاعر المعاصر كثيرًا من ملامح تجاربه في التراث الأدبي، فاستغل ذلك في التعبير عنها بصورة فنية من خلال تسليط الأضواء على الجوانب التراثية التي تخدم الفكرة أو القضية التي يريد التعبير عنها وتحويرها بما ينسجم مع مواقفه المعاصرة"⁽¹⁾.

تحدث هيكل عن المعاني التي حملها الأدب العربي القديم وانتقالها إلى الأدب العربي الحديث، وذكر مدى تأثيرها فيه فقال: "كان ما أبدعه الشعراء من جديد المعاني التي تلمها الطبيعة في هذه البلاد المختلفة (قصد شبه الجزيرة والعراق ومصر والأندلس)، غير متكافئ مع ما يجب أن يكون لهذا الإلهام من قوة، وبقيت المعاني والصور القديمة تتكرر إلى جانب المعاني والصور الجديدة وتكاد تغطي عليها"⁽²⁾.

لقد كان مفهوم التناص حاضرًا في ذهن هيكل، لكنه كان غائبًا كمصطلح أدبي، لأن النقاد تعارفوا عليه بعد موته بسنوات عديدة، وحول حضور مفهوم التناص عنده، لاحظ الباحث أن هيكلًا عندما تحدث عن قصة الحب بين ولادة وابن زيدون التي سطرها الشاعر علي عبد العظيم في مسرحية شعرية، وتناولها هيكل في مقالة له قائلًا: "ما ظنك بشاعر يهيم حبًا بشاعرة وتهيم به، ثم يُحرم منها وتُحرم منه، أليس هذا جديرًا بأن يثير في نفس كل منهما أروع المعاني، وأسمى الإلهامات، وأن يتخذ الشعراء حديثهما موضعًا لفيض الشعر، وعميم الإنشاد؟!"⁽³⁾.

يرى هيكل أنه بإمكان الأدباء والشعراء أن يتخذوا من هذه القصة الشعرية في الحب موضعًا لإلهامهم، ولفيض أشعارهم، لأن هذه القصة يمكن أن تتكرر في كل زمان ومكان، وهذا ما استشفه هيكل من هذه المسرحية، حيث ذكر أن الشاعر علي عبد العظيم مؤلف المسرحية قصد فيها "تصوير النفس الإنسانية وما يعتورها من مشاعر متنافرة متلاحقة... كما قصد إلى تصوير الحياة السياسية والحياة الأدبية في الأندلس في ذلك العهد"⁽⁴⁾.

(1) البنداري وآخرون، التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر (ص 271).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج 1/173).

(3) المصدر السابق، ج 1/158.

(4) المصدر نفسه، ج 1/158-159.

يلاحظ الباحث أن هيكلًا كان يحوم حول مفهوم التناص الأدبي بمعناه الحاضر في أذهان الأدباء والنقاد، وكان يدعو إليه بطريقته بحسبانه وسيلة من وسائل الإيحاء والاستلهام التي تخدم الأدب وتثريه، وليس كمصطلح أدبي، ويؤكد أنه لم يجد تطبيقًا عمليًا للتناص الأدبي بمفهومه الحديث في مقالات هيكل.

وفي معرض حديثه عن شعر الطبيعة في الأدب العربي يرى هيكل أن المعاني الخاصة بهذا الشعر انتقلت من الشعر القديم إلى الشعر الحديث لكنها طغت على معانيه الجديدة، معنى هذا أنه يقر وبيبارك انتقال هذه المعاني من الأدب القديم إلى الأدب الحديث، لكنه في الوقت نفسه ينكر سيطرة هذه المعاني القديمة على المعاني الجديدة، وكأن لسان حاله يقول لا بأس بالتقاط هذه المعاني أو الصور لكن بمقدار، وبذلك يكون قد أكد على ما ذهب إليه التناص الأدبي من عملية الاختيار الصحيح والتوظيف السليم للموروث الأدبي.

4- التناص الأسطوري:

يلجأ كثير من أدباء العصر الحديث إلى الأسطورة بحسبانها تقانة فنية أدبية يعبرون بها عن أزمة الإنسان المعاصر تعبيرًا فنيًا، ويستلهمون منها ما ينسجم مع الجو النفسي الذي يعيشونه، فبها يغني الأديب أو الشاعر تجربته الشعورية حيث إنها "تعبّر عن هموم الشاعر وواقعه تعبيرًا عميقًا، وتساعده على التجسيد، وتعيد إلى الشعر فطرته الأولى"⁽¹⁾ إضافة إلى أن هذه الأسطورة "تهب القصيدة البعد الماورائي والبعد الوجودي الفعلي والإيحائية اللامتناهية، وتمكين الشاعر من استعادة حالة البكارة الأولى في صلته بالحياة والكون"⁽²⁾.

ويرى عدنان قاسم أن استخدام الأسطورة في الأدب العربي الحديث "يثري النص الشعري، ويفتح آفاقه، ويجعله أكثر عطاء، ويدحض التسطح عنه"⁽³⁾.

تحتوي الأسطورة على طاقة ذاتية تتجاوز حدود الزمان والمكان، ويمتزج فيها الواقع بالحلم، وتملك سلطة تربط فيها بين المستحيل والممكن، وتطغى على واقع الحياة معانٍ فلسفية، فعندما يفجرها الأديب أو يوظفها فإنه يبتغي بذلك زيادة الأثر الجمالي في نتاجه الأدبي وحتى يتحقق له ما يريد عليه ألا يقحم الأسطورة أو يفرضها في العمل الأدبي بعيدًا عن التجربة الشعورية⁽⁴⁾. تحدث هيكل في مقالة له بعنوان (الحضارة المصرية القديمة وأثرها في الحضارة التي جاءت بعدها) عن تأثير الأدب اليوناني القديم بالأدب المصري القديم الذي سبقه، وذكر أن

(1) البنداري وآخرون، التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر (ص 281).

(2) حاوي، في النقد الأدبي (ص 77).

(3) قاسم، لغة الشعر العربي (ص 52).

(4) ينظر: العف، التشكيل الجمالي في الشعر الفلسطيني المعاصر (ص 196-198).

اليونان عندما نظموا ملاحمهم الشعرية استندوا إلى الأساطير المصرية القديمة، ودعا إلى ترجمة أوراق البردي وشرح رموز الأساطير فيها⁽¹⁾، ثم قال: "فما أجدنا نحن هاهنا في مصر أن نكشف عن هذا النبع القديم لنستمد منه حياة جديدة لحضارة هذا العالم"⁽²⁾.

أراد هيكل من هذا الاكتشاف لهذه الأساطير مد الحضارة الحديثة بحياة جديدة، وكأنه كان يقصد أنه لا بد من الاستفادة من هذه الأساطير في جميع المجالات التي منها المجال الأدبي، حيث يمكن استخدامها في العمل الأدبي للتعبير عن ذات الإنسان المعاصر وما يحمل من هموم، وما يواجهه من أزمات.

وفي السياق نفسه يقول هيكل: "والواقع أن تاريخ مصر القديم حافل بمصادر الوحي إلى علم جديد وأدب جديد يستطيعان الالتئام مع ما بلغته الإنسانية من تطور في عصرنا الحاضر"⁽³⁾. هكذا ربط هيكل تاريخ مصر القديم وما به من أساطير بالأدب العربي الحديث الذي يستوحي منه المعاني الجديدة، ويبعث في الحياة "الفن الصحيح في أقوى مظاهره عظمة وأعظمها جلالاً"⁽⁴⁾.

ومن أمثلة التناص الأسطوري عند هيكل أن المصريين أرادوا "بفن أبي الهول أن يمثله قوة الحكمة... الحكمة القوية التي تأبى الطيش ولا ترضى الذلة وتعتصم بالأناة وحسن الروية"⁽⁵⁾.

وقد تحدث هيكل عن أثر الأساطير الإغريقية القديمة في الأدب الغربي، فقال: "فلم تمنع المسيحية شكسبير في إنجلترا، ولم تمنع راسين وكورني في فرنسا من أن يستلهموا الأساطير الإغريقية لإقامة أدب بارع لا يزال حتى اليوم فخر إنجلترا وفخر فرنسا"⁽⁶⁾.

في ضوء ما سبق يستطيع الباحث القول أن هيكلًا كان يدرك التناص بمعناه ومفهومه وليس بمصطلحه، ذلك أنه ربط بين الأساطير وما توحىه من معانٍ، وما تتركه من أثر في الأدب العربي الحديث، وما تبعته في الأدب الغربي من روح جديدة.

(1) ينظر: هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/399-402).

(2) المصدر السابق، ج1/402.

(3) المصدر نفسه ج1/401.

(4) المصدر نفسه، ج2/472.

(5) المصدر نفسه، ج2/473.

(6) المصدر نفسه، ج2/364.

الفصل الرابع النقد عند هيكل

الفصل الرابع النقد عند هيكل

إنّ الإنسان بطبعه مجبول على النقد من خلال تذوقه وسليقته، فهو دائماً يسعى إلى الأفضل والأحسن والأجود والأجمل والأمتل في جميع مجالات حياته.

ومن المعروف أن الأدب والنقد رفيقان متلازمان يجمعهما الذوق الفطري للجمال؛ لذلك فهما دائماً متفاعلان متكاملان، ومتزامنان، وتبدو هذه الأمور واضحة من خلال ما يقوم به النقد في النتاج الأدبي من تهذيب وتقويم وتجويد من أجل الوصول بالأدب إلى هذه الدرجة الرفيعة من الإبداع والنضوج والسمو والارتقاء والتحسين.

وعلى اعتبار أن الأدب عملية إبداع، فإن ما يصدر منه من نتاج يخضع للتمييز والمفاضلة وفق ما يحدثه من تأثير، هذا التمييز له مقاييسه، وهذه المفاضلة لها معاييرها، كل ذلك من أجل مخرج أفضل، وجمالية أجود.

إن عملية النقد تتطلب أن يكون عند الناقد قدرة على الفهم العميق، والرؤية الثاقبة، وتذوق النص الأدبي وتقويمه على أساس من الحقائق الأدبية والإنسانية، وتبدأ هذه العملية "بالتذوق أي القدرة على التمييز، ويعبر منها إلى التفسير والتعليل والتحليل والتقييم خطوات لا تغني أحداها عن الأخرى وهي متدرجة على هذا النسق"⁽¹⁾.

أما موقف هيكل من النقد والأدب والعلاقة بينهما فيتلخص في قوله: "النقد الأدبي في رأيي فن من فنون الكتابة، وليس فناً من فنون الأدب إلا أن يكون نقدًا ذاتيًا يعتمد صاحبه على هواه وخياله أكثر مما يعتمد على ما عرف لهذا النقد من قواعد"⁽²⁾.

يرى هيكل أن النقد الأدبي فن من فنون الكتابة مستقل عن الأدب باستثناء النقد الذاتي لأن صاحبه يعتمد على ذوقه وخياله في عملية النقد، ويؤكد هيكل على التمييز بين الأدب والنقد، فيرى أن الأدب يميل إلى الذاتية، والنقد يميل إلى الموضوعية يقول: "إن الأدب كفن إنما تغلب فيه الذاتية، أما العلوم والفنون التي تتناول الآداب بالبحث ومن بينها النقد فتغلب فيها الموضوعية"⁽³⁾.

(1) عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (ص646).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/277).

(3) المصدر السابق، ج2/283.

ويعلن هيكل بعبارة واضحة أنه يميل إلى النقد أكثر من ميله إلى الشعر؛ لأن طبيعته تقتضي ذلك حيث يقول: "وأنا لا أكتفكم أني لم أتأثر بالشعر تأثري بالنقد والقصص، ويرجع هذا إلى طبعي، فأنا أكثر ميلاً إلى التحليل، والمقدمات تقوم عليها النتائج، مني إلى الاندفاعات العاطفية والتأثرات الذاتية"⁽¹⁾.

ويرى طه وادي أنه كانت لهيكل "آراء نقدية أذكت الثورة الأدبية ووصلت بها إلى كثير مما تريد"⁽²⁾.

أولاً- طبيعة النقد ومهمته عند هيكل:

1- طبيعة النقد عند هيكل:

في مطلع القرن العشرين برز مع الأدب الجديد الاتجاه الرومانسي الذي تأثر في شكله ومضمونه بالأدب الغربي، الذي احتوى على آراء نقدية إحيائية، وهيكل بحسبانه ناقداً قدم آراءً نقدية أذكت الثورة الأدبية في مصر حيث كان "الاتجاه الذي يؤمن به هيكل، ويصدر عنه في معظم ما كتب، فهو المنهج الرومانسي... وما أصدره هيكل من آراء نقدية... يندرج في الغالب تحت السمات العامة للنقد الرومانسي"⁽³⁾.

لقد بنى هيكل نقده الأدبي على أساس الموضوعية الكاملة، "فالناقد عنده حاكم أو قاضٍ لا يصدر حكمه إلا بعد دراسة متأنية للقضية التي تُعرض له، وعلى أساس حثييات تبرره"⁽⁴⁾.

يبدو أن هيكلًا كان يميل إلى الموضوعية في النقد بشكل واضح، وربما الذي دفعه إلى هذا الخيار اعتقاده أن الذاتية بانطباعاتها الشخصية تؤثر بشكل مباشر في عملية النقد، لأنها تحيد العقل، وتقدم العاطفة، ونظرة هيكل إلى الأمور -بحكم دراسته القانونية- نظرة عقلانية دقيقة وعميقة، فهو يحاول دائماً أن يضع الأمور في نصابها أو في إطارها الصحيح بعيداً عن النزعات والأهواء، متحرراً بذلك إصابة الحكم العادل، والوصول إلى الرأي السليم، وحتى يحقق ذلك يرى أنه لا بد من الدراسة المتأنية التي تُبنى على أساس علمي، فلا مجال لإصدار أي حكم عنده إلا بعد استيفائه كل الحثييات والتبريرات، و"كان يحيط بالحقائق والمعلومات ويمعن

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/314).

(2) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص72).

(3) المرجع السابق، ص83.

(4) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص301).

في تمحيصها ومعارضتها على المراجع والأسانيد، ويخلص من ذلك إلى الرأي المعقول الذي يتجنب فيه الشطط"⁽¹⁾.

ويفضل هيكل الأمر في موضوع النقد فيقرر أن "للنقد الموضوعي على النقد الذاتي فضل سعة الأفق ومزية العدل"⁽²⁾.

حكم هيكل بتفضيل النقد الموضوعي على النقد الذاتي جاء بشكل جلي وواضح، ففيه سعة أفق، لأنه يدرس الموضوع بعمق وشمولية من جميع زواياه، أما ميزة العدل فلأنه يخرج من نفس سليمة الفطرة، صحيحة السجية، مجردة من أي ميول شخصية، أو نزوات ذاتية قد تؤثر في طبيعة حكم الناقد.

كان هيكل عند كتابته في النقد يجمع بين الحياء والعفة، وكان حريصاً على أن يسلم قلمه بالحجج والبراهين والمنطق، ديدنه في هنك الأفتعة التي تخفي الحقائق الرفق واللين، المهم عنده أن يكشف الحقيقة للقارئ والمتلقي دون أن يسبب أي حرج إلى من يوجه نقده إلى نتاجه، فترفعه عن البعد الشخصي والارتجال عند النقد واضح، لذلك كان النقد عنده يقوم على مرتكزات معلومة وهي "إبراز فكرة أو صورة، أو إحساس أو عاطفة يفيض بها القلب في صيغة متنسقة من اللفظ تخاطب النفس، وتصل إلى أعماقها من غير حاجة إلى كلفة أو مشقة"⁽³⁾.

ومما يميز هيكل عن غيره من النقاد أنه مارس النقد في جميع المجالات "في النقد التطبيقي والنظري... وفي معظم الأنواع الأدبية من شعر ومسرح وقصة... وتجاوز ذلك إلى كثير من القضايا الفرعية الخاصة بالماهية والوظيفة والأداة"⁽⁴⁾.

2- مهمة النقد عند هيكل:

وللنقد عند هيكل مهمات كثيرة، منها أنه "أداة الاتصال بين متبايني الثقافات للوصول منها إلى أن تتشابه فروعها، وتعزز مادتها وتتقارب... لتكون ثقافة قومية لها من الحكم والسلطان ما لثقافة كل أمة... والنقد الصالح قد يكون أداة هذا الاتصال"⁽⁵⁾.

(1) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص 97).

(2) هيكل، في أوقات الفراغ (ص 11).

(3) هيكل، ثورة الأدب (ص 52).

(4) وادي، هيكل، رائد الرواية السيرة والتراث (ص 84).

(5) هيكل، في أوقات الفراغ (ص 22).

يرى هيكل أن من مهام النقد تكوين ثقافة قومية تجتمع عليها الأمة، ويكون لهذه الثقافة قيمتها وسلطانها، وحتى تتكون هذه الثقافة الموحدة لا بد من الاتصال والتواصل والتشابك بين ثقافات الأمة المختلفة من أجل التقارب بينها، وتعزيز مادتها، وانتشار مفرداتها، ومن ثم يتم اعتمادها عند أبناء الأمة كثقافة قومية مشتركة، ويسمي هيكل هذا الاتصال بين هذه الثقافات النقد الصالح؛ لأنه إيجابي في هدفه، شريف في غايته.

ومن مهام النقد الأدبي عند هيكل أنه "يربي ذوق الجمهور، وهو الذي يدفع الأدب الرخيص، ويصدر حكمه القاسي على إثارة الغرائز الدنيا"⁽¹⁾.

يرى هيكل أن من مهام النقد التربية العامة للجمهور وتنمية ذوقه، والارتقاء به إلى مصاف التمييز بين الطيب والخبيث، ومن ثم تمكينه من إدراك الأدب الرفيع الذي يستحق كل احترام وتقدير حتى يبلغ به "المرتبة العليا، تلك هي مرتبة التأثير بما في الكون من جمال وتجلية هذا الجمال على الناس من غير نظر إلى قيد أو شرط، ومن غير تقيد بزمان ومكان"⁽²⁾، وتكوينه موقف واضح من الأدب الرخيص الذي يثير الغرائز والشهوات، فكثير من الأدباء "دأبوا على التغني بالحرية والإشادة بها قد أساءوا من حيث لا يقصدون... حسبوا أن الحرية معناها الإباحة فكان من جراء ذلك أن تخطوا الحدود"⁽³⁾، معنى هذا أن للنقد مهمة توجيهية إرشادية للجمهور ليُقبل على الأدب الرفيع الذي يعبر عن قضاياها، ويحمل همومه، ويخاطب عقله، ويتفاعل مع مشاعره "ولو أن النقد الصحيح الحصيف وجه الجمهور الوجهة الصحيحة، لكان أدق تقديرًا لما يقرأ وما يرى، وكان أكثر إقبالًا على الأدب الرفيع"⁽⁴⁾.

ويرى هيكل أن الأدب الحقيقي هو الذي يعلن عن نفسه بشكل طبيعي دون الترويج له من أي جهة، هذا الإعلان عن قيمة هذا الأدب لا تأتي من فراغ، وإنما "قيمتها تسهل معرفتها الحقيقية بما يصدره النقاد من الرأي فيها وبما يتذوقه الجمهور فيها"⁽⁵⁾.

ويرى أن من مهام النقد -أيضًا- الربط بين الشاعر وشعره بمعنى أنه ينبغي للناقد أن يتعرف على حياة الشاعر وبيئته من خلال شعره، ويقول في تقديمه لديوان البارودي حول نقد

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/370).

(2) المصدر السابق، ج2/227.

(3) المصدر نفسه، ج2/226.

(4) المصدر نفسه، ج2/370.

(5) المصدر نفسه، ج2/218.

الشعر، أن هذا النقد "يجلي أماننا الحالات النفسية التي أملت على الشاعر شعره"⁽¹⁾، معنى هذا أن هيكلًا كان يؤمن بالنقد النفسي التحليلي لفهم الشعر، وتقدير قيمته.

3- آثار هيكل النقدية:

كتب هيكل مقالات نقدية عديدة نشرها في الدوريات المصرية، ففي (الجريدة) كتب هيكل مقالات نقدية بعد عام 1912م، وفي (السياسة الأسبوعية) -أيضًا- "وقد جمع تلك المقالات من بعد في كتابه القيم (في أوقات الفراغ) الذي يدلنا على رؤيته النقدية في الأدب والفكر والاجتماع والتاريخ القديم"⁽²⁾، ويتحدث طه وادي عن هذا الكتاب ومصادر مادته التي جمعها فيه، وعن شخصية هيكل النقدية فيقول: "وما يقرب من ثلثي كتاب (في أوقات الفراغ) عبارة عن مقالات متنوعة في النقد الأدبي، جمعها هيكل من كتاباته في الجريدة والسفور والسياسة، وهي تبرز درجة الثقافة العالية، والفهم العميق لشخصية الكاتب التي تستر وراءها، فإذا ما وصلنا لمقالات السياسة الأسبوعية التي كتبها في النقد الأدبي وجدناها تزاد رقيًا، ويطول نفسه فيها، كما نجده يكثر من نقد الكتب والأبحاث الأدبية والحديث عن الأدباء"⁽³⁾.

وكذلك جاءت رؤيته النقدية في كتابه (تراجم مصرية وغربية)، وفي مقدمتي ديواني شوقي والبارودي، وفي كتابه (ثورة الأدب) الذي تحدث عن أهميته النقدية طه وادي -أيضًا- فقال: "كتاب ثورة الأدب يعتبر من أخطر ما كتب هيكل في النقد، لأنه يتحدث فيه عن الثورات المتصلة التي شاهدها نصف القرن الأخير في شئون الكتابة والأدب، ولذا يعد هذا الكتاب مرجعًا لمن أراد أن يتعرف على بعض الاتجاهات الأدبية والنقدية لتلك الفترة"⁽⁴⁾.

إن أهم كتابين كتبهما هيكل في النقد: (في أوقات الفراغ) و(ثورة الأدب)، حيث جمع فيهما معظم آرائه النقدية، وسجل فيهما شهادته على مسيرة الأدب والنقد، كما ذكر فيهما موضوعات تتعلق بالاتجاهات الأدبية والنقدية. لقد عاصر هيكل ثلاث مراحل في تاريخ نقدنا الحديث.. تمثل أخطر وأهم المدارس النقدية... وهي: مدرسة الإحياء، ومدرسة التجديد الرومانسي، ومدرسة النقد الاجتماعي"⁽⁵⁾. وهيكل "في الحقيقة ناقد متميز في إطار الرؤية

(1) البارودي، ديوان البارودي (ج1/6).

(2) زلط، محمد حسين والغربية هيكل بين الحضارتين الإسلامية (ص139).

(3) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص161).

(4) المرجع السابق، ص73-74.

(5) المرجع نفسه، ص84.

الرومانسية للنقد... تأثر بدرجة أو بأخرى بالاتجاهات النقدية المعاصرة، سواء أكانت إحيائية أم اجتماعية... إنه صاحب رؤية تكاملية في النقد⁽¹⁾.

نظرًا لأن هيكلًا عاصر تاريخ النقد الحديث وعاش مراحلها المختلفة، فقد تأثر بالاتجاهات النقدية السائدة آنذاك، ورغم وضوح تأثير ميوله الرومانسية في النقد؛ إلا أنه كان تكامليًا في رؤيته النقدية.

أما صورة هيكل الناقد فهي ليست واضحة بالقدر الكافي، لأن معظم تراثه النقدي لم يُجمع من ثنايا الصحف والمجلات، بل إن ما جُمع منه لم ينل حقه الكافي من الدراسة والتقديم⁽²⁾.

ثانيًا - القضايا النقدية عند هيكل:

شهد موضوع النقد الأدبي عند العرب قديمًا وحديثًا تطورًا هائلًا، وازدهارًا كبيرًا، ونضوجًا منقطع النظير حيث اتضحت معالم أصوله وقواعده، وأصبح عند النقاد القدرة على توجيه النقد بشمولية وموضوعية، وعمق ودقة، هذا التطور في عملية النقد استغرق سنوات عديدة إلى أن وصل إلى ما وصل إليه اليوم.

والمتتبع لتاريخ تطور عملية النقد يجد أن هناك الكثير من أمهات الكتب النقدية التي تعد مرجعية للنقد، هذه الكتب تناولت العديد من القضايا النقدية الأساسية التي هيمنت على الجو النقدي في ذلك الوقت، حيث تميزت هذه القضايا بحيويتها وفعاليتها، فمثلت قمة التراث النقدي العربي، وقد قام مؤلفو هذه الكتب بتطبيق هذه القضايا على نصوص من الموروث الشعري العربي الذي عبر تعبيرًا صادقًا عن العصور التي قبلت فيها.

ومن أهم القضايا النقدية التي تناولها النقاد في تلك العصور: السرقات الشعرية، واللفظ والمعنى، والقديم والجديد، والطبع والصناعة، وعمود الشعر وغيرها من القضايا، ولقد أضيف على هذه القضايا في العصر الحديث قضايا أخرى جديدة مثل: التجربة الشعرية وموسيقا الشعر وغيرها.

وفيما يخص القضايا النقدية التي تناولها هيكل في مقالاته وتوسع فيها في مؤلفاته، فإن الباحث سيتناول كل قضية منها على حدة، محاولًا أن يكشف ما وصل إليه هيكل فيها، ثم يبين رأيه في ذلك.

(1) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص84).

(2) المرجع السابق، ص84.

1- اللفظ والمعنى:

من القضايا النقدية التي تناولها تراثنا النقدي القديم بالبحث والدراسة قضية اللفظ والمعنى، حيث انقسم النقاد في هذا الأمر إلى أقسام⁽¹⁾: الأول فضل اللفظ على المعنى، والثاني قدم المعنى على اللفظ، وقسم ثالث حاول أن يجمع بينهما مقرراً بأهمية كل منهما، ومؤكداً على أن الأفضلية تبنى على مقدرة اللفظ على إيصال تجربة الأديب، وعلى العلاقة التكاملية بين اللفظ والمعنى بحيث "لم يكن لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"⁽²⁾.

وعد ابن رشيق اللفظ والمعنى كائناً عضوياً متماسكاً، حيث يقول: "اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته"⁽³⁾، وقسم متردد، فمرة يؤيد اللفظ، وأخرى يؤيد المعنى، وقسم أخير يفصل بين اللفظ والمعنى فصلاً تاماً بحيث لا يرجح أحدهما على الآخر.

ومما سبق يتضح أن العلاقة بين اللفظ والمعنى قوية، والارتباط بينهما متين، ومن ثم فإنه إذا أصاب أحدهما الضعف أصاب الآخر، لأنها بمثابة شقيقين توأم متلازمين لا ينفك أحدهما عن الآخر، فاللفظ يعبر عن المعنى، وفي الوقت نفسه لا قيمة للمعنى بدون اللفظ، ومن هنا فإن أهم شيء في الأسلوب الناجح "اختيار اللفظ المناسب للحالة الشعورية والمُعَبَّر عن المعنى الذاتي والتجربة الأدبية بصدق، بما يحمل من دلالات إحيائية"⁽⁴⁾.

المهم في الأمر الانسجام القوي والتوافق التام بين اللفظ والمعنى لخلق حالة شعورية إيجابية متناسقة تعبر عن ذات الأديب بصدق، هذا الانسجام لا يتحقق إلا من خلال نظام محكم يجمع بين الفكرة والصورة والإيقاع، فكأنهم جميعاً صُبُّوا في قالب واحد ليكونوا من هذا الامتزاج شيئاً واحداً له دلالاته الذهنية والمعنوية.

وفق ما سبق فقد حرص هيكل دائماً لأن يكون هناك انسجام قوي بين لفظه ومعناه، كما أنه طرح هذه القضية في مقالاته وكتبه بشكل جلي، ففي كتاب (ثورة الأدب) يرى هيكل أن الأديب بحاجة إلى إتقان اللغة ليستطيع اختيار اللفظ المناسب الذي يصلح للتعبير الدقيق عن

(1) ينظر: بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم... (ص113).

(2) الجاحظ، البيان والتبيين (ج1/115).

(3) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه (ج12/124).

(4) ناجي، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية (ص71).

المعنى، فدراسة اللغة "لا تتصل بالأدب لذاته إلا من حيث هي كساء الأدب، ولذا فإن صلتها بالأدب من هذه الناحية تتطور تطور صلة الأزياء بأقدار الناس في الحياة"⁽¹⁾.

يميل هيكل إلى ضرورة العناية باللفظ والمعنى معاً، فكما أن الأديب حريص على تطور أدبه، كان لزاماً عليه أن يطور لغته حتى يبقى الانسجام بينهما مستمرًا، لأن اللغة من وجهة نظره كساء للأدب، فيستحيل أن يتطور الأدب بمعزل عن اللغة لأن كليهما بمثابة الروح والجسد "فاللغة أداة للتعبير عن الحياة وصورها ومعانيها، وما دامت هذه الصور والمعاني تتجدد وتتطور فيجب أن تجاريها اللغة في تجددتها وتطورها"⁽²⁾.

رأى هيكل أن الأدب فن يحمل رسالة الحق والجمال في الحياة، وربط بين هذه الرسالة واللغة التي تكتب فيها، فهدف مضمون الرسالة ولغتها عنده خدمة الناس في الحياة، كما رأى أنه لا يمكن توصيل هذه الرسالة إلا من خلال التعبير الأدبي عنها، يقول عن وظيفة الأدب: "فن جميل غايته تبليغ الناس رسالة ما في الحياة من حق وجميل، أما اللغة في الأدب فليست إلا الكساء الظاهر لهذا الرحيق الذي يعبر الأدب عنه"⁽³⁾.

2- القديم والحديث:

اقتضت سنة الله في الكون أن يصبح جديد الأمس قديم اليوم، وأن يصبح جديد اليوم قديم الغد، وهكذا الحياة لا يبقى شيء فيها على حاله، فالتغيير والتبديل والتطوير والتجديد في أنشطة الناس وفي عاداتهم وتقاليدهم ومعارفهم وعلومهم وما يمس حياتهم أمر طبيعي، فكل جيل يسلم للجيل الذي بعده ما وصل إليه من إنجاز، وما أضافه من جديد عن الجيل الذي سبقه، وهكذا هي حركة الحياة.

ويأتي في إطار هذه السنة الكونية ما يعرف بالقديم والحديث على جميع الأصعدة التي منها صعيد الأدب، والمتأمل في هذا التصنيف وما ينشأ عنه يجد أن هناك خلافاً أو اختلافاً بين أنصار القديم وأنصار الجديد، ويبرر كل طرف منهما ما يؤيد رأيه، ويعزز موقفه، وقد لمس هيكل هذه الظاهرة في الأدب، فأطلق عليها (معركة القديم والحديث) يقول فيها: "ثمة معركة يسمونها معركة القديم والحديث... هي معركة بين كُتَّاب هذا الجيل والجيل الذي سبقه من

(1) هيكل، ثورة الأدب (ص35).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/338).

(3) هيكل، ثورة الأدب (ص38).

آبائهم ممن لا تزال أقلامهم تجري في الصحف وفي المؤلفات"⁽¹⁾، وحول هذه المعركة، وبنوع من التفصيل فيما يخصها أدلى هيكل بهذا التصريح قائلاً: "وقد احتدمت معركة القديم والحديث هذه منذ سنين طويلة، وانتقل المحاربون فيها في ميادين مختلفة، كانت هذه الميادين قبل الحرب العامة، تتناول أساليب الكتابة، وتتناول الألفاظ العلمية وغير العلمية إلى يومئذٍ كانت الغلبة لأنصار تقليد الأدب القديم وكان السجع والإغراب في اختيار الألفاظ بعض ما يمتاز به كُتاب العصر"⁽²⁾.

لقد بين هيكل أن المعركة بين القديم والحديث حميٍ وطيسها، واستعرت نيرانها، حتى وصلت إلى حالة من الصدام العنيف امتد لعدة سنوات، وذكر أن ميدان هذه المعركة كانت أساليب الكتابة، واستخدم الألفاظ العلمية وغير العلمية، ثم أكد على أن المعركة حُسمت وانتهت لصالح أنصار القديم، أما موقف هيكل من هذه المعركة فإنه يعترف بأنه لم يفهمها حق الفهم، ولم يجد لها مُسوِّغاً، ويتعجب من هذه المعركة "كيف... تقوم معركة بين الأحياء من القدامى والمحدثين من الكُتاب وبخاصة في هذا الزمن الذي يعيش فيه، والذي انفسحت فيه ميادين الكتابة إلى حيث تسع كل من يريد أن يعالج أي لون من ألوانها"⁽³⁾.

تَعَجَّبَ هيكل من معركة القديم والحديث في هذا الزمن الذي يعيشه لأن فيه سعة في الميدان الأدبي تستوعب الجميع قداماء ومحدثين، لكنه في الوقت نفسه يُقرُّ بشرعية هذه المعركة المتجددة في الزمن الماضي، حيث يقول: "ومعركة القديم والحديث في اللغة والأدب متجددة دائماً على النحو الذي اختاره أبو نواس أو على نحو غيره، وقد كانت هذه المعركة وارية الضرام في مصر من ثلاثين سنة أو نحوها، ثم هدأت حتى تستجم لتعود إلى الظهور من جديد"⁽⁴⁾.

لقد أعجب هيكل بصنيع أبي نواس عندما خرج على بناء القصيدة العربية التقليدي، فلم يَعدُ يبدأ قصائده بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار والتعزل بالمحبة، لأن ذلك "كان سائغاً في البادية... فلم يبقَ ذلك مقبولاً في عهد استقر الناس فيه في المدن التي ازدهرت بعمرانها"⁽⁵⁾ ويتحدث هيكل عن شعر أبي نواس فيصور "ثورة الحديث بالقديم تصويراً بارعاً إذ يدعو الناس

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/339).

(2) الجندي، المعارك الأدبية في مصر منذ 1914-1939م (ص398).

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/339).

(4) المصدر السابق، ج2/338.

(5) المصدر نفسه، ج2/377.

للعيش في البيئة المحيطة بهم لا في خرائب الماضي وأطلاله"⁽¹⁾. أراد هيكل أن يعبر عن هذه الثورة ويدعو الناس للتعبير عن إحساسهم وخيالهم وفق ما ينطق به واقعهم.

وينتقل هيكل من الحديث عن (القديم والحديث) في الماضي إلى الحديث عنه في الحاضر الذي يعيشه، وقد تناوله من ثلاث زوايا: الألفاظ والأساليب وفن الكتابة، أما الألفاظ فقد تحدث عنها من خلال "ما يحدث في مجمع اللغة العربية حول المصطلحات العلمية والفنية وحول ألفاظ الحضارة وتعريبها، فهناك تياران... يذهب أحدهما إلى أننا يجب أن نلتمس في ألفاظ اللغة العربية لعهودها الأولى ما يعبر عن هذه المصطلحات الحديثة، ويذهب الآخر إلى أننا إذا استطعنا تعريب المصطلحات الأجنبية نفسها كان ذلك أدنى إلى التقريب بين لغتنا واللغات الحية في العالم"⁽²⁾.

وضع هيكل أمامنا تيارين مختلفين: أحدهما مثل القديم فنأدى بتلمس الألفاظ العربية القديمة للتعبير عن المصطلحات الحديثة، والثاني مثل الحديث فدعا إلى تعريب المصطلحات الأجنبية للتقريب بين اللغة العربية واللغات الحية في العالم، ورأى هيكل أنه يمكن الجمع والتوفيق بينهما، وذلك بالأخذ بهما معاً، لكنه يتساءل "ست أدري أيقدر لهذا الصلح المجمعي الاستقرار والثبات عند العلماء والكُتّاب والمعنيين بهذه المصطلحات، أن تظل المعركة مؤذنة تنور على هذه الألفاظ نفسها بين حين وحين"⁽³⁾.

أما الأساليب فقد قام عليها سجال كما قام على الألفاظ، يقول هيكل: "كان السجع في النثر بعض ما عُني به كُتّاب الجيل الماضي، وما جعلهم أشد عناية باللفظ منهم بالمعنى، ثم قامت بينهم وبين المجددين في الأساليب معركة جعلت الثائرين اليوم يرون هذا اللون من الكتابة غير سائغ، ويعنون بالمعنى ويجعلون اللفظ لباسه"⁽⁴⁾.

يرى هيكل أنه كان ثمة خلاف بين الجيل الماضي والجيل الحاضر حول الأساليب، لأن الجيل الماضي كان يميل إلى السجع والاهتمام بالألفاظ ذات الإيقاع الموسيقي في النثر على حساب المعنى، أما جيل المجددين فقد اعترضوا على هذه الأساليب، فكانت عنايتهم بالمعنى أولاً ثم باللفظ.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/337).

(2) المصدر السابق، ج2/338.

(3) المصدر نفسه، ج2/338.

(4) المصدر نفسه، ج2/338.

أما الزاوية الثالثة في مجال (القديم والحديث) فهي فن الكتابة، فقد تناولها هيكل من جهة البقاء للأصلح، يقول: "ومن الشبان في هذا الجيل وفي الأجيال التي سبقتهم من تقدموا الصفوف، وبرزوا على سابقهم في ميادين الكتابة المختلفة في الصحافة وفي الأدب وفي الفلسفة وفي سائر ألوان الكتابة... لِنُجاري الأدب العالمي الكبير، والكتابة الرفيعة في السياسة أو الفلسفة أو ما إليهما من ميادين الكتابة المختلفة، وشبان اليوم هم المطالبون بأن يسلكوا هذا الطريق حتى يبلغوا غايتهم"⁽¹⁾.

يرى هيكل أن السباق في ميادين وألوان الكتابة المختلفة بين الجيل القديم والجيل الحديث مشروع، لكن ليس هذا المراد فقط، وإنما المطلوب منافسة الأدب العالمي الكبير، وإتقان الكتابة في جميع المجالات، والعبء الأكبر والمسئولية الأعظم في ذلك تقع على عاتق الجيل الحديث، لأن هذا الأمر متعلق بشكل مباشر بمستقبلهم، ولأنه باستطاعتهم مواكبة التطور السريع في الكتابة في بلاد العالم على مستوى النظريات والمبادئ الخاصة بالحياة الاقتصادية، وبالنظم السياسية والاجتماعية.

في ضوء ما سبق يتضح أن من سنن الله في خلقه وكونه، أن يكون بين الأجيال القديمة والحديثة اتفاق واختلاف وتنافس؛ لأن لكل منهم خصائص تميزه عن غيره، ومن ثم فإنه يمكن الوقوف عند هذه الملاحظات:

1- التنافس بين الأجيال في اللغة والأدب متجدد دائماً منذ عصر أبي نواس وحتى هذا العصر.

2- أطلق هيكل مصطلح معركة وثورة على ما يحدث من تنافس بين القديم والحديث، وهذا يدل على مباركته لهذا التنافس، وميله إلى التجديد والتطور في اللغة والأدب.

3- طرح هيكل موضوع تعريب العلوم والحضارة في المجمع اللغوي، ورأى أنه لا بأس في الجمع بين الألفاظ العربية القديمة وتعريب المصطلحات الأجنبية، لكن أبدى قلقه من عدم الاستمرار في هذا الجمع.

4- بيّن هيكل طبيعة الخلاف بين الجيلين القديم والحديث حول الأساليب، فالجيل القديم كان يهتم بالزخرف في الكلام من خلال السجع والإيقاع، أما الجيل الحديث فكان تركيزه على المعنى ثم اللفظ.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/339-340).

5- يرى هيكل أن التنافس في الكتابة بين الجيل القديم والجيل الحديث مشروع، وأن الأفضلية والتقدمة تكون على أساس التنافس في الأدب العالمي الكبير، وفي إتقان الكتابة.

3- السرقات الشعرية:

المقصود بالسرقات الشعرية هو أن يأخذ شاعر شعر غيره أو بعضاً منه وينسبه إلى نفسه، والأخذ يكون لفظاً أو معنى أو الاثنين معاً، والسرقات الشعرية من القضايا النقدية القديمة "وقد احتلت قضية السرقات الأدبية حيزاً واسعاً من النقد العربي، اندفع لبحثها أكثر النقاد، وهم يتحرون عن أصالة الشاعر، ومدى اعتماده على نفسه، وابتداعه في فنه، أو تأثيره بغيره، ومدى هذا التأثير والتقليد، واعتمدوا اللفظ والمعنى أساساً لها"⁽¹⁾، وكان محمد بن سلام الجمحي من أوائل من تحدثوا عنها في كتابه (طبقات فحول الشعراء)، أما الأمدى فقد تناول في كتابه (الموازنة) قضية السرقات الشعرية، فذكر آراء النقاد الذين سبقوه، ومن أهم أفكاره في هذا المجال "السرق يكون في البديع الذي ليس للناس فيه اشتراك"⁽²⁾، وقد رفض أن يعد اشتراك شاعرين في بعض المعاني البديهية المعروفة لكل خاطر، ولا يختلف عليها اثنان من باب السرقة، كما أنه لا يحبز الاتهام بالسرقة لأية عارضة التقاء بين شاعرين، وقد قسم السرقات إلى أنواع وحدد درجاتها، وجعل للسرقات محاسن ومساوئ، فمن محاسنها: أخذ المعنى ثم الزيادة عليه، ورأى أن في السرقة إجابة مثل: تحويل المعنى والإجادة فيه وهو يُحسب للشاعر، وذكر من مساوئ السرقات: أن يأخذ المعنى كما هو بلفظه، أو يأخذ اللفظ والمعنى معاً⁽³⁾.

ورأى الجرجاني أن السرقات الشعرية داء قديم وعيب عتيق، وأنه لم يخل منه شاعر، وقد استعرض نماذج للسرقات الشعرية في كتابه الوساطة بين المتتبي وخصومه، فقد ذكر "وما زال الشاعر يستعين بخاطر الخاطر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه"⁽⁴⁾، أما ابن رشيق فيرى أن السرقات الشعرية "باب متسع جداً لم يعذر أحد من الشعراء"⁽⁵⁾.

وقد تناول هيكل قضية السرقات الشعرية عند البارودي عندما قدّم لديوانه حيث قال ممهداً لهذا الموضوع: "وما أكثر ما نسج البارودي على غرارهم (يقصد الشعراء القدامى) فهو

(1) العربي، النقد العربي القديم، مقاييسه واتجاهاته وأعلامه ومصادره (ص310).

(2) الأمدى، الموازنة (ج1/52).

(3) ينظر: أبو علي، بحث بعنوان: كتاب الموازنة عرض ونقد (ص51-86).

(4) الجرجاني، الوساطة بين المتتبي وخصومه (ص214).

(5) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه (ص1335).

طالما راضياً القول معارضاً الفحول الأولين، محاولاً أن يبدهم في ديباجته وفي قوة معانيه، وقد وفق للتفوق عليهم في أحيان، وقصر عن مداهم في أحيان أخرى⁽¹⁾.

ويمضي هيكل في حديثه عن شعر البارودي ويقر بأن البارودي "لم يتجه بالشعر العربي غير وجهة الأقدمين... وأنه لم يفنَ فيهم ولم يقصر همه على النقل عنهم، بل بدت شخصيته بارزة في شعره، وبدا شعره مرآة بيئته وزمانه"⁽²⁾.

وفي سياق حديثه عن شعر البارودي تطرق هيكل إلى قضية السرقات فقال: "أما ما يقال عن سرقات البارودي فلا ينهض مأخذاً عليه، وهو قد أسلف العذر عن محاكاة الأقدمين، إذ نص في تقديم بعض قصائده على أنها معارضة لقصيدة قديمة معروفة، أو أنها رياضة للقول على طريقة العرب"⁽³⁾.

وقف هيكل على قضية السرقات الشعرية عند البارودي مدافعاً عنها، ومحاولاً أن يجد لها المبررات، ويمكن تلخيص ما ذهب إليه هيكل في هذا المقام بالتالي:

1- تم اتهام فحول الشعراء الأقدمين بالسرقة قبل البارودي، وقد رفض أنصارهم ورواتهم هذا الاتهام لأنهم عدوه من توارد الخاطر.

2- حصيلة ما حفظه البارودي من الشعر القديم كانت كبيرة، ونتيجة لذلك يرى هيكل أنه لا عيب إذا تضمنت قصائده أو أدمج فيها بيت شعر لغيره.

3- عبقرية البارودي الشعرية ونظمه الضخم للعديد من القصائد قياساً إلى ما نسب منها لغيره قليل جداً، وهذا يشفع له.

4- يعود التطابق بين شعر البارودي وشعر الأقدمين إلى أن روحه كانت متصلة بالأقدمين اتصالاً كاملاً.

5- لم يكن للبارودي فلسفة خاصة به، وكان همه بعث معاني الأقدمين ولغتهم، ويقر هيكل أن هذا البعث لا يُعدُّ سرقة؛ لأن الشعراء والكتاب في كل أمة وعصر يتداولون المعاني بينهم.

6- يرى هيكل أن البارودي سما في الفخر والحنين والرثاء ووصف الوقائع ووصف الطبيعة، ولم يلحقه في ذلك إلا القليل من كبار فحول الشعراء؛ وسبب ذلك أنه عبر عنها تعبيراً

(1) البارودي، ديوان البارودي: المقدمة (ج2/19-2).

(2) المصدر السابق، ج30/1.

(3) المصدر نفسه، ج32/1.

صادقًا من أعماق قلبه، وأنه قالها مخلصًا للشعر، محبًا إياه، لا يبتغي به إلا رضا نفسه ورضا الفن، وأنه كان يرى أن الشعر وسيلة الخلود في ضمير الأجيال⁽¹⁾.

وقد أيد شوقي ضيف الكثير من هذه المبررات بقوله: "والبارودي يعد بحق حامل لواء الشعر العربي الحديث... ونفخ فيه من روحه وروح قومه وعصره وبيئته ما رد إليه الحياة، بل نفخ فيه -أيضًا- روح العروبة القديم، فإذا الحاضر يتصل بالماضي اتصالًا خصيبًا حيًا، وإذا الماضي ينبعث من جديد بعثًا تنمو فيه شخصيتنا الشعرية نموًا رائعًا"⁽²⁾.

وكان لخليل الموسى رأيًا آخر خالف فيه رأي هيكل الخاص بمبررات السرقات الشعرية، حيث يقول: "وقف البارودي على الطلل الذي رفض أبو نواس من قبل الوقوف عليه... وإذا كان الوقوف على الطلل ظاهرة صحية في الشعر الجاهلي... فإنها في الشعر العباسي وما جاء بعده ظاهرة مرضية بعيدة عن العصر والحضارة من جهة، وبعيدة عن التجربة الشعرية من جهة ثانية، ثم إن الشاعر البارودي ابن القصور والرياض والعز والجاه، ولذلك كان شعره في هذا الجانب متكلفًا تقليديًا"⁽³⁾.

شغلت قضية السرقات الأدبية حيزًا كبيرًا في كُتب النقاد القدامى والمحدثين، ففي هذا العصر الذي نعيشه، يُلاحظ أن مفهوم السرقات الشعرية قد اتسع في ظل الفكر النقدي الحديث "هناك السرقات، وهذه لا تطلق اليوم إلا على آخذ جمل أو أفكار أصلية، وانتحالها بنصها دون الإشارة إلى مأخذها، وهذا قليل الحدوث في العصر الحديث"⁽⁴⁾.

والسؤال: ما الذي حدث من تغيير في هذا المفهوم؟

وقبل الإجابة، لا بد من الوقوف عند العلاقة بين نصين أدبيين أو أكثر لنتبين هذا التغيير، فنوع العلاقة والتفاعل بين النصوص هو الأساس في هذه المسألة "علاقة الوجود المشترك بين نصين أو عدة نصوص بطريقة الاستشهاد أو السرقة أو الإلماع"⁽⁵⁾.

(1) ينظر: البارودي، ديوان البارودي (ج1/32-35).

(2) حنيف، البارودي رائد الشعر الحديث (ص218).

(3) الموسى، البارودي رائد النهضة الشعرية الحديثة (ص80).

(4) عزام، النص الغائب تجليات التناسل في الشعر العربي (ص57).

(5) البقاعي، آفاق التناسلية المفهوم والمنظور (ص118).

ومن هنا تولدت مصطلحات جديدة في النقد الحديث قابلت السرقات الشعرية، والأدبية مثل: التناص والافتباس والتضمين ومصطلحات أخرى مثل: التطابق والتحاوي والتداخل والتفاعل والقلب⁽¹⁾ والاستلهام والاستيحاء والإشارة.

والتناص أكثر هذه المصطلحات استخدامًا في النقد الحديث، ويُلاحظ أن النقاد ينظرون إلى السرقات الأدبية نظرة تختلف تمامًا عن نظرتهم إلى التناص، فالسرقات مذمومة وتُعد من النقائص والعيوب، لأنها تمس الجانب الأخلاقي، بينما التناص محمود لأنه يدل على الإبداع، وسعة الثقافة، ومهارة النسخ، وإعادة النتاج، ويُعد التناص من ضمن الوظائف الجمالية في الأعمال الأدبية، فهو يبعث الحياة من جديد في هياكل هذه الأعمال من خلال الإشارة إلى قصيدة، أو قصة، أو أسطورة، أو حدث تاريخي، أو شخصية حقيقية أو رمزية.

في ضوء ما سبق يسجل الباحث بعض الملاحظات:

- أ- أن هيكلًا لم يتناول السرقات الشعرية عند البارودي أو عند غيره بشكل مفصل، وكان من المفترض أن يكون أكثر وضوحًا في تناوله لهذه القضية النقدية.
- ب- يلمس في مبررات هيكل للسرقات الشعرية عند البارودي أنها كانت عامة وفيها نوع من المجاملة، لأن المقام الذي كتبها فيه كان مقام تقديم للديوان وليس مقام نقد.
- ت- لبعض النقاد آراء أخرى خالفت رأي هيكل في قضية السرقات الشعرية عند البارودي، فكانت أكثر جرأة ووضوحًا، فذكرت ما له وما عليه.
- ث- لم يتطرق هيكل إلى التناص في شعر البارودي، لأنه لم يكن متداولًا في ذلك الوقت.

4- الفصحى والعامية:

من الموضوعات اللغوية القديمة الحديثة التي طرحت وما زالت تطرح في البلاد العربية، موضوع قدرة اللغة العربية على التعبير عن حاجات المجتمع العربي في العصر الحديث، هذا الموضوع تناول محور ازدواجية اللغة بين العامية والفصحى، وقصدوا بذلك الإعلاء من قدر اللهجات العامية فقد "كانت اللغة العربية منذ نهاية القرن التاسع عشر مجالًا لمعركة كبرى، بدأت هذه المعركة بمحاولات الغزو الثقافي والاستعمار في العالم العربي، وكانت مصر من أهم المناطق التي ركز عليها الاستعمار بعد الاحتلال، فظهرت دعوات ومؤلفات لكتاب أجنبية

(1) ينظر: عزام، النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي (ص57).

تدعو إلى الكتابة باللغة العامية... ثم حمل لواء الدعوة ككتاب عرب⁽¹⁾ منهم جماعة من النصارى العرب في لبنان كالخوري (مارون غصن) و(أنيس فريحه) ثم (سعيد عقل) من بعدهما، وآخرين في مصر يتقدمهم (سلامة موسى) و(لويس عوض)⁽²⁾.

وعلى سبيل المثال، فقد بث سلامة موسى أفكاره في كتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية) التي دعا فيها إلى لغة جديدة تجمع بين العامية والفصحى، ومسوغه في ذلك أنه يوجد في المجتمع العربي لغتان: إحداهما كلامية منطوقة وهي العامية، والثانية فصحى خرساء -على حد تعبيره- كأنها لغة الكهان التي لا تتلى إلا في المعابد⁽³⁾، وبمزيد من الصراحة والجرأة نبذ الفصحى وحمل عليها، واعتبرها مسئولة عن تخلفنا الحضاري والمدني⁽⁴⁾.

لقد تحدث هيكल حول موضوع الفصحى والعامية وبيّن مَنْ هم وراء الدعوة إليه، وأسباب هذه الدعوة، والنتيجة التي وصلت إليها، يقول: "دعا بعض الأجانب وتابعهم بعض العرب... إلى اتخاذ اللهجات العامية أساساً للكتابة والأدب... وعلى الرغم من أن هذه الدعوة لم تلقَ أدنًا صاغية في الرأي العام العربي، فقد كان طبيعيًا أن تثمر بعض النتائج في المحيط المسرحي بصفة خاصة"⁽⁵⁾.

إن كشف هيكل لمصدر هذه الدعوة المتمثل بالأجانب ومن تبعهم من العرب، يبرز مدى خطورتها على اللغة والأدب، وهو ما رآه أنور الجندي حين قال: "ولا ريب أن كل ما يدّعي بالتقريب بين العامية والفصحى أو اللغة الوسطية أو غير ذلك إنما هو من محاولات التغريب والغزو الثقافي التي يراد بها فصل الأجيال الجديدة عن أسلوب القرآن وعن التراث الإسلامي"⁽⁶⁾، كذلك فإن هذه الدعوة إلى العامية كانت "تستهدف الفصحى وتستهدف البيان العربي، وكان دعائها يبتنون مفاهيم خطيرة، وخلفيات ضالة تحمل أهواء التغريب والشعبوية"⁽⁷⁾.

(1) الجندي، المعارك الأدبية في مصر منذ 1914-1939م (ص71).

(2) ينظر: فروخ، القومية الفصحى (ص98-152).

(3) ينظر: موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية (ص44).

(4) ينظر: المرجع السابق، ص185-188.

(5) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/321).

(6) الجندي، الصحافة والأفلام المسمومة (ص159).

(7) المرجع السابق، ص172.

لقد سُبقت هذه الدعوات بجهود مارجليوث⁽¹⁾ ويعلق يحيى الجبوري على آثار هذه الجهود قائلاً: "لقد كانت مقالة مارجليوث حافراً لكتابات كثيرة، لما حوته من آراء جريئة، ومزاعم وتصورات تخطئ الواقع التاريخي، وحقيقة الحياة الجاهلية، فكان المستشرقون أنفسهم هم الذين ردوا عليه، وناقشوا نظرياته، وحاجوا مزاعمه"⁽²⁾. وتبعه فريق من العرب والعجم لإنكار الشعر الجاهلي وصولاً للتشكيك في معجزة القرآن الكريم، يقول طه حسين: "إننا نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث... ومن الغريب... إنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلي إنما قُدَّ على قَدِّ القرآن والحديث... هذه الدقة في الموازنة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلي لا ينبغي أن تحمل على الاطمئنان إلا الذين رزقوا حظاً من السذاجة... يجب أن تحملنا هذه الدقة في الموازنة على الشك والحيرة... إنما هي شيء تُكلف وأنفق فيها أصحابه بياض الأيام وسواد الليالي"⁽³⁾، ثم أعقب ذلك الدعوة إلى العامية للهدف نفسه، ولإيجاد أجيال لا علاقة لها بالقرآن الكريم ولا باللغة الفصحى، لذا احتضنت هذه الدعوة البغيضة كل عقل ضال، وكل قلب حاقد، وكل عنصر مقيت.

ويرى هيك أن لدعوتهم هذه أغراضاً سياسية حيث يقول: "لهذه الدعوة غرض سياسي يرمي إلى التفريق بين العرب... فسكان العالم العربي... يستطيع قراؤهم جميعاً أن يقرأوا العربية الفصحى، فالكاتب بهذه اللغة يستطيع أن يخاطبهم جميعاً بما يكتب، أما الذي يكتب باللهجة العامية المصرية، فلا يجد قراءً إلا في مصر، والذي يكتب باللهجة العامية العراقية لا يجد قراءً إلا في العراق... فالخير لذلك في أن تكون بين القراء لغة مشتركة هي العربية الفصحى"⁽⁴⁾.

ومعروف أن لكل بلد عربي لهجته الخاصة، ولو أصبحت هذه اللهجة لغة له، لغدا كل بلد عربي يتكلم بلغة لا تربطها مع الدول العربية المجاورة إلا جذور كانت تنتمي فيها إلى اللغة العربية لغة القرآن، الذي سيصبح نصوصاً دينية مبهمّة لا يمكن فهمها فضلاً عن تطبيقها في

(1) من أوائل المستشرقين الذين أثاروا الشك في الشعر الجاهلي، فقد نشر في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، عدد يوليو سنة 1925م بحثاً عنوانه (أصول الشعر العربي) رجح فيه أن هذا الشعر الذي نقرأه على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الإسلامية، ثم نحله الواضعون لشعراء جاهليين، أيد ذلك طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي (ص71-72) حيث يقول: إن الكثرة المطلقة مما نسميه أديباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، إنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين.

(2) الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه (ص164).

(3) حسين، في الأدب الجاهلي (ص120).

(4) هيك، مقالات محمد حسين هيك (ج2/322).

حياتنا اليومية. وهذا ما حدث في أوروبا عندما كانت اللغة اللاتينية سائدة في القرون الوسطى، وكانت لغة رسمية للدين والسياسة والأدب، وكان يُحظر على الأدباء التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم بلهجاتهم المحلية، وعندما قامت الثورة الفرنسية الكبرى وتمردت على الكنيسة ومبادئها وتعاليمها، أصبحت اللهجات المحلية لغات مستقلة لأقطار أوروبا فظهرت الألمانية، والفرنسية، والإسبانية وغيرها من اللغات⁽¹⁾، وهذا ما كان يهدف إليه أصحاب هذه الدعوات، ولولا القرآن وحفظ الله له وللغته قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (2)، لأصبحت كل لهجة محلية في الدول العربية لغة مستقلة ولغدا الاغتراب الحقيقي بيننا وبين القرآن وتعاليمه. وهذا ما حذر منه هيكل حين اعتبر أن مثل هذه الدعوات محاولة للتفريق بين أبناء الأمة، حيث لن يفهم بعضهم بعضاً، لذا رأى أنه من الخير أن تكون العربية الفصحى هي اللغة المشتركة بين القراء العرب وذلك من خلال انتشار الصحف والإذاعات العربية حتى يصبح "السواد الأعظم في البلاد العربية كلها يفهم العربية الفصحى كما تكتبها الصحف، وكما يكتبها الأدباء اليوم"⁽³⁾.

ويمضي هيكل في حديثه عن أهمية اللغة الفصحى وآثارها على مستقبل أبناء الأمة العربية، حيث يذكر أنها مظهر من مظاهر حيوية الشعب الذي يتكلمها، وأن نسبة القراء والكتاب في البلاد العربية تزداد يوماً بعد يوم "واقبال الشباب العربي على الدراسات العليا، وحرصهم على نقل آثار الفكر الإنساني في البلاد المختلفة واضح كل الوضوح، ولن يكون لمجهودهم ثمرة إذا لم تسعفهم اللغة المشتركة -أقصد العربية الفصحى- بإبراز هذه الثمرات وإيضاحها"⁽⁴⁾.

وخلاصة القول في موضوع الفصحى والعامية أن هيكلاً استطاع أن يكشف عما وراء فكرة الدعوة إلى العامية، فبيّن أنها فكرة خبيثة صدرت من نفوس مريضة حاقدة من أجل النيل من القرآن الكريم، واللغة العربية، والبيان العربي، والتراث العربي، كما أن لها هدفاً سياسياً وهو التفريق بين البلاد العربية وأبناء الأمة العربية وتعزيز الانقسام بينهم، كما يتضح أن هيكلاً كان من أنصار العربية الفصحى لأنه رأى فيها السبيل للتفاهم والوحدة بين أبناء الأمة العربية، وأخيراً ذكر هيكل أن العامية لم تستخدم إلا على خشبة المسرح لأنها تصور الحياة الواقعية.

(1) ينظر: طحان، الأدب المقارن (ص43).

(2) [الحجر: 9].

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/322).

(4) المصدر السابق، ج2/323.

5- المقارنة بين أدباء العرب وأدباء الغرب:

للأدب في حياة أية أمة من الأمم أهمية خاصة، فهو يُكَمِّلُ غذاءها الروحي الذي تستمدّه من الدين، وعنصر أساس من مقومات حضارتها، وهو من معايير سموها ورفعتها، ودليل على مدى تقدمها وازدهارها، "أوليس الأدب إرث الإنسانية وغذاءها، وهو الذي يكشف لنا عن أسرارها، أوليس هو -أيضاً- عصارة الحياة وخلاصتها ومرآتها؟!"⁽¹⁾.

عاش هيكل ريعان شبابه وزهرات عمره في بلاد الغرب، خاصة في فرنسا من أجل الدراسة، واستقى منها العلوم، وارتشف الأدب محاولاً أن يروي عطشه الروحي، فأعجب بهذا الأدب وتأثر به، وفي مقالة له بعنوان (تهذيب المواهب) يتحدث عن تجربته مع الأدب الغربي فيقول: "واني لأعترف اعترافاً صريحاً ليس فيه شيء من التواضع، بأنني ما أزال إذ أقرأ بعض صحف، وبعض قصائد في الأدب الغربي أراني أمامها ضعيفاً حتى يبلغ بي من الإعجاب بها أن أحسد الكاتب أو الكاتبة... أشعر إلى جانب استمتاعي بما أقرأ... بشيء من الحنق أن لا أجد ما يعادل هذا الذي أقرأ في لغتنا التي نكتبها اليوم ومن أقلام كُتابنا وشُعرائنا الممتازين"⁽²⁾.

هذا اعتراف صريح وواضح من هيكل بشدة إعجابه بالأدب الغربي لدرجة أنه عقد مقارنة بينه وبين الأدب العربي فلم يجد له ما يعادله أو يوازيه في جماله وتأثيره.

يبدو أن هيكلًا كان متسرعاً في إصدار حكمه، ومتعجلاً في اتخاذ قراره، فقد خرج هذا الحكم متزامناً مع سيطرة هذا الإعجاب على نفسه، وكان أجدر به ألا يندفع هذا الاندفاع العاطفي الحماسي، ويسجل عليه في هذا الموقف أنه غمط الأدب العربي حقه، لأنه بهذه المقارنة المتعجلة أسقط جميع مستويات الأدب العربي الراقى الفحل العذب الجزل الذي ما زال خالداً في العقول والقلوب والنفوس.

وفي محاضرة ألقاها هيكل بتاريخ 16 مارس 1946م في دار رابطة خريجي جامعة فرنسا، حيث تحدث فيها عن الآثار التي تركها الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر في نفسه، يقول: "وأنت تطالع فيكتور هيجو لامارتين وألفريد دوموسيه، فتجد هذا الروح الثائر الذي يجعل شخصية الشاعر كل شيء، فخواطر الشاعر ومشاعره وإحساسه بمناظر الطبيعة واتصاله بالحياة كلها مصورة في الشعر وفي النثر أصدق تصوير... تجد كل هذه المعاني على أتمها

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/427).

(2) المصدر السابق، ج2/446-447.

عند فيكتور هيجو حين يثور للحرية ويحارب الاستعباد، وعند دوموسيه حين يتأمل في الحياة، وعند لامارتين حين يُفتن بالطبيعة"⁽¹⁾.

لقد أعجب هيكل بهؤلاء الشعراء الفرنسيين لأنه رأى في شعرهم المعاني التامة، ووجد في شخصياتهم الروح الثائرة، واكتشف في خواطريهم ومشاعرهم الصدق.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل وجد هيكل في الشعراء العرب ما وجده في هؤلاء الشعراء في القرن التاسع عشر نفسه؟

يتحدث هيكل عن الشاعر محمود سامي البارودي وعن شعره في تقديمه لديوانه فيقول: "هذا الشاب الشاعر الملهم هو الرسول الذي بعثته العناية لينفخ في الشعر العربي روحًا تنشله من الجذث الذي انطوى عليه القرون الطوال، وليمهد السبيل من بعده لأبناء مذهبه... الجديد الذي استرعى الأسماع لشعره ودعا إلى الإعجاب به هو نزوعه إلى تصوير الواقع كما هو في بساطة وسلامة وقوة، دون اعتماد على محسنات اللفظ البديعية... ودون إغراب في الخيال، إن آثار العجب لم يثر الإعجاب"⁽²⁾.

وصف هيكل البارودي بأنه رسول ملهم جاء لإنقاذ الشعر العربي وبعثه من جديد، وذكر أن الذي أعجبه في شعره تصويره للواقع، ووصف هذا التصوير بالبساطة والسلامة والقوة، وحسب له ابتعاده عن المحسنات البديعية، وعدم إغرابه في الخيال، وأخيرًا حكم عليه بأنه إذا أثار العجب لم يثر الإعجاب.

تعليقًا على ما جاء في قول هيكل الخاص بالبارودي يطرح الباحث الأسئلة التالية:

- 1- هل كان الشعر العربي ميثًا مما استدعى البارودي لأن ينفخ فيه الروح وينشله من الجذث على حد تعبير هيكل؟
- 2- هل يجوز لهيكل أن يصف البارودي بأنه ملهم ورسول؟ وما هي العناية التي بعثت البارودي لينفخ في الشعر العربي روحًا؟
- 3- هل تصوير الواقع كما هو يدعو إلى الإعجاب؟
- 4- ألا يتناقض قول هيكل عن شعر البارودي (إن آثار العجب لم يثر الإعجاب) مع ادعائه بأن البارودي رسول ملهم؟

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/313-314).

(2) المصدر السابق، ج1/38.

لو قدر لهيكل أن يجيب على هذه الأسئلة، لربما وجدناه يكرر ما قاله سابقاً لطفه حسين: "وأصدقك القول أنني ما قرأت كتب الأدب العربي في الماضي على أنه تمثل تاريخ أمة من الأمم وتكشف عن نوع حياتها وتفكيرها، فهذا الأدب العربي القديم، وهذا الأدب الجاهلي بنوع خاص لا يمثل إلا عواطف بدوية قليلة، ولا يمثل قط لوناً معيناً من ألوان الحياة الاجتماعية، لست أنكر ما في بعضه من جمال، وما لبعضه من روعة"⁽¹⁾.

ونموذج آخر للشعراء العرب في القرن التاسع عشر نذكر أميرهم الشاعر أحمد شوقي الذي تحدث عنه وعن شعره هيكل فقال: "أما الروح المتصل الذي نلمحه بل نحسه إحساساً قوياً في شعر شوقي فذاك غلبة الوصف عليه جميعاً، غلبة تجعلك تعتقد أن الشاعر يرى الحياة صورة منظورة تقع العين على كل ما فيها حتى على المشاعر والعواطف والأنغام وعلى الماضي والحاضر، وتصوره كما يصور رجل الفن بريشته وبألوانه، والألفاظ عند شوقي ومثانتها وضخامتها هي الألوان التي يبرز بها الصورة للناس"⁽²⁾، وقد أيد هذا الرأي محمد المجذوب عندما تحدث عن الوصف في شعر شوقي قائلاً: "لوصف في شعر شوقي نصيب كبير، وفي وصفه روائع حلق بها إلى آفاق بعيدة، ويعتبر من أبرع الوصافين في عصر النهضة، وبخاصة من حيث الصور المادية التي كان بها أكثر توفيقاً منه في الصور المعنوية"⁽³⁾.

يرى هيكل أن من مميزات شعر شوقي ما جاء فيه من وصف دقيق، حيث جعل من تصويره لجوانب من الحياة صوراً معبرة كأنها مشاهد حية، هذا الوصف جعل من شوقي فنانياً يرسم لوحة فنية مكتملة الأركان والألوان، فكل جزئية من هذه الصورة تعبر عن إحساس شوقي وعواطفه وتتنطق بأنغامه وإيقاعه، وتجسد في عيني ناظرها الماضي والحاضر، ويلاحظ من خلال ذلك أن هيكلًا حصر جمال شعر شوقي في الوصف ودقته، أما الأفكار والمعاني والبديع وغيرها فلم يتعرض لها.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/292).

(2) المصدر السابق، ج1/111-112.

(3) المجذوب، أدب ونقد (ص36).

ولقد صور هيكل موقفه من شوقي في ذكريات كتبها في أخبار اليوم سنة 1952م، قال فيها: "كان بيني وبين شوقي مودة دامت عشر سنوات، وكان شوقي يضيق بالنقد ولا يطيقه، لعله كان يحسبه عيباً في ذات أمير الشعراء كالعيب في الذات الملكية... عجبي لأن شوقي كان يسرع إلى مقاطعة من ينقدونه، ثم كان يسرع إلى استرضائهم بكل وسيلة مستطاعة"⁽¹⁾.

أما طه حسين فقد تحدث عن نقد هيكل لشوقي بكل وضوح فقال: "قرأت مقدمة هيكل وكنت أظن أنني سأظفر فيها بمذهب شوقي في الشعر، ولكنني لم أظفر بشيء صريح من العقيدة الشعرية لشوقي فيما كتب هيكل... إنما هو كما يقول هيكل بشيء من الدهاء، مجدد حيناً، ومقلد حيناً آخر، وهو في تجديده وتقليده لا يصدر عن عقيدة فنية واضحة... إنما الحق أن شعر شوقي لم يستطع أن يلهم هيكلًا ما استطاع أن يلهمه نثر الكُتاب الفرنسيين، وشعر الشاعر الإنجليزي"⁽²⁾.

يتوقف الباحث أمام ما سبق عند الملاحظتين التاليتين:

الأولى: أنه كانت تربط هيكل بشوقي علاقة قوية امتدت لعشر سنوات، ثم أصاب هذه العلاقة نوع من الفتور بسبب نقده لشعر شوقي، حيث إن شوقي لم يستطع تحمل هذا النقد ولا يطيقه، لأنه كان يظن أنه موجه لشخصه، وهذا في نظره يقلل من قدره وقيمة شعره، وهو الذي تربي على إمارة الشعر.

الثانية: يرى طه حسين أن هيكلًا في نقده لشعر شوقي لم يكن واضحًا، لأنه ربما خلط نقده بنوع من المجاملة له، فتراه يصفه بأنه مقلد وأخرى مجدد، لكن الذي يعتقده طه أن قناعة هيكل بشعر شوقي لم تصل إلى مستوى قناعته بالنثر الفرنسي والشعر الإنجليزي.

في ضوء ما سبق يخلص الباحث إلى أن درجة إعجاب هيكل بالأدب الغربي واستمتاعه به تفوق درجة إعجابه بالأدب العربي والاستمتاع به، وأن إعجابه بالأدب الغربي كان شاملاً على مستوى الشكل والمضمون، أما إعجابه بالأدب العربي فقد كان جزئياً، بمعنى أن ما أعجبه في شعر البارودي تصوير الواقع، وما أعجبه في شعر شوقي دقة الوصف، أما نظرة هيكل للأدب العربي فتبدو مضطربة، وحكمه عليه كان متسرّعاً، وثقته به غير كاملة، وقناعته به متواضعة.

(1) الجندي، المعارك الأدبية في مصر... (ص544).

(2) المرجع السابق، ص545.

6- الأدب الصغير والأدب الكبير:

يُعد الأدب بابًا من أبواب المعرفة الإنسانية المختلفة، فمتى أوفى هذا الأدب بحاجات الإنسان النفسية والعقلية زاد أثره، وسمت قيمته، وعلت مكانته، وعلى هذا الأساس رأى هيكل أن "الأدب عنصر أساسي من مقومات الحضارة في كل أمة من الأمم، ويقدر ما يبلغه الأدب من سمو تكون حضارة الأمة التي يظهر فيها... وهو غذاء الأمة الروحي، ومعيار سموها"⁽¹⁾.

ومما لا شك فيه أن هذا الأدب ليس على درجة واحدة من حيث المستوى الفني، فمناه الأدب الرفيع الذي يستحق كل الاحترام والتقدير، ومنه الأدب الوضيع الذي لا يستساغ ولا يهضمه ذوق، وهناك أدب ثالث يقع بين هذين الأدبين، فلا هو محمود ولا هو مذموم، بل مهمل لا يشير إليه أحد، وعلى هذا الأساس فقد قام هيكل بصفته ناقدًا إلى تقسيم الأدب إلى قسمين: أدب كبير، وأدب صغير، وليس معنى هذا أنه رفع من قدر الأدب الكبير، وحط من قيمة الأدب الصغير، ولكنه كان يقصد شيئاً آخر، وتجدر الإشارة إلى أنه ظهرت في القرن الثاني الهجري عناوين لكتب تخصصت في الأدب، كان من أبرزها كتاب (الأدب الصغير والأدب الكبير) الذي ألفه ابن المقفع، ويبدو أن فكرة الأدب الصغير والأدب الكبير التي عرضها هيكل في بعض مقالاته استمدتها من عنوان هذا الكتاب التراثي.

لقد بيّن هيكل قصده من الأدب الصغير فقال: "والأدب الصغير أقصد به -في أدب اليوم- هذا الأدب الذي يتناول جانبًا ضيقًا وصورة محدودة من صور الحياة ليقف عنده واصفًا أو محلاً... ما يجعل الأدب صغيرًا، لأنه لا يرقى إلى تقديم حاجات النفس في فيض يكفل لها سعادتها وسكينتها لتعيش راضية مرضية"⁽²⁾.

سمّى هيكل هذا النوع من الأدب أدبًا صغيرًا لأنه يتناول موضوعات صغيرة، ويتحدث عن صورة محدودة من صور الحياة، هذا النوع من الأدب انتشر في عصر هيكل حتى أصبح يمثل ظاهرة، ويرى أنه لا يقدم "إلى الجمهور ما يرضي طلعتة النفسية إلى أمل أو رجاء في الطمأنينة والسعادة، والجمهور يزداد حاجة يومًا بعد يوم للوصول إلى هذا الأمل، وأن يطمع في تحقيق هذا الرجاء"⁽³⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/370).

(2) المصدر السابق، ج2/219-220.

(3) المصدر نفسه، ج2/220.

ويرى هيكل أن الأدب الصغير لا يسد حاجة العصر الذي يعيش فيه حيث يقول: "فنحن نريد أدبًا يسد حاجتنا في العصر الذي نعيش فيه... وهذا هو السبب في رواج أدب المقالة في عصرنا الحاضر، وفي ركود سائر ألوان الأدب... كذلك السبب في رواج الأدب الصغير الذي يقصد إلى الترويح عن النفس، وإلى رياضة الذهن أكثر مما يقصد إلى تغذيته وإلى توجيه الإنسان في الحياة، وأقصد بالأدب الصغير الأقصوصة الخفيفة، وما إليه في النثر والشعر"⁽¹⁾.

لقد بيّن هيكل موقفه بوضوح من الأدب الذي سماه (الأدب الصغير) حيث حدد معالمه، وذكر أسباب رواجه، ومن ثم أصدر حكمه عليه، فقد رأى أن هذا الأدب يتناول موضوعات بسيطة لا تلبى حاجة الإنسان ولا تعبر عن ذاته وما يخلج في صدره، ولا يرتقي إلى مستوى العصر المتطور الذي يعيش فيه، وأنها موضوعات جزئية محدودة، وليست كلية مفتوحة.

كما تحدث هيكل عن ركود سائر ألوان الأدب باستثناء المقالة والأقصوصة الخفيفة وربما قصد -أيضًا- ألوانًا أخرى مثل الخاطرة والشعر الحر، هذه الأنواع كان لها حضور ورواج لسهولة الكتابة فيها وتحررها من قيود الوزن والقافية.

وذهب هيكل إلى أسباب أخرى أدت إلى رواج الأدب الصغير، وهي أن هذا الأدب كان يهدف إلى الترويح عن النفس والتسلية والترفيه، أو الرياضة العقلية، ولم يكن يقصد إلى توجيه الإنسان في الحياة وتغذيته بمعارف وعلوم أو مبادئ تفيده، يقول هيكل: "وهذا النوع الصغير من الأدب هو الذي تهافتت الجماهير عليه لا قدرًا منها له ولا إعجابًا منها به، ولكن لأنه يسد مطامعها وفهمها للمتاع و... نسيان آلامها وهمومها لتتمتع بسعادة مؤقتة زائفة"⁽²⁾.

وأخيرًا أصدر هيكل حكمه على هذا الأدب وهو أنه لا يسد حاجة الإنسان، ولا يحقق تطلعاته، ولا يلبي رغباته، ولا يفي بمتطلبات أمله ورجائه، فهو في نظره قاصر محدود وناقص.

أما النوع الثاني من الأدب أو ما يسميه هيكل بالأدب الكبير، فإنه يقصد به الأدب الإنساني الذي يجمع بين الأدب العربي والأدب الغربي والآداب الأخرى على قاعدة التعاون وينتج عن ذلك ما هو جديد في الأدب العربي، والأدب الكبير الذي يقصده هيكل هو الأدب الذي يتصف بالعالمية، ويتميز بالقدرة على التأثير في غيره من الآداب الأخرى، وهو "خروجه من نطاق اللغة التي كُتبت بها إلى أدب لغة أو آداب لغات أخرى... ومن نتائج هذه العالمية

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/291).

(2) المصدر السابق، ج2/219.

حدوث تغيير شامل في عالم الفكر والأدب⁽¹⁾. وقد وضع هيكل ماهية هذا التعاون بين هذه الآداب فقال: "تعاونه معه على خلق الأدب الإنساني الرفيع الذي يغذي النفوس بأجمل ما في الحياة من معاني الحق، وصور الخير، وألوان الجمال... أدب إنساني تبدو فيه مظاهر التضامن العالمي، ويكون مقدمة لهذا التضامن"⁽²⁾.

لقد حدد هيكل ملامح الأدب الكبير الذي يطمح للوصول إليه في يوم من الأيام، ليكون خطوة على طريق التضامن العالمي، والتعاون الإنساني بين الأمم المختلفة، سواء كانت عربية أو غربية، ومن ملامح هذا الأدب أنه يشد النفوس ويغذيها بالمعاني النبيلة المبنية على الحق، وأنه يقدم للناس الخير في جميع صورته، والجمال بكل ألوانه، هذا الأدب في نظر هيكل كامل وشامل لأنه يوجد ولا يفرق، ويجمع ولا يشقت، بمعنى أن لديه القدرة على استيعاب الجميع، وتحقيق مرادهم من الأدب.

ويتحدث هيكل عن أهمية هذا الأدب للكُتاب والأدباء والجمهور حيث رأى أنه سيزيل عنهم الحيرة والقلق متى سلكوا طريقه "ليصلوا إلى الأدب الكبير الذي يمثل النفس الإنسانية الحاضرة ويفيض عليها بما تحتاج إليه من غذاء معنوي. (ويتساءل هيكل)... متى يعود عهد الأدب الكبير وفي أي ناحية من نواحي العالم سيطلع هذا الأدب على الإنسانية؟"⁽³⁾.

إذا فالأدب الكبير هو أدب إنساني رفيع المستوى له قيمته وقدره في نفوس الجميع لأنه عالمي، فيه غذاء للأرواح، وعلاج للنفوس، آفاقه مستمرة الاتساع، وفيضه لا يقف عند حدود، هدفه خدمة جميع الخلق، ويبدو أن هيكلًا قد تأثر بـ(جيتيه الألماني) الذي سبقه في إثارة قضية الأدب العالمي فقد "تخيل أن الآداب المختلفة ستتجمع كلها في أدب واحد كبير تقوم فيه الشعوب بدور الروافد التي تصب انتاجها في هذا النهر الكبير أو الأدب العالمي"⁽⁴⁾.

وفكرة الأدب الإنساني كانت تراود الشاعر الهندي محمد إقبال دائمًا، فقد آمن بضرورة اجتماع شمل الأمة الإسلامية، وكان يرى أن الإسلام هو المصدر الأول لقوة المسلمين، والأدب عنده أدب إسلامي لأمة الإسلام كلها⁽⁵⁾.

(1) هلال، الأدب المقارن (ج2/104).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/348).

(3) المصدر السابق، ج2/221.

(4) ندا، الأدب المقارن (ص29).

(5) ينظر: المرجع السابق، ص98-102.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك فرقاً كبيراً بين الأدب العالمي وعالمية الأدب⁽¹⁾، ويرى محمد غنيمي هلال "أن فكرة الأدب العالمي في رأينا مستحيلة التحقيق ذلك أن الأدب - قبل كل شيء - استجابة للحاجات الفكرية والاجتماعية للوطن وللقوم، وموضوعه تغذية هذه الحاجات، فهي محلية موضوعية أولاً، وهي تشف حتماً عن غايات عالمية، ولكن من وراء التعبير من المسائل والآمال والآلام القومية، وما يتبع ذلك من المواقف النفسية والخواطر الذاتية... ومن وراء الموقف المحدد الذي يتوجه به الكاتب إلى جمهوره الخاص، تتراءى المعاني الإنسانية العامة"⁽²⁾.

ويرى الباحث أن تحقيق هذه الفكرة صعب للغاية، لأنه لا بد أن يسبقها خطوات وخطوات لتقريب الشعوب بعضه من بعض، وإنهاء حالة العداوة المستمرة بينها.

ثالثاً - مقاييس هيكل النقدية:

مر تطور النقد الأدبي بمراحل متعددة، فقد بدأ بمرحلة الانطلاق التي تميزت بالبساطة والعفوية وهي المرحلة الأولى حيث بدأت من العصر الجاهلي وحتى مطلع العصر العباسي، وقد سميت (مرحلة ما قبل التدوين)، أما المرحلة الثانية فامتدت من العصر العباسي إلى بداية العصر الحديث، ويمكن تسميتها (مرحلة التدوين) حيث ظهرت في هذه المرحلة ملامح النقد المنهجي عند العرب، أما المرحلة الثالثة والأخيرة فتتمثل العصرين الحديث والمعاصر، وقد انتهى أمر النقد إلى منهج واضح يقوم على أسس وقواعد.

1 - علاقة الشعر بحياة صاحبه:

تحدث هيكل عن علاقة الشعر بحياة الشاعر الذي نظمه، فرأى أن شعره يعبر عن صفحات حياته، فهو بمثابة مرآة تعكس صورته بوضوح، كما أنه يبرز مكنون نفسه، فلا يمكن بأي شكل من الأشكال الفصل بين حياة الشاعر وشعره لأنه جزء لا يتجزأ منه، يقول هيكل في ذلك: "وجوب ربط الشعر بصاحبه، وأن نعرف من نواحي حياة الشاعر وبيئته ما يجلي أمامنا الحالات النفسية التي أملت على الشاعر شعره"⁽³⁾.

رأى هيكل أن القصد من وراء الربط بين الشاعر وشعره هو معرفة الحالة النفسية له للوصول إلى الأسباب التي دفعته لنظم هذا الشعر، أو بمعنى آخر الإحاطة بالأجواء أو

(1) ينظر: هلال، الأدب المقارن (ص104-105).

(2) ينظر: المرجع السابق، ص104-105.

(3) البارودي، ديوان البارودي (ج1/6).

المناسبات أو الظروف التي قيل فيها هذا الشعر، فالشاعر كله أحاسيس، وقريحة الشاعر لا تتحرك إلا إذا جاشت هذه الأحاسيس، وهذه الأحاسيس لا تجيش ولا تثار إلا بدوافع وأسباب وهو نواحي حياة الشاعر وبيئته كما قال هيكل.

ويؤكد غ. تشر نيسفلسكي على ما ذهب إليه هيكل فيقول: "ثمة قول يعرفه النقاد الحقيقيون، يذهب إلى من يشاء أن يكتب نقدًا عليه أن لا يكتفي بجغرافية النص موضع النقد، بل يدرس بعمق الظروف الاجتماعية العامة لموطن النص، ومستوى تطوره الثقافي، والجنس الأدبي المعني ودوره في الثقافة... وعلاقة كل ذلك بالأوضاع السياسية الآنية، وطبيعة الكاتب وعقيدته الفنية والآثار التي تتركها الظروف المحيطة فيه"⁽¹⁾.

ويندرج تحت بيئة الأديب أو الشاعر أمور كثيرة منها: الظروف الاجتماعية والأوضاع السياسية، والمستوى الثقافي له، وطبيعته وعقيدته الفنية، ومن ثم يمكن بعد ذلك معرفة آثار تلك الظروف مجتمعة في نفسه.

ويعبر هيكل عن هذا المقياس النقدي بكلام موجز مختصر عندما تحدث عن صفات الكاتب فقال: "أن تدل على روح الكاتب وكيفية تقديره للأشياء التي يريد أن يكتب عنها"⁽²⁾. تبدو روح الكاتب أو الأديب فيما يكتب أو يؤلف، ويظهر من خلال ذلك كيفية تقديره لما يكتب عنه.

2- علاقة اللغة بالمضمون:

أثار هيكل في كتابه (ثورة الأدب) موضوعًا مهمًا وهو: علاقة اللغة بالأدب، خاصة الأدب العربي القديم، فقد بحث في مدى الحاجة في هذا العصر إلى اللغة من خلال هذا الأدب، حيث يقول: "نحن في حاجة إلى الوقوف على أدب الجاهلية وعلى أدب الصدر الأول للإسلام، وعلى كل أدب سبق عصرنا، لتبقى حياة اللغة متصلة على العصور، ولنجد في هذا الأدب القديم من تاريخ اللغة وأدبها، وصور تطورها ما لا غنى لنا عنه إذا أردنا أن تظل اللغة في تنقلها على الأجيال قوية رصينة"⁽³⁾.

(1) غ. تشر، علاقات الفن الجمالية بالواقع (ع136/202).

(2) هيكل، في أوقات الفراغ (ص211).

(3) هيكل، ثورة الأدب (ص35).

حدد هيكل الغاية من دراسة الأدب العربي القديم، فذكر أنها تهدف إلى معرفة تاريخ تطور اللغة والأدب معاً، والحرص على بقاء اللغة قوية من خلال اتصالها بالأجيال، لكنه تبع ذلك باستدراك السياق نفسه قائلاً: "إن كثيراً من ألفاظ هذه اللغة العربية قد أصبح بائداً أو في حكم البائد، لأن أطوار الحياة... جعلت هذه الألفاظ القديمة غير صالحة لأداء المعاني... دراسة تلك الألفاظ البائدة نفسها تفيد من جهة لغوية بحتة، وقد تفيد الأديب في دقة تحديد المعاني"⁽¹⁾.

وصف هيكل الألفاظ التي وردت في الأدب العربي القديم، ولم تُستخدم في العصر الحديث بأنها بائدة، وأنها غير صالحة لأداء المعاني، وأن دراستها تفيد اللغويين، أما الأدباء ففائدتها لهم أقل، تنحصر في مساعدتهم في دقة تحديد المعاني.

يرى الباحث أن هيكلًا أصدر حكمًا قاسيًا على هذه الألفاظ، حين وصفها بأنها بائدة، ولا تصلح لأداء أي وظيفة في الأدب، إذ ما ذنب هذه الألفاظ التي أهمل استخدامها؟! أليست هي ذاتها رصينة قوية فصيحة معبرة؟! ألم تكن العلة في عدم استخدامها وليس في ذاتها؟! إن جرأة هيكل في هذا الوصف لها يوحى بعدم صلاحيتها أو اتهامها بالتخلف وعدم التحضر، أما عن علاقتها بأداء المعاني، فالمعاني أصبحت اليوم أكثر سعة وامتدادًا، فلو سُمح لها بالتعبير عن هذه المعاني لانبعثت فيها الحياة من جديد، ولأصبح لهذه المعاني طعمٌ آخر أكثر لذة وجمالاً، لكن الميل إلى استخدام الألفاظ السهلة، وعدم المقدرة على استخدامها هو السبب في وضعها جانبًا وإهمالها.

من جهة أخرى يرى طه وادي أنّ الموضوع أو المضمون هو ما كان يهم هيكل، أما اللغة فللأديب الحرية المطلقة في اختيارها، ويُذكر أن هيكلًا كان "لا يفضل لغة في الأدب على لغة، ويرى أنّ تُترك للأديب الحرية المطلقة في اختيار اللغة التي تعبر عن تجربته... فالموضوع أو المضمون هو ما يهم هيكل، وهذا الموضوع يجب أن يوجه نحو تطوير الحياة، ودفع البشر إلى مُثل عليا، لأنه يؤمن بأن الفن للحياة"⁽²⁾.

المتأمل في رؤية هيكل النقدية يجد أنه ركز على الموضوع أكثر من تركيزه على اللغة، فقد رأى في الموضوع أو المضمون أهمية خاصة لما له من علاقة مباشرة بتطور الحياة، ودفع البشر إلى المُثل العليا، والمبادئ النبيلة، والأخلاق الحميدة، فهيكلاً كان يؤمن بأن الفن يحمل

(1) هيكل ثورة الأدب (ص37).

(2) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص74).

رسالة مهمتها خدمة الحياة، وكذلك كان يعتقد أن الأدب عنصر أساس في بناء الحضارة حيث يقول: "إن الأدب عنصر أساسي من مقومات الحياة في كل أمة من الأمم، ويقدر ما يبلغه الأدب من سمو تكون حضارة الأمة التي يظهر فيها... وهو غذاء الأمة الروحي، ومعيار سموها في الحضارة"⁽¹⁾.

صحيح أن هيكلًا قدم المضمون على اللغة من حيث الاهتمام، لكن ليس معنى هذا أنه أهمل اللغة أو أنه استهان بأدواتها، فقد رأى أنه ينبغي على الأديب "أن يلبس المعاني الجميلة أو الأفكار الدقيقة أو الصور أو النغمات أو أي شيء مما يقع تحت الحس أو يجول في النفس لباسًا يُظهر من خلاله جمالها وإبداعها، وكلما سهلت ألفاظه كانت أعذب سماعًا، وأقرب للقلب، وأحب للنفس"⁽²⁾.

فضل هيكل أن يكون التعبير عن الأفكار والمعاني بالألفاظ السهلة، كذلك ربط الصور والنغمات بالألفاظ السهلة، ومسوغه في ذلك أن سهولة الألفاظ تطرب الأسماع، وتقرب المعاني إلى القلوب، وهي محببة إلى النفوس.

لم يقف هيكل عند السهولة في اللفظ، بل طالب بالإبداع فيه كما في المعنى، ورأى أن هذا الإبداع هو ما يميز أديبًا عن آخر، وأنه يجذب إليه القراء، يقول في ذلك: "إني أعلق الأهمية الكبيرة على الكاتب، أريد أن يظهر هو بشخصه في كتابته، وإنما يكون ذلك بأن يبديع فيها شيئًا جديدًا في اللفظ أو في المعنى يميزه عن غيره، ويجتذب إليه قارئًا، حينذاك يكون صاحب أسلوب متين، وكاتبًا مقتدرًا"⁽³⁾.

3- الأسلوب:

يرى هيكل أن أسلوب الأديب يعبر عن ذاته ومكونات شخصيته، ويرسم صورة حية لطبيعته وسجيته "فأسلوب الكاتب مرآته، فالكاتب السهل الأسلوب السهل السيال الألفاظ هو الكاتب السهل موارد الفكر، والشخص الذي يعتمد في بلاغته على غموض المعاني فلا ينتقي الألفاظ الدقيقة لمعانيها الموضوعية لها إنما يدل بذلك على عدم وضوح أفكاره أمام نفسه"⁽⁴⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/370).

(2) هيكل، في أوقات الفراغ (ص201).

(3) المصدر السابق، ص219.

(4) المصدر نفسه، ص207.

يقسم هيكل الأسلوب إلى قسمين: الأول سهل سيال الألفاظ، والثاني أسلوب يتجه إلى غموض المعاني وعدم الدقة في انتقاء الألفاظ التي تعبر عنها، ويميل هيكل إلى الأسلوب الأول، فقد رأى في صاحبه التمكن في موارد الفكر لأنه يعبر عن معانيه بكل وضوح وثقة وأريحية، بينما يرى صاحب الأسلوب الثاني الذي اعتراه الغموض وعدم الدقة، أنه لم يوفق في التعبير عن ذاته وأفكاره.

أما قياس جمال الأسلوب فلهيكل رأي خاص حيث يقول: "ليس من الممكن وضع قاعدة لقياس جمال الأساليب ومثانتها، فلكل نوع من الأدب، ولكل كاتب ذي قيمة أسلوب خاص في كتابته وقوة الأسلوب وجماله يحس بهما الإنسان، ويعرف أسبابهما في شيء خاص أو رجل خاص"⁽¹⁾.

يرى هيكل أنه لا يوجد قاعدة محددة يمكن أن يقاس بها جمال الأسلوب وقوته ومثانتها، والسبب في ذلك تنوع الأجناس الأدبية بين الشعر والنثر، واختلاف أساليب التعبير، فلكل أديب أسلوبه الخاص به، لكنه يرى أنه يمكن الحكم على جمال الأسلوب وقوته من خلال تذوقه والإحساس به.

4- الأفكار والصور والعاطفة:

ومن المقاييس النقدية التي اعتمدها هيكل أن يقوم الأدب بـ"إبراز فكرة أو صورة أو عاطفة يفيض بها القلب في صيغة متسقة من اللفظ، تخاطب النفس وتصل إلى أعماقها"⁽²⁾.

يرى هيكل أن الأديب أثناء تشكيله للعمل الأدبي يؤدي أكثر من دور معاً ويركز على تركيب مكونات هذا العمل في آن واحد، ليخرج هذا النتاج متجانساً منسجماً في أبهى شكل، وأجمل صورة.

فإذا أراد الأديب أن يخاطب العقل فعليه أن يستحضر الفكرة أولاً ثم يختار لها الألفاظ المناسبة التي تعبر عنها أبلغ تعبير، بحيث إذا قلبها العقل تفاعل معها ثم قبلها، هذا الأمر يتطلب أن يكون بين الفكرة والألفاظ الدالة عليها اتساق تام، وتناغم حيوي، وعلاقة طبيعية متينة، فالفكرة تتسال حينئذ بأسلوب سيال لا غموض فيه، ولا تعثر ولا نفور في أحد ألفاظه.

(1) هيكل في أوقات الفراغ (ص 219)

(2) هيكل، ثورة الأدب (ص 56).

أما الصورة فينبغي أن يكون فيها نوع من الإبداع المميز بحيث تثير الانفعال عندما ترتسم لأول مرة في ذهن المتلقي فيصاب بالدهشة، حيث يدركها بحسه قبل أن يدركها بخياله، وهذا يُلزم الأديب أن يختار لهذه الصورة ما يناسبها من ألفاظ معبرة ذات دلالات عميقة، فالصورة الجميلة التي تستحق التقدير، هي الصورة الموحية التي خرجت كأنها مصباح منير في ظلام دامس، لها انتشار "كانتشار الظل في البكور، أو ريق الغيث قبل انهماره، فيحس القارئ بحيوية الخطاب، وحرارة التجربة"⁽¹⁾.

إن من مظاهر جمال الصورة وحيويتها أنها تشكل الحس، وتجسم المدرك، فتبعث في النفس الإثارة والانفعال لأنها لامست فيها مركز الإمتاع "فالصورة كلام مشحون شحناً قوياً يتألف عادة من عناصر محسومة: خطوط، ألوان حركة، ظلال تحمل في تضاعيفها فكرة وعاطفة"⁽²⁾.

أما التجربة الشعورية أو العاطفة فينبغي أن تتزين بالألفاظ التي تأسر القلوب في سياقها الأدبي الجميل، ويحدث ذلك عندما تلتحم العاطفة بالألفاظ، أو تندمج الألفاظ بالعاطفة، هذه العملية تشبه عملية الشحن بالطاقة التي تبعث في الألفاظ روحاً جديدة، فيصبح لها نبضها وحيويتها ومن ثم تأثيرها، يقول محمد زكي العشماوي في هذا السياق: "ليست الصور وحدها مهما بلغ جمالها... هي الشيء الوحيد الذي يميز الشاعر الصادق، وإنما تصبح الصور معياراً للعبقرية الأصلية حين تشكلها عاطفة سائدة... وحينما يضيف عليها الشاعر من روحه حياة إنسانية وفكرية"⁽³⁾.

رابعاً - نقد التراث عند هيكل:

1 - هيكل والأدب الجاهلي:

رأى هيكل أن الشعر الجاهلي متشابه في بناء قصائده ومعانيه، وأنه كان تقليدياً بعيداً عن الابتكار، وأرجع أسباب ذلك إلى أن "البيئة العربية في الجاهلية لم تكن مختلفة الألوان اختلافاً يثير من المشاعر والأحاسيس ما يدفع إلى الابتكار المتصل الذي تفيض به نفس

(1) العف، التشكيل الجمالي في الشعر الفلسطيني المعاصر (ص184).

(2) غريب، تمهيد في النقد الحديث (ص193).

(3) العشماوي، دراسات في النقد الأدبي المعاصر (ص107).

الشاعر، فلا تتكرر المعاني بعينها في قصائده، ولا تتكرر هذه المعاني في شعر الشعراء على تعاقب الأجيال⁽¹⁾.

وبشكل أكثر تفصيلاً ووضوحاً رأى هيكل أن "شعراء المعلقات يرددون المعاني المتشابهة من بكاء الأطلال وصفة الخيل والحديث عن المحبوب الذي ارتحل. ثقافتهم وبيئتهم جعلتا من هذه المعاني أسمى ما يرتفع إليه الفن في عصرهم، فأقوى الشعراء من يحسن التعبير عن هذه المعاني"⁽²⁾.

وتعليقاً ونقداً لكتاب (في الأدب الجاهلي) لطفه حسين الذي تساءل فيه قائلاً: "ليس هذا الشعر الجاهلي الذي ثبت أنه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضاراتهم، بل لا يمثل لغتهم... أليس هذا الشعر قد وُضع وضعاً، وحُمِل على أصحابه حملاً بعد الإسلام؟ أما أنا فلا أكاد أشك الآن في هذا"⁽³⁾.

كتب هيكل مقالةً بهذا الصدد ذهب فيه إلى أن "اتخاذ الأدب الجاهلي وسيلة لتفسير القرآن والحديث فحمق عجيب. أليس الأدب الجاهلي -إن ثبت- محتاجاً إلى التفسير هو الآخر"⁽⁴⁾، وقد أكد في هذه المقالة أن ثقته بالقرآن الكريم والحديث الشريف من حيث الألفاظ والمعاني أكثر من ثقته بالأدب الجاهلي الذي شكك فيه فقال آنفاً (إن ثبت)، وأعقب هذا الشك بالتصريح على أن الأدب العربي في الماضي لا يمثل تاريخ أمة من الأمم ولا يكشف عن حياتها وتفكيرها، فقد رأى أن "الأدب الجاهلي بنوع خاص لا يمثل إلا عواطف بدوية قليلة، ولا يمثل قط لوناً معيناً من ألوان الحياة الاجتماعية... كنت أشك دائماً في نسبته إلى شعراء معينين، وكنت أعتقد أن كثرته ليست لمن تنسب إليهم، وإنما هي لجماعة من الأدباء وضعوها قصصاً أو رواية. فكيف بنا نسلم بالشعر الجاهلي وننسبته لأصحابه من غير تحفظ ولا تردد، بل كيف بنا نصدق من هذا الشعر ما تدل روايته على أنه كتب كقصة أكثر مما كانت له مناسبات خاصة"⁽⁵⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/172).

(2) المصدر السابق، ج1/172-173.

(3) حسين، في الأدب الجاهلي (ص123).

(4) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/288).

(5) المصدر السابق، ج1/292.

بهذا القول آثار هيكل قضية انتحال الشعر في العصر الجاهلي، وكان أول من طرح هذا الموضوع ابن سلام الجمحي في كتابه (طبقات فحول الشعراء) حيث قال: "فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع، والأشعار، فقالوا على السنة شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت"⁽¹⁾.

أرجع ابن سلام حدوث الانتحال في الشعر الجاهلي إلى عاملين:

الأول: أن بعض القبائل العربية كانت تزيد في أشعارها، وتروي على السنة الشعراء ما لم يقوله لتظهر مآثرها ومناقبها وفضائلها.

الثاني: أنه نشأت في العصر العباسي الثاني طبقة من الرواة المحترفين، حيث اتخذوا من رواية الشعر مهنة لهم، وقد عاش أغلبهم "في البصرة والكوفة، وأهم هؤلاء الرواة: أبو عمرو بن العلاء، وحماد الراوية، وخلف الأحمر، ومحمد بن السائب الكلبى، والمفضل الضبي، وقد استنقوا رواياتهم من القبائل والأعراب، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحياناً"⁽²⁾.

لقد وضع ابن سلام منهجاً واضحاً للتعامل مع قضية الانتحال للحد من فوضى الشك في الشعر الجاهلي فقال: "ما اتفقوا عليه (أي العلماء)، فليس لأحد أن يخرج منه"⁽³⁾.

وفي العصر الحديث أثرت قضية الانتحال من جديد "وتناولها المستشرقون والعرب، ومن هؤلاء المعتدل المنصف، ومنهم المشتط المسرف المتحامل، وقامت مناقشات وكتبت ردود"⁽⁴⁾.

بعد إخضاع الشعر الجاهلي للفحص والتنقيح والتنقية، يرى الباحث أنه يمكن الحكم عليه كالتالي:

1- لا يجوز اعتبار الشعر الجاهلي كله صحيحاً، ولا يصح رفضه بالمطلق على أنه فاسد أو منتحل.

2- صحة الشعر مرتبطة بمقدار الثقة برواته.

(1) الجمحي، طبقات فحول الشعراء (ج1/46).

(2) اليعقوبي، فصول في النقد الأدبي القديم (ص53).

(3) الجمحي، طبقات فحول الشعراء (ج1/5).

(4) الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه (ص159).

أفصح هيكل عن موقفه الواضح من الشعر الجاهلي دون مواربة ولا غموض فذكر أنه لا يمثل الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي، وأن ما نُسب من شعر منه إلى بعض الشعراء مشكوك فيه، كما بين أنه متحفظ على كثير منه، ويكمل هذا الموقف بقوله: "فلم يكن أمامي من سبيل إلا أن أنصرف عن هذا الأدب العربي الذي تساورني فيه الريب إلى أدب غيره أقل منه ريباً"⁽¹⁾.

بسبب كثرة الشكوك التي كانت تساور هيكل حول الأدب العربي القديم، والريب الذي كان يسكن في نفسه تجاهه، قرر هيكل أن ينصرف عنه، وأن يجعله خلف ظهره دون أن يعطيه اهتماماً، في الوقت نفسه أراد أن يسد هذا الفراغ فوضع لنفسه بديلاً عنه، وذلك باتخاذ أدب آخر يتميز بقلّة الشك فيه.

ألم يكن الأجدر والأولى بهيكل أن يتريث قبل أن يقف هذا الموقف، لعله يجد آراء أخرى أكثر وجاهة وعمقاً، يقول ناصر الدين الأسد: "إن في هذا الشعر الجاهلي وفرة من القيم الفنية الأصيلة لم يحظ بها كثير من الشعر العربي بعده: ففيه من خصب الشعور، ودقة الحس، وصدق الفن، وصفاء التعبير، وأصالة الطبع، وقوة الحياة، ما يجعله أسمى تعبيراً عن نفس العربي، وأصدق مصدراً لدراسة حياته وحياة قومه من حوله"⁽²⁾.

إزاء هذا الموقف السلبي الذي سجله هيكل من الأدب العربي في الجاهلية، يقف الباحث مبدئياً دهشته وعجبه من جرأة هيكل القاسية والشديدة على هذا الأدب الذي يمثل حقبة تاريخية عاشها العرب قبل الإسلام، وكانت تمهيداً لظهور الإسلام، هذا الإنكار لهذه الحقبة يعني إنكاراً لكل ما يمت لها بصلة من حوادث ووقائع وعادات وتقاليد ومخرجات وما حملت من تراث، وهذا الموقف يسيء إلى العروبة، لأن فيه إنكار لوجودها وأثرها، أو أنه على الأقل يشوه صورتها، ويقال من قدرها ولكثير من النقاد في هذه المسألة مواقف مخالفة ومغايرة، فمنهم من رأى "أن هناك شعراً منتحلاً كثيراً لا سبيل إلى الثقة به، ولكن بجانبه شعر صحيح رواه الثقات وعلى رأسهم المفضل الضبي والأصمعي، وهو الذي نستند عليه في دراسة الأدب الجاهلي"⁽³⁾. والسؤال الذي يطرح نفسه: ألم يلعب الشعر دوراً مهماً في حياة العرب في العصر الجاهلي؟ لقد كان للشاعر في قبيلته مكانة خاصة لأنه يدافع وينافح عنها، ويعدد مناقبها، ويذكر مفاخرها، ولأهمية هذا الدور "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/293).

(2) الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية (ص6).

(3) الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه (ص448).

الأطعمة... لأنه حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم⁽¹⁾، ثم ألم يتفق أعلام التاريخ والأدب على أن الشعر ديوان العرب يسجل تاريخهم، ويوثق آثارهم، فقد "كان الشعر ديوان فضائل العرب، وسجل مفاخرها، ووسيلة تسجيل مآثرها"⁽²⁾.

أما انصراف هيكل عن هذا الأدب إلى غيره، فيعني أنه خلع ثوب العروبة ولبس ثوبًا آخر، أو بمعنى آخر أنه تخلى عن الأدب العربي، وتبنى الأدب الغربي الذي تأثر به، وهذا يدل على أن هيكلًا كان يميل وربما يفضل الأدب الغربي وخاصة الفرنسي منه على الأدب العربي.

أما عن أثر هذا الأدب فيما بعده، فيقول هيكل: "لقد ظل أثر الأدب الجاهلي قويًا في الشعر العربي إلى عصرنا الحاضر، وظل قويًا في البيئات التي تختلف أشد الاختلاف عن بيئة شبه الجزيرة"⁽³⁾.

يعترف هيكل بقوة الأدب الجاهلي، حتى أن هذه القوة امتد أثرها إلى عصره أي إلى أكثر من ألف وخمسمائة سنة، بل وذهب إلى أن هذا الأثر تجاوز بيئة الجزيرة العربية التي قيل فيها إلى بيئات تختلف عنها، وهنا يتساءل الباحث: لماذا التشكيك في الأدب الجاهلي؟ ولو كان هذا التشكيك في محله، فلماذا لم تلفظه وترفضه الأجيال التي عشقت الأدب؟ أوليس الأجدر بأدب مُشكك فيه أن يندثر ويتلاشى، وينسى مع امتداد الزمن؟ ثم هل هذه الأجيال المتعاقبة التي أنجبت الأعلام الأفاضل والأدباء النجباء التي حفظته ودرسته ووعته كانت على خطأ، وجانبها الصواب أو غرر بها؟!.

إنه من المتعارف عليه بين الناس، ومن خلال تجاربهم في الحياة أن الأشياء الضعيفة التي لا أصل لها ولا قيمة، تموت وتذهب أدراج الرياح، أما التي كُتبت لها الخلود وما زال أثرها حيًا، فإنه لا بد لها أن تتميز بالمصداقية حتى ولو شابها بشكل نسبي بعض الشوائب، لكن الحكم المطلق على الأدب الجاهلي بإدخاله في دائرة الشك والريب، ففيه تجنيًا واعتداءً عليه وعلى التراث العربي.

(1) ابن رشيقي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه (65/1).

(2) سامي، الإسلام والشعر (ص8).

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/173).

2- هيكل والأدب الإسلامي:

رأى هيكل أن الإسلام جاء بحياة روحية جديدة أثرت في النفس العربية بالغ الأثر، أما على صعيد الأدب فقد كان له رأي آخر حيث قال: "لم تلهم الحياة الجديدة الشعر العربي، ولم يظهر لها فيه أثر قوي واضح، أنت تلمس هذا الأمر في العهد الأول، وتلمسه إلى أن بدأت النزعات الصوفية تنتقل بعض الشعراء من جو البيئة الطبيعية إلى جو وجداني يكاد الاتصال بينه وبين الطبيعة ينقطع"⁽¹⁾.

هذا الرأي لم ينفرد به هيكل وحده، بل شاركه فيه آخرون، مثل ابن خلدون الذي قال: "انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوءة والوحي، وما أدهشهم في أسلوب القرآن ونظمه"⁽²⁾. ويوضح عبد القادر القط هذا الرأي قائلاً: "هناك اعتقاد سائد -يرغم محاولات كثير من الدارسين دحضه- أن الشعر قد خبت جذوته، وكسدت سوقه بعد الإسلام، فقل عدد الشعراء، وتضاءل إنتاجهم، وعزف الناس عن ذلك الفن الذي طالما استأثر باهتمامهم وحبهم أمداً طويلاً قبل الإسلام"⁽³⁾.

ربما اعتمد هذا الرأي على ما جاء في طبقات فحول الشعراء، حيث ذكر ابن سلام أنه بعد أن "جاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب (يقصد الشعر)، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته"⁽⁴⁾.

ويرد محمد عبد القادر أحمد على ما ذهب إليه ابن سلام بقوله: أنه "مخالف للواقع والموجود في كتب الأدب والتاريخ والسير والمغازي، فهذه الكتب تحمل بين طياتها شعراً كثيراً قيل في صدر الإسلام، وكان الجهاد داعية لقول الشعر بين المسلمين"⁽⁵⁾.

ولمناقشة موقف هيكل من الأدب الإسلامي ومن وافقه في رأيه هذا، يرى الباحث أن نظم الشعر لم يتوقف لحظة خلال العصر الإسلامي، وإلا لوجدنا شاعري الرسول ﷺ: حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة قد توقفا عن نظم الشعر، ثم ألم يكن المسلمون بحاجة إلى هذا الشعر الذي يزود عن حياض المسلمين إلى جانب السيف؟ أم القول بأن انشغال المسلمين بأمر الجهاد

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/173).

(2) ابن خلدون، المقدمة (ص360).

(3) القط، في الشعر الإسلامي والأموي (ص9).

(4) الجمحي، طبقات فحول الشعراء (ص22).

(5) أحمد، دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي (ص34).

هو الذي أبعدهم عن قول الشعر فهو قول يحتاج إلى مراجعته؛ لأن معظم القصائد التي قيلت في عهد الإسلام الأول تناولت الغزوات والفتوحات الإسلامية، ثم كيف أن الرسول ﷺ قام بنفسه عندما سمع الشاعر كعب بن زهير وهو ينشد (بانئت سعاد) بإبداء إعجابه بها فخلع بردته وأهداها له تشجيعاً له وتعزيزاً له وتقديرًا لشعره.

ثم ألم يقل الرسول ﷺ لحسان بن ثابت: "اهجهم (أي الكفار) وروح القدس معك"⁽¹⁾، وكذلك قوله: "إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحر"⁽²⁾.

كذلك يذهب الباحث إلى تقسيم الشعر الذي قيل في صدر الإسلام إلى قسمين: قسم توافق مع قيم الإسلام وانسجم مع مبادئه، وهذا ما أقره المسلمون وتناقلوه وحاولوا تخليده، وقسم آخر خالف عقيدة الإسلام وأخلاقه فرفضوه ولم يعيئوا به وأهملوه، وربما أدى ذلك إلى قلة القصائد الشعرية التي وصلت إلينا، أما بعد عهد النبوة فلقد تواصلت مسيرة الشعر ولم تتوقف؛ وإلا لما وصلت إلينا الأصمعيات والمفضليات وشعر النقائض.

3- هيكل والشاعر المتنبي:

كتب هيكل مقالةً بعنوان (طه حسين مع المتنبي) على إثر تأليف طه حسين كتابًا من سبعمائة صفحة تناول فيها حياة المتنبي وشعره بالتحليل والتعليق، ومما ذكره في هذه المقالة⁽³⁾: أن شعر المتنبي يصور حياته وحياة عصره أقوى تصوير وأبدعه، حيث تنقل المتنبي في بيئات مختلفة، طاف ببلاد متعددة، عرف الملوك والأمراء ومدحهم، ويتساءل هيكل: كيف لا تثير قصته العواطف وهي تصف عصرًا من حياة المسلمين في مصر والشام والعراق وفارس ما يزال له أعمق الأثر في حياة هذه البلاد جميعًا؟.

وقد ذكر أن نشأة المتنبي اتجهت به إلى الثورة، وكانت دعامة الثورة يومئذ الشعر، وبعد أن وقف هيكل عند كثير من محطات المتنبي المهمة في حياته، أبدى إعجابه بكتاب طه حسين، فوصفه بالساحر في أسلوبه وقوة عرضه، وأنه لا نظير له في الأدب العربي من كتب تناولت المتنبي وشعره.

(1) القرشي، جمهرة أشعار العرب (ص35).

(2) الأسدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه (84/1).

(3) ينظر: هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/309).

الناظر في هذه المقالة والمتأمل فيها يجد أن هيكلًا أدلى فيها بمجموعة من المعلومات المهمة والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- بعد مرور ألف سنة على نشأة المتنبّي ملأ العالم اسمه، وشغل الناس شعره، حتى تحدث المستشرقون عنه في لندن وباريس وجامعات أوروبا، والجامعات المصرية، وأن طه حسين درس شعر المتنبّي مع طلابه مدة عام، وعندما سافر إلى أوروبا في الصيف ألف هذا الكتاب في شهر ونصف.

2- وصف هيكل العصر الذي ترعرع فيه المتنبّي فقال: "نشأ في عصر كانت الحياة العراقية خاصة والحياة الإسلامية عامة تنحو إلى فساد في السياسة، وفساد في الاقتصاد، وركي في العقل، فقد انحل سلطان الخلفاء من بني العباس وخضعوا لعبث الجند وقادتهم ولسلطان الخدم والنساء... فسدت شئون المال وفسد الاقتصاد، ولذلك تغلغت في النفوس عوامل الثورة على هذا الفساد... وأنشأت الثورة الأدب الناثر... قامت ثورة البابكية أو الخرمية⁽¹⁾ في أول القرن الثالث، وقامت ثورة الزنج⁽²⁾ في أواسط هذا القرن، وثورة القرامطة⁽³⁾ في أواخره، وكان مقصد هذه الثورات هو تغيير الحياة الاقتصادية، وتقوية الشخصية الفردية وتحريرها"⁽⁴⁾ ويعلق هيكل على هذه الثورات ويربطها بثورات الأمم المستقلة اليوم التي تقوم على أساس الحرية والاستقلال والعدل في توزيع الثروة، ثم يعود مرة أخرى للحديث عن الثورة أيام المتنبّي فيقول: "كانت السنة والشيعية أساس الثورة، ومن منطلق السنة أو من منطلق الشيعة كانت الثورة تستمد حياتها... كانت الشيعة هي الثائرة، وكان القرامطة عمادها، وكانت القرمطية مذهبها..."⁽⁵⁾.

3- رسم هيكل صورة للمتنبّي توحى بسوء طبيعته وفحش طبعه، وأرجع ذلك "إلى الحالات النفسية التي مر بها الشاعر، فالمتنبّي لم يكن يتأثر بالطبيعة أو يشغف بجمالها، ولم يكن الحب يأخذ بشغاف قلبه، بل لعل الحب لم يمس هذا القلب الطموح الذي لم يعرف صاحبه

(1) اندلعت في أذربيجان، واستمرت عشرين عاماً حتى قضى عليها المعتصم وقواده.

(2) للاطلاع على واقع ثورة الزنج ينظر: ضيف، العصر العباسي الثاني (ص 26-33).

(3) للاطلاع على ثورة القرامطة ينظر: المرجع السابق، ص 33-42.

(4) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/312).

(5) المصدر السابق، ج1/313.

غير نفسه، ولم يفكر إلا في مطعمه، ولم يمدح ولم يهجو ولم يقل الحكمة متأثراً بشيء غير أثرته البالغة وأنانيته المفرطة⁽¹⁾.

4- يذكر هيكل أن المتنبّي قال الشعر وهو دون العاشرة، وعن موقف طه حسين من شعر المتنبّي عندما أقدم على تحليله يقول هيكل: "يقف موقف الإعجاب أمام بعضه، ويبيدي تقززه من سخف البعض، ويرد هذا وذاك دائماً إلى الحالات النفسية التي مر بها الشاعر"⁽²⁾.

وحسب تقسيم طه حسين لشعر المتنبّي ورؤية هيكل له، فإن الجزل والقيم من شعر المتنبّي لم يرتفع إلى هذه المنزلة إلا بعد سنين طويلة وجهد شاق، وأن سبب تجويد هذا الشعر ووصوله لهذه المكانة؛ "لأن أثره المتنبّي ومطامعه كانت أقوى إثارة لنفسه من الحب للمحب، والحماسة للشجاع، والثكل للثاكل"⁽³⁾.

وعن فترة أو زمن سمو شعر المتنبّي يتحدث هيكل فيقول: "قضى في كنف سيف الدولة تسعة أعوام خُلد المتنبّي بشعره ذكرها، وذكر سيف الدولة معها، وفي هذه الأعوام التسعة سما المتنبّي بشعره إلى منزلة البقاء وقربه من الخالدين"⁽⁴⁾.

بعد عرض ما جاء في مقالة هيكل من أفكار، نجد أن منها ما كان يحسب لصالح المتنبّي ومنها ما كان يدينه، ويعتقد الباحث أن هيكلًا عندما تناول المتنبّي بهذه المقالة حاول أن يكون موضوعيًا قدر المستطاع، لكنه في الوقت نفسه لم يخرج عن الدائرة التي رسمها طه حسين للمتنبّي فقد وافقه في جميع ما ذهب إليه تقريبًا، وقد اعترف هيكل أنه اعتمد في مقالته على مرجع واحد فقط وهو كتاب طه حسين.

لم يلمس الباحث من خلال تحليله لمقالة هيكل أمورًا فنية أو أدبية أو نقدية ملفتة للانتباه، وإنما كان تركيز هيكل على السرد التاريخي لرحلات المتنبّي المتعددة، فقد تنقل بين الشام ومصر والعراق وفارس، وكان همه في ذلك تصوير الحياة العامة في عصره، ويلاحظ أن هيكلًا قد وصف هذا العصر بالفساد الاقتصادي والسياسي والإداري، بالمقابل لم يذكر أي محاسن

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/314).

(2) المصدر السابق، ج1/314.

(3) المصدر نفسه، ج1/314.

(4) المصدر نفسه، ج1/316.

لهذا العصر رغم أنه جزء من العصر العباسي الذي ازدهرت فيه الحياة على جميع الصعد الثقافية والأدبية والعلمية.

ركز هيكل في تناوله لهذا العصر على الثورات المتعددة القرمطية والزنج والبابكية والخرمية، ولم يقف عند إحداها، ولم يتحدث عن أهدافها فقد باركها جميعاً، وبهذا الصدد يعترف هيكل في مقالة أخرى له بعنوان (سر الاحتفال بالمتنبي)، بأنه "لم يكن عصرًا اضطربت فيه أمور البلاد العربية اضطرابًا يكاد يشبه ما هو حادث اليوم في عصر المتنبي، فلا غرو إن استفز شعر المتنبي همة الشباب، ولا عجب أن سارع الشباب الذي يتكلم العربية للاحتفاء بذكرى المتنبي بمناسبة انقضاء ألف عام على وفاته"⁽¹⁾.

إن مبرر هيكل لاحتفاء الشباب بذكرى المتنبي بعد مرور ألف عام على وفاته غير مقبول إذ ذكر أن عصرهم يشبه عصر المتنبي في الاضطراب، وهو بذلك أعطى لهذه الثورات الحق في الاشتعال والاضطراب، وهنا يقف الباحث مستكراً هذه المباركة، ومستهجئاً هذا التأييد لهذه الثورات الهدامة التي هبت في وجه الخلافة الإسلامية، والسؤال الذي يعبر عن الدهشة والعجب: كيف نظر هيكل إلى هذه الثورات نظرة إيجابية وهي تعادي العروبة والإسلام؟ لقد وصف شوقي ضيف هذه الثورات بأنها مجرد "تيار شعوبي بغويض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقل عنه عنفاً... محاولة لهدم الإسلام والعروبة جميعاً"⁽²⁾.

ومما لاحظته الباحث أن هيكلًا لم يُبدِ إعجابه بشعر المتنبي فقد فضل أشعاراً أخرى عليه لشعراء عرب عاشوا في عصره، فقال: "فليس ريب في أنّ من هؤلاء الشعراء من يصارع المتنبي قوة ومن يفوقه رقة، ومن يعلو فنه على فن المتنبي علواً كبيراً، وكثيرون من الضليعين في الشعر وفنونه يفضلون أبا نواس على المتنبي في سمو خياله، ورقة تعبيره، وحلاوة أسلوبه، وعذوبته الموسيقية في شعره، ومن الناس من يفضل ابن الرومي على المتنبي"⁽³⁾.

نظر هيكل إلى شعر المتنبي من زاوية واحدة وهي أنه عبر في شعره عن معاني لامست واقع عصره، وتفاعلت مع الطموحات والاحتياجات التي يصبو إليها شباب الأمة العربية، هذه المعاني تمثلت في فقد الحرية والتطلع إلى الاستقلال، ومنها ما اتصل بالعاطفة اتصالاً مباشراً مثل الاعتزاز بالنفس والتمسك بالكرامة الإنسانية لأنهما الدافع للإنسان نحو الحرية والاستقلال.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/287).

(2) ضيف، العصر العباسي الثاني (ص10).

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/286).

كذلك فإن هيكلًا نظر إلى المنتبّي نظرة تثير نوعًا من الجدل، فمرة رآه ثائرًا لا يرضى الضيم أو الظلم، فهو نصير قوي لثورة القرامطة، بل هو من دعائها، هذه الصورة التي رسمها للمنتبّي توحى بقوته وبسالته، بالمقابل وفي بعض أجزاء المقالة صورته كأنه مريض نفسي أو أنه متبلد الإحساس، أو أنه أناني لا يسعى إلا لتحقيق ذاته وتلبية رغباته، وإشباع نهمه، والسؤال الذي يطرح نفسه، وبيعت الحيرة: كيف وصل المنتبّي بشعره إلى قلوب الأجيال فحفظته ووعته؟!، وكيف أصبح له هذه المكانة في نفوسهم؟!، لو كان ما قاله هيكل عن المنتبّي دقيقًا، لما وجدنا هذه الحرارة في شعره، ولما وجدنا الحكمة السيالة في نظمه، ثم أن هيكلًا ذهب بعيدًا في تفسيره وتحليله عندما اعترف بجودة شعر المنتبّي، وعزا ذلك إلى طمعه وأنانيته، أليس هناك تناقض بين الطمع والأنانية من جهة، والإجادة والإتقان من جهة أخرى؟!، أليس من المنطق أن الإجادة في الشعر على مستوى الشكل والمضمون تحتاج إلى نفس مستقرة حتى تبدع، وإلى تعزيز مادي ومعنوي حتى تتطلق وترتقي؟!.

رأى هيكل أن المنتبّي حاول أن يثبت ذاته من خلال إجادته للشعر، وأنه اتخذه وسيلة للتقرب من السلطان حين مدحه، وأنه كان يتطلع لنيل ثقة السلطان به ورضاه عنه، ومن ثم تحقيق حلمه الذي يطمح للوصول إليه وهو تقليده منصبًا رفيعًا، أو تكليفه بالإمارة.

ومما يلفت الانتباه في مقالة هيكل أنه ساوى بين السنة والشيعة والعلويين، ولم يتطرق إلى أيّهم يميل، وهذا ربما يدل على ضحالة ثقافته الدينية، أو عدم اهتمامه بالقيم الإسلامية، أو ضبابية في فكره تجعله لا يستطع التفريق بينهم من جهة الاعتقاد.

ويبقى السؤال الذي هو بحاجة إلى إجابة وهو: لماذا اهتم المستشرقون بشعر المنتبّي خاصة دون غيره من الشعراء بعد مرور ألف عام على وفاته؟.

4- هيكل وابن خلدون:

يذكر هيكل في مقالة له بعنوان (ابن خلدون حياته وتراثه الفكري)⁽¹⁾ أنه بمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولد ابن خلدون أقيمت الحفلات احتفاءً به، وبيّن هيكل أن الغرب هم من اكتشفوا ابن خلدون فعكفوا منذ أكثر من قرن على دراسة آثاره ونقدها وتحليلها، فقد اعتبروه "من أعظم علماء فلسفة التاريخ، ظلت أعماله مهملّة من العرب حتى ترجمها المستشرقون الغربيون في أوائل القرن التاسع عشر"⁽²⁾.

(1) ينظر: هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/367).

(2) المحامي، ابن خلدون العبقري الذي ظلمه العرب وأنصفه الغربيون (ص9).

تحدث هيكل عن شخصية ابن خلدون فذكر أنه "ينتسب إلى أصل عربي نزح مع (الغزاة) الذين فتحوا الأندلس فأقاموا بها زمناً أيام ازدهار الحضارة الإسلامية في شبه الجزيرة الأوروبية"⁽¹⁾، والباحث هنا يسجل تحفظه واعتراضه على وصف هيكل المسلمين الفاتحين للأندلس (بالغزاة)، ويتساءل: ألم يكن لهؤلاء المسلمين الفضل في دخول الإسلام تلك البلاد؟! ثم كيف ينكر جهودهم في بناء حضارة إسلامية فيها ما زالت تتبض بالحياة إلى يومنا هذا، رغم مرور مئات السنين عليها!!.

وتطرق هيكل كذلك إلى دور أسرته المؤثر في تنشئته، حيث رتبته على حب "المغامرة في سبيل السياسة، وكان رجلاً ذكياً حاد الذكاء معتدّاً بنفسه أشد الاعتداد"⁽²⁾، ربما قصد هيكل من ذلك أن ابن خلدون تميز في بناء شخصيته فقد كان يميل إلى عالم السياسة، وهذا ما ورثه عن أسرته التي كان الكثير من أفرادها يتقلدون المناصب الرفيعة، والذي رسّخ هذا الميل عنده ذكاؤه الحاد والثقة بالنفس، أما وصف هيكل له بأنه كان معتدّاً بنفسه أشد الاعتداد، فإنه يوحي بالغرور والتعالي، وتعد هذه صفة سلبية في شخصيته.

ولقد رسم هيكل صورة للعصر الذي عاش فيه ابن خلدون فقال: "العصر الذي عاش فيه، ومن حياة البيئة الإسلامية في عصور الانحطاط تلك، وبخاصة في بلاد المغرب وفي بلاد الأندلس وبمقدار ما في مصر... ونشأ في مهاد انحطاط الأندلس ودول المغرب، وفي مثل هذه العهود تتحل وحدة الأمم، وتنقسم دولاً صغيرة وولايات أصغر من الدول"⁽³⁾.

كان بإمكان هيكل أن يكون أكثر دقة في هذا الوصف، فلو وصفه بالضعف جراء الاختلاف، أو حتى التمزق لكان أفضل من وصفه بالانحطاط؛ فل هذه الكلمة مدلول سلبي، مقيت، خاصة إذا أضيف إليها ما يوضحها، وربما يذهب العقل عندما يقف عند هذه الكلمة إلى الفساد الأخلاقي والقيمي والحضاري والأدبي... الخ.

ويمضي هيكل في وصف عصر ابن خلدون والمجتمع الذي عاش فيه بشيء من التفصيل فيقول: "أفضنا هنا في عرض حياة ابن خلدون ليرى القارئ صورة من صور المجتمع الإسلامي في عصره، هذا المجتمع الذي هوى إلى درك الانحلال حتى أصبحت حياته كلها

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/370).

(2) ينظر: المصدر السابق، ج1/371.

(3) المصدر نفسه، ج1/370.

اضطرابًا وثورات، وقيام سلطان في جو من المكائد والدسائس، كيف يمكن في مجتمع منحل كهذا المجتمع أن يصل ابن خلدون إلى الذروة السامية التي وصل إليها من تفكيره؟⁽¹⁾.

وبعد وصف هيكل عصر ابن خلدون بالانحطاط، يصف المجتمع الذي عاش فيه بالانحلال رغم أنه أطلق عليه في الوقت نفسه أنه مجتمع إسلامي، وقد عزا هذا الوصف مما يحدث فيه من اضطراب وثورات ومكائد ودسائس، ثم يطلق هيكل تعجبه من ابن خلدون كيف وصل إلى ما وصل إليه من نبغ ونضج في التفكير في ظل مجتمع هذه حالته وتلك صفاته.

يرى الباحث أن هيكلًا قد أسرف كثيرًا عندما وصف المجتمع الذي عاش فيه ابن خلدون بهذه الصفات، والسؤال: هل عاش ابن خلدون بمعزل عن هذا المجتمع؟ لماذا لم يؤثر هذا المجتمع فيه؟ أليس في هذا التصوير لمجتمع ابن خلدون تشويه لحياة الأمة الإسلامية وإنكار لآثارها الإيجابية في تلك البلاد؟!، أم أن هيكلًا دار في فلك الغرب عندما قام بهذا التصوير ولم يرجع إلى مصادر عربية يستقي منها معلوماته، ويتأكد من دقتها؟.

وتحدث هيكل في هذه المقالة -أيضًا- عن مؤلفات ابن خلدون وأهميتها كجزء لا يتجزأ من التراث العربي فقال: "والواقع أن مقدمة ابن خلدون أثر علمي بالمعنى المعروف للبحث العلمي في هذا العصر الحديث، كبير الأثر جليل القدر"⁽²⁾، ويذكر أنه "كتب مؤلفه في التاريخ بعد أن مهد له بالمقدمة التي ما تزال حتى اليوم مفخرة من مفاخر التفكير الإسلامي"⁽³⁾.

ويوضح هيكل أسباب هذه المفخرة فيقول: "وأنت ترى المبادئ الاجتماعية والفلسفية المقررة اليوم اعتمادًا على مبادئ العلم الواقعي هي هي ما قرره ابن خلدون في مقدمته... وما إلى ذلك مما تقرره علوم الاجتماع والسياسة اليوم مشروع في مقدمة ابن خلدون مطبق عمليًا في سائر أجزاء كتاب العبر على نحو علمي تفخر به طريقة ديكارت، وتفخر به السياسة الواقعية"⁽⁴⁾.

هذه المبادئ سواء كانت اجتماعية أو فلسفية أو سياسية، والتي كان لابن خلدون فضل سبق في وضعها كنظريات علمية تستفيد منها الأجيال العربية أو غير عربية، هو ما دعا الغرب للاهتمام بهذه المؤلفات وإعطائها أولوية في الدراسة والتحليل، وفي هذا السياق يتحدث

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/3759).

(2) المصدر السابق، ج1/374-375.

(3) المصدر نفسه، ج1/373.

(4) المصدر نفسه، ج1/376.

هيكل فيذكر أنه كان "اهتمام الرأي العلمي الغربي بالمؤلف والفيلسوف العربي الذي ظهر في عالم التفكير العلمي قبل أن يعرف الغرب التفكير العلمي بقرون... وهؤلاء درسوا ابن خلدون من الناحية الفلسفية ومن الناحية الاجتماعية، وذهب أكثرهم إلى أن تاريخ ابن خلدون مادة للتفكير الاجتماعي الذي وضع الفيلسوف الإسلامي أساسه في مقدمته"⁽¹⁾.

وخلاصة القول فيما سبق أن هيكلًا وقع في بعض المثالب حينما أساء في وصفه لعصر ومجتمع وأهل زمان ابن خلدون، ويرى الباحث أنه لم يوفق في ذلك، إذ كيف يليق بكاتب عربي يحترم تاريخ أمته، وبمسلم يفخر بإنجازات إخوانه المسلمين أن يقف هذا الموقف السلبي، لكن بالمقابل حاول هيكل أن ينصف ابن خلدون من حيث جهده في التأليف، وسبقه في وضع المبادئ والنظريات الاجتماعية، ويؤخذ عليه -أيضًا- أنه لم يتناول ذلك العصر بشكل موضوعي فيذكر إيجابياته كما ذكر سلبياته، وربما يعود هذا الخطأ إلى أنه استقى معلوماته من مصادر لا تلتزم الدقة العلمية أو أنها معادية للتاريخ والدين الإسلامي.

خامسًا - هيكل بين النقد العربي والنقد الغربي:

في مقالة لهيكل بعنوان (كيف عرفت جيته) تحدث فيها عن اتجاه قراءته وهو في مقتبل عمره حيث قال: "لم أعن أول شبابي بدراسة الأدب الغربي، وإني قطعت معظم أوقات فراغي أثناء دراسة الحقوق في قراءة امرئ القيس وطرفة والمنتبي وأبي تمام، وإنني قرأت حظًا كبيرًا من الأغاني كما قرأت الأمالي والكامل والبيان والتبيين وغير ذلك من كتب"⁽²⁾.

عاش هيكل منذ نشأته في البيئة العربية، فتأثر بها وثقافتها، ثم انتقل إلى فرنسا للدراسة لكنه رغم ذلك لم يستغن عن ثقافته الأولى، فظل متمسكًا بها فترة من الزمن إلى أن استطاع أن يتفاعل مع البيئة الجديدة، ويتأثر بثقافتها، وفي ذلك يقول هيكل: "تفكير الكاتب وأسلوبه وطريقة تصويره للحياة تتأثر إلى حد كبير بحياته هو ووراثته وتربيته الأولى، وبالبيئة التي نشأ فيها، وبحياة قومه في نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية"⁽³⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/374).

(2) المصدر السابق، ج1/191.

(3) المصدر نفسه، ج2/336.

ويتحدث هيكل عن دور الأدب في الحياة، حيث يرى أنه ينبغي على الساسة تشجيعه حتى يحدث التغيير المنشود، فلو وجد الكتاب ما يشجعهم على التماس الأدب الكبير واقتحام أبوابه، فإن الأدب يومئذ يسد حاجات الأمة في مصر وفي الشرق، كما يسد الأدب في الغرب حاجات الأمم التي يعيش فيها⁽¹⁾.

للأدب دور مهم وعظيم - كما يرى هيكل - فهو لم يأت على سبيل الترفيه أو إثارة العاطفة، وإنما يحمل رسالة عملية لسد الحاجات التي تحتاجها الأمم سواء في الشرق أو الغرب، وبصورة أكثر وضوحاً يرى هيكل أن "الأدب هو الذي يحل المشاكل جميعاً، كما أنه هو الذي يخلقها، وحله لها هو التمهيد الأول والضروري إذا أُريد للشعوب المختلفة أن تسير على هدى، وفي نظام يكفل للجماعة نوعاً من الطمأنينة، ويكفل لها اطراد السير في سبيل التقدم"⁽²⁾.

وإذا كان للأدب دور في حل المشاكل وسد الحاجات، فإن هذا الأمر لا يأتي تلقائياً أو اعتباطياً، وإنما يأتي بعد جهد وبحث ونقد وتحليل وتعمق في فهم الحياة. ووفق هذه الرؤية للأدب والنقد، صرح هيكل بكل ثقة - على حد قوله - قائلاً: "أننا كلما تعمقنا في بحوثنا وتناولنا بالنقد والتحليل كل ما يعرض لأذهاننا من مسائل أدبية أو فلسفية ازدننا فهماً للحياة، وتكشفت لنا في الوجود نواح جديدة..! أوليس الأدب إرث الإنسانية وغذاءها، وهو الذي يكشف لنا عن أسرارها؟ أوليس هو - أيضاً - عصارة الحياة وخلاصتها ومرآتها؟!"⁽³⁾.

تتبع أهمية الأدب والنقد - كما يرى هيكل - من خلال دورهما المهم الذي يقوم به في رسم صورة جديدة للحياة، وفهم أعمق لها، وكشف أسرار الوجود، والبحث عن معاني الإنسانية. هذا الدور يتمثل في التالي:

أ - أنهما يؤسسان لنظام واضح ثابت يقود إلى هداية الشعوب وتنويرها، ويعمل على انتشار السلام بينها.

ب - يمهدان لعملية التغيير والإصلاح وإزالة الفساد.

ت - يؤثران في النفوس لأنهما يزرعان فيها الأمل والهمة، ويبثان فيها الحيوية والنشاط.

ث - يستثيران الجهات المسؤولة للعمل على سد الحاجات، وتوفير المستلزمات.

(1) ينظر: هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/295).

(2) المصدر السابق، ج2/294.

(3) المصدر نفسه، ج2/427.

ج- يوجهان العقول لإيجاد الحلول للمشاكل، وتجاوز التحديات، ومن ثم السير نحو النهضة والتقدم.

1- نظرة هيكل النقدية إلى الأدب العربي الحديث:

تحدث هيكل عن تاريخ انطلاق الأدب العربي الحديث فرأى أنه "كان قد اندثر أو كاد إلى بداية النصف الأخير من القرن التاسع عشر، ثم بدأت نهضته في مصر وفي لبنان، ثم اطرقت هذه النهضة في الشعر والنثر، وهي لا تزال مطردة إلى وقتنا الحاضر في تطور قوي سريع"⁽¹⁾.

هذا التطور هو الذي بعث الروح من جديد في الأدب العربي القديم شعراً ونثراً، بل وجه الأدباء إلى تقليده أو النظم على منواله، واعتماده كأساس للانطلاق نحو تأليف الشعر والإبداع فيه، هذا التقليد لا يسبب أي حرج للأدباء الناشئين من وجهة نظر هيكل حيث يقول: "إننا لا نزال نقلد الأدب العربي القديم شعراً، ولا عجب في ذلك ولا عيب، فأدبنا العربي الحديث ناشئ... والأدب الناشئ يستوحي ما سبقه، كما أن الشاب الناشئ يستوحي من هم أكبر منه ويقلدهم"⁽²⁾.

وعلى هذا الأساس صرح هيكل بأنه "حيث تُدكَّر معظم الشعراء، ترى محاولة التقليد واضحة"⁽³⁾.

يرى الباحث أن مرحلة التقليد هذه ضرورية لكل أديب ناشئ، لأن الدخول فيها بمثابة التمهيد والتأهيل والتدريب، ففي هذه المرحلة تتفتح الأذهان، وتتفاعل المشاعر، وتزرع بذرة القريحة الأدبية.

ويمضي هيكل في حديثه عن الأدب العربي الحديث بأنه يستوحي مادته من الحياة العربية، ومن تاريخ العرب وفلسفتهم وعلمهم، فهذا التاريخ العربي "من أسباب الإلهام التي لا ينضب معينها... فيه مادة للأدب لا تقل روعة عما فيه من مادة للتاريخ... فإذا أضيف إلى هذا ما نبذعه في العلم والفلسفة، استطعنا أن ننشئ في أدبنا جديداً"⁽⁴⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/345).

(2) المصدر السابق، ج2/346-347.

(3) المصدر نفسه، ج2/346.

(4) المصدر نفسه، ج2/348.

والى جانب ذلك التقليد وهذا الاستيحاء اتجه الأدب العربي الحديث "إلى ناحية أخرى متأثرة بالأدب الغربي أشد التأثير، ولعل اللبنانيين الذين ذهبوا إلى المهجر في أمريكا وعلى رأسهم جبران خليل جبران قد كانوا طلائع هذا التأثير بالغرب تأثرًا واضحًا لا يكاد فقه اللغة العربية يسيغه، رغم ما انطوت عليه آثار هؤلاء المجددين من صور الجمال"⁽¹⁾.

والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا كان الأدب العربي الحديث قد تأثر بالأدب العربي القديم، وفي الوقت نفسه تأثر بالأدب الغربي الحديث، فأى الأدبين كان الأكثر تأثيرًا؟.

يجيب هيكل على هذا السؤال قائلًا: "الأدب العربي في وقتنا الحاضر أكثر تأثرًا بالأدب الغربي منه بالأدب العربي القديم، فهو ينزع إلى ناحية القصة والأقصوصة وما إليها من ألوان الأدب الغربي أكثر مما ينزع إلى ناحية المقامة، والترسل الذي كان ذائعًا في الأدب القديم... نحن إذاً مقلدون للغرب نثرًا، كما أننا ما نزال نقلد الأدب العربي القديم شعرًا، ولا عجب في ذلك ولا عيب فيه"⁽²⁾.

لا يختلف الباحث مع هيكل في أن الأدب العربي الحديث قد تأثر في نثره بالأدب الغربي، وحيث إن الشعر في الأدب العربي الحديث ينقسم إلى قسمين: الشعر العمودي والشعر الحر، فالباحث يرى أن الشعر العمودي فقط هو من تأثر بالشعر العربي القديم، أما الشعر الحر فقد تأثر بشعر الغرب المتحرر من الوزن والقافية.

ويميل الباحث إلى أن هيكلًا عندما تحدث عن الأدب العربي الحديث لم يستوفه حقه، ففيه نماذج مميزة يُعتز بها ويُشار إليها لما فيها من إبداع يستحق كل تقدير، لكن على اعتبار أن حديث هيكل كان مقتصرًا على مرحلة الانطلاق والنشأة فلا بأس.

ومن الملاحظات التي سجلها هيكل بهذا الصدد أن "الأدب العربي (يقصد الحديث) لم يقلد الأدب الغربي القديم، بل قلد الأدب الغربي المعاصر... ولم تنشأ إلى الآن مذاهب في الأدب العربي قائمة بذاتها مستقلة عن مثيلاتها في الأدب الغربي"⁽³⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/346).

(2) المصدر السابق، ج2/346.

(3) المصدر نفسه، ج2/347.

ويرى الباحث أنه يمكن تلخيص نظرة هيكل النقدية إلى الأدب العربي الحديث في السطور التالية:

أ- بدأ انطلاق الأدب العربي الحديث في بداية النصف الأخير من القرن التاسع عشر مقلداً الأدب العربي القديم، حيث رأى هيكل أنه لا عيب ولا عجب في هذا التقليد على اعتبار أنه أدب ناشئ.

ب- أكد هيكل على ضرورة أن يستوحي الأدب إلهامه ومادته من التاريخ والفلسفة والعلم للوصول إلى أدب جديد.

ت- ذكر هيكل أن الأدب العربي الحديث تأثر بالنثر الغربي أكثر من تأثره بالنثر العربي القديم، أما في مجال الشعر فقد كان تأثره بالشعر العربي القديم أكثر من تأثره بالشعر الغربي القديم.

ث- ذهب هيكل إلى أن المذاهب الأدبية التي ظهرت في الوطن العربي كانت امتداداً لمذاهب أدبية ظهرت في بلاد الغرب، وأنه لم تنشأ مذاهب عربية خالصة قائمة بذاتها ولا تعتمد على مثيلاتها.

2- نظرة هيكل النقدية إلى الأدب الغربي:

تحدث هيكل عن تأثر الأدب الغربي في نشأته الأولى بالأدب الأخرى فذكر أنه "قد تأثر بالأدب اليوناني والأدب الروماني وقلدهما، وظل متأثراً بهما مقلداً لهما من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، ومن ثم نزع إلى الاستقلال وإلى تصوير حياة الجمعية الإنسانية كما هي في عصره، وتحلل بذلك من تقليد اليونان والرومان واستلهم أدبهم وحياتهم"⁽¹⁾.

لقد ظل الأدب الغربي قرنين من الزمان مقلداً للأدب الأخرى، وعندما استوى على سوقه، واشتد عوده نزع إلى الاستقلال ككيان قائم بذاته، فبذلك تخلص من رقة التبعية للأدب اليوناني والأدب الروماني، والناظر إلى هذه الفترة الزمنية يجدها في عمر الأدب طويلة، لكنها أسست لأدب قوي جاء فيما بعد، فقد "بدأ الأدباء في القرن الثامن عشر ينهضون بحركة (الشخصية) غير متأثرين بنزعات الماضي، وأنت تطالع فيكتور هيغو"⁽²⁾ (Victor – Marie Hugo).

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/347).

(2) كاتب فرنسي (1802-1885م) متعدد المواهب، كتب في الشعر والمسرح والرواية والمقالات السياسية، وله نشاط في مجال حقوق الإنسان، وكان من أقطاب الحركة الرومانسية في فرنسا.

ولامرتين⁽¹⁾. (Lamartine) والفردو موسيه (Alfardo Mosah)، فتجد هذا الروح الذاتي الثائر الذي يجعل شخصية الشاعر كل شيء، فخواطر الشاعر ومشاعره، وأحاسيسه بمناظر الطبيعة واتصاله بالحياة كلها مصورة في الشعر وفي النثر أصدق تصوير⁽²⁾.

هذه الروح الثائرة الوثابة سادت الأدب الغربي على وجه العموم، وكانت في الأدب الفرنسي في شعر جان جاك روسو على وجه الخصوص، فقد انتقل هذا الأدب "إلى نوع من التفكير الذاتي في القرن الثامن عشر، إذ طبعه جان جاك روسو بهذا الطابع الجديد الذي يساير الثورة الفرنسية، ولما انتقل الأدب إلى القرن التاسع عشر كان متأثراً بهذه الثورة تمام التأثر"⁽³⁾.
كان هدف هذا الأدب الثورة من أجل الحرية ومحاربة الاستعباد، ورفع الظلم، والوصول إلى حياة كريمة.

لقد تأثر هيكل بمجموعة من الأدباء والنقاد الغربيين فقرأ لهم وأعجب بكتاباتهم حيث قال: "وأول من تأثرت بهم من نقاد هذا القرن هو (تين)، وكانت نظرياته في النقد تتفق وما كان يسود ذلك العصر من النظريات الفلسفية... وهو يذهب إلى أن الإنسان خُلِقَ وسطه، وأنتك إذا أردت أن تحكم على أثر أدبي يجب أن تبحث عن صاحبه، أين نشأ؟ وما هي وراثته؟ وكيف تأثر بعصره؟"⁽⁴⁾، وقد لاحظ هيكل التوافق الكبير بين نظرياته النقدية والنظريات الفلسفية التي كانت سائدة آنذاك، فقد ربطه بين النتاج الأدبي وصاحبه والعوامل المؤثرة التي تحيط به، وقد عبر هيكل عن إعجابه بآثار (تين) الأدبية فقال: "على أن لتين نفسه من الآثار الأدبية البارعة الممتازة، ومنها كتابه عن باريس، فقد جاء فيه فصل بعنوان (نجوى) لا تزال تشوقني العودة إليه ومطالعته رغم قراءتي له مرات عديدة... وهنا يصور الموسيقى تصويراً يجعلك تراها أو تلمسها ولا تسمعها فقط، وكأنها بعض المرئيات أو الملموسات"⁽⁵⁾.

(1) الفونس دي لامرتين (1790-1869م)، كاتب وشاعر وسياسي فرنسي يعتبر من رواد الرومانسية، ولعب دوراً محورياً في تأسيس الجمهورية الفرنسية الثانية.

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/313-314).

(3) المصدر السابق، ج2/313.

(4) المصدر نفسه، ج2/314.

(5) المصدر نفسه، ج2/314.

كذلك أعجب هيكل بأدباء ونقاد غربيين آخرين، تميزوا في أسلوبهم وفي تفكيرهم منهم: "فاجيه"⁽¹⁾. و(جول ليمتر) وغيرهما من نقاد ذلك القرن، هؤلاء النقاد يظهرون عقليين دائماً، يتذوقهم القارئ على مهل وفي آناه وتريث، ويزن معهم في دقة كل كاتب ينقدونه وكل قطعة يعرضون لها"⁽²⁾.

قرأ هيكل تاريخ فرنسا في القرن التاسع عشر فوجد الحياة السياسية والاجتماعية غير مستقرة ويظهر ذلك في قوله "قرن ثورات واضطرابات متصلة... وكان الكتاب والشعراء متأثرين بهذه الأحداث وما يدور حولها... ومثل هؤلاء بيير لوتيه"⁽³⁾ (Pierre Loti). وكولد فيرير"⁽⁴⁾.

وقد ذكر هيكل أن كولد فيرير كان "يصور الحياة في لون قائم أدنى إلى دعوة اليأس منها والفرح من مصيرها، وكانت فكرة العدم والفناء... تكرر عليه صفو المتاع"⁽⁵⁾.

أما بيير لوتيه فيرى هيكل أنه "لم يتأثر بالتطور الذي اتصل بالأدب لذلك العصر ونقله من الشخصية إلى الواقعية، فإلى الطبيعية، وانتهى به إلى الرمزية"⁽⁶⁾.

ويواصل هيكل حديثه عن الأدباء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فيذكر أنهم انتقلوا "بتفكيرهم من مجرد تصوير الحياة في الحب والبغض واللذة والألم إلى الدخول إلى ذوات أنفسهم لإبرازها... ومثلهم فلوبيير"⁽⁷⁾ (Flaubert). وقد كان رجلاً مؤمناً بالفن"⁽⁸⁾.

كما أعجب هيكل بأسلوب (موباسان)⁽¹⁾ (Maupassant). الفرنسي الذي أثر في نفسه حيث صور الألمان بعد هزيمة بلاده لدرجة أنه كما يقول هيكل: "منعني من أن أزور ألمانيا

(1) اميل فاجيه (1847-1916م)، مؤرخ ونقاد أدبي فرنسي، اهتم بدراسة الأدب الفرنسي، وكان لدراسته أثر كبير في بعث الأدب وإظهار التطور.

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/314).

(3) بيير لوتيه، (1850-1923م)، كاتب وروائي وعسكري وصحفي فرنسي.

(4) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/315).

(5) المصدر السابق، ج2/315.

(6) المصدر نفسه، ج2/315.

(7) جوستاف فلوبيير (1821-1880م)، روائي فرنسي درس الحقوق، لكنه عكف على التأليف الأدبي، تميز بالموضوعية والأسلوب الدقيق.

(8) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/316).

(1) غي دو موباسان (1850-1893م)، كاتب وروائي فرنسي، درس القانون والتحق بالجيش الفرنسي ثم عمل كاتباً في البحرية.

طوال مدة طلبي العلم في فرنسا، لقد خُيل إليّ أن هذا الشعب متوحش متكبر ليس في بنيه جانب من جوانب الرحمة والإنسانية⁽¹⁾.

ويذكر هيكل أن من الكتاب الفرنسيين الذين كان لهم التأثير في نفسه -أيضاً- (بول بورجيه)⁽²⁾. وكانت له قصص وروايات كثيرة، أما أحب كتاب فرنسا إلى نفسه فهو كبيرهم (اناتولفرانس)⁽³⁾. وهو يمتاز بالأسلوب القوي⁽⁴⁾، وقد كتب عنه مقالة مطولة بعنوان (اناتول فرانس مُحدّث)⁽⁵⁾.

ويوضح هيكل كيف يستفيد الأدب الغربي من الأدب العربي، ففي مقالة له يطرح سؤالاً: هل يؤدي أدبنا الحديث حاجتنا في هذا العصر؟⁽⁶⁾ ويحاول الإجابة عليه فيقول: "نحن إذ نرجع البصر إلى الغرب الذي يتخذ كتابنا وأدباؤنا اليوم إماماً نرى الكتاب والأدباء فيه يتحرون هذه الغاية، ويعملون جاهدين لبلوغها"⁽⁷⁾.

لقد تأثر الأدب الغربي بالأدب العربي منذ قرون خلت تأثراً واضحاً، فقد رأى طه ندا أستاذ الأدب المقارن أن الزجل وهو فن عربي أصيل "ذاع في الأندلس، ومنها انتقل إلى جنوب فرنسا، حيث نظم على منواله الشعراء المتجولون الذين كانوا يتكسبون في الطرقات بإنشاد الأشعار على أنغام الموسيقى، وهؤلاء هم التروبادور، ويرى بعض المستشرقين أن كلمة تروبادور نفسها مشتقة من اللفظة العربية (الطرب)، وكانت الأغاني التي يتغنى بها هؤلاء التروبادور توحى من حيث موضوعاتها، وأساليبها، وطريقة إنشادها بأنها من أصل عربي"⁽⁸⁾.

ويتحدث هيكل عن أهداف الكتاب والأدباء الغربيين فيما يكتبون ويؤلفون فيقول: "إنما كتبوا يبتغون توجيه الرأي العام إلى ما يعتقدونه الكمال في الحياة... لكن كلاً منهم كان يقصد

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/317).

(2) بول بورجيه، (1852-1935م)، كاتب فرنسي.

(3) اناتول فرانس، روائي وناقد فرنسي.

(4) ينظر: هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/317-318).

(5) ينظر: المصدر السابق، ج2/303.

(6) ينظر: المصدر نفسه، ج2/291.

(7) المصدر نفسه، ج2/293.

(8) ندا، الأدب المقارن (ص254).

إلى غرض بذاته... يريد توجيه الجماعة إلى ناحية يراها خيرًا وأعظم ثمرة... يقصدون إلى غايات اجتماعية"⁽¹⁾.

ويعقب هيكل بعد ذلك على ما يريده من الكتاب والأدباء العرب عندما يكتبون فيقول: "إن مشاكلنا الاجتماعية ليست بالقليلة، وتصوير الغاية التي نريدها مثلًا أعلى، يحتاج إلى تفكير كتفكير كتاب الأمم المختلفة في عصور تطورها"⁽²⁾.

وأمام نظرة هيكل النقدية للأدب الغربي يسجل الباحث الملاحظات التالية:

أ- شغوف هيكل بالأدب الغربي وإعجابه به حيث اطلع على الأدب الغربي بشكل عام، وتعمق في الأدب الفرنسي بشكل خاص بحكم إقامته الطويلة في فرنسا من أجل الدراسة، وقد تأثر هيكل بالأدباء الغربيين بشكل متفاوت.

ب- استطاع هيكل أن يرسم صورة واضحة للأدب الغربي عندما ذكر سماته فوصف أسلوبه بالقوة، ومعانيه بالغرارة والعمق؛ لأنها تدعو إلى الحرية والثورة والاستقلال وعدم التبعية، وكأن هيكل يريد أن يقول أن الأدب الغربي أدب راقٍ إنساني من الدرجة الأولى؛ لكن ما يؤخذ على هذه النظرة أنها أخذت الجانب الإيجابي فقط، ولم تشمل الجوانب الأخرى.

ت- حاول هيكل من خلال نظريته إلى الأدب الغربي أن يبين الدور المهم الذي لعبه هذا الأدب في حياة الغربيين من حيث بناء الشخصية الغربية وتنمية تفكيرها، وتطلعها إلى تغيير الواقع نحو الأفضل وتوجيه الرأي العام نحو الكمال في الحياة وخدمة المجتمع، ويعتقد الباحث أن هيكلاً كان يتمنى أن يحذو الأدب العربي نحو الأدب الغربي في هذا المجال ليجد حلولاً لمشاكله الاجتماعية.

3- العلاقة بين النقد العربي والنقد الغربي في نظر هيكل:

كان هيكلاً حريصاً على أن تكون هناك علاقة بين الثقافة العربية والثقافة الغربية بكل فروعها، فقد ألف هيكل كتابه (جان جاك روسو) عام 1921م "رغبة منه أن يحدث تمازجاً فكرياً بين الشرق والغرب، ليتم الاتصال بينهما، ويكون هذا الاتصال وسيلة لخلق صورة فكرية جديدة، تحتذي الغرب، وتقنّدي بحضارته في مجالات الفكر والثقافة"⁽³⁾، وهذا ما صرح به هيكل

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/293).

(2) المصدر السابق، ج2/294.

(3) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص122).

في مقدمة هذا الكتاب قائلاً: "ولكنني كمصري أولاً، وكشركي ثانياً، أريد أن أعرض على أبناء مصر والشرق صورة من قوة حيوية قامت في الغرب، لعل في عرضها ما يجعل الصلة بين الشرق والغرب ممكنة على أساس التفاهم الحر المخلص"⁽¹⁾.

كان هيكلٌ يعتقد أنه يمكن التلاحم الفكري، والتزاوج الثقافي بين العرب والغرب، وذلك من خلال التفاعل الحضاري وتناقل التراث بينهما، هذا الاعتقاد وهذا الحرص على أن تكون علاقة حميمية بين العرب والغرب لهذا المستوى له دلالتان: الأولى تشير إلى أن هيكلًا كان متأثرًا بشكل كبير بالثقافة الغربية والفكر والأدب والنقد الغربي لدرجة أنه كان مقتنعًا بضرورة هذا التزاوج مع الثقافة العربية، أما الدلالة الثانية فتبين مدى حرص هيكل على نهضة ثقافته العربية، وانتشالها من جمودها، فقد رأى من شدة حرصه عليها أن التقاءها بالثقافة الغربية هو الذي سيحدث فيها التغيير وبيعثها من جديد.

لقد تحدث هيكل عن هذه العلاقة بشيء من الإسهاب في كثير من مقالاته، فذكر أنه مرتاب من "نجاح جهود علماء الغرب ومفكره لاستلهام الشرق سندًا معنويًا جديدًا يسد من النفس الفراغ الذي عجزت الحضارة المادية عن سده... وقد تغلبت الروح العلمية على الغرب حتى صار عسيرًا إن لم يكن مستحيلًا أن يعرف نور الإلهام طريقه إلى نفس غربية"⁽²⁾.

يرى هيكل أن علماء الغرب ومفكره يشعرون بالعجز والفراغ بسبب حضارتهم المادية البحتة التي غلبت عليها الروح العلمية المجردة من الإيمان، ولم تتأثر بحضارة الشرق التي بإمكانها أن تسد هذا الفراغ وتسعفهم فيخرج من دائرة العجز، لأن حضارة الشرق مليئة بالإلهام الذي يحقق في النفس الغربية الاستقرار والطمأنينة.

وفي مقالة أخرى لهيكل بعنوان (تكريم شوقي وحافظ ومطران أول مظاهر التعاون العقلي بين الشرق والغرب) أكد فيها على "فكرة يسعى الكثيرون في الغرب والشرق اليوم لتحقيقها، فكرة توطيد الصلة بين رجال الفكر في الغرب والشرق لزيادة ثمرات الفكر نظامًا وقوة، فجمعية القلم في إنجلترا، وجمعيات المستشرقين في ألمانيا وجمعيات مختلفة في فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وسائر البلاد الأوروبية تقوم بهذا السعي الصالح وتؤازر في ذلك العمل الجليل الذي يقوم به معهد التعاون العقلي الذي أنشأته عصبة الأمم وجعلت باريس مقرًا له"⁽³⁾.

(1) هيكل، جان جاك روسو حياته وكتبه (ص ي).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/135).

(3) المصدر السابق، ج1/139-140.

هذه الجمعيات والمؤسسات الغربية جميعاً كانت تسعى لتوثيق العلاقة بين علماء وأدباء الشرق والغرب، وقد سمي هيكل هذا السعي سعيًا صالحًا، وهذا دليل على مباركته لهذه الصلة، وتأيينه لها.

من جانب آخر عقد هيكل في المقالة نفسها مقارنة بين الأغراض الشعرية عند العرب وعند الغربيين فقال: "أغراض الشعر عندنا وعند الغربيين تختلف اختلافاً جوهرياً... فالغزل والمديح والرتاء... لا يجيء في الشعر الأوروبي إلا عرضاً، وكثير منها إذا جاء في الشعر الغربي امتزجت به الحكمة، واتجه لاجتلاء الحقائق"⁽¹⁾.

رأى هيكل أن الأغراض الشعرية تختلف في الشعر العربي عنها في الشعر الغربي، حيث إن هذه الأغراض تأتي بشكل أصيل وأساسي في القصيدة العربية، بمعنى أن القصيدة العربية تتناول الغرض من أولها إلى آخرها، لكنها في القصيدة الشعرية الغربية تأتي في السياق تغالبها الحكمة والجلاء.

أما الجمال الشعري فقد رآه هيكل أكثر توفراً في القصيدة الغربية، ورغم وجوده في أشعار شوقي ومطران وحافظ إلا أنه موجود بشكل نسبي "هذا الجمال ينحصر أغلب أمره في أبيات معدودة، وقل أن يتسق في قصيدة كاملة على نحو ما تجده في كثير من قصائد الشعراء الغربيين"⁽²⁾.

ويعبر هيكل عن إعجابه الشديد بجمال الشعر الغربي عندما يقرأه فيقول: "إذا ابتدأت في قراءة الفردوس المفقود، أو قراءة آلام شمشون لملتون، رأيت نفسك مندفعاً مع الشاعر، متدفقاً مع شعره، جياشاً بالعواطف التي تحرك نفسه ويتحرك بها خياله، مأخوذاً بقوة ساحرة يتعاون على زيادة سحرها قوة المعنى ومنانة الديباجة"⁽³⁾.

كما تحدث هيكل عن الأفكار والعواطف التي تسيطر على القصائد العربية فرأى في هذه القصائد السرعة في "التنقل من عاطفة لعاطفة ومن فكرة لفكرة، حتى لا ترى نفسك ظمأى لم ترو ولم تظمئن ربيها وطمأنينتها بشعراء الغرب المجيدين"⁽⁴⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/142).

(2) المصدر السابق، ج1/142.

(3) المصدر نفسه، ج1/142-143.

(4) المصدر نفسه، ج1/143.

وذهب هيكل إلى أن مطران تأثر في شعره بالأدب الأوروبي "لذلك تقع فيه على معانٍ لم تتفق لشعراء العرب في الماضي أكثر مما تقع على مثل هذه المعاني عند غيره، ولكنه يرسل نظمه في ذلك غير خاضع خضوع غيره لديباجته"⁽¹⁾.

ورأى هيكل أن شوقي قد تأثر بالشعر الغربي -أيضاً- فقال: "غلو شوقي أكثر وضوحاً في جانب اللغة منه في جانب المعاني، فهو بمعانيه وصوره وخيالاته يحيط مما في الغرب بكل ما يسيغه الطبع الشرقي وترضاه الحضارة الشرقية، أما لغته فتعمد إلى بعث القديم من الألفاظ التي نسيها الناس"⁽²⁾.

أما حافظ إبراهيم فيراه هيكل أقل من شوقي ومطران "تأثراً في شعره بالصورة الشعرية للغرب، وهو على الأقل لم يفكر للشعر العربي في جدة غريبة كالتي فكر فيها صاحبا، بل لقد تأثر أول نشأته بالشعر العربي القديم تأثراً بادياً"⁽³⁾.

وحول تطور الأدب العربي الذي تأثر بالأدب الغربي تحدث هيكل عن ذلك فقال: "ولعل اللبنانيين الذين ذهبوا إلى المهجر في أمريكا وعلى رأسهم خليل جبران قد كانوا طلائع هذا التأثير بالغرب تأثراً واضحاً لا يكاد فقه اللغة العربية يسيغه، رغم ما انطوت عليه آثار هؤلاء المجددين من صور الجمال التي تأخذ بالألباب"⁽⁴⁾.

أما عن قوة التأثير في الأدب الحديث فيرى هيكل أن "الأدب العربي في وقتنا الحاضر أكثر تأثراً بالأدب الغربي منه بالأدب العربي القديم... نحن إذًا مقلدون للغرب نثرًا، كما أننا لا نزال نقلد الأدب العربي القديم شعراً... على أن الأدب العربي لم يقلد الأدب الغربي القديم، بل قلد الأدب الغربي المعاصر"⁽⁵⁾.

ويصدر هيكل حكمه على تأثير الغرب في الشرق أو تأثر الشرق بالغرب فيقول: "أعتقد أن الشرق قد ضل طريقه في هذه العصور الأخيرة متأثراً بتعاليم الغرب، فأصبح مثله الأعلى مادياً، يحسب الحرية التي تسمو بها النفس إلى المكان الأرفع هي أن ينال الجسم، وأن تتال الشهوات كل مبتغاها، وقد يكون للبيئة الطبيعية في الغرب ما يدفع إلى التطلع إلى هذا المثل

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/143).

(2) المصدر السابق، ج1/144.

(3) المصدر نفسه، ج1/145.

(4) المصدر نفسه، ج2/346.

(5) المصدر نفسه، ج2/346-347.

الأعلى، لكن بيئة الشرق الطبيعية وتاريخه... يجعل هذا المثل الأعلى الذي يتخذه الغرب أمامه دون ما تتطلع إليه النفس الشرقية"⁽¹⁾.

ويحاول هيكل أن يجد البديل عن الأدب الغربي وتأثيره في الأدب الشرقي فيقول أنه ينبغي للأدب العربي أن "يتجه في طريقه الطبيعي ليستوحي مادته من حياتنا ومن فلسفتنا وعلمنا... ما يمدنا به تاريخنا وتاريخ الشرق من أسباب الإلهام التي لا ينضب معينها، فهذا التاريخ قديمه وحديثه فيه مادة للأدب لا تقل روعة عما فيه من مادة للتاريخ... تلهم الأدب بكل صورته وألوانه... فإذا أضيف إلى هذا ما نبدعه في العلم والفلسفة، استطعنا أن ننشئ في أدبنا جديدًا، وأن نتجه به وجهة يستقل بها عن أدب الغرب مع تعاونه معه على خلق الأدب الإنساني الرفيع الذي يغذي النفوس بأجمل ما في الحياة من معاني الحق، وصور الخير، وألوان الجمال"⁽²⁾.

كما يحاول هيكل أن يجد توافقًا بين الأدب العربي والأدب الغربي للجمع بينهما فيقول: "أعتقد أننا نسير في بلادنا العربية كما يسير الغرب نحو أدب إنساني تبدو فيه مظاهر التضامن العالمي ويكون مقدمة لهذا التضامن وهذه في رأبي هي مهمة الأدب في عصرنا الحاضر"⁽³⁾.

أما أنور الجندي فيرى أن ثمة تحول في موقف هيكل من الحضارة الغربية فيقول: "تحول هيكل من الإعجاب بالحضارة الغربية إلى النقمة عليها، ومقاومة حركة التغريب، ومهاجمة المستشرقين والمبشرين الذين غضوا من تراثنا وكياننا، وكانت كتابته عن محمد والإمبراطورية الإسلامية مقدمة هذا التحول"⁽⁴⁾.

في ضوء ما سبق يقف الباحث على ما ذكره هيكل بخصوص العلاقة بين الأدب والنقد العربي والغربي، حيث يسجل الباحث الملاحظات التالية:

1- وجد الباحث أن موقف هيكل كان متذبذبًا، فمرة يبارك هذه العلاقة وأخرى لا يؤيدها، وكان له موقفان مختلفان، ويرجع الباحث هذا الاختلاف إلى تاريخ إصدار هذه المواقف، ففي بداية الأمر كان هيكل مؤيدًا ومباركًا لهذه العلاقة، لأن درجة التأثير بالأدب الغربي عنده

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/469-470).

(2) المصدر السابق، ج2/348.

(3) المصدر نفسه، ج2/348.

(4) الجندي، المعارك الأدبية في مصر... (ص660).

كانت عالية، لكنه عندما تأثر بالدين الإسلامي والتاريخ العربي خفت حدة هذا التأثير، فأخذ يغير موقفه.

2- أصدر هيكل حكمه على الأدب الغربي، فقد مدحه في جانب ثم ذمه في جانب آخر، فمدحه جاء من جهة الجمال الشعري، وذمه جاء من جهة الفراغ النفسي والروحي وسيطرة المادة عليه.

3- بين هيكل أن الغربيين كانوا حريصين على توطيد الصلة بين الأدب الغربي والأدب العربي، وذلك من خلال مؤسساتهم، ويرى الباحث أن وراء هذا الهدف أهداف أخرى خفية ربما كانت تستهدف النيل من الأدب العربي والتاريخ العربي والدين الإسلامي.

4- رأى هيكل أن هناك اختلافًا جوهريًا بين الأدب العربي والأدب الغربي في الأغراض الشعرية، والأفكار، والعواطف، واللغة، والمعاني.

5- وضح هيكل درجة تأثر كل من شوقي ومطران وحافظ بالأدب الغربي، وبين أن أقلهم تأثرًا حافظ، وذكر أن اللبنانيين في المهجر هم طلائع التأثر بالأدب الغربي.

6- رأى هيكل أنه يمكن للأدب العربي أن يأخذ مادته من تاريخ العرب وفلسفتهم كبديل عن التأثير بالأدب الغربي.

7- حاول هيكل أن يجمع بين الأدب العربي والأدب الغربي من خلال ما أسماه بالأدب الكبير، أو الأدب الإنساني، أو الأدب العالمي، الذي يدعو إلى التضامن العالمي والتعاون الدولي دون أخذ القومية بعين الاعتبار.

سادسًا - النقد النظري والنقد التطبيقي عند هيكل:

لم يكن النقد الأدبي في بداية أمره مقبولًا في العصر الجاهلي، لأن شعراءهم آنذاك كانوا يعدونه صورة من صور الهجاء، وكان محور النقد عندهم يدور حول اللفظة المفردة التي لم تقع في مكانها الصحيح، والمعنى المبتذل غير المناسب للمقام الذي قيل فيه، فقد تناولوا شكل النص الأدبي (عمود الشعر والوزن والقافية) ومضمونه، وأحيانًا كانوا يتعرضون لصاحب النص الأدبي، وقد اتسم نقدهم "بالأحكام العامة، والاعتماد على الذاتية والانطباع، والتركيز على القيم الدلالية للألفاظ أو المعاني السطحية للنص"⁽¹⁾، أما في صدر الإسلام فقد ركز النقد على "الحل

(1) اليعقوبي، فصول في النقد الأدبي القديم (ص145).

والحرمة، والإباحة المنضبطة، حيث ظهر ما يمكن تسميته بـ(النقد القيمي) كحركة تصحيحية لبعض ظواهر التفسخ، والانحلال الخلفي⁽¹⁾.

أما مصطلح النقد بمفهومه الحديث فلم يظهر إلا في القرن السابع عشر الميلادي، وقد أصبح في هذا العصر نوعاً من أنواع المعرفة، حيث حفل "بأصول ونظريات وقواعد ومناهج بانته تتطور وتتضح يوماً بعد يوم عن طريق الممارسة والتطبيق، ونتيجة للتفاعل والتأثر والأخذ من مختلف العلوم والمعارف الإنسانية، ومنها علم اللغة وعلم النفس والاجتماع والتاريخ... الخ"⁽²⁾.

إذاً بالممارسة والتطبيق يحدث التطور والنضوج في الأدب والنقد معاً، فالنقد والأدب قرينان لا يستغني أحدهما عن الآخر، فلا يمكن أن يكون نقد دون أدب، وهذا دليل على أن الأدب هو المجال الذي يعمل فيه النقد، يقول محمد مندور: "النقد في أدق معانيه هو فن دراسة النصوص والتمييز بين الأساليب المختلفة... وهو روح كل دراسة أدبية إذا صح أن الأدب هو كل المؤلفات التي تكتب لكافة المثقفين"⁽³⁾، ويتفق بعض المحدثين في مفهوم النقد مع مندور، فيرون أنه "فن تحليل الآثار الأدبية"⁽⁴⁾.

باعتبار النقد فن دراسة النصوص أو فن تحليل الآثار الأدبية، فإن هذه الدراسة وهذا التحليل يتناولان "بالدرس مدارس أدبية، أو شعراء، أو خصومات يفصل القول فيهما، ويبسط عناصرها، ويبصر بمواضع الجمال والقبح فيها"⁽⁵⁾.

ويرى بدوي طبانة أن أنظار الدارسين اتجهت نحو العمل الأدبي للبحث عن عناصر الجمال فيه، وقد طال هذا البحث كثيراً من أعمال الأدباء المرموقين، وكان هدف هذا البحث الناقد "لتبين نواحي القوة والجمال، وتعرف أسباب الضعف فيه، ومدى حظ أصحابه من الابتكار والابتداع، وما يؤخذ عليهم من التقليد والاتباع"⁽⁶⁾.

(1) اليعقوبي، فصول في النقد الأدبي القديم (ص145).

(2) مصطفى وآخرون، في النقد الأدبي الحديث (ص7).

(3) ينظر: مندور، النقد المنهجي عند العرب (ص14).

(4) جبور، المعجم الأدبي (ص283).

(5) مندور، النقد المنهجي عند العرب (ص5).

(6) طباني، البيان العربي... (ص243).

هذه العملية، عملية البحث والاستكشاف أو عملية النقد الأدبي ليست مهمتها التجريح أو النيل من العمل الأدبي أو صاحبه، وإنما خدمة العمل الأدبي الإبداعي، بمعنى أنها مهمة توجيهية إرشادية تفيد المبدع كتغذية راجعة له، وليست سلطوية، وهي كذلك تبرز قيمة العمل الأدبي وترفع شأنه إذا كان يستحق ذلك، كما أن لها مهمة تعليمية وهي: "التحدث عن طرائق التجديد في الكتابة، وإلى دراسة أسرار الصنعة الأدبية، وتعليم المتأدبين كيف يمتلكون ناصية فنهم"⁽¹⁾. وإذا انتقلنا من الحديث عن مهمة النقد إلى طبيعته، بمعنى: هل النقد الأدبي موضوعي أم ذاتي؟ ولأن هذا الموضوع فيه نوع من الجدلية، وليس له مجال في هذا البحث، فإن رؤية الباحث تتلخص في أنه: من المفترض أن يكون النقد دائماً موضوعياً إلا أنه لا يمكن فصل النقد الأدبي عن الذات لارتباطه الشديد بالذات الإنسانية، ومن هنا يمكن القول أنه يوجد في النقد تداخل بين الذات والموضوع.

بعد هذا التقديم للنقد الأدبي، يمكن تناول النقد النظري والنقد التطبيقي والعلاقة بينهما:

1- النقد النظري:

قديمًا وحديثًا كانت المعرفة النظرية وما زالت مثار اهتمام ورعاية عند العلماء والفلاسفة لأنها تبحث في الماهيات والجذور و"في أصول النظريات، وفي جذور المعرفيات، وفي الخلفيات الفلسفية لكل نظرية، وكيف نشأت وتطورت حتى خبت جذوتها"⁽²⁾، كما أن هذا النقد يبحث في "ماهية الأدب ووظيفته، وفائدته، ووسيلته"⁽³⁾.

وإذا كانت أهمية المعرفة النظرية تتبع من بلورة مناهج المعرفة، وتقنين الممارسة التطبيقية، فإن هذه الأهمية تنسحب على النقد الأدبي النظري أحد حقول المعرفة، ولأنه "يهيئ الأرضية الخصبة، ويوجه إلى الطريق الصحيح، ويشير بلا شك حساسية الذوق والجمال لدى الأديب"⁽⁴⁾ فهو الذي يصف الآليات العقلية الضرورية لممارسة النقد السليم، ومن هنا فإن مجال النقد النظري التأمل العقلي.

(1) دينشس، مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق (ص 263).

(2) ينظر: مرتاض، في نظرية النقد (ص 50).

(3) رحمانى، النقد التطبيقي الجمالي واللغوي في القرن الرابع الهجري (ص 20).

(4) زعموش، مفهوم النقد الأدبي في نظر الجزائريين (ص 124).

2- النقد التطبيقي:

ازداد الاهتمام بالنقد التطبيقي خاصة بعد أن تحددت ملامحه وسماته، فقد رأى المحدثون "أن أي دراسة نظرية لا يمكن أن تصيب هدفها، وتبلغ غايتها إلا بالتطبيق، وعلى الأخص في مجال النقد الأدبي"⁽¹⁾.

كما رأوا أن وظيفة النقد التطبيقي تتلخص في تطبيق النظريات النقدية على النصوص الأدبية "ومحاكمة النصوص انطلاقاً منها"⁽²⁾.

ومحاكمة النصوص تكون بمواجهتها مباشرة، وآليات المواجهة تكون بالشرح والتفسير والتحليل والتقويم، هذه المواجهة أو هذا التغلغل في النصوص الأدبية هدفه التعرف على العناصر المكونة له، ووصفها وصفاً كاملاً من ناحية المعنى والمبنى أو من ناحية الفكرة والمحتوى، وعليه يمكن للناقد أن يصدر حكمه على النص الأدبي من حيث الإجابة أو الرداءة أو التوسط بينهما، هذا الحكم يعود بالنفع على الأديب صاحب النص المنقود؛ لأنه بعد ذلك سينمي مهارته، ويعالج خلله، ويدفعه ذلك إلى المزيد من التدريب والتدقيق.

3- العلاقة بين النقد النظري والنقد التطبيقي:

بعض الدارسين من النقاد والباحثين حاولوا أن يضعوا حدوداً للعلاقة بين النقد النظري والنقد التطبيقي، وقد انقسم رأيهم في هذه المسألة إلى قسمين: الأول يرى أن العلاقة بينهما علاقة اختلاف لأن لكل منهما دوره ومهمته، وارتكز هذا الرأي على أن هذا الاختلاف منهجياً ومعرفياً بين النقد النظري والنقد التطبيقي، ففي النقد النظري "يتحول الناقد فيه إلى مشرع وفيلسوف"⁽³⁾ بينما يقوم الناقد في النقد التطبيقي "برصد الأعمال الأدبية ومناقشتها والحكم عليها"⁽⁴⁾ هذا الرأي وجد ردًا من نقاد غربيين ونقاد عرب، يقول الناقد (ديفيد ديتشس) في كتابه (مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق): "إن التفريق بين النظرية النقدية والتطبيق النقدي لهو في أكثر أحواله تفريق مصطنع"⁽⁵⁾، ويؤكد (رنيه ويلك) على متانة العلاقة بين النقد النظري والنقد التطبيقي فيرى "أن النظرية الأدبية لا يمكن أن تنفصل عن علم الجمال أو عن علم النقد

(1) عبد البر، قضايا النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق (ص457).

(2) محمد، التنظير النقدي والممارسة الإبداعية (ص9).

(3) زكي، النقد الأدبي الحديث: أصوله واتجاهاته (ص8).

(4) المرجع السابق، ص8.

(5) ديتشس، مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق (ص267).

العملي"⁽¹⁾، أما (زكية بجة) فتري أن الفصل بين أي نظرية وتطبيقها أمر مستحيل من الناحية المنهجية، فهما شيئان متلاصقان، يكمل كل منهما الآخر فتقول: "انعزال النظري عن التطبيق مستحيل الوقوع في أية قراءة متماسكة"⁽²⁾.

أما القسم الثاني فيرى أن العلاقة بين النقد النظري والنقد التطبيقي علاقة تكاملية، وأنهما متلازمان أثناء إجراء معالجة النصوص أو نقدها إلى درجة التداخل أو ما يشبه الاندماج، والذي دعا إلى ذلك حاجة كل واحد منهما إلى الآخر "فخبرات التطبيق يمكن أن تسهم في تعديل مستوى التنظير"⁽³⁾ وكذلك فإن النقد التطبيقي "تتطلب ممارسته شيئاً من الإلمام بالجانب النظري لأنه أساس كل سلوك"⁽⁴⁾.

وللوقوف على هذه العلاقة التي يرى البعض أنها جدلية، فالنقد النظري عندهم "إجمالي، شمولي، فلسفي يبحث في الكليات" والنقد التطبيقي "تفصيلي، موضعي، عملي"⁽⁵⁾، أو أن مستوى النقد النظري التأمل العقلي، ومستوى النقد التطبيقي كشف سر الجودة، أو أن النقد التطبيقي عبارة عن "نشاط آلي يسعى إلى إثبات صحة المفاهيم وإلى برهنتها"⁽⁶⁾، فإن الباحث يميل إلى أن العلاقة بين النقد النظري والنقد التطبيقي علاقة تكاملية والذي دفعه لتبني هذا الرأي:

أولاً- لا معنى ولا قيمة في الحياة لأي شيء نظري جامد لا يمكن الاستفادة منه، وروح الحياة في النقد النظري موجودة في النقد التطبيقي.

ثانياً- النقد وحدة واحدة هدفه خدمة النص الأدبي ومجاله النص الأدبي، وهذا ينطبق على نوعي النقد الأدبي، لذا فإن هذا التداخل في عملهما يجعلهما متكاملين.

ثالثاً- النقد بنوعيه بناء متكامل، فالنقد النظري يمثل التخطيط الهندسي، والنقد التطبيقي يمثل تنفيذ هذا التخطيط في الواقع، فلا معنى لبناء بدون تخطيط، ولا لتخطيط بدون بناء.

(1) رحمانى، النقد التطبيقي الجمالي واللغوي في القرن الرابع الهجري (ص26).

(2) بجة، النقد التطبيقي عند الجاحظ (ص35).

(3) الموجي، قراءة النقد عند جابر عصفور (ص40).

(4) زعموش، مفهوم النقد الأدبي في نظر الجزائريين (ص124).

(5) رحمانى، النقد التطبيقي الجمالي واللغوي في القرن الرابع الهجري (ص26).

(6) العبد، في معرفة النص، دراسات في النقد الأدبي (ص15).

من خلال ما سبق يرى الباحث أن النقد النظري والنقد التطبيقي متلازمان، لا غنى لأحدهما عن الآخر، وأن التمايز بينهما نسبية إلى حد كبير، وأنه لا يمكن عزل أحدهما عن الآخر أثناء عملهما في النص الأدبي.

4- نماذج من النقد التطبيقي عند هيكل:

محمد فريد وجدي:

قام محمد فريد وجدي بنقد كتاب هيكل (ثورة الأدب)، وقد وصف أنور الجندي هذا النقد بأنه "نموذج طيب للنقد في الأدب العربي المعاصر، فهي مساجلة خلت من كل عبارات السخرية أو الغرض أو الانتدفاع وراء الأهواء، ناقش بها محمد فريد وجدي آراء هيكل في كتابه (ثورة الأدب) مناقشة موضوعية هادئة"⁽¹⁾.

كان هذا النقد هادفاً بناءً موضوعياً هادئاً طيباً لا يشوبه ما يعكر صفوه، فكان كل من محمد فريد وجدي وهيكل حريصين على أن يسود هذا المنهج وهذه الروح نقدهما.

السيد محمد فريد وجدي كاتب معروف له مؤلفات عديدة يدور معظمها حول الروحانيات، فالنظرية الروحية عنده كانت مبنية على "أن الجسم ليس إلا غلافًا للروح، وأن الروح هي الحياة كلها، وأنها باقية مستقلة عن الجسم، وأن العناية بالجسم على حساب الروح إلا بعض نزغ الشيطان"⁽²⁾. وكان يؤمن بأن لكل علم أو اختراع أصل في الإسلام، وله كثير من الأبحاث في هذا المجال، ومن مؤلفاته كتاب أسماء (دائرة معارف القرن العشرين) وقد احتوى هذا الكتاب على كثير من العلوم والفنون والمذاهب والأبحاث وسائر ما يهم الإنسان في جميع المطالب⁽³⁾ ولأهمية هذا الكتاب الذي جمع بين الحاجة العقلية والحاجة المعيشية يقول هيكل: "ولقد لقي عمله هذا من تقدير الأمة وإعجابها ما دفعه لإعادة طبع كتابه"⁽⁴⁾، هذا التقدير جاء نتيجة للفائدة التي يجنيها قارئ هذا الكتاب، فعلى سبيل المثال من يبحث عن كلمة من الكلمات يجد لها تفسيراً لغوياً ثم بحثاً طويلاً يندرج تحت هذه الكلمة من تاريخ وفلسفة أو كلام، ومن الممتع في هذا الأمر أنك تجد في هذا البحث كلمات لكبار الفلاسفة، كما وتجد ما يمتع ذهنك من براهين ومناقشات، وفي الختام يتوج المسألة التي تبحث عنها برأيه الخاص فيها.

(1) الجندي، المعارك الأدبية في مصر... (ص394).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/345).

(3) ينظر: المصدر السابق، ج1/160.

(4) المصدر نفسه، ج1/161.

بعد هذا الجهد الحثيث الذي بذله محمد فريد وجدي يتساءل هيكل: "أي حظ من التوفيق أصاب السيد فريد وجدي في سبيل غايته؟ وهل أنتجت مجهوداته النتيجة التي تترجى من دائرة معارف توضع في القرن العشرين؟"⁽¹⁾.

وعلى هذا التساؤل يجيب محمد فريد وجدي نفسه في عنوان دائرة معارفه أنها "قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم النقلية والعقلية والكونية بجميع أصولها وفروعها"⁽²⁾.

هذا العمل العظيم، وهذا المجهود الكبير في نظر هيكل يعتره شيء من النقص لأنه عمل فردي، ويوجه هيكل اقتراحًا في هذه المسألة وهو أن هذا العمل الضخم يحتاج إلى فريق مختص يقوم بوضع خطة على أساس من النهج العلمي.

ويفصل هيكل أوجه النقص التي جاءت في هذا الكتاب فيقول: "فقد تجد بحثًا لغويًا مستفيضًا يبدأ به عباراته فيرد الكلمة إلى أصولها ويبين أوجه استعمالها وقد لا تجد من هذا البحث اللغوي كلمة، وقد تجد بحثًا تاريخيًا وقد لا تجد، وقد ترى نظريات فلسفية عن كلمة تافهة علاقتها بالفلسفة، وقد لا تجد ذكر الاسم من أسماء الفلاسفة على جلال قدره وعظيم خطره"⁽³⁾.

ومن المآخذ التي أخذها هيكل على محمد فريد وجدي في كتابه، أنه عندما تحدث عن مكة أفرد لها ما يزيد عن ثلاثين صفحة، بينما لم تحظ بغداد بصفحة كاملة، في حين حظيت مصر بمائتين وست وعشرين صفحة.

أما عن المعلومات والمعارف التي وردت في هذا الكتاب، فبعضها كان أوليًا بسيطًا، وبعضها مفصلًا لا يحتاج إليه الباحثون، فعلى سبيل المثال كما يرى هيكل ما ذكره المؤلف عن تاريخ مصر القديم كان موجزًا ضعيفًا، وذكره للآثار المصرية أشد إيجازًا وضعفًا.

ويلخص هيكل مآخذه على هذا الكتاب بشيء من التركيز حيث يقول: "مثل هذا الإيجاز المخل والإسهاب الممل، وعدم الأخذ بنهج معين، وعدم الاعتماد على قواعد علمية وعلى معلومات ثابتة شائع في أكثر أجزاء (دائرة معارف القرن العشرين)"⁽⁴⁾.

ويلاحظ هيكل في هذا الكتاب أن الأدب الغربي كان أقل الأشياء ذكرًا.

(1) هيكل، في أوقات الفراغ (ص166).

(2) المصدر السابق، ص166.

(3) المصدر نفسه، ص169.

(4) المصدر نفسه، ص172.

يرى الباحث أن ملاحظات هيكل في محلها، وأنه ما وصل إليها إلا بعد طول اطلاع، وقراءة بعمق، كما ويعزو الباحث كثرة هذه المآخذ في هذا الكتاب إلى أن المؤلف لم يكن يملك نهجًا ولا خطة واضحين، فقد كان همه الأول في هذا الكتاب جمع المعلومات من غير اختيار ولا ترتيب.

في ضوء نقد هيكل لهذا الكتاب، يرى الباحث أنه ذو قيمة، وأنه بحاجة إلى من يتبناه كمشروع علمي واسع، يسد نقصه، ويعالج الخلل الذي ورد فيه، أما نقد هيكل التطبيقي في هذا الكتاب فقد كان واضحًا صريحًا، وكان علميًا وموضوعيًا، ويعتقد الباحث أن هدف هيكل من هذا البحث ليس التجريح أو التشهير، بل النصيحة والتوجيه، ويظهر من خلال هذا النقد أن هيكلًا يكن للمؤلف كل احترام وتقدير.

طه حسين:

على مدار سنوات عديدة، وتاريخ طويل، جمع العمل السياسي والفكري بين هيكل وطه حسين "فقد عملا معًا في حزب الأحرار الدستوريين وجريدة السياسة... كانا في السياسة كفرسي رهان، يتقارضان الثناء والنقد في كل مناسبة"⁽¹⁾.

ويصف طه حسين العلاقة التي كانت تربطه بهيكل فيقول: "أنت مريض بي، كما أنني مريض بك، لا نلتقي ولا نتزاور ولا نتحدث، ولكننا نتصل رغم هذا كله اتصالًا يشوبه الرضا حينًا، ويشوبه السخط حينًا، والحزن دائمًا"⁽²⁾.

عرض هيكل، مقدمة طويلة للولوج إلى نقد كتاب (صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان) الذي ألفه طه حسين والذي نشأ في الأزهر، ثم انتقل إلى الجامعة المصرية ثم إلى أوروبا، وقد رأى هيكل أن طه حسين تميز في أسلوبه بالجمع في رمزه بين المتانة والدقة، ولاحظ أن هذا الأسلوب يسير دائمًا نحو السلاسة الجزلة، والسهولة المتينة من غير احتياج لتدفق ولا انقباض⁽³⁾.

(1) الجندي، المعارك الأدبية في مصر... (ص 660).

(2) كريم، معارك طه حسين الأدبية والفكرية (ص 312).

(3) ينظر: هيكل، في أوقات الفراغ (ص 178).

ويبرر هيكل لهذا الحكم على أسلوب طه حسين بأن طريقة تفكير داخلية لا تؤثر فيها مظاهر الطبيعة ولا أحداثها، فيضيف بذلك إلى متانة الأسلوب ودقة العمق والهدوء، وهذا يمنع عن هذا الأسلوب الاندفاع التخيلي والارتفاع الوجداني⁽¹⁾.

ويصف هيكل هذا الكتاب بأنه "موجز بديع يعطي فكرة عامة عن اليونان وعن شعرها التمثيلي... لكن مختارات طه حسين.. لها ميزة خاصة تجعل قراءتها أكبر فائدة وأكثر إمتاعاً وتضعها في الصف الأول بين ما يقرأ لفهم الروح اليونانية والحياة التي غذتها هذه الروح"⁽²⁾.

لقد عزا هيكل ميزة هذا الكتاب وفائدته إلى مؤلفه طه حسين الذي كان متخصصاً في دراسة الأدب والفلسفة وما إليهما من مظاهر الحياة العقلية اليونانية؛ لكنه في الوقت نفسه كان يتمنى عليه أن "لو كان تحليله للنفس اليونانية، أطول وأغزر مما كان"⁽³⁾.

من خلال عرض هيكل لنقد هذا الكتاب، فإن الباحث يرى أن طه حسين وُفق في تحقيق مراده من هذا الكتاب بشهادة هيكل نفسه، وأنه لم يألُ جهداً في أن يخرج كتابه إلى النور إلا بعد رضاه عنه، فلقد استنفد كل طاقته، وسخر كل إمكانياته العقلية من أجل ذلك، أما رأي هيكل الخاص بتحليل النفس اليونانية فربما أن طه حسين تركه للقارئ بعد أن قدم له كل ما يلزمه في هذا الأمر، هدفه في ذلك أن ينعم القارئ نظره، وأن يسبر أغواره، وأن يحرك ذهنه، ويستجمع بعد ذلك إمكانياته التحليلية للوصول إلى عمق النفس اليونانية، وهذا الاجتهاد من القارئ يجعله أكثر عصامية، بل يولد إليه إحساساً بالسعادة، ويشعره بالمتعة.

رد هيكل على طه حسين الذي نقد كتابه (جان جاك روسو)⁽⁴⁾. الجزء الثاني في مقالة خاصة حيث بين في مقدمتها أنه صديق لطه حسين وأن هذه المقالة مجرد مناقشة خالية من العنف والشدة.

عرض هيكل المآخذ التي أخذها طه حسين على كتابه وذكر منها رداءة الطباعة وسوء الورق، وكثرة الأخطاء المطبعية، وعدم الاهتمام باللغة، وأنه لم يضع لكتابه فهرساً ولم يبوبه⁽¹⁾.

(1) ينظر: هيكل، في أوقات الفراغ (ص178-179).

(2) المصدر السابق، ص179.

(3) المصدر نفسه، ص185.

(4) جان جاك روسو، (1712-1772م)، كاتب وأديب وفيلسوف وعالم نبات من جنيف، ساعدت فلسفته في تشكيل الأحداث السياسية التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية.

(1) ينظر: هيكل، في أوقات الفراغ (ص186).

ورد هيكل على مآخذ طه حسين على هذا الكتاب، مترجماً شعوره وظنه قائلاً: "إنك لم تقرأ هذا الكتاب، بل اكتفيت بتقليب صفحاته، واقتصرت بعد ذلك على الكتابة عن الشكل والصورة الظاهرة من غير أن تكلف نفسك عناء الوقوف على موضوع الكتاب لتري إن كان سوء شكله يستحق احتمال القراء، عناء مطالعته ولتقدر مباحث الكاتب فتحكم له أو عليه"⁽¹⁾.

ثم يستطرد هيكل في رده: "فماذا يكون حكم هذا القارئ على ما كتب حين يراك اقتصرت على نقد الطبع والورق، وهلا تخشى أن يقول لك إن وضع صحيفة في آخر الكتاب لبيان الخطأ والصواب كانت تكفي لرد نقدك الألفاظ"⁽²⁾.

أما نقد طه حسين لغياب الفهرس والتبويب فيبرر له هيكل بأن الجزء الثاني من كتاب جان جاك روسو ليس بحاجة إلى فهرس أو تبويب لأنه يلخص رواية هلويز الجديدة وكتاب التربية وينفذهما⁽³⁾.

ويكمل هيكل رده على رداءة طباعة الكتاب أنه لم يكن غنياً، وأنه ليس على استعداد أن يجعل من هذا الكتاب تجارة رابحة، وأن هذه الرداءة ليس القصد منها ازدياء الناس⁽⁴⁾.

ويشتد هيكل في نقده لطه حسين بأن جعل سبب هذا النقد هو غضب طه حسين منه، حيث اتهمه بأنه أظهر هذا الغضب في ثورة صريحة، وكان هيكل يود من طه حسين أن لو تناول موضوع الكتاب بشيء من التفصيل، يبين خلاله وجوه الحسن والقبح والكمال والنقص، وكان يمكن معالجة السلبيات في الطبعة الثانية للكتاب.

أبدى هيكل تواضعه ككاتب فيبين أنه بحاجة إلى هذا النقد على أن يكون في المضمون كما هو في الشكل الذي يدركه هيكل، وقد ازداد هيكل تواضعاً أمام طه حسين عندما رأى أن النقص في الموضوع والتواء الدليل يحتاج إصلاحهما إلى تنبيه خاص من أمثاله ووصفه بأنه صديق مخلص ذو فضل وعلم، ثم مزج هذا التواضع بشيء من التذلل والإكبار وخفض الجناح قائلاً: "فهل لك أن تكلف نفسك هذا العناء فتتفنعني وتتفنع الناس، ويكون الشكر لك مضاعفاً"⁽⁵⁾.

(1) هيكل، في أوقات الفراغ (ص187).

(2) المصدر السابق، ص188.

(3) المصدر نفسه، ص188.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص188-189-190.

(5) المصدر نفسه، ص192.

بعد عرض قصة كتاب (جان جاك روسو) بين هيكل وطه حسين، وما حصل بينهما من سجال علمي واختلاف في وجهات النظر، وهذا من حقهما كنقاد، فإنه استوقفت الباحث بعض الأمور، وهي:

أولاً- رغم ما يؤخذ على طه حسين اهتمامه بالشكل دون المضمون، إلا أنه محق في ملاحظاته الشكلية على كتاب هيكل، فكان من الأجدر ألا يسمح هيكل بصدور الكتاب قبل تدقيقه من الأخطاء اللغوية والمطبعية، لأن ضعف الإمكانيات التي تؤثر على جودة الورق وبراعة الإخراج لا تقف حائلاً أمام هذا التدقيق.

ثانياً- من خلال هذا السجال النقدي أو المناظرة الأدبية حول هذا الكتاب يلمس الباحث حرص هيكل على أن يكون حبل الود متيناً بينه وبين طه حسين، يبدو ذلك واضحاً من خلال أسلوب هيكل عندما كان يوجه كلامه لطه حسين (مناقشة صديق لصديقه - يا صديقي - أشكر لك حسن ظنك ورقيق شعورك - أجاهد لأحرص على رضاك - من أمثالك الأصدقاء المخلصين ذوي الفضل والعلم - هذا ومع شكري لك على حسن عنايتك بكتابي أرجو أن تفضل بقبول فائق الاحترام)، على أنه جاء في أسلوب هيكل شيء قليل ربما يحمل الإنكار الخفي أو التورية مثل (تكلف نفسك هذا العناء - الغضب لي مني)⁽¹⁾.

ويرى أنور الجندي أنه "جرى النقد الهادئ المنمق بين طه حسين وهيكل أمداً طويلاً ثم تحول إلى العنف من جانب طه حسين عندما كشف هيكل دسائس التغريب، وعارض اتجاه طه حسين في استغلال الأساطير في كتابة السيرة"⁽²⁾.

مصطفى صادق الرافعي:

استجابة لطلب الجامعة المصرية فقد ألف مصطفى صادق الرافعي كتابه (تاريخ أدب العرب) وهو عبارة عن خمسة أجزاء، وقد قام هيكل بتوجيه نقده للجزء الأول من هذا الكتاب الذي يحتوي على أربع مائة وأربعين صفحة، ويختص بالتاريخ، وقد تناول هيكل في نقده لهذا الجزء أسلوب الكاتب، وطريقة تقسيم الكتاب وسيره في عمله وآراء أخرى.

لقد شمل نقد هيكل عنوان الكتاب (تاريخ آداب العرب) فيقول: "فإنك تمر به من أوله إلى آخره ولا تكاد تقف على كلمة واحدة عن آداب العرب وتاريخها، تجد فيه كل شيء عن العرب إلا ما يخص أدبهم"⁽¹⁾.

(1) ينظر: هيكل، في أوقات الفراغ (ص186-193).

(2) الجندي، المعارك الأدبية في مصر... (ص13).

ويقترح هيكل على الراجعي تغيير اسم الكتاب أو عنوانه فيقول: "ولو أنه سمي هذا الجزء من كتابه تاريخ اللغة العربية لكان أدق في انتقاء عنوانه وأبعد عن أن يخدع القارئ"⁽²⁾.

إن الذي دفع هيكل إلى اقتراح تغيير عنوان الكتاب هو أن الراجعي خلط بين اللغة في ذاتها وبين أدب اللغة هذا على حد تعبير هيكل، ويضيف هيكل أن الراجعي "بحث كثيرًا في كتب العرب وأراد أن يخرج من بحثه بنتيجة يفخر بأنها شيء جديد... لكن النتيجة العامة لا تفيد إلا الأقلين وفي مواضع ليست بذات أهمية كبيرة"⁽³⁾.

يبدأ هيكل حديثه بعد مقدمة طويلة عن الأديب، فيرى أنه لا يشترك في الأديب معرفة عوبص الألفاظ ومتروكها، بل الأديب من "يستطيع أن يلبس المعاني الجميلة أو الأفكار الدقيقة أو الصور أو النغمات، أو أي شيء مما يقع تحت الحس أو يجول في النفس لباسًا يظهر من خلاله جمالها وإبداعها، وكلما سهلت ألفاظه كانت أعذب سماعًا وأقرب للقرب وأحب للنفس"⁽⁴⁾، هذا فقد أبدى هيكل استغرابه للكاتب الذي ينتزع نفسه من الوسط الذي يعيش فيه -على حد قوله- بمعنى أنه ينتحل في أسلوبه وخيالاته وأفكاره صورًا ليست له ولا لقومه⁽⁵⁾.

ويربط هيكل حديثه السابق بأسلوب كتاب الراجعي حيث يقول: "واني آسف أن أقول أن كتاب تاريخ أدب العرب فيه شيء من هذا الرجوع إلى أطلال سكان شبه الجزيرة الآسيوية"⁽⁶⁾.

لقد أنكر هيكل على الراجعي استخدام هذا الأسلوب لأنه يحتوي على ألفاظ قديمة لم يعد استخدامها في هذا العصر، وقد رأى أن الراجعي يتناقض في ذلك مع أقواله فهو يرى أن الألفاظ أدوات للحياة الذهنية الخاصة بالنفس، وأن مدلولاتها أدوات للحياة المادية الخاصة بالحواس، لكن هيكل يستدرك الأمر فيضع مبررًا للراجعي وهو وقوعه أحيانًا في النسيان، أو لشدة إعجابه بالعرب ولغنتهم وأقوالهم وأعمالهم⁽⁷⁾.

(1) هيكل في أوقات الفراغ (ص208).

(2) المصدر السابق، ص209.

(3) المصدر نفسه، ص210.

(4) المصدر نفسه، ص201.

(5) ينظر: المصدر نفسه، ص202.

(6) المصدر نفسه، ص202.

(7) ينظر: المصدر نفسه، ص203.

ويمضي هيكل في نقد الرافي فيرى أنه يكتب بلغة معتادة وبأسلوب معتاد لا يمتاز فيهما بشيء، ويؤكد على أن مادة الحياة في أسلوبه قليلة، وأن أسلوبه ليس خطابيًا لأنه لا يدعو لشيء، وأنه لا يملك روح النقد الدقيق، ولا هو متمسك بتقليد الأقدمين فيكتسب منهم صيغتهم⁽¹⁾.

وبصراحة أكبر، وبوضوح أجلى يعلن هيكل موقفه وحكمه على أسلوب الرافي فيقول: أنه "غير دقيق في انتقاء الألفاظ وترتيبها، بل يجيء أحيانًا بجمل تكون من الغموض بحيث تستلزم وقتًا طويلًا لفهمها، وهي لا تحتوي ما يستدعي ذلك من خبر غريب أو معنى عميق"⁽²⁾.

وفي معرض حديث هيكل هذا ذكر أنه يختلف كليًا مع الرافي في استخدام البلاغة، فرأى أن الرافي يجيء أحيانًا بسجعات أو تشبيهات لا تتفق والبلاغة بحال، ويدلل على ذلك بأمثلة (بمتلخ عرق الشبهة) رأى أنه لا جمال فيها ولا ضرورة، وقول الرافي (الامة التي لا حوادث لها ليس لها تاريخ) فصوبها هيكل بقوله: "ولو أنه قال (لا تاريخ لها) لأعطى الجملة رونقًا يزينها، على أن أسلوب الكتاب... تنقصه غالبًا طلاوة اللفظ ودقة التعبير، فإنه يصعد أحيانًا حتى يكاد يكون بليغًا"⁽³⁾.

ومن وجهة نظر هيكل أن السبب في اعتبار الرافي للألفاظ الغليظة التي لا جمال فيها اعتقاده بأن اللغة العربية والخشونة صنوان، وأن الرجل متى سكن المدن ذهب فصاحته وانحصرت سليقته⁽⁴⁾.

حكّم هيكل على النقد في هذا الكتاب فقال: "والغريب أن روح النقد ضعيفة للغاية في كل الكتاب"⁽⁵⁾ وسبب هذا الضعف - كما يرى هيكل - اعتبار الرافي نفسه عربيًا مكلفًا بإقامة تمثال للعرب، لا مؤرخًا يأخذ الوقائع ويزنها ويرتبها ليصل من ذلك لوضع تاريخ مفيد.

لقد أخذ هيكل على الرافي أنه أرسل قلمه بالمديح للعرب من غير حساب كأنهم جماعة من الملائكة، ثم ذكر ولع الرافي بقول الشعر ومرجعه في كل معلوماته كُتب العرب وأسفارهم⁽⁶⁾، ويبدو أنه تأثر في مديحه للعرب بمديح الشعراء لهم.

(1) ينظر: هيكل، في أوقات الفراغ (ص203).

(2) المصدر السابق، ص203.

(3) المصدر نفسه، ص205.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص205.

(5) المصدر نفسه، ص212.

(6) ينظر: المصدر نفسه، ص212-213.

وفي نهاية المطاف يقرر هيكل أن كتاب الرافعي "خلا من حسن الطريقة وطلاوة التعبير وخرج عن الموضوع الذي كتب له"⁽¹⁾ لكن هذا الكتاب لم يخلُ من المعلومات والأخبار والحوادث وبعض الآراء الطيبة التي تستحق القراءة، وبعض المسائل الخاصة عن لغة العرب والاختلاف اللغوي بين القبائل وأصل الحديث وروايته، أما بقية ما قرره هيكل فهو "من يريد أن يقف على تاريخ أدب العرب فلا يتعب نفسه، ولا يضيع وقته بالبحث"⁽²⁾، هذه التوصية التي وجهها هيكل للباحثين توحى بعدم رضاه عما كتب الرافعي في موضوع تاريخ أدب العرب، والدليل أنه عندما تحدث عن تناول الرافعي لأخبار العرب، علق قائلاً: "على أن ذلك ليس من شأنه أن يبعث للنفس ثقة بما كتبه الرافعي، فمقدار الثقة أن لا يترك المؤرخ نفسه لشهواته وأهوائه يرسل القول على عواهنه، ولكن أن يتقدم للقارئ دائماً بالبرهان، بين يدي أدلته"⁽³⁾.

كثيرة هي المآخذ التي أخذها هيكل على كتاب الرافعي، منها ما يتعلق بالعنوان والمحتوى، ومنها ما يتعلق بالأسلوب، وأخرى تتعلق بالنقد والبلاغة.

يرى الباحث أن هيكلًا حكم على عنوان الكتاب من خلال جزء من خمسة أجزاء، فلو تريت قليلاً حتى يكمل الرافعي بقية الأجزاء فربما وجد ما عدّه نقصاً أو تناقضاً مع العنوان.

يبدو أن مسألة نقد هيكل للرافعي كانت مرتبطة بالمعارك الأدبية والنقدية التي سادت عصرهما، حيث ساهمت الصحف والمجلات في تنمية واشتعال الخصومة بين اتجاهين أدبيين: الاتجاه القديم الذي كان يميل إلى التحليل البلاغي والبياني، وكان الرافعي جزءاً منه، بينما كان هيكل محسوباً على الاتجاه المضاد له، وهو الاتجاه العلمي والفلسفي الذي تأثر بالمدرسة الإنجليزية والأدب الأوروبي، لقد احتفى أصحاب الاتجاه القديم بالبيان وأعلوا من قدره، وطالبوا بعدم الخروج على أصول القصيدة العربية، فأساس التفاضل عندهم "إنما يكون في ابتكار الأشياء على طريقة الشعر لا على طريقة النظم"⁽⁴⁾، كما نادوا بضرورة التمسك باللغة الفصحى، والسير على منهاج الفصحاء في التراكيب يقول الرافعي: "وليس عندنا في وجوه الخطأ أكبر ولا أعظم من أن يظن امرؤ أن اللغة بالمفردات لا بالأوضاع والتراكيب"⁽⁵⁾، وكان يدافع عن اللغة الفصحى، ورأى أن ذوق العصر الحديث لا يُعتد به لما ساد فيه من عجمة وعامية، وأن القياس

(1) هيكل، في أوقات الفراغ (ص214).

(2) المصدر السابق، ص214.

(3) المصدر نفسه، ص213-214.

(4) الرافعي، ديوان الرافعي (ج1/52).

(5) مرزوق، تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث... (ص368).

الأصيل لا يكون إلا بالصحيح القديم لا بالمحدث الجديد، وأن خصائص اللغة العربية وسعتها هو ما يجعلها في القمة دائماً، فعندها المقدرة على استيعاب كل الكلمات الغربية⁽¹⁾.

وعودة إلى هيكل حيث يُصور هذه الخصومة النقدية فيقول: "كثير كلام الناس بعد الحرب عن القديم والجديد، وشُغل الرأي العام بالمعارك العنيفة التي دارت بين أنصار المذهبيين في سائر نواحي المجتمع، وكان الناس عندما يطلقون القديم يعنون به كل ما يمت بصلة إلى تراثنا الموروث من دين وتقاليد، بينما كانوا يعنون بالجديد كل طريف وطارئ علينا مما هو منقول في معظم الأحيان عن الأوروبيين"⁽²⁾.

وفي رد غير مباشر على ما ذهب إليه هيكل يقول الراجعي: "قالمذهب القديم إذاً هو أن تكون اللغة وما تزال لغة العرب في أصولها وفروعها، وأن تكون هذه الأسفار القديمة التي تحويها ما تزال حية... وأن يكون الدين العربي ما يزال هو كأنما نزل به الوحي أمس... وأن يأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين"⁽³⁾.

أما موقف الاتجاه القديم من التجديد فيتمثل في أنه: "لا جديد من غير قديم، ولا قديم إلا بالجديد، ولا يقام وزن أحدهما إلا بوزن الآخر"⁽⁴⁾، معنى ذلك أن هذا الاتجاه يرفض كل جديد يتصادم مع أصول القصيدة العربية، أما الراجعي ففي دواوينه الثلاثة أثر من التجديد في شعره، فقد مال إلى العاطفة والاحتفاء بالحب، حيث ثارت مزية فيه⁽⁵⁾.

في ضوء ما سبق يرى الباحث أن هيكلًا كان قاسيًا في حكمه المباشر والصريح على الراجعي وكتابه مما قلل من قيمة الكتاب وأهميته.

جورجي زيدان:

يرى هيكل أن جورجي زيدان من أكبر كتّاب التاريخ في مصر، ألف أكثر من خمسة وعشرين كتابًا في التاريخ تقع في أكثر من ثلاثين جزءًا، علاوة على عدد من الكتب التي ألفها في موضوعات شتى، ويذكر هيكل أن غاية جورجي من ذلك نشر التاريخ وتعميمه ليعرف

(1) ينظر: الراجعي، تاريخ آداب العرب (ج1/173).

(2) حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (ج2/178).

(3) الراجعي، تحت راية القرآن (ص9).

(4) مرزوق، تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث... (ص396).

(5) ينظر: المرجع السابق، ص365.

الناس الحوادث التي وقعت في الماضي⁽¹⁾، ويرى شوقي أبو خليل أن لجورجي زيدان غاية أخرى غير هذه الغاية، حيث يقول: "إن الغاية التي توخاها جورجي هي تحقير الأمة العربية، وإبداء مساوئها، وتمييع تاريخها، وتفسيره تفسيرًا فرويديًا، ولكنه لما كان يخاف ثورة الفتنة، غيّر مجرى القول، وليس الباطل بالحق، فما ترك سيئة إلا وعزاها للعرب، أمويين وعباسيين، وما خلى حسنة إلا وابتزها منهم، وكل ذنبهم أنهم عرب على صرافتهم"⁽²⁾.

أهدى جورجي زيدان كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) لهيكل، يقول في ذلك هيكل: "جاء إلي خطاب من المرحوم جورجي زيدان (وتحدث عن هدف الخطاب)... ليرسل إلي كتابه عن (تاريخ أدب اللغة العربية) لعلني أجد فيه موضعًا للنقد... وتوفرت على قراءة الكتاب وتدوين الملاحظات عليه، ثم كتبت عنه عدة مقالات نشرتها (الجريدة)"⁽³⁾. وقبل أن ندع المجال لهيكل لينقد هذا الكتاب نستفتح بما قاله هيكل كأساس لهذا النقد، حيث إنه وعد بالتشديد في نقده لكتاب جورجي زيدان فخبراته وتجاربه الطويلة في التأليف "ولتاريخه في آداب اللغة العربية من الفضل أنه جاء بعد تجربة طويلة وحنكة وخبرة بالطرق في أساليب التأليف وكيفية ترتيبه، لذلك ننظر منه دقة كثيرة في الوضع، وإذا حاسبناه على شيء حاسبناه بالدقة عينها، فلا نتجاوز معه كما نتجاوز مع من لم يطرق كتابة التاريخ إلا حديثًا"⁽⁴⁾.

أراد هيكل بهذا الكلام أن يكون واضحًا في نقده لجورجي زيدان بما يتناسب ومستواه، فهو سيحاسبه بدقة ولا يتجاوز معه ولا يتهاون، فالنقد سيكون في قمة الشدة، هذه الدقة في النقد والمحاسبة خاصة بجورجي زيدان فقط وذلك لسببين: الأول أن جورجي زيدان ضليع في آداب اللغة العربية وله في ذلك التجارب الطويلة، والخبرات العديدة، أما السبب الثاني فلمعرفة هيكل أن جورجي زيدان سيقابل هذا النقد بصدر رحب وروية وسكينة التي هي من طبعه.

وتحدث هيكل عن طريقة جورجي زيدان في البحث والكتابة فذكر أنه "كان ينظر للغة العربية وللأديب العربي نظرة موضوعية وبيحثها على ضوء الطرائق الحديثة، يشك في ما يرى محلًا للشك فيه من أدب الجاهليين وغير الجاهليين، ويثبت ما يرى إثباته من أدب هؤلاء وأولئك"⁽⁵⁾.

(1) ينظر: هيكل في أوقات الفراغ (ص136).

(2) أبو خليل، جورجي زيدان في الميزان (ص10).

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/342).

(4) هيكل، في أوقات الفراغ (ص216).

(5) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/343).

وبعد هذا التقديم لنقده، يبدأ هيكل بالحديث عن أسلوب جورجى زيدان، فقد رآه واضحاً تمام الوضوح؛ لأنه يكتب للناس بلغتهم المتعارفة التي يتفاهمون بها في جرائدهم ورسائلهم، يكتب من غير عناء ولا تكلف، بل يرسل قلمه حرّاً إلى أقصى درجات الحرية، يعبر بأسلوبه البسيط عن كل ما يريد ويفهم القارئ فكرته بكل دقة، وكان لا يلجأ إلى اللغة الخطابية في كتابته إلا نادراً، وكان يروي قصصه التاريخية بكل سهولة وبساطة، ولا يجد في نفسه حرجاً إذا عبّر عما في ضميره بدون تفخيم أو تجميل، يحكي القصة التي وقعت كما وقعت⁽¹⁾، وبنوع من الوضوح يتحدث هيكل عن أسلوب جورجى فيذكر أنه كان "أسلوباً صحفياً لا يمتاز بمتانة الدباجة، ولا بروعة البيان، وإن كانت منه بساطة ويسر يجعلانه قريباً من أفهام الناس جميعاً"⁽²⁾.

ويرى هيكل أن من فضائل الكتابة عنده، أنه يحرص على نقل أفكاره للقراء بألفاظ خالية من الركاكة والتعقيد، لأنه يرى أن التعمق في الأفكار، أو التعمق في الألفاظ فيه خروج على قاعدة الكتابة للمصلحة العامة، بمعنى أنه يجب أن تكون في الكتابة بساطة لتكون مراعية لمستوى كل الأفهام⁽³⁾، لكن هيكل بالمقابل يعيب على جورجى ضعف الصياغة، والبعد عن جمال التعبير.

ويجتهد هيكل بعد ذلك في إظهار طريقة تأليفه، فيرى أنه في الغالب يجيء بالأفكار والحوادث العامة ليخرج منها القارئ بفكرة عامة عن تاريخ الأمة، وكان لا يقف عند الحوادث الصغيرة ليفسرها، ويمدح الفضائل ويحجب فيها.

لقد سجل هيكل على جورجى زيدان (أغلاطاً تاريخية كان من السهل تجنبها)⁽⁴⁾، فقد صور عرب الجاهلية وهم قوم بدو رحل صورة مبالغاً فيها، فقد وصفهم بالعظمة في العلم والأخلاق والسياسة ما يناهض أرقى الأمم في القرن العشرين، وقد بنى رأيه هذا على استنتاجات ظنية وليس على حجة قاطعة⁽⁵⁾، كذلك أخطأ في تقديره العالي لحكمتهم، ويعزو هيكل إعجاب

(1) ينظر: هيكل، في أوقات الفراغ (ص216-217).

(2) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/343).

(3) ينظر: هيكل، في أوقات الفراغ (ص220).

(4) ينظر: المصدر السابق، ص221.

(5) ينظر: المصدر نفسه، ص223.

جورجي زيدان بعرب الجاهلية؛ أنه لا يرى إلا الوجه الحسن من تاريخهم، أو هو يريد أن يجدهم كما وجدهم غيره من الكُتاب⁽¹⁾.

كما وشرع هيكل في محاسبة ونقد جورجي زيدان كمؤرخ حيث يقول: "وأول المطلوب من المؤرخ... أن يتحرى في التاريخ الذي يكتب كل دقيقة وجليظة، وأن يفسر الحوادث بالدقة والضبط، وقد رأينا صاحب تاريخ آداب العرب لم يقد بذلك على الوجه الأكمل"⁽²⁾، وفي السياق نفسه يتحدث شوقي أبو خليل فيقول عن جورجي: "ظن أنه يكفي من الاستعدادات لكتابة تاريخ الإسلام، اقتباس أسلوب الغربيين فيه، ومراجعة وترجمة كتبهم الجامعة لمادته، وبما يرفدونه من أفكار وآراء، مع أن التاريخ ليس قياساً فما لم يثبت بالرواية، لا ينفع مجرد القياس فيه، فأخطأ جورجي بالرأي، وأخطأ بالنقل والترجمة، علماً أن خطأ الرأي وحده فادح كبير، فكيف بخطأ النقل والترجمة؟ فهو أفدح وأمر؟! وبخاصة إذا علمنا أن جورج روائي قاص، وليس مؤرخاً محققاً!!"⁽³⁾.

ويبدي هيكل أسفه لأنه وجد في كتابته (ألفاظاً غامضة لا يستطيع الإنسان أن يفهم منها رأي المؤلف عن العرب).

ولم يجد هيكل متسعاً لنقد الشعراء العرب لأن جورجي زيدان اكتفى بإيراد أشياء قليلة عن أخبارهم وحياتهم.

أما بالنسبة للترجمة فقد ترجم جورجي زيدان لشعراء عصر الراشدين مع شعراء الجاهلية، ويسجل هيكل عليه أنه لم يترجم لخطباء ذلك العصر، ولم يذكر السبب في سكوته عن ذلك، وأنه سكت بشكل مطلق عن القرآن والحديث كأنهما لا يدخلان في تاريخ آداب اللغة العربية بينما يدخل الطب والكهانة على حد تعبير هيكل⁽⁴⁾.

ويتساءل هيكل في نفسه عن سبب هذا السكوت، لكنه لم يجد جواباً صريحاً مقنعاً، فقال لعله رأى -يقصد جورجي زيدان- أن في كلامه عن القرآن والحديث وأصولهما وقيمتها الأدبية ما يمس بعض العقائد⁽⁵⁾.

(1) ينظر: هيكل، في أوقات الفراغ (ص227).

(2) المصدر السابق، ص231.

(3) أبو خليل، جورجي زيدان في الميزان (ص8).

(4) ينظر: هيكل، في أوقات الفراغ (ص233-237).

(5) ينظر: المصدر السابق، ص238.

وكان يود هيكل من جورجي زيدان "أن يفرد كلمة عن النبي ﷺ وحياته من جهتها الأدبية، والمصادر التي استقى منها وكيف وصل ليكون أسلوبه كما كان"⁽¹⁾.

من جهة أخرى يمكن تلخيص ما ذهب إليه شوقي أبو خليل في كتابه (جورجي زيدان في الميزان) بعد أن استعرض الأخطاء التي وقع فيها في مؤلفاته، فذكر أنه شوّه سيرة أبطال الإسلام، وطمس بطولات وفتوحات المسلمين، وأثار الشكوك حولها، وأظهر شعوبية وحقداً على العرب، وحاول إثارة الأحقاد بين السنة والشيعة⁽²⁾.

في ضوء ما سبق يرى الباحث أن هيكلًا حاول استيفاء نقد كُتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) لجورجي زيدان، ويُلاحظ أنه كان في بداية النقد بيدي نوعاً من التشدد، ولأن طبيعة النقد تقتضي ذكر المحاسن والعيوب، وللوصول إلى بعض النتائج لا بد من استعراض سريع موجز لها، ونبدأ بالمحاسن:

1- أقر هيكل أن جورجي زيدان كاتب كبير ذو خبرة وتجارب، وعلى هذا الأساس سيتم نقد كتابه.

2- كان هيكلٌ راضيًا عن أسلوب جورجي زيدان فذكر كثيرًا من مميزات.

أما السلبيات التي وقع فيها جورجي زيدان وسجلها عليه هيكل فتتمثل بالتالي:

1- وقع جورجي زيدان في أغلاط تاريخية منها تعصبه لعرب الجاهلية.

2- رأى هيكل أن جورجي زيدان لم يقدّم بدوره الكامل كمؤرخ، فلم يكن دقيقًا في كتابة التاريخ ولم يفسر الحوادث.

3- ورد في كتابة جورجي زيدان ألفاظ غامضة يصعب فهمها.

4- قصر جورجي زيدان في الحديث عن الشعراء العرب، واكتفى بأشياء قليلة عن حياتهم وأخبارهم.

5- لم يترجم جورجي زيدان لخطباء عصر الراشدين.

6- لم يتحدث جورجي زيدان عن القرآن والحديث والنبي محمد ﷺ.

(1) هيكل، في أوقات الفراغ (ص241).

(2) ينظر: أبو خليل، جورجي زيدان في الميزان (ص308-315).

بعد هذا التقييم يود الباحث أن يسجل بعض الملاحظات:

الملاحظة الأولى: أن السلبيات التي ذكرها هيكل في نقده لكتاب جورجى زيدان أكثر من الإيجابيات (2-6)، وهذا مؤثر لأن يعيد جورجى زيدان النظر في كتابته ويستفيد من ذلك على اعتبار أن هذا النقد كان حديثاً ولم يمضِ عليه هذا الزمن الطويل.

الملاحظة الثانية: لو تم تطبيق هذا النقد على الأساس الذي أشار إليه هيكل في بداية حديثه لوقع جورجى زيدان في حرج شديد، وكان الحال صعباً.

الملاحظة الثالثة: أبدى جورجى زيدان تعصبه للعروبة وإن كانت في الجاهلية مما أوقعه في أغلاط تاريخية، علاوة على أنه لا يجوز لأي كاتب أن يكون متعصباً لأن ذلك سيؤثر على موضوعيته وحياديته.

الملاحظة الرابعة: ونختم بأسئلة تحتاج الإجابة عليها إلى تفكير عميق وأدلة وبراهين، وهي: لماذا لم يقدّر جورجى زيدان بدوره كمؤرخ رغم إمكاناته وخبراته؟.

ولماذا لم يعطِ الإسلام والنبي ﷺ حقهم في الحديث؟.

ولماذا أهمل ترجمة خطباء عصر الراشدية؟.

الفصل الخامس

مقالات هيكل في ميزان النقد

الفصل الخامس

مقالات هيكل في ميزان النقد

المنتبع تاريخياً للمراحل التي مرت بها كتابات هيكل يلاحظ أنها دخلت في أطوار مختلفة، وسارت في اتجاه التغيير والتطور، فقد رسم هيكل لنفسه خطأً بيانياً متصاعداً من أجل تطوير فكره، والارتقاء بنتاجه، حيث انطلق من خلال شعوره بالمسئولية الكاملة تجاه وطنه وعروبتة ودينه، فسخر كلمته، وأنعم عقله، وبذل جهده ليكون جزءاً من الحركة الفكرية الثقافية المصرية.

كان في بداية مشواره "يرى أن السبيل إلى إقامة بعث فكري، يكون بتقليد الغرب أو احتذاء ما يلهمه التراث الفرعوني، ألغى هذا وذاك وأصبح يرى أن السبيل الصحيح إلى ذلك يكون ببعث الحضارة العربية والتاريخ الإسلامي، لأنه رأى أن الحضارة لا تُبعث من غير روح، والروح الوثابة التي تضمن قيام حضارة سليمة هي روح الإسلام وروح العروبة"⁽¹⁾.

وكان يسعى إلى فهم أمور الحياة في جميع جوانبها من خلال التعمق في دراسة التاريخ والفنون والقانون والفلسفة، ويقول: "إن تاريخ الفنون والأنظمة والأخلاق والحقوق والمدنية على العموم لا يمكن فهمها من غير الرجوع إلى تاريخ التطور العقلي أي تاريخ العلم والفلسفة.." ⁽²⁾.

ويذكر بعض الباحثين المعاصرين أن هيكلًا من خلال تعدد ألوان كتاباته "يكشف لنا عن روحه التقدمية النزاعة إلى التطور والتجديد"⁽³⁾.

من مميزات شخصية هيكل أنها كانت منفتحة وطموحة، تنزع إلى التقدم والتطور على جميع الأصعدة، وكان هيكل يتمتع بروح وثابة عطشى إلى الحداثة والتحضر، وهذا ما دفعه إلى خوض التجارب المتعددة في الكثير من المجالات وذلك لزيادة خبراته وتنمية مهاراته، وبذلك يكون قد استفاد وأفاد.

(1) وادي، هيكل رائد الرواية (ص123).

(2) هيكل، الإيمان والمعرفة والفلسفة (ص74).

(3) عبد الدايم، مقالات وبحوث في الأدب المعاصر (ص9).

أولاً- فكر هيكل بين التطور والتغيير:

تحدث هيكل عن أول مراحل التغيير الفكري وبداية التحول الثقافي عنده وعند أمثاله من الشبان المصريين الذين درسوا في بلاد الغرب، وتأثروا بحضارتها، وانعكاس ذلك على أنشطتهم الفكرية التي حاولوا نشرها في بلادهم، يقول في ذلك: "عاد الشبان الذين أتموا دراساتهم في أوروبا قبل الحرب وخلالها أو أعقابها ممثلة صدورهم إعجابًا بالأدب الكبير الذي قرأوه، والذي شاهدوا على المسارح، موجّهة عقولهم توجّهًا جديدًا على الطرائق المعملية الحديثة، وعادوا فدخلوا الميدان بقوة ونشاط"⁽¹⁾.

هذه هي نقطة الانطلاق، أما عن مرحلة النضوج فقد " كان هيكل إبان ثورة 1919م الوطنية، قد اكتمل نضجه الفكري، واتضحت معالم شخصيته الفكرية، وبدأ يشارك في صياغة الرأي العام، ويعمل على تعميق الروح الوطنية القومية"⁽²⁾.

بدأ هيكل رحلته الفكرية مذ كان طالبًا في فرنسا، وبدأ مرحلة النضوج الفكري إبان ثورة 1919م، ومن المؤكد أن الفترة الزمنية التي كانت بينهما كانت فترة نمو ونهضة وانتقال من حالة إلى حالة أخرى أفضل منها وذلك بسبب تعميق التجربة وزيادة الخبرة التي جناها هيكل من خلال الاطلاع الشامل والمستمر على الآداب العالمية أو الأدب الكبير الذي كان يعشقه، ولم يبلغ ما بلغ إلا بعد جهد مضمّن، وعمل دؤوب، وتواصل لا ينقطع مع الحضارات والثقافات والفكر والآداب والسياسة والفلسفة والقانون، كل ذلك كان له دور رئيس في رسم معالم شخصيته، واكتمال ملامح صورته الفكرية والعلمية، ومن ثم فإن هذه المرحلة أهّلت هيكل بل ومهدت له ليكون من رواد عصره، وأعلام زمانه، فشارك في الحياة السياسية والعامّة في مصر بشكل مباشر، وقد ترك بصماته وأثاره عليهما.

بدأ التحول في حياة هيكل مع قيام ثورة 1919م، حين انتقل من المنصورة إلى العاصمة القاهرة ليأخذ دوره في نشر الوعي الوطني والمشاركة الفعالة في هذه الثورة، فقد كانت مؤلفاته وكتاباته في هذا المجال قد أعلنت من قدره، وأبرزت شخصيته في نفوس المصريين، بل هي التي أهّلته ليصبح رئيس تحرير جريدة السياسة في شهر أكتوبر عام 1922م، "وفي هذه المرحلة تتطور المقالة الصحفية عند هيكل سواء من حيث تنوع موضوعاتها الأدبية والفكرية والسياسية، أو من حيث البناء الصحفي والفني، وأوضح ما يلفت النظر في هذه الفترة هو أن

(1) هيكل، ثورة الأدب (ص10).

(2) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص104).

هيكلاً قد بدأ يعنى بالسياسة عناية كبيرة، ويعبر في كتاباته عن وجهة نظر خاصة هي وجهة نظر الحزب الذي ينتمي إليه⁽¹⁾.

بعد أن عمل هيكل في مجال الصحافة، ركز على تطوير نفسه في كتاباته ومقالاته حيث ارتقى بها، ثم اتجه لاحقاً إلى العمل السياسي، فأولاه اهتماماً خاصاً، وانتمى إلى حزب سياسي ليخوض معترك الحياة السياسية بألوانها وأشكالها، وبحلونها ومرها، ومن يدرس المقالة السياسية عنده يجد هذه الدراسة قد بينت أنه منذ "تصدى للدفاع عن الدستور والدستوريين ترسم خطأ بيانياً بقوة النبض الوطني عنده، كما تبينت جرأته الشديدة وقوة أسلوبه في اللجاج والمحاجة ونقد الأوضاع بطريقة منطقية جذابة"⁽²⁾.

دفاع هيكل عن الدستور عمق نبضه الوطني ومنحه رصانة الأسلوب وقوة البيان "إذ كان تعبيره في عهده الأول لا يخلو من ضعف... كما أن اتجاهه الفكري كان بعيداً عن مآثر الوحي المحمدي، لا تستضيء بنوره... فلما شرفه الله بالاتجاه الإسلامي المبين، انتفض تعبيره الأدبي مورفاً زاهياً، وسما اتجاهه الفكري إلى ذروة كتبت لآثاره الخلود"⁽³⁾.

انطلق هيكل باحثاً عن الحقيقة، وكان من ثمار ذلك أن اتجه إلى الفكر الإسلامي الذي تبناه بقناعة وقوة، وانعكس ذلك بوضوح على مؤلفاته وكتاباته، فلم يكن "في ذلك التطور الرائع غير إنسان أخذ يبحث عن الحقيقة الخالصة منذ نشأ في دنيا الكتابة الأدبية حتى اهتدى إليها بعد تعثر طويل"⁽⁴⁾.

بحث هيكل عن الحقيقة بكل جدية ونشاط، فأنعم نظره، وقدح زناد فكره للوصول إليها، فانتقل من اتجاه إلى آخر، وهذا يحسب له، وليس ذلك من باب التقلب المزاجي أو الاضطراب النفسي، بل هو "تفحة إلهية جذبتة إلى الثقافة الإسلامية في معينها الصافي، حيث التفت إلى دراسة السيرة النبوية ببصيرة، فقرأ كتاب الله - عز وجل - وطالع الآثار الصحاح من كتب السنة المطهرة، وقرأ كتب الأعلام من أئمة البيان الجزل، والتأليف المحكم، فجاء أسلوبه في كتبه

(1) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص152).

(2) المرجع السابق، ص153-154.

(3) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص64-65).

(4) المرجع السابق، ص77-78.

(حياة محمد)، و(الصدّيق أبي بكر)، و(الفاروق عمر)، و(عثمان)، و(في منزل الوحي) مثلاً أعلى للبيان المشرق⁽¹⁾.

لقد تأكّد هيكّل من إخفاق الدعوة الفرعونية، وأدرك أنه لن يكون لها تأثير في نهوض الأمة وبعثها من جديد، بعد ذلك أيقن بضرورة البحث عن السبيل القويم والنور المبين "البعث الأمة العربية، فوجد ضالته المنشودة في تاريخ العرب ومجد الإسلام، فاتجه بخالص جهده بعد أن استحصّد فكره، واتسع أفقه، وعمق تجربته إلى الدراسات الإسلامية"⁽²⁾.

في ضوء هذه الهداية الربانية والنفحة الإلهية، حاول هيكّل أن يُقوّم نفسه، ويُعدّل من آرائه، ويغيّر من أفكاره، فقد طوى عهد التأثر بالحياة الغربية والحضارة الفرعونية، وانفتح على عالم آخر تسوده الطمأنينة ويعم فيه السلام، عالم يحكمه الإيمان، وتوجهه العقيدة.

ويشير أنور الجندي إلى نقاط التحول وأسباب التغيير في فكر هيكّل فيذكر منها⁽³⁾:

1- أن هيكلاً وكثيراً من الشبان الذين حملوا لواء الحضارة الغربية شعروا شعوراً قوياً صادقاً بأنهم في حاجة إلى أكثر مما تمدهم به الحضارة الغربية، فالتمسوا ذلك في تراث السلف من المسلمين ليسدوا هذا النقص في الحضارة الجديدة.

2- أنهم رأوا فكرة القومية في الغرب تقوم على نضال اقتصادي عنيف لا يعرف الخلق ولا الإخاء الإنساني ولا المودة ولا الرحمة، نضال في سبيل المادة بين أهل البلد الواحد، وبين الدول المختلفة، وهو الذي كان مثار الحروب وأسباب الشقاء والتعاسة في هذا العصر.

بناء على ما تم عرضه سابقاً يستطيع الباحث أن يقف على الملاحظات التالية:

1- لم تقتصر عملية التطوير والتغيير على هيكّل وحده، بل شملت الكثير من أبناء جيله خاصة الذين درسوا في بلاد الغرب وتأثروا بحضارتها، فقد شاركوا جميعاً في إحداث ثورة فكرية ونهضة ثقافية، عندما شعروا بنقص في الحضارة الغربية، وقيام فكرة القومية الغربية على العنف وحب المادة والتخلي عن الأخلاق الإنسانية.

(1) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون ... (ص 66-67).

(2) المرجع السابق، ص 59.

(3) ينظر: الجندي، المعارك الأدبية في مصر ... (ص 317).

- 2- مر هيكمل بمراحل كثيرة قبل أن يصل إلى مرحلة النضوج الفكري، حيث انتقل من اتجاه إلى اتجاه، ومن فكر إلى فكر باحثاً عن الحقيقة، لكنه في النهاية استقر على التوجه الإسلامي الذي ثبت عليه، لكن هذه المرحلة الأخيرة لم تأخذ حقها الكافي من التعمق والدراسة.
- 3- ساهم هيكمل مساهمة فاعلة في تطوير المقالة الصحفية من حيث تناول الموضوعات، والارتقاء بالبناء الفني، وقد جمع في هذه المقالات بين السياسة والفكر والأدب.
- 4- لعب هيكمل دوراً أساسياً فاعلاً في الحياة المصرية، فانتمى إلى حزب سياسي ثم ترأسه، وخاض المعترك السياسي من خلال المناصب النيابية والحكومية التي تولاها، ومن خلال عمله الصحفي، فقد ركز في كتاباته على المقالة السياسية، كما كان يوجه نقده المستمر إلى الأوضاع السياسية بطريقة منطقية، وفي الوقت نفسه كان يدافع عن الدستور.
- 5- كان هيكمل يتمنى أن تتوحد الأمة العربية وأن تُبعث من جديد، ويتطلع إلى تحقيق ذلك من خلال توجهاته المختلفة، لكنه في النهاية أيقن أن الإسلام هو الذي يستطيع أن ينهض بالأمميتين العربية والإسلامية معاً، ويحررها من كل القيود والجمود.

ثانياً - مظاهر التجديد في مقالات هيكمل:

لهيكمل في مقالاته المتعددة والمتنوعة بصمات ملموسة، وآثار محسوسة في مجال التجديد، فقد برزت آراؤه التقدمية المستنيرة كمساهمة إيجابية منه في دعم النهضة الأدبية والثورة الفكرية في مصر، فقد كان "رائداً ثورياً ومنتظوراً... أشاع في الأدب من عميق الأثر في الجانبين السياسي والاجتماعي ذلك أن مواقفه السياسية والاجتماعية قد اتصفت بالسمات الأدبية والالتزام الأدبي والخلقي... وما من موضوع سياسي أو اجتماعي عالجه وقدمه إلا رأيت فيه منفعة أدبية أو التزاماً خلقياً أو صدقاً علمياً"⁽¹⁾.

1- مفهوم التجديد عند هيكمل:

لقد حاول هيكمل أن يضع للتجديد مفهوماً خاصاً به، حيث ربط هذا المفهوم بمدى إدراك الواقع المعاش، والقدرة على التعبير الصادق عنه، حيث يقول: "إنني أفهم أن التجديد هو أن يشعر الشاعر أو الكاتب بشعور العصر الذي هو فيه، ويعبر عن ذلك تعبيراً صادقاً ممثلاً لصفات ذلك العصر الذي وضع فيه هذا التعبير"⁽²⁾.

(1) مجلة الثقافة، من مقالة لأميل توفيق، العدد 100 (ص 90).

(2) هيكمل، مقالات محمد حسين هيكمل (ج 2/252).

رأى هيكل أن لكل عصر من العصور سماته الخاصة به، ومميزاته التي تميزه عن غيره، فهي جميعاً تخضع لسنن الله التي تقتضي أن تكون الحياة دائماً في تطور مستمر، لذلك أكد على أنه ينبغي على الشاعر أو الكاتب مسايرة هذا التطور والاستفادة منه، والتفاعل معه، فيستخدم آليات جديدة للتعبير الصادق عنه، وقد وضح هذا المفهوم بشكل أدق حينما قال عن التجديد: هو "إبراز كل ما يقع تحت الشعور بحكم البيئة والتعبير تعبيراً صادقاً عن الحياة التي تحيط بهذه البيئة"⁽¹⁾ وقال: "إنما هو في الشعور والإحساس بتقديم الحياة العقلية"⁽²⁾.

ربط هيكل آنفاً التجديد بالعصر وحياة الناس فيه، والتعبير الصادق عنهما، ثم حاول أن يكون أكثر تحديداً لهذا المفهوم وأدق تعبيراً، فربطه مرة أخرى بالحياة المحيطة بالبيئة ومدى الشعور بها، ثم ربطه مرة ثالثة بالحياة العقلية والإحساس بها.

وليس بعيداً عن هذا المفهوم للتجديد، يرى أحمد أمين أن من ضروب التجديد اختيار الألفاظ التي تناسب العصر، حيث يقول: "تجديد الألفاظ: باختيار الألفاظ التي تناسب العصر ويرضاها ذوق الجيل الحاضر، لأن لكل أمة في كل عصر ذوقاً خاصاً بها، تختار به ألفاظاً تناسبها وتأنس بها، وتجمع ألفاظاً لا تستحسنها ولا تستسيغها، وذوق الأمة في حياة مستمرة فهو كذلك في عمل مستمر إزاء الألفاظ"⁽³⁾.

يلتقي هيكل مع أحمد أمين في مفهوم كل منهما للتجديد من حيث صدق التعبير عن الحياة العقلية للناس، وذلك باختيار الألفاظ التي تناسب عصرهم، ويرضاها ذوقهم، والألفاظ جزء لا يتجزأ من البيئة المحيطة بهم.

وأياً كان الأمر، فإن الباحث يرى أن هيكلًا من خلال مفهومه للتجديد قد دعا إلى فهم الواقع وإدراكه مكاناً وزماناً وحياة، والإحساس به، والتعبير عنه بكل صدق وأمانة، وإبراز ما فيه من تطور، وإظهار سماته ومميزاته.

2- طبيعة التجديد عن هيكل:

في مقالة لهيكل بعنوان (التجديد في الأدب وكيف أفهمه) استتكر فيها الفهم الخاطئ للتجديد عند بعض الأدباء أو المتأدبين، وبعض ناشئة الأدب الحديث -على حد تعبير هيكل- لأنهم "يفهمون التجديد على غير وجهه، فهم يريدون منه الخروج عن الماضي، والانفصال عنه

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/253).

(2) المصدر السابق، ج2/253.

(3) أمين، فيض خاطر (ج4/10).

انفصالاً تاماً، واستعمال أدوات أخرى غير ما كان القديمان يستعملونه من أدوات وأصول... إن الأساس الذي تقوم عليه مدرستنا الحديثة في التجديد والتجديد هو الاعتماد على الماضي، وإيجاد صلة بيننا وبينه⁽¹⁾.

لقد وضع هيكل طبيعة التجديد الذي يقصده، حيث بين أنه امتداد للماضي واستكمال لما بدأه السابقون، أما هدمه، والانفصال عنه، وقطع الصلة به، وعدم استعمال الأدوات القديمة، والاستغناء عن الأصول فهو خطأ فادح وقع فيه دعاة التجديد الذين لا يفهمون معناه حق الفهم، فالتجديد عندهم هدف لذاته، بل إن فيه إنكاراً وإجحافاً للجهود السابقة التي بذلها علماءنا وأدباؤنا، وفي دعوة خفية للتخلي عن الحضارة الإسلامية بكل أبعادها، واستبدالها بالحضارة الغربية، وهذا يتقاطع مع أهداف حركة الاستشراق، ويلتقي مع ما يصبو إليه المستشرقون.

وقد تحدث أحمد زلط عن طبيعة التجديد عند هيكل فقال: "أذيعت آراء د. هيكل التجديدي فوق صفحات (الجريدة) و(الأهرام) و(السياسة) و(السياسة الأسبوعية) و(المقتطف) و(السفور) وغيرها، وقد عبرت آراؤه ومقالاته عن رؤيته الإصلاحية الحضارية"⁽²⁾.

إن حرص هيكل على نشر آرائه الخاصة بالتجديد في صحف وجرائد عديدة ومتنوعة يدل على مدى اهتمامه بموضوع التجديد، فقد بنى فكرة التجديد على الإصلاح والتحضر، وكتب العديد من المقالات التي حملت في عناوينها الإصلاح مثل: (سياسة الإصلاح وأساسها في مصر) و(نهضة الإصلاح في مصر، تاريخها، قواعدها، غرضها) و(الفلاح وسياسة الإصلاح) و(في الإصلاح الاجتماعي) و(غرض مصر من الإصلاح) و(إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية)، أما عن رؤيته الحضارية فقد كتب -أيضاً- مقالات كثيرة جاءت تحت عناوين مختلفة مثل: (الحرب والحضارة) و(حضارة البر والرحمة) و(الحضارة ومستوى المعيشة) و(الإسلام والحضارة) و(أمل الحضارة في الأمم المتحدة).

وخلاصة القول في طبيعة التجديد عند هيكل أنه كان يحافظ على منجزات الماضي ويؤسس بناءه عليها، ويستخدم أدواتها، كما أنه لا يمانع من استعمال أدوات جديدة على قاعدة التطوير والارتقاء، وأن رؤيته للتجديد كانت مبنية على الإصلاح والتحضر، وأنه كان حريصاً على نشرها في الصحف والجرائد.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج2/251-252).

(2) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص104).

3- أهداف التجديد عن هيكل:

دعا هيكل إلى التجديد في الأدب، وكان هدفه من ذلك خلق أدب مصري قوي وفاعل من خلال اتصاله الدائم بقلب الكاتب وعقله وحياته، أو بمعنى آخر أن يلعب هذا التجديد دورًا إيجابيًا "في ثورة أدبية كانت تهدف إلى تطوير الأدب والفكر وإبراز الشخصية القومية فيهما"⁽¹⁾.

لقد حدد هيكل هدفين واضحين للتجديد الذي نادى به ودعا إليه، الأول خلق أدب مصري مميز في خصائصه، جميل في سماته، يجمع بين الصدق في الشعور، والدقة في التعبير، أما الهدف الثاني فهو تطوير الأدب والفكر معًا، وإبراز الشخصية القومية فيهما.

4- مجال التجديد:

استطاع هيكل أن ينشر فكرة التجديد في مجالات عديدة، فقد نجح "كمفكر حضاري مجدد أن يجمع بين الأدب والسياسة، وبرز في كليهما، وكما بقيت مؤلفاته وأفكاره من العلامات البارزة في النهضة الأوروبية والفكرية الحديثة"⁽²⁾.

ظهرت فكرة التجديد واضحة في مؤلفات هيكل ومقالاته، وقد كان من أهم المجالات التي برزت فيها الأدب والسياسة والفكر.

5- منهج التجديد:

وصف أحمد زلط منهج التجديد عند هيكل بأنه معتدل ووسطي، فقال: "والاستقراء الفكري لهيكل يعطينا مجموعة من الحقائق الهامة المرتكزة على منهجه المعتدل، ووقوفه موقفًا وسطًا بين اتجاهات التجديد"⁽³⁾.

يبدو أن هذا الوصف لمنهج هيكل التجديدي كان خاصًا بمرحلة عمره الأخيرة، حيث استقر به المقام في حقول التوجه الإسلامي، فقد "حاول هيكل من بين رواد الفكر المصري الحديث وبالتحديد في منتصف الثلاثينات أن يخلق أيولوجية وطنية ترتكز على الإسلام، ولم يكن هذا التحول إنكارًا لحياة الغرب العقلانية لصالح حياة الشرق الروحية، بل تطويرًا لقيم كليهما"⁽¹⁾.

(1) وادي، محمد حسين هيكل وتراثه الأدبي (ص178).

(2) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص110).

(3) المرجع السابق، ص182.

(1) السيد، تجربة مصر الليبرالية (ص340).

ارتكز هيكل في منهجه التجديدي على الإسلام كمنهج حياة، ومن هنا جاء وصف منهج هيكل بالوسطي المعتدل، فالإسلام لا يعرف التسبب ولا التطرف، ولا الظلم ولا الانحراف، وهيكل عندما اختار هذا المنهج وحدده اختاره بعناية فائقة، فقد جمع فيه بين عقلانية الغرب وروحانية الشرق ثم حاول أن يطور قيمهما في إطار الإسلام، ومن منطلق الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية، فالتوجه الإسلامي واضح وجلي في منهجه التجديدي.

6- آليات التجديد:

رفع هيكل شعار التجديد، واختار له منهجًا واضحًا يميل في مضمونه إلى التحديث، وينزع بطبيعته إلى التنوير، وقد حاول من خلاله أن يكشف ظلام الجمود، ويدعو "إلى تقديس الحرية الفردية واحترامها باعتبارها أهم الحقوق الإنسانية، وهي نزعة غالبة في أدبه وفكره"⁽¹⁾.

كان هيكل يؤمن في منهجه التجديدي بالحقوق الإنسانية الكاملة، ويجلها في أدبه وفكره، ويدعو إلى احترام الحرية الفردية وحرية الفكر باعتبارهما جزءًا من هذه الحقوق، وقد ظهر ذلك بوضوح عندما تناول هيكل الشخصيات الإسلامية الرائدة في الزمن الأول للإسلام بالدراسة والبحث فقد "أخضع هيكل بحوثه الإسلامية إلى حرية الفكر وتحت منظار العلم بالدرجة التي ساهمت فيها الشخصية التي اختارها في قيادة الحركة الإنسانية على ضوء قيم الحق والخير والجمال"⁽²⁾.

اعتمد هيكل في بحوثه على منطق العلم، وانطلق في دراساته بكل حيادية دون أن يتجاوز قيم الحق والخير والجمال، فقد "استخدم هيكل في كتابة البحوث والسير منهج العلم القائم على التحليل والاستنباط والتعليل والمقارنة، فكان هيكل بحق المؤرخ المنصف، والكاتب المحلل، والمترجم الأمين"⁽³⁾.

(1) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص105).

(2) المرجع السابق، ص132.

(3) المرجع نفسه، ص133.

في ضوء ما سبق يمكن تلخيص مظاهر التجديد عند هيكل في النقاط التالية:

- 1- مقالات هيكل العديدة والمتنوعة وما حوته من أفكار تجديدية، تشهد بدوره الريادي في النهضة الأدبية والفكرية.
- 2- ارتكز التجديد عند هيكل قبل الشروع فيه على فهم الماضي، وعدم الخروج عليه وعلى استخدام أدواته، وعلى إدراك الواقع، وتلمس البيئة المحيطة به، والإحساس بتقدم الحياة العقلية، والقدرة على التعبير عن ذلك كله بكل أمانة وحيادية.
- 3- ربط هيكل التجديد برؤيته الإصلاحية الحضارية، وكان حريصاً على نشره في الصحف والمجلات.
- 4- من أهداف التجديد عند هيكل خلق أدب مصري قوي وفاعل، وتطوير الفكر، وإبراز الشخصية القومية فيهما.
- 5- شمل التجديد المجال السياسي والأدبي والفكري.
- 6- من خصائص فكر التجديد عند هيكل أنه وسطي ومعتدل وعقلاني وروحاني وحيادي ويعتمد على منطق العلم.

ثالثاً- رأي النقاد في مقالات هيكل:

شهد عصر هيكل سجلاً فكرياً، ومعارك أدبية، وصراعاً حزيباً، واختلافاً سياسياً، وفي ضوء ذلك ظهرت مدارس مختلفة في الأدب والفكر والسياسة، تمخض عنها مقالات وكتابات لكبار الأدباء والنقاد حيث عبرت عن هذه الأجواء، والمتأمل فيها يستطيع أن يقرأ بين سطورها الكثير من ملامح هذا العصر، ويتعرف على بعض الظواهر فيه، ويرى الباحث أنه لولا سخونة هذه المعارك وجديتها لما وصلت نتاجات هذا العصر إلى المستوى الذي وصلت إليه من النضوج الأدبي والفكري والسياسي.

لقد كان هيكل ابن عصره، فقد شارك في هذه المعارك والسجلات، فلم يفتأ قلمه أن يصمت، فقد كان كثيراً ما يكتب ويتلقى النقد، لكنه سرعان ما يرد على هذا النقد مدافعاً، وهكذا كانت تسير الأمور آنذاك، وطبيعي أن يكون لكثير من النقاد آراؤهم في مقالات هيكل ومؤلفاته، منها ما كان فيها تجلية ورفع لشأنها مثل قوله: "إن روح الإيمان ظاهرة في كل ما أخرج هيكل من الآثار الأدبية بل حتى في مقالاته السياسية"⁽¹⁾، وقوله: "تنوع النشاطات عند هيكل في حقل

(1) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص 70).

الإبداع والفكر والسياسية - ربما يغفر له بعض الهنات التي شابت بعض أعماله⁽¹⁾ وللاطلاع على آراء النقاد في مقالات هيكل يمكن الوقوف عند التالي:

1- رأي طه حسين:

رأى أنور الجندي أن ثمة خلاف نشأ بين طه حسين وهيكل، حيث وصفه بأنه "خلاف جوهرى يتعلق بصميم العقيدة والتفكير والاتجاه"⁽²⁾.

يرى الباحث أن ما حصل بين طه حسين وهيكل بدأ باختلاف في وجهات النظر حتى وصل إلى حد الخلاف، يقول طه حسين عن هذا الخلاف: "بيني وبين هيكل خصومة قديمة، ما أرى أن تنتهي، لأنه لا يريد أن ينهيها، ولغة هيكل هي موضع هذه الخصومة"⁽³⁾، فقد كانت بينهما معارك أدبية ونقدية - كما سماها أنور الجندي - تظلمها بعض الاختلاف في الفكر، خاصة أن هيكلًا كان في نهاية عمره، وأواخر حياته يتبنى الفكر الإسلامي، بينما بقي طه حسين مُصِرًّا على فكره العربي القريب من الفكر الغربي، ويعتقد الباحث أن مسألة الاختلاف في العقيدة بينهما لم تصل إلى درجة يمكن وصفها بالجوهرية، ويرجح الباحث أنها كانت هامشية لا تكاد تذكر، أما الاتجاه فقد خرج الاثنان من مشكاة واحدة عندما كانا تلميذين للظفي السيد، وقد انضما بداية إلى حزب سياسي واحد، لكنهما بعد ذلك افترقا، فكان لكل منهما اتجاهه الخاص به.

وعلى الرغم من امتداد هذه المعارك لسنوات طويلة إلا أن هيكلًا - كما يرى عبد اللطيف حمزة وعبد العزيز شرف - "لبث فيها بارئًا من الحقد والضغينة، وخرج منها لا يحقد عليه سياسي ولا يضغن عليه مفكر أو أديب ذلك لأن معاصريه عرفوا فيه عفة المقالة ولمسوا منها شرف الهدف"⁽⁴⁾.

ومحور الخلاف بين طه حسين وهيكل هو اتهام الأول للثاني بأنه كان "يهمل لغته إهمالًا شديدًا، ويتورط في ألوان من الخطأ، واضطراب الأسلوب، تدينه أحيانًا من الابتذال والغريب"⁽¹⁾، ويعيب طه حسين على هيكل أنه "تبدو معانيه الجميلة الرائعة في ثياب رثة بالية

(1) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص152).

(2) الجندي، المعارك الأدبية في مصر ... (ص311).

(3) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون ... (ص65).

(4) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ج9/67).

(1) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون ... (ص65).

في كثير من الأحيان، وهيكل كالسيل إذا عرض لموضوع اندفع فيه، ف جاء بالجيد الكثير، لكنه لا يسلم أحياناً من الغناء⁽¹⁾.

لقد أفصح طه حسين عن طبيعة الخلاف بينه وبين هيكل، حيث أقر أنه خلاف أدبي لغوي، فقد وجه له نقدًا شديد اللهجة حين اتهمه بأنه يهمل لغته فيقع في كثير من الأخطاء أثناء الكتابة، ويرى أن هذا الخطأ هو سبب اضطراب أسلوبه، وهذا ما أوقعه أو قربه من الابتذال أو الغريب، أما معاني هيكل فيصفها طه حسين بأنها جميلة ورائعة، لكن هيكل عندما يعبر عنها بلغته يشوهها فيضيع جمالها، وقد عزا طه حسين هذا الأمر إلى تسرع هيكل واندفاعه عندما يتناول كتابة موضوع معين، وقد حكم طه حسين على ما كتب هيكل بأن فيه الكثير من الجيد، بالمقابل فيه أحياناً غناء يضعف ما يكتب، لكن هذا الخلاف يبدو أنه لم يدم طويلًا فقد خاطب طه حسين هيكل قائلاً: "أنت تذكر ما كان بيني وبينك من جدال متصل في هذا الموضوع، فقد كنت أتهمك بقلّة البضاعة في اللغة العربية، وكنت تتهمني بأني أزهرى... وقد مضت أيام وأعوام ومازلت أنا أزهرياً كما كنت، أما أنت فقد أتقنت اللغة العربية اتقاناً..."⁽²⁾.

وللتوفيق بين رأي كل من: عبد اللطيف حمزة وعبد العزيز شرف من جهة، وبين طه حسين من جهة أخرى، فإنه يمكن القول:

1- أن هيكلًا لم يحمل في قلبه حقدًا ولا ضغينة، وكذلك كان طه حسين، لكن الخلاف الذي بينهما كان عقليًا متعلقًا بمسألة علمية، وليس قلبيًا مرتبطًا بموضوع شخصي أو أخلاقي.

2- توافق الرأيان على أن مقالات هيكل كانت تحمل المعاني الجميلة الرائعة، وأنها تميزت بالعمق وشرف المهنة.

3- هناك اختلاف كبير بين الحقد والنقد، وطه حسين عندما يوجه نقده لهيكل لا يوجهه له من باب الحقد، وإنما من منطلق غيرته على اللغة العربية، ومن المعلوم أن الحقد يأتي نتيجة للكراهية وهذا مستبعد أن يكون عند طه حسين أو هيكل، أما النقد فيجاء بقصد التحسين والتجويد، وهذا ما يعتقد الباحث وجوده عند الاثنين.

4- تراجع طه حسين عن اتهامه لهيكل بضعف اللغة العربية عنده، وهو سبب الخلاف بينهما؛ خفف من حدة الاختلاف بينهما.

(1) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص66).

(2) كريم، معارك طه حسين الأدبية والفكرية (ص311-312).

2- رأي طه وادي:

تحدث طه وادي عن المقالة عند هيكل فقال: "أنها عنده تجمع بين موضوعية العلم وشعرية الفن، ولذا نجد فيها لذة للعقل والوجدان معاً"⁽¹⁾.

حاول وادي أن يرسم صورة جميلة لمقالات هيكل، فقد وصفها أنها تجمع بين العلم والفن، وحدد منهجيته مع العلم، فذكر أنه اعتمد على الموضوعية، التي تمد العقل باللذة، أما الفن الذي فيه غذاء للروح وانتعاش للوجدان، فإنه إذا تحققت في الشعرية أي الإحساس المرهف والشعور الرقيق، فإن الوجدان سيجد نشوته المنشودة، وقد أكد وادي على ذلك بشيء من التفصيل فقال عن مقالة هيكل: "مع أنها تجربة وجدانية شعورية إلا أنها عنده تخضع للتقسيم والتحليل والتعليل، وتقدم المقدمات لتستخلص النتائج"⁽²⁾، وهذا دليل على أن هيكلًا جمع في مقالاته بين الموضوعية والتجربة الشعورية.

أما الوصف في مقالات هيكل فقد رآه وادي بهذا الشكل حيث يقول: "في الوصف نراه يزاوج بين الوصف الحسي والشعور النفسي، كذلك لا تخلو من قدر من التأمل العقلي، يحاول به أن يستبطن ما يرى ويستشف ما يوحي به من إحساسات وأفكار، فقدره هيكل الوصفية لا تبدو في كتاباته الصحفية بقدر ما تظهر في كثير من مؤلفاته الأدبية"⁽³⁾.

إذا مزج هيكل في وصفه -كما رأى وادي- بين الوصف الحسي للأشياء والشعور النفسي بها والتأمل العقلي لها، هذا الاقتران والمزج بين هذه الأمور الثلاثة، جعل الصورة والتجربة كأنها شيء واحد، أو بمعنى آخر يرى وادي أن هيكلًا حاول المزج بين الإدراك الشعوري والرؤية البصرية "صحيح أن الرؤية ضرب من الحس، وصحيح أن الصورة المرئية تتمثل للعيان لكن التفكير الحسي أكثر إيغالاً في صميم الأشياء من مجرد الوقوف عند سطوحها وأشكالها المرئية"⁽⁴⁾.

ويقر وادي بأن قدرة هيكل في الوصف في مؤلفاته الأدبية أقوى وأكثر مما في مقالاته وكتاباته الصحفية.

(1) وادي، هيكل رائد الرواية السيرة والتراث (ص166).

(2) المرجع السابق، ص166.

(3) المرجع نفسه، ص162.

(4) إسماعيل، الشعر العربي المعاصر (ص134).

3- رأي أحمد زلط:

تحدث أحمد زلط عن هيكل قائلاً: "كان مفكراً مجدداً، مؤمناً بالحرية جميعاً؛ حرية العلم والفكر، وحرية التعبير والتفكير... وظل مدافعاً عن مصلحة الوطن... وقد عبر منهجه التهذيبي في تناوله للسير والتراجم وللتاريخ الإسلامي عن إعلاء شأن الحضارة الإسلامية، فعميقة هيكل الإسلامية تجمع بين الدين والدنيا"⁽¹⁾.

وصف زلط شخصية هيكل ككاتب فرأى أنه مفكر ومجدد، فلم تكن الكتابة عنده هدفاً لذاتها، وإنما كانت تصدر عنه بعد فكر وروية، ثم إنه كان يقرأ أفكاره التي تتميز بالجدة والحدثة ليسهم في نهضة بلاده، و"كان تكوينه الثقافي متصلاً أشد اتصالاً باتجاهات التجديد في باكورة شبابه، وبامتداد الموجة الغربية"⁽²⁾، وحاول أن يتعمق في فكره فوجده يؤمن بالحرية التي هي مطلب إنساني إيماناً كاملاً، يشمل العلم والفكر والتفكير والتعبير، وهذا دليل على عمق ما يؤمن به، فما قيمة العلم والفكر بدون حرية تشجع عليه وتعززه وتعلي من شأنه، وكيف يستطيع الإنسان أن يفكر ويبدع ويعبر عما يجول في خاطره وما يصبو إليه بدون حرية، كما توصل من خلال ذلك إلى أنه يتمتع بالإخلاص الشديد لوطنه النابع من صدق الانتماء له، فلهذا السبب كان دائماً يدافع عنه، كذلك حاول زلط أن يغوص في منهجه التهذيبي من خلال مؤلفاته، فأيقن أنه يسعى سعياً حثيثاً إلى رفع قدر الحضارة الإسلامية، وهذا يدل على أصالته الإسلامية، ثم لخص عقيدته في جملة واحدة فرأى أنها تتمثل في الجمع بين الدين والدنيا، فهي عقيدة متكاملة متوازنة، فلا مجال بطغيان الحياة المادية البحتة، أو الرهبانية المطلقة، هذه العقيدة التي كان يؤمن بها هي عقيدة أهل السنة والجماعة الذين عرفوا الإسلام على حقيقته دون زيادة أو نقصان.

وحول آراء هيكل ورؤيته يقول زلط: "عبرت آراؤه ومقالاته عن رؤيته الإصلاحية الحضارية، واللافت للنظر أن كتابات هيكل الأولى كانت ناضجة، شأنها شأن مقالات قادة الرأي والفكر ورجال الأدب والسياسة مما جعلته يتبوأ مكانة كبرى بين الكُتَّاب"⁽¹⁾.

(1) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص6).

(2) شرف، محمد حسين هيكل في ذكره (ص56).

(1) زلط، محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص104).

تحدث زلط عن رؤية هيكل من خلال مقالاته وآرائه، فوصفها بالإصلاحية الحضارية الناضجة، هذه الرؤية الهادفة هي التي مهدت الطريق أمامه ليتمتع بمكانة عالية بين قادة الفكر والرأي والأدب ورجال السياسة، "فنزاه مع جيل الرواد الذين ظهوروا مع مطالع هذا القرن العشرين، والذين كان لهم الدور الأكبر في حركة التنوير التي أضاعت شتى مجالات الحياة"⁽¹⁾، وبالفعل فقد اضطلع هيكل بدور أساس في مجال الفكر والسياسة من أجل مصر الحديثة، وهذا ما أسهم في تعيينه وزيراً للمعارف، ورئيساً لمجلس الشيوخ.

4- رأي لويس عوض:

رأى لويس عوض أن العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل قد أتموا رسالتهم الأدبية قبل عام 1936م، فلم تظهر لهم بعد ذلك إلا مؤلفات انفصلوا فيها عن واقع الحياة، وعادوا إلى التاريخ الإسلامي. هذا يعني أن عوض كان ينكر على هؤلاء الأدباء ما كتبوا من مقالات ومؤلفات بعد عام 1936م، وقد رَدَّتْ بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن على هذا الادعاء قرأت أن عودة هؤلاء الكتاب إلى التاريخ الإسلامي كان اتصالاً بواقع الحياة لا انفصالاً عنه، وهم لم ينفذوا إلى وجدان الجماهير بما كتبوا قبل عام 1936م، وإنما أخذوا مكانتهم الأدبية لدى الجماهير بعد ذلك، حيث قرأت كتب محمد حسين هيكل (حياة محمد) و(أبي بكر الصديق)، و(الفاروق عمر)، و(في منزل الوحي)، ورأت أن هؤلاء الكتاب والأدباء قد سجلوا بهذا الاتجاه ظاهرة تحول مشتركة؛ استجابة لتطلعات الشعب المرهفة ووجدانه المتدين، وإن اتُّهموا بالرجعية⁽²⁾.

رابعاً- آراء هيكل النقدية بين القبول والرفض:

جرت العادة في عالم الأدب أن ينشأ بعد نشر النتاج الأدبي كثير من الملاحظات والتعليقات والآراء التي تُقَوِّم هذا العمل، وقد يصل الأمر في ذلك إلى ما يسمى بالمعارك النقدية لشِدَّتِهَا وسخونتها والتي لا سبيل إلى تلافيتها، ويرى عبد اللطيف شرارة أن هذه المعارك قديمة وهي ممتدة إلى هذا العصر، لذلك فقد ألف كتاباً جعل عنوانه (معارك أدبية قديمة ومعاصرة) يقول في مقدمته: "واليوم يبدو لنا، ونحن ندرس هاتيك المعارك وتوالدها، وتسلسلها، ونشوبها

(1) حمزة وشرف، أدب المقالة الصحفية في مصر (ص273).

(2) ينظر: بنت الشاطئ، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر (ص257).

على الدوام بين الأدباء والشعراء والمفكرين والناقدين، أنها تُرد في عواملها الأساسية إلى ثلاثة أشياء: المزاج، والذوق، والاتجاه⁽¹⁾.

ويرى شرارة أن "تتافر الأذواق لدى المفكرين، السبب الحقيقي في نشوء المذاهب المتنافرة، والآراء المتناقضة... والمعارك التي نشبت بين هؤلاء وأولئك في كل جيل وبلد، لم تؤدّ في الحقيقة إلى موقف ثابت، ولا إلى فكرة مستقرة، لأن الذوق نفسه غير قابل للثبات أو الاستقرار"⁽²⁾.

هذه المعارك امتد لهيبتها، وزاد اشتعالها، فأحس بحرارتها هيكل حيث يقول: "فلما استطل بي الوقت جعلت أفكر في معركة النقد الأدبي التي حمي وطيسها أخيراً بين كُتّابنا، وانتقل من ذلك إلى التفكير في النقد في فرنسا ومصر"⁽³⁾.

ويرى أنور الجندي أن هناك بعض المعارك الأدبية أو النقدية التي تخلو من المثيرات الانفعالية، لأنها تخضع في ضبطها إلى العقلانية والموضوعية، وقد ساق نموذجاً لها فقال: "هذه المعركة نموذج طيب للنقد في الأدب العربي المعاصر، فهي مساجلة خلت من كل عبارات السخرية أو الغرض أو الاندفاع وراء الأهواء، ناقش بها محمد فريد وجدي آراء هيكل في كتابه (ثورة الأدب) مناقشة موضوعية هادئة"⁽⁴⁾.

ويطرح الجندي في هذه المعركة آراء هيكل ونقد محمد فريد وجدي لها، وقد كان لهذه المعركة النقدية محاور دارت حولها وهي:

1- غاية الأدب:

يرى هيكل أن الأدب فن جميل غايته تبليغ الناس رسالة ما في الحياة والوجود من حق وجميل بواسطة الكلام، والأديب هو الذي يؤدي هذه الرسالة، ويرى محمد فريد وجدي أن هذا الكلام على افتراض صحته ناقص، وكان الأفضل أن يقول أن غاية الأدب تبليغ الناس ما في الحياة والوجود من حق وباطل، وجميل وقبيح، وخير وشر⁽¹⁾.

(1) شرارة، معارك أدبية قديمة ومعاصرة (ص5).

(2) المرجع السابق، ص7.

(3) هيكل، ثورة الأدب (ص8).

(4) الجندي، المعارك الأدبية في مصر... (ص394).

(1) ينظر: المرجع السابق، ص394.

إن نقطة الخلاف بين هيكل ووجدي في مسألة غاية الأدب تكمن في نظرة كل منهما للأدب، ونظرة هيكل كانت نظرة تفاؤلية مثالية، حيث جعل رسالة الأدب لا تحمل إلا معاني الخير والحق والجمال، بينما كانت نظرة وجدي واقعية، فقد رأى أن الحياة تجمع بين المتناقضات، وأن غاية الأدب الكشف عن حقيقة الحياة بما فيها من خير وشر وحق وباطل ويقف الباحث أمام هاتين النظرتين المختلفتين نظرة احترام، ويرى أنهما في محلها، ولا يمكن الاستغناء عن إحداهما، فالجمع بينهما يثري الأدب، ويجعله ينطلق إلى عالم أرحب، فالبحت عن الخير والحقيقة مطلوبان، ولا يمكن الفصل بينهما.

2- الأدب ثورة أو ثورة الأدب:

رأى هيكل أن الأدب في ثورة منذ الثورة العربية، لكن وجدي قال: نحن نخالفه في وجود ثورة أدبية، ونقرر أن هناك نهضة لغوية فقط، وذكر أن سبب هذه المخالفة عدم استيفاء أركان الثورة وهي: الانقلاب والفجاءة والعنف⁽¹⁾.

ونظرًا لتمسك هيكل بهذه الثورة، ألف كتابًا أطلق على عنوانه (ثورة الأدب)، وقد وجه طه حسين نقده لهذا الكتاب، لكن هيكل رأى أن سبب هذا النقد وهذه المخالفة كلمة (ثورة) لأنها مخيفة⁽²⁾.

يرى الباحث أن كلمة ثورة لا تتسجم مع مضمون الأدب، لأنها توحى بالعنف والشدة، بينما توحى كلمة الأدب بالجمال والإبداع، فلو استخدم هيكل نهضة الأدب بديلاً عن ثورة الأدب لكان أفضل، لأن الأدب يمكن أن ينهض من الركود، وينطلق بعد الجمود، لكنه لا يستطيع أن يثور، فليس عند كل الأدباء المقدرة على الثورة الأدبية بمعناها الصحيح، ولأن كلمة ثورة توحى بأجواء التوتر وعدم الاستقرار، أما الأدب فلا يمكن أن يصل إلى درجة الإبداع إلا إذا توفرت له الأجواء السليمة المشجعة على الإبداع.

3- حاجة الأدب إلى الفلسفة والعلم:

شبه هيكل الأدب بالزهرة والثمرة والخضرة، وشبه الفلسفة بالشجرة، وحتى يكشف الأدب للناس عن جمال الحياة لا بد أن يتغذى على الفلسفة والعلم⁽¹⁾.

(1) ينظر: الجندي، المعارك الأدبية في مصر ... (ص 395).

(2) ينظر: هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج 1/299).

(1) ينظر: الجندي، المعارك الأدبية في مصر ... (ص 397).

أما وجدى فيرى أن الأدب يتكون من اللغة الصحيحة والخيال الجذاب، والأدب يكشف للناس عما في الحياة من حق وباطل، وجميل وقبيح، ويتغذى على الفلسفة والعلم⁽¹⁾.

اتفق هيكل ووجدى على أن غذاء الأدب العلم والفلسفة، واختلفا على العناصر الأكثر أهمية للأدب، فرأى هيكل أن العلم والفلسفة هما الأكثر أهمية، ويرى وجدى أن اللغة والخيال هما الأكثر أهمية، ويرى الباحث أن هذه العناصر جميعاً من الأهمية بمكان، وهي لازمة لكل أديب حتى يتم بناء عمله الأدبي فنياً، ويؤكد على التوازن في الاعتماد على كليهما مع عدم إهمال أي منهما.

4- معركة القديم والحديث:

رأى هيكل أن المعركة بين القديم والحديث قد احتدمت منذ سنين، وامتدت في ميادين مختلفة، وأن سبب اشتعال هذه المعركة تناول أساليب الكتابة والألفاظ العلمية وغير العلمية، ورأى أن الغلبة فيها كان لأنصار تقليد الأدب القديم، وذكر أن بعض ما يمتاز به كُتَّاب عصرهم استخدام السجع والإغراب في اختيار الألفاظ.

أنكر وجدى على هيكل كل ما ذكره في معركة القديم والجديد، وعدّ ذلك طمساً من هيكل لمعالم تاريخ الأدب، وردّ عليه هيكل بأن تاريخ اللغة يشهد بأن الكُتَّاب كانوا أحراراً في تخير أساليبهم، وأن هذه الأساليب تخضع لاستحسان الناس واستهجانهم بشكل طبيعي في كل زمان، أما السجع فليس استخدامه عيباً في ذاته، ولا يحق لأحد إنكاره كأسلوب من أساليب البلاغة بشرط ألا يأتي متكلفاً، ورأى وجدى أن الألفاظ العلمية لم تدخل أي معركة، وأن كل ما حدث حولها شكوى الكُتَّاب والمترجمين من حيرتهم حيالها، ومطالبتهم المتخصصين في العربية العمل على تعريبها تعريباً صحيحاً على أساس أصول اللغة.

أما تخير الأسلوب فقد ربطه وجدى بثقافة الكاتب العلمية وقدرته اللغوية، وقد بين سبب دعوة بعض الكُتَّاب والأدباء الشباب إلى اختيار الأسلوب فذكر رغبتهم في التحلل من قيود اللغة العربية الذي عدوه نوعاً من أنواع التجديد، لكن الحقيقة تُظهر أنهم كانوا قاصرين في اللغة وغير متمكنين منها⁽¹⁾.

(1) ينظر: الجندي، المعارك الأدبية في مصر... (ص 397).

(1) ينظر: المرجع السابق، ص 398-399.

المتأمل في رأي هيكل يرى أنه لا يميل إلى تيار القديم، ولم يوضح موقفه من تيار الحديث، وأن بعض الأمور قد اختلطت عنده، فكل اختلاف في وجهات النظر الخاصة بالأدب واللغة أقحمها في هذه المعركة، وكان الأجدر به أن يترث عندما يعرض أفكاره فيدافع عنها بشكل علمي منهجي، وليس على سبيل الإخبار والإعلام.

أما ما ذهب إليه وجدي في مسألة القديم والحديث، وردّه على هيكل بخصوصها، فقد كان أكثر منطقاً، وأقدر على الإقناع، فقد سبر أغوار مسألتني تخير الأسلوب والألفاظ العلمية، واستطاع أن يضع الأمور في نصابها.

5- الأدب الكبير والأدب الصغير:

يذكر هيكل أن الشبان العرب الذين درسوا في أوروبا فُتتوا بالأدب الكبير فيها، فلما عادوا إلى بلادهم وجدوا الأدب الصغير هو المهيمن فيها.

اختلف وجدي مع هيكل في مسألة الأدب الكبير، ووافق في مسألة الأدب الصغير، فقد وضح أن ما عده هيكل أدباً كبيراً في أوروبا عدّه أئمة أدبهم في القرن السابق أدباً صغيراً؛ لأنه كان يقصد إرضاء شهوات النفوس وإمتاعها بذكر الملذات الجسدية، وقد وصف وجدي الأدب الصغير في بلاد العرب بالانحطاط لأنه تشبّع بروح الفلسفة المادية، والتدهور في الأخلاق والعادات، والاستخفاف بالآداب، والميل إلى الخلاعة والتهتك⁽¹⁾.

الأدب في نظر هيكل ينقسم إلى قسمين: أدب كبير، وأدب صغير، وقد قصد بوصفه الكبير إعلاء شأنه، ورفع قيمته، وسمو هدفه، فهو عنده رفيع في شكله، إنساني في مضمونه، هذا على الأقل ما اعتقده هيكل في الأدب الأوروبي الذي تمتع بأسلوبه واستطاب مذاقه، فأصبح في مخيلته المثل الأعلى للأدب، فكثيراً ما كان ينادي بوجوده في بلاده العربية، لكن يبدو أن هذه النظرة لهذا النوع من الأدب كانت نظرة أحادية، فلم يوافق هيكل الكثير من النقاد العرب الذين تذوقوا هذا الأدب وتعمقوا فيه، لأنه يميل إلى الحياة المادية أكثر من ميله إلى الحياة الروحية.

أما الأدب الصغير فقصد من وصفه بالصغير احتقاره، والتقليل من شأنه، لأنه يتناول الموضوعات الصغيرة ويعالج القضايا البسيطة، ويميل صاحبه فيه إلى إشباع ملذاته وتحقيق

(1) ينظر: الجندي، المعارك الأدبية في مصر ... (ص 400).

رغباته، وقد يبتعد في كثير من نصوصه عن القيم والمبادئ الإسلامية، والعادات والتقاليد العربية، وهذا يتنافى مع ذوق الأديب العربي الملتزم.

ولئن وافق وجدي هيكل في الأدب الصغير وخالفه في الأدب الكبير، فإن ذلك يدعو إلى محاولة أخرى للوصول إلى الأدب الكبير الذي يتصف بصفات الكمال الأدبي والأخلاقي ويدعو الإنسانية جمعاء للالتقاء على قاعدة إحقاق الحق وإبطال الباطل، وعلى أساس إعادة الحقوق إلى أصحابها وإنصاف المظلومين، والوقوف إلى جانب المشردين والمهجرين، وجعل سكان الأرض أسرة واحدة تجتمع على الخير دائماً.

خامساً- مقالات هيكل في نظر هيكل:

تحدث هيكل عن تجربته الأولى في كتابة المقالات وأثرها في نفسه قائلاً: "وما أعظم سروري يوم ظهر لي أول مقالة فيها (صحيفة الجريدة)، لم تكن مقالة سياسية، ولكنها كانت عن حرية المرأة، وقد أبدى لطفي السيد تقديره لأسلوبي وطريقة تفكيري، فزاد ذلك في تشجيعي، وجعلني أنشر في الجريدة ما أكتبه"⁽¹⁾.

أرجع هيكل فضل تشجيعه الأول على الكتابة إلى أستاذه لطفي السيد، وقد تبعه بعد ذلك الكثير من المشجعين، وكان لهذا التشجيع الأثر الكبير في نفسه، فقد حفزه على تنمية مواهبه في التعبير والكتابة، وعلى أن يواصل طريقه الصحفي حتى بلغ درجة النضوج ومستوى الإعجاب بشهادة من يقرأون له، ويؤيد ذلك ما ذكره محمد رجب البيومي في كتابه (علماء ومفكرون معاصرون) أن سعد زغلول عرف مواهب هيكل ورأى "في مقالاته المتدفقة الجياشة دليل موهبة قادرة، لأن هيكلًا رجل قانون قبل أن يكون كاتب صحيفة، فهو يرتب حججه الدفاعية ترتيبًا متناسقًا، وأسلوبه الأدبي يمدّه بتدفق جيش تناسب معانيه انسياب الموج المتدفق في المحيط"⁽²⁾.

يعترف سعد زغلول وهو شخصية مصرية وازنة لها أثرها في تاريخ مصر، ودورها في حياة المصريين، بأن هيكلًا كان موهوبًا عندما يكتب مقالاته لأنه جمع بين القانون والكتابة الصحفية والأسلوب الأدبي، فجاءت مقالاته قوية في معانيها كالموج المتدفق في المحيط، وهذا الرأي الذي شهد به زغلول يدل على تمكن هيكل من الكتابة، وأنه يملك القدرة على التعبير والصيغة.

(1) هيكل، مذكرات في السياسة المصرية (ج1/31).

(2) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص34-35).

هذا رأي سعد زغلول في مقالات هيكمل، أما هيكمل نفسه فلقد حاول دائماً أن يكون موضوعياً فيما يكتب، فمنهجيته في الكتابة واضحة، يقول عنها: "أقف موقف المؤرخ ما استطعت، غير متعصب لرأي بذاته، محلاً للمواقف المختلفة، مبيئاً وجهة النظر لكل فريق، ذلك كنت ولا أزال أعتقد أن الرأي قد ينطوي على جانب من الصحة، وجانب من الخطأ، وعلى جانب من القوة، وجانب من الضعف... وقد كان رأيي أن أبحث عن الحق فأتبعه أيّاً كانت النتائج التي تترتب عليه"⁽¹⁾.

وضح هيكمل طريقته في الكتابة، فنفى عن نفسه صفة التعصب لرأي معين، وأكد على أن هدفه البحث عن الحق وفق منهج علمي، وكان يرضى بنتائج البحث مهما كانت، وفي "عرضه للمقالة لا يلقي برأيه إلقاء الأمر الناهي، وإنما يلقانا برأيه بوصفه صديقاً لطيفاً، يشرك القارئ معه في البحث حتى يسلمه الرأي ناضجاً، ويقدم له النتيجة خالصة فيقبلها دون إلزام"⁽²⁾.

وكان -أيضاً- "يقدم لمقالته ثم يضعه في قالب موضوعي، ويستطرد في سبيل بسط الفكرة وتحليلها وشرحها لينتهي إلى نتيجة يلزم بها نفسه، ويسوقها إلى قارئه بأسلوب عقلي وجداني"⁽³⁾، أما آلية البحث عنده فكانت تعتمد على تحليل المواقف، وتبيين ما فيها من خطأ وصواب، وضعف وقوة، ثم يقوم على أثر ذلك بتقدير الموقف.

هذا هو المنهج الذي اختطه هيكمل لنفسه، ورضيه لذاته، شمل مقالاته، وامتد إلى مؤلفاته، ويؤكد أحمد زلط إلى ما ذهب إليه هيكمل فيقول: "والحقيقة أن المتأمل المدقق (للبحوث والسير الإسلامية) عند هيكمل يجد دقة الباحث، وأمانته العلمية، ولم تتدخل عاطفته الشخصية باتجاه عقيدته، بل حرصت عقليته الراجحة، وموضوعيته الواضحة أن يحرسا منهجه العملي المنصف"⁽¹⁾.

معنى هذا أن هيكلاً كان راضياً عما يكتب، لأنه اعتمد منهجية واضحة تتميز بالدقة والأمانة العلمية والموضوعية، فقد حيدَ عاطفته جانباً أثناء الكتابة، وكان يميل ويقر ما يرجحه عقله، وكان يجتهد دائماً أن يُكوّن له رأياً ولو تقريبياً إزاء ما يحدث في العالم ساعة وصول الأخبار إليه، يقول: "وطبيعي أن يهتم الإنسان بالأخبار ما دامت تصل إليه ساعة حدوثها، وما

(1) البيومي، علماء ومفكرون معاصرون... (ص127-128)

(2) وادي، هيكمل رائد الرواية السيرة والتراث (ص166).

(3) المرجع السابق، ص168.

(1) زلط، محمد حسين هيكمل بين الحضارتين الإسلامية والغربية (ص134-135).

دامت أخبار العالم تصله في وقتها فهو بطبيعة الحال، يود أن يكون لنفسه رأياً ولو تقريبياً عما يقع⁽¹⁾، ويؤكد عبد العزيز شرف على أن هيكلًا كان "يطالع أحداث المؤلفات الصحفية الغربية، فيعرف مدار صناعة الخبر، وأسلوب النزال، وطرق التشويق والتقريب، وسبل النفاذ إلى نفسية القارئ، وكيفية الإقناع والتتويج في المادة المحتواة"⁽²⁾.

وكان هيكلٌ يُسرُّ إذا قرأ جديدًا في موضوع كتب فيه سابقًا، ويذكر السبب: "لأنه يعاونني على تحقيق ما لم أكن متحققًا منه، ويوقني على ما لم أكن وفتت عليه"⁽³⁾.

ليس معنى هذا أن هيكلًا كان مترددًا فيما يكتب، أو غير واثق منه، وإنما كان يريد أن يتحقق مما يكتب، ويؤكد على ما جاء فيه، ويكمل النقص الذي اعتراه، ويعالج الخلل الذي أصابه، المهم عنده إصابة كبد الحقيقة.

يُفهم من ذلك أن هيكلًا كان يرى أن كتابة المقالة لا تنتهي عند حدٍّ معين، وربما كان يُفهم من هذا الرأي -أيضًا- أن هيكلًا كان لا ينظر إلى مقالاته نظرة قدسية، بل كان يتعامل معها كما يتعامل مع أية مقالات أخرى كتبها غيره، فهي خاضعة للنقد، هذه النظرة فيها عمق تفكير، فهو لم يكتب لليوم فقط، وإنما يكتب للغد والمستقبل -أيضًا-، يقول: "إننا حين نكتب مذكراتنا وذكرياتنا لا نكتبها كاملة في بعض الأحيان، وأن ذلك يوجب على من يعرف موضوع هذه الذكريات المبتسرة أن يُمحصها ويُتمها حتى لا يقع المؤرخ من بعد في خطأ يجره إليه تفصيل في نقطة ثانوية قد يترتب عليها أمر جوهري من بعد"⁽⁴⁾.

وتأكيدًا على أن كتاباته غير مترفعة عن النقص، وأنه يقبل النقد الموجه لكتاباته، يعترف هيكل بأنه غير ضليع باللغة العربية لأنه غير متخصص فيها، وأن ما يكتبه بالسليقة معتمدًا على القرآن الكريم وما يقرأ، يقول: "لكن آخرين يسألون: كيف لا يعرف هيكل النحو والصرف والبيان والبديع، وهو مع ذلك يكتب، وأسلوبه أسلوبه؟ وسؤالهم هذا يدعوهم إلى الشك وإلى الابتسام حيث اعترف بما قدمت، والحق أنني لا أعرف مع ذلك كيف أكتب، وكيف يرضى الناس عما أكتب، وكل ما أستطيع أن أقوله إنني قرأت كثيرًا وحفظت كثيرًا"⁽¹⁾.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج3/258).

(2) شرف، محمد حسين هيكل والفكر القومي المصري (ص97).

(3) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج6/163).

(4) المصدر السابق، ج6/167.

(1) المصدر نفسه، ج1/338.

هذه نظرة صادقة من هيكل فيها نوع من التواضع والأمانة، فهو يقر بشجاعة ما وجه إليه من نقد خاص بلغته العربية في الكتابة، وفي الإطار نفسه، وردًا على طه حسين، يقول هيكل: "إني لا أزال أعالج هذه اللغة العربية، فتستعصي عليّ، فأستبدل صورة بصورة، وربما استبدلت رأيًا برأي" (1).

لم يكتفِ هيكل بقبول آراء المنتقدين له، وإن دل هذا فإنما يدل على سعة صدره، ورجحان عقله، بل استجاب لهم بنفس طيبة، فحاول أن يعالج لغته، ورغم اعترافه الواضح بصعوبة تعلم اللغة، إلا أنه كان يجتهد فيها بقدر الإمكان.

وبمزيد من الشجاعة والصراحة يعترف هيكل بإخفاقه في التحليل اللغوي، فيقدم اعتذاره الواضح لطله حسين قائلاً: "أعتذر إليك عن شيء حاولته فلم أوفق إلى النجاح فيه، حاولت أن أتبعك في التحليل اللغوي... فعجزت عن ذلك عجزًا حملني على اليأس من النجاح" (2).

ورغم هذا الاعتذار الصريح في مسألة اللغة وتحليلها إلا أن هيكلًا كان يحمل رؤية أخرى تتعلق بفن الكتابة فيرى أنها "فن وذوق وذاتية موهوبة... قبل أن تكون قواعد وتراكيب... فالنابغة رجل تائر بطبعه، لا يعرف القيود ولا القواعد" (3). ويرى هيكل أن فحول الشعراء وكبار الكُتّاب على مر الزمن وتوالي العصور في كل الأمم كانوا "يؤخذون عادة بازدياد قواعد الأدب واللغة والبيان والبديع، وهم الذين تسجل عليهم المآخذ... كثيرًا ما تصبح المآخذ التي يؤخذون عليها قواعد يجري غيرهم عليها على أنها حسنات اللغة والإبداع في الأسلوب" (4).

يبدو أن هيكلًا بهذه الأقوال أراد أن يفصح عن طبيعة الكتابة عنده، فرأى أنها موهبة فطرية أو مكتسبة، وأن الكاتب لا يستطيع صقلها وتنميتها إلا من خلال ممارستها والتدريب عليها، وهي في نظره فن لا يجيده إلا من ملك حسًا مرفهًا، وشعورًا صادقًا، وهي ذوق لا يستطيع طعمه، ولا يستسيغ شرابه إلا من استطاع التفاعل مع هذه الكتابة شكلاً ومضمونًا.

ولقد ظهر واضحًا استهانة هيكل في مسألة قواعد اللغة وتراكيبها في الكتابة، ورأى أنها لا تشكل أي عائق أمام الكاتب، بل العكس من ذلك فقد رأى الالتزام بها يشكل قيدًا لقلم الكاتب،

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/282).

(2) المصدر السابق، ج1/337.

(3) المصدر نفسه، ج4/286.

(4) المصدر نفسه، ج4/286.

بل إنها قد تحول بين الكاتب وبين النبوغ والإبداع، فالكاتب النابغة في نظره هو تائر يرفض كل القيود.

ويرى الباحث أن هيكلًا جانبه الصواب فيما ذهب إليه ويتساءل: كيف بلغت به جرأته أن يقول بأن فحول الشعراء وكبار الكُتَّاب كانوا يزدرون قواعد اللغة والأدب والبيان والبديع، ثم يقول أن هذه المآخذ تصبح بعد زمن قواعد لغوية ومتطلبات الإبداع.

إن المتأمل في هذا الكلام بعمق يلمس فيه دعوة خفية لنبذ اللغة وعلومها، والتخلي عن البلاغة وأنواعها، والانطلاق والتحليق في عالم آخر لا يرتبط بها.

ومن اللطائف التي تحدت عنها هيكل والخاصة بنفسه البشرية ما قاله: "أنا أكتب الرسالة من الرسائل أو الفصل من الفصول، وأتلوه، وأعيد تلاوته، فيملؤني ذلك كبراً وتيهًا... ثم أقرأ بعد ذلك شيئاً في موضوع ما كتبت أو في غيره من الشؤون من قلم أحد كبار الكُتَّاب الإنجليزي أو الفرنسيين وأشعر بنفسي تصغر وبكبريائي يتضاءل، وأراني ما أزال في الكتابة تلميذاً، وأحس بأن بلوغ مكانة هؤلاء الكُتَّاب لن تتاح لي"⁽¹⁾.

كلام جميل يخرج من هيكل، يلمس فيه قول رسول الله ﷺ: (وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله)⁽²⁾، وقول عمر بن عبد العزيز: (رحم الله امرأ عرف قدر نفسه)⁽³⁾، فقد جمع بين الصراحة مع النفس، والصدق مع الغير، لقد عرف هيكل أين يقف وكيف يتجه، فعندما كان يكتب ويراجع ما يكتب يعجبه ذلك كثيراً إلى درجة أنه كان يستشعر في نفسه الكبرياء والعظمة، لكنه عندما كان يقرأ لكُتَّاب كبار من الإنجليزي ومن الفرنسيين كان يستصغر ما يكتب، فتنطفئ نار كبريائه، ويتلاشى وهج عظمته، ويحس أنه أمام هؤلاء الكُتَّاب ما زال تلميذاً، وأنه لا يبلغ ما بلغوا من مكانة علمية مرموقة.

بعد عرض الباحث لنظرة هيكل لمقالاته، يمكن للباحث أن يسجل الملاحظات التالية:

1- وجد هيكل من كبار الكُتَّاب والأدباء تشجيعاً وتعزيراً على كتابة المقالات مما كان له الأثر في إقدامه على كتابة هذا الكم من المقالات، وإلى ظهوره في عالم الصحافة بحسابه رائداً من روادها.

(1) هيكل، مقالات محمد حسين هيكل (ج1/280).

(2) [مسلم، صحيح مسلم، ج4/2001].

(3) [القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10/89].

- 2- رأى هيكل أنه أثناء الكتابة كان لطيفاً في أسلوبه، وموضوعياً في عرضه، غير متعصب لرأي بعينه، ولا متحيزاً لفكرة بذاتها، وأنه كان يحلل المواقف، ويبحث عن الصواب، ويقبل النتائج مهما كانت طبيعتها وما يترتب عليها.
- 3- كان هيكل راضياً عما يكتب في مقالاته، لأنه اتبع منهجية واضحة تتميز بالدقة والأمانة العلمية، وتحديد العاطفة، والميل إلى الترجيح العقلي، وكان يُسر إذا قرأ جديداً في موضوع كتب فيه سابقاً، لأنه يساعده على تحقيق ما لم يكن متحققاً منه، ويكمل ما اعتراه من نقص.
- 4- كان هيكل لا ينظر إلى مقالاته نظرة قدسية وعلى أنها كاملة، وكان يرى أنها خاضعة للنقد فقد كتبها للحاضر والمستقبل، ويعترف بقصوره في اللغة العربية، وأنه يكتب بالسليقة، ورغم ذلك فإنه يملك أسلوباً جيداً.
- 5- نظر هيكل إلى مقالاته نظرة صادقة فيها نوع من التواضع والأمانة، فيقبل ما وجه إليه من نقد خاص باللغة العربية، ويُقر أنه يحاول المعالجة، كما يعترف بأنه أخفق في التحليل اللغوي.
- 6- رأى هيكل أن الكتابة نقد وذوق وموهبة، والكاتب النابغة هو من يثور على القيود والقواعد، وأن فحول الشعراء وكبار الكُتاب كانوا يزدرون قواعد الأدب واللغة والبيان والبديع.
- 7- رأى هيكل أن الكتابة موهبة فطرية يقوم الكاتب بصقلها من خلال ممارستها والتدريب عليها، لكنه استهان في مسألة قواعد اللغة فيها، ورأى أن الالتزام بها يقيد الكاتب ويوقف نبوغه وإبداعه.
- 8- كان هيكل يشعر بالكبرياء بعد كتابته رسالة أو فصل أو مقالة، لكن هذا الكبرياء سرعان ما يزول أمام ما كتبه كبار الكُتاب الإنجليز والفرنسيين، وقد جمع بين الصراحة مع النفس والصدق مع الغير في كتابة مقالاته.

سادساً- رأي الباحث في مقالات هيكل:

يرى الباحث أن المقالة من الأجناس الأدبية التي تحتاج إلى قراءة مفتوحة عند نقدها، بمعنى أنه لا يمكن حصر عملية النقد في منهج واحد للكشف عن جمالياتها، فلكل منهج مميزاته التي تخدم عملية النقد، فمثلاً المنهج التاريخي يوضح مراحل ظهور فن المقالة لدى الكاتب، ثم يبين التطور والتحول في مسارها الموضوعي والفني، ويحدد فترات الازدهار والركود أو الانقطاع عن الكتابة مع ذكر الأسباب، أما المنهج التحليلي فهو يتناول الفكرة واللغة، أما المنهج الوصفي فيبرز موضوعات المقالة وأنواعها، ونجد الدراسة الأسلوبية الإحصائية تهتم بمعرفة الترتيب الكمي للمقالات، ونوعية الأساليب الفنية المستخدمة في الكتابة المقالية في الجانب اللغوي.

ويمكن توظيف بعض المفاهيم السيميائية في نقد المقالة خاصة عنوانها وما يحمل من دلالات ومضامين.

كما يرى الباحث أن نوع المقالة وموضوعها هو الذي يوجه الناقد ويساعده في اختيار المنهج المناسب لكل مقالة على حدة، كما يرى أن القراءة النقدية المفتوحة هي الخيار الأمثل لما فيها من مرونة عند تطبيق النقد، وعلى هذا الأساس يسجل الباحث رأيه في مقالات هيكل وملاحظاته عليها، وهي كالتالي:

الأسلوب:

تعرض الباحث لدراسة أسلوب هيكل في هذا البحث فخرج بنتيجة مفادها أن أسلوب هيكل كان سهلاً وواضحاً وشائفاً وجذاباً ومؤثراً، وقد بنى الباحث هذا الحكم على الانسجام التام في أسلوبه بين تفكيره وثقافته وخواطره وفلسفته وعاطفته ولغته، وعلى شهادة طه حسين وعلى تأثره بأسلوب القرآن الكريم.

من الوسائل التعبيرية التي ساعدت على تميز أسلوبه، روعة الجمل ومتانة تركيبها، وثناء العبارات بالكلمات الموحية، وكان يميل هيكل في أسلوبه إلى الإيجاز، حيث جاءت الألفاظ على قدر المعاني، ولا يميل إلى الألفاظ المنمقة، وكان أحياناً قليلة يسترسل ويستترد لكن ليست هذه سمة ثابتة أو تشكل ظاهرة في أسلوبه، وكان لا يحبذ التكرار في الألفاظ، ولا يعتمد الموسيقى على حساب المعنى.

ظهرت ثقافته الواسعة والمتنوعة في أسلوبه، وكان حريصاً على دقة وصحة معلوماته، وكان يجتهد في إظهار الحقائق بجلاء.

اتسمت لغته بالسهولة والسلامة والإتقان، وكان يبتعد في لغته الصحفية عن الغريب من الألفاظ والمحسنات البديعية ليكون أقرب إلى قلوب القراء، وقد استوحى الكثير من ألفاظه من بيئته؛ خاصة عندما كان يكتب موضوعات تتعلق بحياته في الريف المصري أو بذكرياته.

بنية المقالة:

1- اتسمت عناوين مقالات هيكل بالإيجاز والجدية والجاذبية والتشويق، حيث كان حريصاً على اختيار العنوان المناسب للموضوع، وقد ربط في معظم مقالاته بين عنوان الموضوع وهدفه، واستطاع طرح عناوين فيها من الإثارة ما يجذب انتباه القارئ واهتمامه، لكن ليست هذه العناوين كلها بالمستوى نفسه، أما ألفاظ العناوين فمنها ما هو عذب ومنها ما هو عادي، وقد جاءت معظم العناوين توحى إلى الموضوع بشكل مباشر، وكان هيكل لا يعبأ بأن يقسم موضوعه إلى عناوين فرعية جانبية، فجاء الموضوع من أوله حتى نهايته كأنه صُبَّ في قالب واحد.

كانت العناوين واضحة، وأحياناً يلمس التقارب بينها على أساس التكامل، فمثلاً إذا تحدث عن التعليم العالي تحدث -أيضاً- عن التعليم العام وهكذا، وكانت هذه العناوين توحى بأن وراءها أهدافاً كبيرة، وكانت شاملة تناولت مجالات مختلفة.

2- لقد وفق هيكل في إيجاد توازن وانسجام بين شكل مقالاته ومضمونها، فلم يطغ أحدهما على الآخر، وقد استطاع أن يبني أفكاره بقالب فني يمتاز بقوة التركيب والتأثير، وقد تجاوز الزخرف اللفظي، وتمكن من تحقيق أهداف مقالاته.

استطاع هيكل أن يجعل من مقالاته في كثير من الأحيان لوحة فنية رسمها بكلماته المعبرة، ولونها بثقافته المتعددة، وزينها بعواطفه الجياشة.

برز حماس هيكل بوضوح للقضايا التي كتب فيها، وقد أورد في بعض الأحيان الآراء المخالفة لرأيه والتي لا يميل إليها، كما ظهر في مقالاته تمجيده للحضارة الأوروبية تارة، واحتقاره لها تارة أخرى بسبب ماديتها المفرطة، وقد شغلت ثقافته الغربية مساحة واسعة في مقالاته، وكان أثرها واضحاً في معظمها. وتشم في مقالاته رائحة القومية التي كان يتبناها، والإنسانية التي كان يتمناها، ولم يظهر عنده أي تعصب ديني، أما حياته السياسية فكانت متقلبة، فتارة يشارك في الحكومة، وأخرى يكون في صف المعارضة.

أثر شخصية هيكل في مقالاته:

1- عاش هيكل حياته في أجواء مختلفة، فتنقل بين بلاد العرب وبلاد الغرب، فجمع بين الثقافتين العربية والغربية، وعاصر أحداثاً سياسية كبرى، وحروباً طاحنة: الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية وسقوط فلسطين في يد اليهود، ومارس أعمالاً مختلفة في الصحافة فكان رئيس تحرير جريدة، وفي السياسة ترأس حزباً، وتولى رئاسة مجلس الشيوخ، وفي التعليم عمل وزيراً له، وكتب في موضوعات مختلفة: دينية وسياسية واجتماعية وأدبية وتاريخية وفنية وثقافية، وقد جمع في شخصيته بين الانفتاح والالتزام، كل هذا ساهم في بناء شخصيته.

أما عن الأحداث التي تناولها في مقالاته فقد واكبها وعاشها وتفاعل معها ولم ينقلها لمجرد سماعها، لكونه شخصية رسمية وازنة تتميز بالجدية والمصداقية والوعي.

2- لهيكل جمهوره من القراء يحرص دائماً على استقطابهم تجاه مقالاته، وكان يختار الموضوعات التي تهمهم، لأنه كان يعلم أثرها فيهم، وكان ينتهج الموضوعية في كل ما يكتب بعيداً عن الشعارات الجوفاء والخطب العرجاء، فالمتأمل في مقالاته يتبين مقدار الجهد الذي كان يبذله، فالكتابة عنده ليست هدفاً لذاتها، لذلك كان يعد العدة، ويبلور الفكرة ويتعمق فيها ويربطها بثقافته وعواطفه قبل أن يهجم بنشرها.

3- كان هيكل يعتز بقوميته العربية، وبهويته الوطنية، وبأتمته الإسلامية، وقد ظهرت في مقالاته من خلال الموضوعات التي تناولها أنه كان يتحسس هموم المواطن المصري: فلاحاً أو طالباً، رجلاً أو امرأة، فيعبر عنها ويبيدي موقفه منها، فهيكل كان إنسانياً قبل أن يكون صحفياً، وعلى هذا الأساس كان تعامله مع قضايا الأمتين العربية والإسلامية، لذلك يمكن القول أن هيكلاً في مقالاته حمل الآلام وعبر عن الآمال، وأفصح عن الطموح، وهو بذلك يكون قد أدى رسالته الصحفية كاملة.

4- طبيعة شخصية هيكل رغم اعتزازه بنفسه وثقته بها، توحى بأنه لم يكن أحادي الفكر، ضيق الرؤية، بل كان فيما يكتب عميقاً ثاقباً يعبر عن رأي المجموع، وقد لوحظ في كتاباته أنه كان يوازن بين البعد العقلي ومتطلبات العاطفة، وينأى بنفسه عن الانفعال والتعصب وردات الفعل.

وبعد دراسة مقالات هيكل وطبيعة شخصيته، استطاع الباحث أن يستنبط التالي:

- 1- ظهور الأثر الديني بوضوح في بعض مؤلفاته لأنها كانت ذات طابع إسلامي، بينما كان مفقوداً في مقالاته فلم يتعمق فيها في المجال الديني، فمقالاته الدينية قليلة وسطحية.
- 2- كان عام 1930م بداية تحول هيكل من الاتجاه القومي إلى الاتجاه الإسلامي، لكن يبدو أن هيكلًا بعد هذا التاريخ لم يغير في بعض أفكاره القديمة التي تمس العقيدة كمسألة حجاب المرأة، ومساواته بين الأديان، وأن فكره الجديد لم يكن إسلاميًا خالصًا، وإنما كان يشوبه شيء من أثر الثقافة الغربية والتوجه القومي.
- 3- ظهرت شخصية هيكل قوية في مقالاته، وكان صاحب موقف ورأي، لا يعرف المجاملة ولا يميل إلى المهادنة، وتغلب عليه العقلانية والموضوعية فيما يقرر، ويلمس عنده النزعة الإنسانية.
- 4- برز أثر التعصب للقومية العربية واضحًا في مقالاته، حيث كان يمقت الدولة العثمانية التي كانت تمثل الخلافة الإسلامية؛ لأنها دولة غير عربية، متهمًا إياها بالضعف، وقد حملها مسئولية تسلط الاستعمار الغربي على البلاد العربية والإسلامية لاستغلالها.
- 5- ظلت ثقة هيكل بالغرب مستمرة، وفكرة التفاهم معهم حاضرة، وكان يعتقد أن أسس الفلسفة الإسلامية والحضارة الغربية واحدة، لكن الاختلاف جاء بين المذاهب السياسية، فكان يميل إلى التعايش السلمي معهم، ويؤمن بالتعاون بين الأديان، ويرى أن الحرية ومساعدة الغرب هما السبيل إلى إنشاء حضارة عربية جديدة.

الخاتمة والنتائج

هذه رحلة استكشافية في مقالات هيكل، حاول فيها الباحث أن يتعرف على الثورة الأدبية والنقدية التي كانت تجيش في صدر هيكل، والتي اجتهد في نقلها إلى غيره من أبناء الوطن العربي هدفه في ذلك تطوير الحاضر، وتشكيل المستقبل على صورة كان يتمناها.

وخلص الباحث بعد هذه الدراسة إلى هذه النتائج:

1- كان هيكل ذا ثقافة متنوعة جمع فيها بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، وكان تأثره بالثقافة العربية أكثر لأنها ثقافته الأصلية، وقد تجلى ذلك بوضوح في نتاجه الأدبي والفكري والنقدي ومن خلال مؤلفاته ومقالاته.

2- تتسم شخصية هيكل بسعة أبعادها، ووضوح منهجها، فقد استخدم المنهج المتكامل عندما ألف كتب السيرة والتاريخ الإسلامي، وظهرت شخصية هيكل قوية في مقالاته، وكان صاحب موقف ورأي، لا يعرف المجاملة ولا يميل إلى المهادنة، وتغلب عليه العقلانية والموضوعية.

3- كان لهيكل دورٌ كبير في تطوير الصحافة المصرية، حيث يُحسب له أنه جعل المقالة الصحفية صغيرة ومركبة، وأنه طالب بالتخصص في الكتابة الصحفية، وأنه أول من أوجد التحقيق الصحفي في الصحافة المصرية، وكان يؤمن بحرية الصحافة.

4- توحى النظرة السريعة على مقالات هيكل بعدم الاتزان في أفكاره وآرائه، فتارة يبدو غربي الفكر مؤيداً ومشجعاً له، وتارة مخالفاً له مقدماً الفكر الإسلامي عليه، أما فكره القومي ففيه مزيج من الفكر الغربي وفيه نوع من التناقض، ويغلب عليه التبعية وليس الأصالة.

5- ساوى هيكل بين الأديان واتخذ موقفاً سلبياً من الحجاب، وكان يميل إلى علمانية الدولة المصرية أكثر من ميله إلى إسلاميتها.

6- كان هيكل يميل إلى النقد أكثر من ميله إلى الشعر، ويرى أن الأدب يتجه إلى الذاتية، بينما يتجه النقد إلى الموضوعية، وكان يفضل النقد الموضوعي على النقد الذاتي، وله آراء نقدية أذكت الثورة الأدبية، وقد مارس النقد النظري والتطبيقي، ووجه نقده في معظم الأجناس الأدبية من شعر ومسرح وقصة.

7- يميل هيكل إلى ضرورة العناية باللفظ والمعنى معاً، وإلى التجديد والتطور في اللغة والأدب، فالأدب في نظره فن يحمل رسالة الحق والجمال في الحياة لخدمة الناس، واللغة هي التي تعبر عن الأدب، وقد أيد التنافس بين القديم والحديث حيث حصره في الأساليب والكتابة والتعريب، ورأى في موضوع تعريب العلوم والحضارة أنه يمكن الجمع بين الألفاظ العربية القديمة وتعريب المصطلحات الأجنبية.

8- لم يتناول هيكل السرقات الشعرية عند البارودي بشكل مفصل، وكانت مبرراته لهذه السرقات عامة وفيها نوع من المجاملة، وقد خالف بعض النقاد رأي هيكل في هذا الموضوع.

9- كشف هيكل عما وراء فكرة الدعوة إلى العامية حيث بين أن من أهدافها النيل من القرآن الكريم، واللغة العربية، والبيان العربي، والتراث العربي، والتفريق بين البلاد العربية وأبناء الأمة العربية وتعزيز الانقسام بينهم، وكان من أنصار العربية الفصحى لأنه رأى فيها السبيل للتفاهم والوحدة بين أبناء الأمة العربية.

10- درجة إعجاب هيكل بالأدب الغربي والاستمتاع به تفوق درجة إعجابه بالأدب العربي والاستمتاع به، وأن إعجابه بالأدب الغربي كان شاملاً على مستوى الشكل والمضمون، أما إعجابه بالأدب العربي فقد كان جزئياً، وأن نظرتَه للأدب العربي كانت مضطربة، وحكمه عليه كان متسرعاً، وثقته به غير كاملة، وقناعته به متواضعة.

11- ساور هيكل كثير من الشكوك حول الأدب العربي القديم، لكنه اعترف بقوة أثره على مدار ألف وخمسمائة سنة، ورأى أن الحياة الإسلامية الجديدة لم تلهم الشعر العربي ولم يكن لها فيه أثر قوي واضح.

12- يرى هيكل أن الأدب العربي الحديث عند انطلاقه كان مقلداً للأدب العربي القديم، وأنه تأثر بالنثر الغربي أكثر من النثر العربي القديم، وتأثر بالشعر العربي القديم أكثر من الشعر العربي القديم، وأنه ظهرت في الوطن العربي مذاهب أدبية كانت امتداداً لمذاهب أدبية غربية.

13- برز أثر التعصب للقومية العربية واضحاً في مقالات هيكل، حيث كان يمقت الدولة العثمانية التي كانت تمثل الخلافة الإسلامية؛ لأنها دولة غير عربية، متهماً إياها بالضعف، وقد حملها مسؤولية تسلط الاستعمار الغربي على البلاد العربية والإسلامية لاستغلالها.

14- ظلت ثقة هيكل بالغرب مستمرة، وفكرة التفاهم معهم حاضرة، وكان يعتقد أن أسس الفلسفة الإسلامية والحضارة الغربية واحدة، لكن الاختلاف جاء بين المذاهب السياسية، فكان يميل إلى التعايش السلمي معهم، ويؤمن بالتعاون بين الأديان، ويرى أن الحرية ومساعدة الغرب هما السبيل إلى إنشاء حضارة عربية جديدة.

توصيات الدراسة:

إن أهم توصيات الدراسة ما يلي:

- 4- عقد موازنات نقدية بين هيكل وأقرانه من النقاد.
- 5- تناول فكر هيكل الإسلامي والسياسي بالدراسة.
- 6- دراسة الأخطاء اللغوية في مقالات محمد حسين هيكل.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين. (1995م). *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. (د.ط.). بيروت: المكتبة العصرية.
- أحمد، رفعت سيد. (1989م). *الدين والدولة والثورة*. (د.ط.). (د.م.): الدار الشرقية للطباعة والنشر والتوزيع.
- أحمد، عبد العاطي محمد. (1978م). *الفكر السياسي للإمام محمد عبده*. (د.ط.). (د.م.): الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- أحمد، محمد عبد القادر. (1988م). *دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي*. ط1. القاهرة: مكتبة النهضة.
- الأسد، ناصر الدين. (1982م). *مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية*. ط6. القاهرة: دار المعارف.
- الأسدي، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني. (1981م). *العمدة في محاسن الشعر وآدابه*. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. ط5. (د.م.): دار الجيل.
- إسماعيل، عز الدين. (1992م). *الشعر العربي المعاصر*. (د.ط.). القاهرة: المكتبة الأكاديمية.
- الأشتر، عبد الكريم. (1983م). *تعريف بالنثر العربي الحديث*. (د.ط.). دمشق: جامعة دمشق.
- أبو إصبع، صالح، وعبيد الله. محمد. (2002م). *فن المقالة: أصول نظرية - تطبيقات - نماذج*. (د.ط.). عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
- إمام، إبراهيم. (1972م). *دراسات في الفن الصحفي*. (د.ط.). القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- الأمدي، أبو القاسم. (1961م). *الموازنة*. تحقيق: السيد أحمد صقر. (د.ط.). مصر: دار المعارف.
- أمين، أحمد. (1953م). *فيض خاطر*. ط3. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

- البارودي، محمود سامي. (1942م). ديوان البارودي: المقدمة. تحقيق: علي الجارم ومحمد معروف. (د.ط.). (د.م): دار الكتب المصرية.
- بجة، زكية. (2005م). النقد التطبيقي عند الجاحظ: كتاب الحيوان نموذجًا. دراسة تاريخية وصفية (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة الموصل. العراق.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. (1422هـ). صحيح البخاري. تحقيق: محمد زهير الناصر. ط1. دار طوق النجاة. ج1/12. رقم الحديث 13.
- البقاعي، محمد خير. (1998م). آفاق التناسية المفهوم والمنظور. (د.ط.). (د.م): الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- بكار، يوسف. (1982م). بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث. ط2. بيروت: دار الأندلس.
- البنداري، حسن. وآخرون. (2009م). التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر. (د.ط.). (د.م): مجلة جامعة الأزهر بغزة. سلسلة العلوم الإنسانية. ج11. ع2.
- البيومي. (2001م). علماء ومفكرون معاصرون، محمد حسين هيكل الأديب السياسي المؤرخ ورائد الكتابة في السيرة النبوية. (د.ط.). دمشق: دار القلم.
- البيومي. (ديسمبر 2005م). قراءة في كتاب في منزل الوحي. الأزهر. (د.ط.). (د.م): مجمع البحوث الإسلامية. ج11.
- الجاحظ. (1998م). البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام هارون. ط7. (د.م): مكتبة الخالجي.
- جبور، عبد النور. (1984م). المعجم الأدبي. ط2. بيروت: دار العلم للملايين.
- الجبوري، يحيى. (1983م). الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه. ط4. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- جدعان فهمي. (1988م). أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العصر الحديث. ط3. (د.م): دار الشروق.

- الجرجاني، (1966م). *الوساطة بين المتنبي وخصومه*. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي. (د.ط.). (د.م.): مطبعة عيسى البابي.
- الجريدة. 26 أبريل. 1911م.
- الجريدة. العدد 1657 بتاريخ 21 أغسطس 1912م.
- الجريدة. العددان 1692-1693 بتاريخ 2-5 أكتوبر 1912م.
- الجريدة. من مقالة بعنوان (فوضى اللغة) ع1867. 3مايو 1913م.
- الجريدة. من مقالة بعنوان قواعد الخلق. ع1657. 21 أغسطس 1912م. نقلاً عن رسالة ماجستير بعنوان الفكر القومي عند هيكل.
- الجريدة: العدد 1158. يناير 1911م.
- الجريدة: العدد 1652. بتاريخ 25 يوليو 1912م.
- الجريدة: العدد 349 مايو 1908م. والعدد 387 يونيه 1908م.
- الجريدة: العدد 426. أغسطس 1908م.
- الجريدة: قضية المرأة - (الحجاب 5). العدد 1050 بتاريخ 21 أغسطس 1910م.
- الجريدة: من مقالة (المرأة والحجاب) العدد 498 بتاريخ 24 أكتوبر 1908م.
- الجريدة: من مقالة بعنوان (نتيجة الحب). العدد 617 بتاريخ 22 مارس 1909م.
- الجريدة: من مقالة قضية المرأة (الحجاب 10). العدد 1060 بتاريخ 2 سبتمبر 1910م.
- الجمحي، محمد بن سلام. (1974م). *طبقات فحول الشعراء*. تحقيق: محمود شاكر. (د.ط.). القاهرة: مطبعة المدني.
- الجمحي، محمد بن سلام. *طبقات فحول الشعراء*. تحقيق: محمود شاكر. (د.ط.). جدة: دار المدني.

- جمعة، حسين. (أيار 2007م). *قراءة في المقالة العربية*. مجلة الموقف الأدبي. (د.ط.). دمشق: اتحاد الكتاب العرب. العدد 433.
- الجندي، أنور. (1980م). *الصحافة والأفلام المسمومة*. ط1. (د.م): دار الاعتصام.
- الجندي، أنور. (1983م). *المعارك الأدبية في مصر منذ 1914-1939م*. (د.ط.). (د.م): دار الأنجلو المصرية.
- الجندي، أنور. (1996م). *قضايا الأدب والثقافة والفن: الكشف عن سموم كتب التغري والغزو الفكري*. (د.ط.). (د.م): دار الفضيلة.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. (1951م). *الخصائص*. تحقيق: محمد علي النجار. ط1، القاهرة: دار الكتب المصرية.
- حاوي. إيليا. (1986م). *في النقد الأدبي*. ط2. بيروت: دار الكتاب العربي.
- حسان، تمام. (2001م). *اللغة العربية معناها ومبناها*. ط1. الدار البيضاء: دار الثقافة.
- حسين، طه. (1933م). *في الأدب الجاهلي*. ط3. (د.م): دار المعارف. مطبعة فاروق.
- حسين، محمد محمد. (1956م). *الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر*. ط1. (د.م): مكتبة الآداب.
- حلمي، مصطفى. (1998م). *الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي في العصر الحديث*. (د.ط.). (د.م): دار الدعوة.
- حمزة. عبد اللطيف، (2002م). *المدخل في فن التحرير الصحفي*. ط5. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- حمزة، عبد اللطيف. وشرف، عبد العزيز. (1998م). *أدب المقالة الصحفية في مصر*. (د.ط.). (د.م): محمد حسين هيكل في جريدة السياسة اليومية. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ج9.

- الحموي، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله. (1987م). *خزانة الأدب وغاية الأرب*. تحقيق: عصام شعيتو. ط1. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
- أبو حميدة، محمد صلاح. (2006م). *دراسات في النقد الأدبي الحديث*. ط1. (د.م): (د.ن).
- حنطور، أحمد محمد علي. (1996م). *فن المقال في الأدب المصري الحديث*. ط1. طنطا: التركي للكمبيوتر وطباعة الأوفست.
- حنيف. (1964م). *البارودي رائد الشعر الحديث*. ط5. القاهرة: دار المعارف.
- حولية الجامعة الإسلامية العالمية الباكستان. (1417هـ. 1996م). *فن المقال*. (د.ط). (د.م): العدد4.
- خضور، أديب. (1991م). *مدخل إلى الصحافة نظرية وممارسة*. (د.ط). دمشق: (د.ن).
- الخفاجي، ابن سنان. (1953م). *سر الفصاحة*. تحقيق: عبد المتعال الصعيدي. (د.ط). القاهرة: مطبعة علي صبيح.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. (1988م). *المقدمة*. (د.ط). بيروت: دار ومكتبة الهلال.
- أبو خليل، شوقي. (1981م). *جورجي زيدان في الميزان*. ط2. دمشق: دار الفكر.
- خليل، عماد الدين. (1990م). *تحليل التاريخ الإسلامي إطار عام*. (د.ط). (د.م): دار الثقافة.
- الدسوقي. (2000م). *في الأدب الحديث*. (د.ط). (د.م): دار الفكر العربي.
- ديتس، ديفيد. (1967م). *مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق*. ترجمة: محمد يوسف نجم وإحسان عباس. (د.ط). بيروت: دار صادر.
- ديوان النابغة الذبياني*. (1996م). تحقيق: عباس عبد الساتر. ط3. (د.م): دار الكتب العلمية.
- أبو ذكري، السيد مرسي. (1982م). *المقال وتطوره في الأدب المعاصر*. (د.ط). (د.م): دار المعارف.
- الرافعي. (1903م). *ديوان الرافعي*. (د.ط). القاهرة: (د.ن).

- الرافعي. (1953م). *تحت راية القرآن*. (د.ط.). مصر: دار الاستقامة.
- الرافعي. (1954م). *تاريخ آداب العرب*. ط1. القاهرة: (د.ن.).
- الرافعي، محمد صادق. (1983م). *تحت راية القرآن*. (د.ط.). بيروت: دار الكتاب العربي.
- رحماني، أحمد. (1987م). *النقد التطبيقي الجمالي واللغوي في القرن الرابع الهجري*. بحث مقدم لنيل درجة الماجستير. (د.ط.). الجزائر: معهد اللغة العربية وآدابها. جامعة قسطنطينة.
- ابن رشيقي. (1981م). *العمدة في محاسن الشعر وآدابه*. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط5. بيروت: دار الجيل.
- زعموش، عمار. (أكتوبر/ديسمبر، 2001م). *مفهوم النقد الأدبي في نظر الجزائريين*. (د.ط.). الكويت: مجلة عالم الفكر. ع2. ج30. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- زكي، أحمد كمال. (1997م). *النقد الأدبي الحديث: أصوله واتجاهاته*. ط1. القاهرة: دار نوبار للطباعة.
- زلط، أحمد. (1988م). *محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية*. (د.ط.). (د.م.): الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الزواهرة. ظاهر محمد. (2003م). *التناص في الشعر العربي المعاصر*. ط1. عمان: دار الحامد.
- أبو زيد، فاروق. (1985م). *فن الكتابة الصحفية*. (د.ط.). القاهرة: عالم الكتب.
- السبكي، بهاء الدين. (2003م). *عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح*. تحقيق: د. عبد الحميد هندواي. ط1. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.
- السعافين وآخرون. (2003م). *أساليب التعبير الأدبي*. ط1. (د.م.): دار الشروق للنشر والتوزيع.
- السعدني، مصطفى. (1991م). *التناص الشعري قراءة أخرى لقضية السرقات*. (د.ط.). الإسكندرية: منشأة المعارف.

سليمان، عبد الله حسين علي. (2000م). *المقامة بين القصة والمقالة*. (د.ط.). (د.م.): دار
المصرية الإسكندرية.

السياسة الأسبوعية (1926م). 13 مارس. ع1.

السياسة الأسبوعية. العدد 461. بتاريخ 16 مارس 1946م.

السيد، عفاف لطفي. (1981م). *تجربة مصر الليبرالية*. (د.ط.). (د.م.): المركز العربي للبحث
والنشر.

الشايب، أحمد. (1998م). *الأسلوب*. ط8. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

شرارة، عبد اللطيف. (1984م). *معارك أدبية قديمة ومعاصرة*. ط1. بيروت: دار العلم
للملايين.

شرف، عبد العزيز. (1977م). *محمد حسين هيكل في نكرام*. (د.ط.). القاهرة: دار المعارف.

شرف، عبد العزيز. (2000م). *أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة*. (د.ط.). بيروت: دار
الجيل.

شرف، عبد العزيز. (2000م). *الأساليب الفنية في التحرير الصحفي*. (د.ط.). (د.م.): دار قباء
للطباعة والنشر والتوزيع.

شلق، علي. (1991م). *مراحل تطور النثر العربي في نماذج*. (د.ط.). (د.م.): دار العلم
للملايين.

شيخ أمين، بكري. (1985م). *الحركة الأدبية في المملكة السعودية*. ط4. بيروت: دار العلم
للملايين.

شيخاني، سميرة. (1999م). *أثر تكنولوجيا الاتصال والمعلومات في تطور فنون الكتابة
الصحفية*. دراسة تطبيقية على الصحافة المصرية. (د.ط.). القاهرة: السورية اليومية.

ضيف. أحمد شوقي. (د.ت.). *الأدب العربي المعاصر في مصر*. ط13. مصر: دار المعارف.

ضيف، شوقي. (1981م). *في النقد الأدبي*. ط6. مصر: دار المعارف.

- ضيف، شوقي. (2001م). *العصر العباسي الثاني*. ط12. القاهرة: دار المعارف.
- طباني، بدوي. (1962م). *البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى*. ط2. القاهرة: مكتبة الأنجلو.
- طحان، ريمون. (1972م). *الأدب المقارن*. ط1. بيروت: (د.ن).
- العاني، سامي مكي. (1983م). *الإسلام والشعر*. (د.ط). الكويت: سلسلة عالم المعرفة.
- عباس، إحسان. (1988م). *عبد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله*. ط1. (د.م): دار الشروق.
- عباس، إحسان. (1993م). *تاريخ النقد الأدبي عند العرب*. ط2. عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع.
- عبد البر، طه عبد الرحيم. (1983م). *قضايا النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق*. ط1. القاهرة: مطبعة دار التأليف.
- عبد الخالق، ربيعي. (1988م). *فن المقالة الذاتية*. ط1. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- عبد الدايم، صابر. (1983م). *مقالات وبحوث في الأدب المعاصر*. (د.ط). (د.م): دار المعارف.
- عبد الرحمن، عائشة. (1970م). *قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر*. ط2. القاهرة: دار المعارف.
- عبد العزيز، سعد. (1987م). *إبداع الشبان وإبداع الشيخ في دنيا الأدب*. (د.ط). (د.م): الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- عبد العزيز، محمد حسين. (1978م). *لغة الصحافة المعاصرة*. (د.ط). مصر: دار المعارف.
- عبد الله، محمد حسين. (1990م). *دراسات في الفكر الإسلامي*. (د.ط). (د.م): المكتبة الوطنية.

- عبد المجيد، حنان محمد. (2011م). *التغير الاجتماعي في الفكر الإسلامي الحديث*. دراسة تحليلية نقدية. ط1. الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- العبد، يماني. (شباط-1985م). *في معرفة النص*. دراسات في النقد الأدبي. ط3. لبنان بيروت: المركز الثقافي العربي.
- عتيق، عبد العزيز. (د.ت). *في البلاغة العربية، علم المعاني-البيان-البيدع*. (د.ط). بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- عتيق، عبد العزيز. (1973م). *في النقد الأدبي*. (د.ط). بيروت: دار النهضة العربية.
- العربي، الحسن درويش. (1991م). *النقد العربي القديم: مقاييسه واتجاهاته وأعلامه ومصادره*. (د.ط). القاهرة: دار الاتحاد العربي للطباعة.
- عزام، محمد. (2001م). *النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي*. (د.ط). دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. (1986م). *كتاب الصناعتين*. تحقيق: علي محمد البجاوي وآخر. (د.ط). بيروت: المكتبة العصرية.
- العشماوي، محمد زكي. (1997م). *دراسات في النقد الأدبي المعاصر*. (د.ط). مصر: دار المعرفة الجامعية.
- العف، عبد الخالق. (2000م). *التشكيل الجمالي في الشعر الفلسطيني المعاصر*. ط1. (د.م): مطبوعات وزارة الثقافة.
- العف، عبد الخالق. (2000م). *التشكيل الجمالي في الشعر الفلسطيني المعاصر*. ط1. فلسطين: مطبوعات وزارة الثقافة.
- العقاد، عباس محمود. (1946م). *يسألونك*. ط1. (د.م): مطبعة مصر.
- العقاد، عباس محمود. (1981م). *يسألونك*. ط3. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.
- علي، أدهم. (1979م). *على هامش الأدب والنقد*. (د.ط). مصر: دار المعارف.

علي، عبد الرحمن عبد الحميد. (2008م). *معالم المقال الأدبي والصحفي*. (د.ط.). القاهرة: دار الكتاب الحديث.

علي، محمد كرد. (1934م). *الإسلام والحضارة الغربية*. (د.ط.). القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.

أبو علي، نبيل. (يوليو-1994م). *بحث بعنوان: كتاب الموازنة عرض ونقد*. مجلة الجامعة الإسلامية بغزة. مج2. ع2.

العوين، محمد. (1992م). *المقالة في الأدب السعودي الحديث*. ط1. الرياض: مطابع الشرق الأوسط.

عيد، رجاء. (1995م). *القول الشعري منظورات معاصرة*. (د.ط.). (د.م.): مؤسسة المعارف للطباعة والنشر.

الغدامي، عبد الله. (1993م). *ثقافة الأسئلة في مقالات النقد والنظرية*. ط2. الكويت: دار سعاد الصباح.

غ. تشر، نيسفلسكي. (1986م). *علاقات الفن الجمالية بالواقع*. (د.ط.). بيروت: مجلة فلسطين الثورة. ع202.

غريب، روز. (1971م). *تمهيد في النقد الحديث*. (د.ط.). بيروت: دار المكشوف.

فروخ، عمر. (1961م). *القومية الفصحى*. ط1. بيروت: (د.ن.).

الفيروز آبادي، مجد الدين. (2005م). *القاموس المحيط*. تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. إشراف: محمد نعيم العرق سوسي. ط8. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

فيصل، شكري. (نو القعدة. 1391هـ. يناير 1972م). *الأصالة والتجديد في المقال الأدبي*. (د.ط.). دمشق: مجلة مجمع اللغة العربية.

قاسم، عدنان. (1989م). *لغة الشعر العربي*. ط1. الكويت: مكتبة دار الفلاح.

- القرشي، أبو محمد بن أبي الخطاب. *جمهرة أشعار العرب*. تحقيق: علي محمد البجادي. (د.ط.). (د.م): نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- القرطبي، شمس الدين. (1964م). *الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)*. تحقيق: أحمد البردوني وآخر. ط2. القاهرة: دار الكتب المصرية.
- القط، عبد القادر. (1987م). *في الشعر الإسلامي والأموي*. (د.ط.). بيروت: دار النهضة العربية.
- قطب، سيد. (1993م). *السلام العالمي والإسلام*. ط12. (د.م): دار الشروق.
- كريم، سامح. *معارك طه حسين الأدبية والفكرية*. (د.ط.). بيروت: دار القلم.
- المجذوب، محمد. (1988م). *أدب ونقد*. ط1. القاهرة: دار الاعتصام.
- مجلة الثقافة. العدد 214. 1943/2/2م.
- مجلة الثقافة. العدد 36. 1945/5/5م.
- مجلة الثقافة. من مقالة لأميل توفيق. العدد 100. يناير 1982م.
- المحامي، محمد كامل حسن. (1977م). *ابن خلدون العبقرى الذي ظلمه العرب وأنصفه الغربيون*. ط2. بيروت: المكتب العالمي للطباعة والنشر.
- محمد، حسين علي. (1425هـ). *التحرير الأدبي*. ط2. الرياض: مكتبة العبيكان.
- محمد، عبد الحي. (1905م). *التنظير النقدي والممارسة الإبداعية*. ط1. الإسكندرية: منشأة المعارف.
- محمد، عوض محمد. (1959م). *محاضرات عن فن المقالة*. (د.ط.). القاهرة: معهد الدراسات العربية.
- المحمود، جمال الجاسم. (2008م). *مقال فن المقالة*. مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية. ج24. ع1.

- مرتاض، عبد المالك. (2007م) *في نظرية النقد*. ط1. (د.م): المجلس الأعلى للثقافة.
- مرزوق، حلمي. (1983م). *تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين*. ط1. الإسكندرية: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع.
- مسلم، ابن الحجاج القشيري النيسابوري. (د.ت). *صحيح مسلم*. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. (د.ط). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- مصطفى، إبراهيم وآخرون. (2004م) *المعجم الوسيط*. ط4. (د.م): مكتبة الشروق الدولية.
- مصطفى، فائق وآخر. (1989م). *في النقد الأدبي الحديث: منطلقات وتطبيقات*. ط1. العراق: مديرية دار الكتب للطباعة والنشر.
- مفتاح، محمد. (1985م). *تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)*. ط1. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.
- المقدسي، أنيس. (1963م). *الفنون الأدبية وأعلامها*. ط1. بيروت: دار الكتاب العربي.
- مندور، محمد. (1996م). *النقد المنهجي عند العرب*. ط1. (د.م): نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. (1993م). *لسان العرب*. ط3. بيروت: دار صادر.
- مهنا، عبد. (1994م). *ديوان حسان بن ثابت*. ط2. (د.م): دار الكتب العلمية.
- الموجي، سامح. (يوليو-2003م). *قراءة النقد عند جابر عصفور*. (د.ط). القاهرة: مجلة أدب ونقد. ع215.
- موسى، إبراهيم نمر. (2005م). *آفاق الرؤية الشعرية*. دراسات في أنواع التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر. ط1. (د.م): وزارة الثقافة الفلسطينية.
- موسى، أحمد إبراهيم. (1969م). *الصبغ البيدي في اللغة العربية*. (د.ط). القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

الموسى، خليل. (1999م). البارودي رائد النهضة الشعرية الحديثة. ط1. دمشق: دار ابن كثير.

موسى، سلامة. (1964م). البلاغة العصرية واللغة العربية. ط4. القاهرة: مطبعة سلامة موسى للنشر والتوزيع.

ناجي، مجيد عبد الحميد. (1984م). الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية. ط1. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات.

ابن نبي، مالك. (1977م). دور المسلم ورسائله في الثلث الأخير من القرن العشرين. ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة.

نجم، محمد. (1966م). فن المقالة. ط4. بيروت: دار الثقافة.

ندا، طه. (1996م). الأدب المقارن، (د.ط.). (د.م.): دار المعرفة الجامعية.

أبو ندى، وليد. (1998م). فن المقالة عند ميخائيل نعيمة. رسالة دكتوراة.

نصر، عاطف. (1987م). الرمز الشعري عند الصوفية. ط1. بيروت: دار الأندلس.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. (2004م). نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق: مفيد قمحية وآخرون. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

هلال، علي الدين. (1975م). التجديد في الفكر السياسي العربي الحديث. (د.ط.). (د.م.): معهد الدراسات العربية.

هلال، محمد غنيمي. (د.ت.). الأدب المقارن. ط5. بيروت: دار العودة ودار الثقافة.

هيكل. (1953م). مذكرات في السياسة المصرية. (د.ط.). (د.م.): مطبعة مصر.

هيكل. (2012م). في منزل الوحي. (د.ط.). (د.م.): مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

هيكل، أحمد محمد حسين. (2003م). مقالات محمد حسين هيكل. ط1. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

- هيكّل، محمد حسين. (د.ت). *جان جاك روسو حياته وكتبه*. ط4. (د.م): دار المعارف.
- هيكّل، محمد حسين. (1953م). *مذكرات في السياسة المصرية*. (د.ط). (د.م): مطبعة مصر.
- هيكّل، محمد حسين. (1965م). *ثورة الأدب*. ط3. (د.م): مكتبة النهضة المصرية.
- هيكّل، محمد حسين. (1969م). *الحكومة الإسلامية*. ط2. القاهرة: دار المعارف.
- هيكّل، محمد حسين. (1969م). *حياة محمد*. ط10. القاهرة: دار المعارف.
- هيكّل، محمد حسين. (1969م). *في أوقات الفراغ*. (د.ط). (د.م): دار المعارف.
- هيكّل، محمد حسين. (1978م). *الإيمان والمعرفة والفلسفة*. (د.ط). (د.م): دار المعارف.
- هيكّل، محمد حسين. (1978م). *ثورة الأدب*. (د.ط). القاهرة: دار المعارف.
- الهيهيوي. (1358هـ). *الطبع والصناعة في الشعر*. (د.ط). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- وادي، طه. (1969م). *محمد حسين هيكّل وتراثه الأدبي*. (د.ط). القاهرة: مطبعة النهضة المصرية.
- وادي، طه. (1996م). *هيكّل رائد الرواية السيرة والتراث*. ط2. القاهرة: دار النشر للجامعات.
- وعد الله، ليديا. (2005م). *التناص المعرفي في شعر عز الدين المناصرة*. ط1. الأردن: دار مجدلاوي.
- اليعقوبي، علي يوسف. (2014م). *فصول في النقد الأدبي القديم*. ط1. (د.م): (د.ن).